



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغفلة



الرأيا
عليكم يا صابغين

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

آية الله العظمى شهاب الدين

العلماء الثلاثة

شرح مختصر على شرح الأعلام

مناهج كبرى في الفقه
إعداد: محمد بن محمد

دار الفکر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه

كاتب:

آيت الله العظمى ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٨	نفحات الولاية (شرح عصرى جامع لنهج البلاغه) المجلد ٥
١٨	اشاره
١٩	اشاره
٢٣	الخطبه المأه واحدى عشره
٢٣	اشاره
٢٣	نظره إلى الخطبه
٢٥	القسم الأول: الدنيا الغراره!
٢٩	القسم الثانى: الدنيا كل يوم بلباس
٣٣	القسم الثالث: الدنيا سند هس حاوى!
٣٧	القسم الرابع: تأملوا الماضى قليلاً
٤٣	القسم الخامس: الاعترار بالموتى
٤٣	اشاره
٤٨	تأملان
٤٨	١ - سبل مواجهه التعلق بالدنيا
٥٠	٢ - الرد على سؤال
٥١	الخطبه المأه و إثننا عشره
٥١	اشاره
٥١	نظره إلى الخطبه
٥٣	أيما تكونوا يدرككم الموت
٥٤	تأملات
٥٤	١ - ملك الموت أم ملائكه الموت
٥٥	٢ - كيفيه قبض الأرواح
٥٧	الخطبه المأه ثلاثه عشره

٥٧	اشاره
٥٧	نظره إلى الخطبه
٥٩	القسم الأول: التحذير من الدنيا
٦٣	القسم الثاني: صفات الزهّاد في الدنيا
٦٧	القسم الثالث: العود على ذم أصحاب الدنيا
٧١	الخطبه المأه و أربه عشره
٧١	اشاره
٧١	نظره إلى الخطبه
٧٣	القسم الأول: الثقة القتيمة
٧٣	اشاره
٧٦	تأمل
٧٦	أسس الموقفيه والنجاه
٧٧	القسم الثاني: أعظم الفضائل
٨١	القسم الثالث: العبر والاعتبار
٨٧	القسم الرابع: الحرص على الدنيا
٨٧	اشاره
٩٣	تأملات
٩٣	١ - غرور عن بعد ورعب من قرب
٩٤	٢ - الدنيا وآراء الناس
٩٥	٣ - كيف نبحت عن سعادته الآخرة في الدنيا؟
٩٧	الخطبه المأه و خمسه عشره
٩٧	اشاره
٩٧	نظره إلى الخطبه
٩٩	القسم الأول: الأمل بالله في القحط والجفاف
١٠٣	القسم الثاني: اللهم أمطرنا بوابل رحمتك
١٠٣	اشاره

- ١٠٦----- تفسير ما فى هذه الخطبه من الغريب
- ١٠٧----- تأملان
- ١٠٧----- ١ - صلاه الاستسقاء
- ١٠٨----- ٢ - الذنب وزوال البركه
- ١١١----- الخطبه المأه و سادسه عشره
- ١١١----- اشاره
- ١١١----- نظره إلى الخطبه
- ١١٣----- القسم الاؤل: عدم التوانى فى الجهاد
- ١١٥----- القسم الثانى: الآفات المظلمه من ورائكم
- ١١٥----- اشاره
- ١١٧----- مظلوميه أمير المؤمنين على عليه السلام
- ١١٩----- القسم الثالث: الانتقام الإلهى
- ١١٩----- اشاره
- ١٢١----- من هو الحجاج؟
- ١٢٣----- الخطبه المأه و سبعة عشره
- ١٢٣----- اشاره
- ١٢٣----- نظره إلى الخطبه
- ١٢٥----- الفكر والاعتبار
- ١٢٧----- الخطبه المأه و ثامنه عشره
- ١٢٧----- اشاره
- ١٢٧----- نظره إلى الخطبه
- ١٢٩----- الأصحاب الأوفياء
- ١٣٠----- الثناء على الأصحاب
- ١٣٣----- الخطبه المأه و تاسعه عشره
- ١٣٣----- اشاره
- ١٣٣----- نظره إلى الخطبه

١٣٥	القسم الأول: المخلفون الضعفاء والجهال
١٣٩	القسم الثاني: لولا رجاء الشهادة
١٣٩	اشاره
١٤١	القلوب الواعيه
١٤٣	الخطبه المأه و عشرون
١٤٣	اشاره
١٤٣	نظره إلى الخطبه
١٤٥	المواعظ القيمه
١٥١	الخطبه المأه والحادى العشرون
١٥١	اشاره
١٥١	نظره إلى الخطبه
١٥٣	القسم الأول: الداء وليس الدواء
١٥٧	القسم الثاني: إخوتى فى الجهاد
١٦١	القسم الثالث: الحذار من وساوس الشيطان
١٦٣	الخطبه والثانيه والعشرون
١٦٣	اشاره
١٦٣	نظره إلى الخطبه
١٦٥	القسم الأول: كيف وقعتم فى فخ العدو
١٦٥	اشاره
١٦٩	نبذه عن شخصيه معاويه
١٧١	القسم الثاني: بذلنا ما فى الوسع من أجل الوحده
١٧٣	الخطبه المائه والثلاثه والعشرون
١٧٣	اشاره
١٧٣	نظره إلى الخطبه
١٧٥	القسم أول: شكر القدره
١٧٥	اشاره

١٧٧	الشهادة عرس الأبطال
١٧٩	القسم الثاني: عاقبه السوء
١٨١	الخطبه المأه و الرابعه والعشرون
١٨١	اشاره
١٨١	نظره إلى الخطبه
١٨٣	القسم الأول: سبع وصايا في فنون القتال
١٨٩	القسم الثاني: الجنه تحت ظلال السيوف
١٩٣	القسم الثالث: القضاء على آخر معاقل العدو
١٩٧	الخطبه المأه والخامسه والعشرون
١٩٧	اشاره
١٩٧	نظره إلى الخطبه
١٩٩	القسم الأول: الرد على الخوارج
١٩٩	اشاره
٢٠١	قضيه التحكيم
٢٠٥	القسم الثاني: لستم من أهل الجهاد
٢٠٥	اشاره
٢٠٩	تأملان
٢٠٩	١ - عهد صفين
٢٠٩	٢ - حوار الإمام عليه السلام مع الخوارج
٢١٣	الخطبه المأه والسادسه والعشرون
٢١٣	اشاره
٢١٣	نظره إلى الخطبه
٢١٥	المنصب والعداله
٢١٧	بحث في اسلوب تقسيم العطاء
٢٢١	الخطبه المأه والسابعه والعشرون
٢٢١	اشاره

- ٢٢١ نظره إلى الخطبه
- ٢٢٣ القسم الأول: العنف الهمجي للخوارج
- ٢٢٣ اشاره
- ٢٢٥ تأملات
- ٢٢٥ ١ - الخوارج وتكفير أهل الذنوب
- ٢٢٦ ٢ - جانب من جنایات الخوارج
- ٢٢٧ ٣ - الردّ على سؤال
- ٢٢٩ القسم الثاني: شر الناس
- ٢٢٩ اشاره
- ٢٣٢ تأملات
- ٢٣٢ ١ - الحذر من الإفراط والتفريط
- ٢٣٣ ٢ - يد الله مع الجماعة
- ٢٣٣ ٣ - شرار الخلق
- ٢٣٨ القسم الثالث: انحراف الحكمين
- ٢٣٨ اشاره
- ٢٤٠ تأمل
- ٢٤٠ دروس التحكيم
- ٢٤٢ الخطبه المأه والثامنه والعشرون
- ٢٤٢ اشاره
- ٢٤٢ نظره إلى الخطبه
- ٢٤٤ القسم الأول: الفتنة المرعبه بالمرصاد
- ٢٤٤ اشاره
- ٢٤٦ تأمل: قيام صاحب الزنج
- ٢٥٠ القسم الثاني: نبوءه أخرى
- ٢٥٠ اشاره
- ٢٥٢ فتنة المغول

- ٢٥٤ القسم الثالث: الغيب لله ولكن... .
- ٢٥٤ اشاره
- ٢٥٦ وهنا لابد من طرح هذه الأسئلة
- ٢٥٧ علم الغيب في الآيات والروايات
- ٢٦٠ الخطبه المأه والتاسعه والعشرون
- ٢٦٠ اشاره
- ٢٦٠ نظره إلى الخطبه
- ٢٦٢ القسم الأول: التحذير من الفساد الاجتماعى
- ٢٦٦ القسم الثانى: أين الأخيار؟
- ٢٦٦ اشاره
- ٢٦٩ شكوى أهل الزمان
- ٢٧٠ الخطبه المأه والثلاثون
- ٢٧٠ اشاره
- ٢٧٠ نظره إلى الخطبه
- ٢٧٢ القسم الأول: أبو ذر رحمه الله بطل مقارعه الفساد
- ٢٧٢ اشاره
- ٢٧٤ تأملات
- ٢٧٤ ١ - من هو أبو ذر رحمه الله
- ٢٧٧ ٢ - أبو ذر رحمه الله والاشتراكيه
- ٢٧٩ ٣ - العاقبه المريره لأبى ذر
- ٢٨٠ ٤ - كلمات المؤدعين لأبى ذر
- ٢٨٢ الخطبه المأه والحاديه والثلاثون
- ٢٨٢ اشاره
- ٢٨٢ نظره إلى الخطبه
- ٢٨٤ القسم الأول: لستم من الأصحاب الأخيار
- ٢٨٤ اشاره

- ٢٨٦ العوامل الرئيسي للفشل
- ٢٨٨ القسم الثاني: الهدف هو إقامة الحق وبسط العدل
- ٢٩٢ القسم الثالث: شرائط حكّام العدل
- ٢٩٢ اشاره
- ٢٩٤ آفه الحكومات
- ٢٩٤ الخطبه المأه والثانيه والثلاثون
- ٢٩٤ اشاره
- ٢٩٤ نظره إلى الخطبه
- ٢٩٨ القسم الأول: صفات الله الخاصه
- ٣٠٠ القسم الثاني: نزول الموت؟
- ٣٠٤ القسم الثالث: ممر يعرف باسم الدنيا
- ٣٠٤ اشاره
- ٣٠٥ نتيجته الخطبه
- ٣٠٨ الخطبه المأه والثالثه والثلاثون
- ٣٠٨ اشاره
- ٣٠٨ نظره إلى الخطبه
- ٣١٠ القسم الأول: انقياد ما فى الدنيا لله
- ٣١٠ اشاره
- ٣١١ اسجام الآيات والروايات
- ٣١٤ القسم الثاني: إعجاز القرآن
- ٣١٤ اشاره
- ٣١٥ القرآن الناطق
- ٣١٤ القسم الثالث: رساله خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله
- ٣١٨ القسم الرابع: الدنيا غايه بصر الأعمى
- ٣١٨ اشاره
- ٣١٩ التعامل مع الدنيا

٣٢٢	القسم الخامس: أهميه القرآن و دور عباده الدنيا فى الصراعات
٣٣٠	الخطبه المأه والرابعه والثلاثون
٣٣٠	اشاره
٣٣٠	نظره إلى الخطبه
٣٣٢	الحضور الخطير
٣٣٤	تأملات
٣٣٤	١ - الرد على سؤال
٣٣٥	٢ - شبهه أخرى
٣٣٥	٣ - الأمانه فى الاستشاره
٣٣٦	٤ - إستنتاج خاطيء
٣٣٨	الخطبه المأه والخامسه والثلاثون
٣٣٨	اشاره
٣٣٨	نظره إلى الخطبه
٣٤٠	أنت عاجز
٣٤١	سلوك الإمام عليه السلام تجاه الفرد العديم المنطق
٣٤٢	الخطبه المأه والسادسه والثلاثون
٣٤٢	اشاره
٣٤٢	نظره إلى الخطبه
٣٤٤	أنصف المظلوم من الظالم
٣٤٦	الخطبه المأه والسابعه والثلاثون
٣٤٦	اشاره
٣٤٦	نظره إلى الخطبه
٣٤٨	القسم الأول: الحاقدون الظالمون
٣٥٢	القسم الثانى: إصراركم على البيعه
٣٥٢	اشاره
٣٥٢	القاتل يطالب بالتأمر

٣٥٦	الخطبه المأه والرابعه والثلاثون
٣٥٦	اشاره
٣٥٦	نظره إلى الخطبه
٣٥٨	القسم الأول: خصائص الإمام المهدي عليه السلام
٣٦٠	القسم الثاني: جانب من الحوادث المرعبه آخر الزمان
٣٦٢	القسم الثالث: خصائص ذلك الحاكم الدموي
٣٦٦	الخطبه المأه والتاسعه والثلاثون
٣٦٦	اشاره
٣٦٦	نظره إلى الخطبه
٣٦٨	تحذير من الحوادث المستقبلية
٣٧٠	جذور الفساد
٣٧٢	الخطبه المأه والأربعون
٣٧٢	اشاره
٣٧٢	نظره إلى الخطبه
٣٧٤	القسم الأول: التغابي عن عيوب الذات
٣٧٦	القسم الثاني: اقتفاء العيوب جحود عظيم
٣٧٦	اشاره
٣٧٧	الغيبه والبحث عن العيوب آفه المجتمعات الإنسانيه
٣٨٢	الخطبه المأه والحاديه والأربعون
٣٨٢	اشاره
٣٨٢	نظره إلى الخطبه
٣٨٤	المسافه بين الحق الباطل
٣٨٦	درس أخلاقي رفيع
٣٨٨	الخطبه المأه والحاديه والأربعون
٣٨٨	اشاره
٣٨٨	نظره إلى الخطبه

- ٣٩٠ القسم الأول: المعروف في موضعه
- ٣٩٢ القسم الثاني
- ٣٩٤ الخطبه المأه والثلاثه والاربعون
- ٣٩٤ اشاره
- ٣٩٤ نظره إلى الخطبه
- ٣٩٨ القسم الأول: درس في التوحيد والأخلاق
- ٤٠٠ القسم الثاني: الذنب وقته البركه
- ٤٠٠ اشاره
- ٤٠١ جانب من فلسفه البلاء
- ٤٠٤ القسم الثالث: إلهي أمطرنا مطراً مباركاً
- ٤٠٤ اشاره
- ٤٠٧ سل الله كل شيء
- ٤٠٨ الخطبه المأه والرابعه والاربعون
- ٤٠٨ اشاره
- ٤٠٨ نظره إلى الخطبه
- ٤١٠ القسم الأول: فلسفه الإمتحان الإلهي
- ٤١٤ القسم الثاني: منزله الولايه
- ٤١٤ اشاره
- ٤١٥ قبسات من علم على عليه السلام
- ٤١٧ روايه أن الأئمه من قريش
- ٤١٨ منزله بنى هاشم في الإسلام
- ٤٢٠ القسم الثالث: هؤلاء الجفاه يحرقون الأخضر واليابس
- ٤٢٢ القسم الرابع: دعاه الحق و أتباع الشيطان
- ٤٢٤ الخطبه المأه والخامسه و الأربعون
- ٤٢٤ اشاره
- ٤٢٤ نظره إلى الخطبه

- ٤٢٦ القسم الأول: تضارب نعم الدنيا
- ٤٣٠ القسم الثاني: موت السنن بظهور البدع
- ٤٣٤ الخطبه المأه والسادسه والأربعون
- ٤٣٤ اشاره
- ٤٣٤ نظره إلى الخطبه
- ٤٣٦ القسم الأول: الالتصاق بمركز الدوله
- ٤٣٦ اشاره
- ٤٣٩ فائده
- ٤٤٠ القسم الثاني: الكثره لا تسبب النصر
- ٤٤٠ اشاره
- ٤٤١ معركة القادسيه ونهاوند
- ٤٤٤ الخطبه المأه والسابعه والأربعون
- ٤٤٤ اشاره
- ٤٤٤ نظره إلى الخطبه
- ٤٤٦ القسم الأول: تجلى الله لعباده فى القرآن
- ٤٤٦ اشاره
- ٤٤٨ كيفيه تجلى الله فى القرآن
- ٤٥٠ القسم الثاني: لا يبقى من القرآن سوى اسمه
- ٤٥٠ اشاره
- ٤٥٣ تأملان
- ٤٥٣ ١- أبشع عصور الإسلام
- ٤٥٥ ٢- التاريخ يعيد نفسه
- ٤٥٦ القسم الثالث: أسباب شقاء الإنسان
- ٤٥٨ القسم الرابع: سبيل النجاه
- ٤٥٨ اشاره
- ٤٦١ تأمل: معرفه الأشياء بأضدادها

- ٤٦٢ الخطبه المأه والثامنه والأربعون
- ٤٦٢ اشاره
- ٤٦٢ نظره إلى الخطبه
- ٤٦٤ الإتحاد الظاهري والعداء الباطنى
- ٤٦٧ تأمل: أصدقاء الأمس وأعداء اليوم
- ٤٦٨ الخطبه المأه والتاسعه والأربعون
- ٤٦٨ اشاره
- ٤٦٨ نظره إلى الخطبه
- ٤٧٠ القسم الأول: إستحاله الهروب من الموت
- ٤٧٢ القسم الثانى: وصيته الإمام عليه السلام
- ٤٧٦ القسم الثالث: معرفتى بعد موتى
- ٤٨٠ الخطبه المأه والخمسون
- ٤٨٠ اشاره
- ٤٨٠ نظره إلى الخطبه
- ٤٨٢ القسم الأول: إنتظام كل شىء فى ظل وجوده
- ٤٨٢ اشاره
- ٤٨٥ تأمل: قطعيه قيام المهدي الموعود عليه السلام
- ٤٨٦ القسم الثانى: خصائص أنصار النبى صلى الله عليه و آله
- ٤٨٨ القسم الثالث: العوده إلى القيم الجاهليه
- ٤٨٨ اشاره
- ٤٩٠ تأمل: مصير جاحدوا الولايه
- ٤٩٢ حسن الختام
- ٤٩٣ تعريف مركز

عنوان و نام پديد آور: نفحات الولاية: شرح عصرى جامع نهج البلاغه المجلد ۵ / ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمدانى.

مشخصات نشر: رقم: مدرسه الامام على ابن ابى طالب (ع)، ۱۴۲۶ق. = ۱۳۸۴.

مشخصات ظاهرى: ۱۰ ج.

شابك: ۳۰۰۰۰ ريال: دوره ۹۵۸-۸۱۳-۹۶۴-X؛ ج. ۱ ۹۰۷-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۲ ۹۰۸-۸۱۳-۹۶۴-۳؛ ج. ۳ ۹۶۴-۸۱۳-۹۱۷-۲؛ ج. ۴ ۹۱۸-۸۱۳-۹۶۴-۰؛ ج. ۵ ۹۴۱-۸۱۳-۹۶۴-۵؛ ج. ۶ ۹۷۸-۵۳۳-۹۶۴-۱۲۰-۵؛ ج. ۷ ۹۷۸-۵۳۳-۹۶۴-۱۲۱-۲؛ ج. ۸ ۹۷۸-۵۳۳-۹۶۴-۱۲۲-۹؛ ج. ۹ ۹۷۸-۵۳۳-۹۶۴-۱۲۳-۶؛ ج. ۱۰ ۹۷۸-۵۳۳-۹۶۴-۱۲۴-۳.

يادداشت: عربى.

يادداشت: ج ۱-۵ (چاپ دوم: ۱۳۸۴).

يادداشت: ج. ۶-۱۰ (چاپ اول: ۱۴۳۲ق. = ۱۳۹۰).

يادداشت: كتابنامه.

مندرجات: ج. ۶. من خطبه ۱۵۱ الى ۱۸۰-ج. ۷. من خطبه ۱۸۱ الى ۲۰۰-ج. ۸. من خطبه ۲۰۱ الى ۲۴۱-ج. ۹. من رساله ۱ الى ۳۱-ج. ۱۰. من رساله ۳۲ الى ۵۳

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق -- خطبه ها

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- كلمات قصار

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. -- نامه ها

موضوع: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. نهج البلاغه -- نقد و تفسير

شناسه افزوده: حمرانى، عبدالرحيم

شناسه افزوده: على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ۲۳ قبل از هجرت - ۴۰ق. نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۳۸/۰۲ BP / م ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ٥

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي ذَمِّ الدُّنْيَا

نظره إلى الخطبه

تحدثت هذه الخطبه بصوره عامه - كما ورد في عنوانها عن ذم الدنيا، الدنيا التي تغرق الإنسان في لذاتها وزخارفها الزائله اللامشروع، ومتعها الرخيصه، بحيث يتناسى الله والخلق ومصيره وعاقبته، الدنيا التي تغيب فيها معاني القيم والمثل ولا يعد فيها من مفهوم للحلال والحرام والظلم والعدل.

والخطبه التي نحن بصددھا على أقسام:

القسم الأول: فيها يتعرض إلى خداع الدنيا وغرورها وزبرجھا وظاهرھا الأجوف الذي لا باطن له.

القسم الثاني: فيتناول تقلب أحوال الدنيا وعدم ثباتها، إلى جانب الحديث عن النعم التي قد تتبدل نقماً والنجاحات التي تتحول فشلاً.

القسم الثالث: خاض عليه السلام في بيان فناء الدنيا وزوالها، حيث تضمن عبارات رائعه مؤثره

ص: ٥

١- ١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه طائفه من الأعلام ممن عاشوا قبل وبعد المرحوم السيد الرضى ومنهم: ابن شعبه الحراني في «تحف العقول»، وابن طلحه الشافعي في «مطالب السؤل»، ومحمد بن عمران المرزباني في «الموفق»، كما فسّر ابن أثير ما صعب من مفرداتها في كتابه «النهايه»، إلا أنّ هناك اختلافاً في نقله مع بعض عبارات هذه الخطبه (مصادر نهج البلاغه ٢/١٤٤) [١] وقال ابن أبي الحديد حين شرحه لهذه الخطبه: نقل هذه الخطبه أيضاً أبو عثمان الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين» (شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٧/٢٣٦).

تكشف النقاب عن حقيقه هذا الأمر.

القسم الرابع: فكأنه يأخذ بيد الناس ويغوص بهم فى أعماق تاريخ الماضيين، والعاقبه المريره التى طالت الأقوام من ذات القوّه والسطوه لتهز عروشهم وتحيلهم أجساداً خاويه قبرت تحت التراب.

وأخيراً القسم الخامس: الذى تطرق إلى الموت والأموات الذين عاشوا دهرًا بيننا بذلك النشاط والحيويه وقد ذاع صيتهم ليعمّ الأرجاء، والحال قد ذهبت تلك الحيويه أدراج الرياح وتبدل ذلك النشاط إلى خمول وضمور بعد أن اتاهم الموت وأحال أجسادهم تراباً.

هذا وقد أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبه بعبارات لطيفه بالغه التأثير شأنها إيقاظ أسوأ الأفراد الذين يغطون فى سبات الغفله ونفث النور والأمل فى أوراخهم المظلمه البائسه.

ص: ٦

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمْ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْأَمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ. لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤَمِّنُ فَجَعَتُهَا. غَرَارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِثَةٌ بَائِثَةٌ، أَكَّالَةٌ عَوَّالَةٌ. لَا تَعِيدُو - إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى أُمَّتِيهِ أَهْلِ الرِّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا - أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى سُبْحَانَهُ: «كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا».

الشرح والتفسير

إستهل الإمام عليه السلام الخطبه بتحذير الجميع من هذه الدنيا الفانيه والغراره، ثم أَمَط اللثام عن ماهيه واقعها وحقيقتها من خلال وصفها والتعرض لغرورها وخداعها بثمان عشره عباره، فقال عليه السلام أحذر كم من هذه الدنيا ذات الظاهر اللطيف الذى إنطوى على اللذات والشهوات، الأمر الذى يجعلها تشد إليها الأنظار بفعل عينيتها ومثولها للإنسان رغم ضحاله نعمها وتفاهتها، إلّا أنّها تحلّت بالآمال وتزيّنت بالغرور لتسوق إليها هذا الإنسان:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمْ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ

بِالْعَاجِلِهِ، وَرَاقَتْ (١) بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْأَمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ» .

فالإمام عليه السلام يرى خداع الدنيا في حلّ ظاهرها المحفوف بالشهوات، فهي محببه إلى النفوس كونها ماثله للعيان ملموسه، وهذا هو المعنى المراد من العبارة «تَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلِهِ» .

أمّا العبارة «رَاقَتْ بِالْقَلِيلِ»، فهي إشارة إلى أنّ الدنيا قد زينت متاعها القليل بالشكل الذى جعلها تستقطب قلوب عبده الدنيا المتكالبين على حطامها.

بينما أشارت العبارات «تَحَلَّتْ بِالْأَمَالِ» إلى زيف هذه الزينه التى تحلّت بها الدنيا، حيث تفتقر إلى الواقع، بل زينت مظهرها بالآمال والخيالات الفارغه الزائفة، وهذا هو المعنى الذى أكدته العبارة «تَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ»، فرصيدها الرئيسى الذى يشكل عنصر التزيين إنّما هو الغرور الخداع، ولعل الوقوف على عمق هذا المعنى يتجسد من خلال النظر من بعيد إلى قصور الملوك وسلطتهم الظاهريه المرعبه، وسعه حجم أموالهم و ثرواتهم، وأببه وجلال مراكبهم وملابسهم النفيسه الفاخره وسائر الوسائل والأدوات التى يعتمدونها فى حياتهم ومعيشتهم التى تخطف الأبصار وتسحر القلوب، بينما الاقتراب منهم والغوص فى واقع حياتهم لا يرى سوى البؤس والشقاء وسبل المصاعب والمشاكل التى تلف حياتهم ومدى القلق والاضطراب الذى يسودهم من جراء المؤامرات والدسائس التى يخطط لها أعداؤهم إلى جانب الحسد والطمع الذى تكنه لهم بطانتهم وقرابتهم.

والواقع هو أنّ هذه العبارات إقتباس ممّا صرحت به بعض الآيات القرآنيه، فقد جاء فى القرآن الكريم بشأن الحياه الدنيا:

«وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ . . .» (٢).

وجاء فى موضع آخر: «إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . . .» (٣).

كما جاء أيضاً: «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ . . .» (٤)

ص: ٨

١- ١) «راقت»: من ماده «ورق» على وزن ذوق بمعنى المسره والإعجاب.

٢- ٢) سوره آل عمران / ١٨٥؛ [١]الحديد / ٢٠. [٢]

٣- ٣) سوره الإنسان / ٢٧. [٣]

٤- ٤) سوره آل عمران / ١٤. [٤]

. وقال تعالى أيضاً: «ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (١).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأن نعم الدنيا وسرورها إلى إنقطاع ولا دوام لها، وليس هناك من شخص بمنأى عن مشاكلها وفجائعتها، ورصيدها الخداع والغرور والضرر والخسران، معروفه بالفناء والزوال وعاقبه أمر سكانها وعمارها الهلاك والعدم:

«لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا (٢)، وَلَا تُؤْمِنُ فَجَعَتُهَا. غَرَارَةُ ضَرَّارَةٍ، حَائِلَةٌ (٣) زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ (٤) بَائِدَةٌ (٥)، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ (٦)» .

نقد تناول الإمام عليه السلام الدنيا ليتحدث بهذه العبارات الرائعة البيان عن تقلب أحوالها وعدم ثباتها، فليس هنالك من دوام واستمرار لأى من مفرداتها من قبيل حلاوتها وطلاوتها ونعمها وثروتها وإمكاناتها وآمالها ورغباتها ونشاطها وعنفوان الشباب فيها، فكل هذه الأمور محكومها بالفناء والزوال، وبناءً على هذا فلا يركن إليها إلا الجاهل الغافل.

ثم اختتم عليه السلام كلامه - فى هذا القسم من الخطبه - بالقول:

«لَا تَعِيدُوا - إِذَا تَنَاهَيْتُمْ إِلَى أُمَّتِيهِ أَهْلِيلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا - أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى سُبْحَانَهُ: «كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا (٧) تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا» (٨)» .

فقد عزز الإمام عليه السلام إثبات مراده من خلال التمسك والاستشهاد بالتشبيه الرائع الذى أورده القرآن فى سورة الكهف بشأن الدنيا، وكأتى به قد اصطحب المخاطب إلى حيث الصحراء

ص: ٩

١- ١) سورة الحجر / ٣. [١]

٢- ٢) «حبره»: من ماده «حبر» بالفتح السرور والنعمة.

٣- ٣) «حائله»: من ماده «حول» على وزن قول المتغيره.

٤- ٤) «نافده»: من ماده «نفاد» بمعنى الفناء والعدم والزوال.

٥- ٥) «بائده»: من ماده «بيد» على وزن صيد هالكه.

٦- ٦) «غواله»: من ماده «غول» على وزن قول الهلكه المباعته.

٧- ٧) «هشيماً»: من ماده «هشم» بمعنى كسر الأشياء ومن هنا تطلق على النبت اليابس المكسّر.

٨- ٨) سورة الكهف / ٤٥. [٢]

ليريههم صورته الربيع والخريف واهتزاز الأرض وحيوتها من نزول المظرة وخروج النباتات وتفتح البراعم والزهور وحمل الأشجار للفاكهة والثمار، غير أن هذه الأمور لا يكتب لها الاستمرار والدوام، فلم تشهد هذه الحالة سوى بضعة شهور لتذبل تلك الأوراق وتنتهي تلك الثمار وتنقطع زرقته العصافير والطيور وتتبدل الخضرة بيبوسة وجفافاً، وهذه بالضبط حقيقة الحياة الدنيا التي تعيشها البشرية حيث يتجه كل شيء فيها نحو الزوال فيا له من تشبيه رائع وعجيب!

«لَمْ يَكُنْ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرِهِ إِلَّا أَعْقَبْتُهُ بَعْدَهَا عِبْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَائِهَا بَطْنًا، إِلَّا مَنَحْتُهُ مِنْ ضَرَائِهَا ظَهْرًا؛ وَلَمْ تَطْلُ فِيهَا دَيْمَهُ رِخَاءً، إِلَّا هَتَّتْ عَلَيْهِ مُزْنَهُ بَلَاءً، وَحَرِيٌّ إِذَا أَصِيبَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةٌ أَنْ تُمَسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةٌ، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْدُوذَبَ وَاخْلَوْلَى، أَمَرَ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى! لَا يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغْبًا، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا. وَلَا يُمَسِّي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ، إِلَّا أَصِيبِحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ. غَرَارَةٌ، غُرُورٌ مِمَّا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلِيَّهَا، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَرْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى. مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْتَرَّ مِمَّا يُؤْمِنُهُ. وَمَنْ اسْتَكْتَرَّ مِنْهَا اسْتَكْتَرَّ مِمَّا يُوبِقُهُ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه مواصله لذم الحياه الماديه الدنيويه إلى صفه أخرى من صفاتها البارزه الأخرى والمتمثله بسرعه تغييرها وتبدلها، إلى جانب تبدل نعمها ونقمها، فلم يصب أحد منها سروراً إلا أتبعته حزناً وحسره، ولم يذق حلاوتها إلا استشعر مرارتها: «لَمْ يَكُنْ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرِهِ إِلَّا أَعْقَبْتُهُ بَعْدَهَا عِبْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَائِهَا بَطْنًا، إِلَّا مَنَحْتُهُ (١) مِنْ ضَرَائِهَا ظَهْرًا» .

ص: ١١

ثم أكد عليه السلام هذا المعنى بأنه لم يستشعر هبوب الرياح اللطيفة والأمطار الملائمة حتى يغرق في سبيل من البلاء: «وَلَمْ تَطَّلُهُ (١) فِيهَا دِيمَهُ (٢) رَخَاءً، إِلَّا هَتَّتْ (٣) عَلَيْهِ مُزْنَهُ (٤) بِلَاءً» .

ومن هنا فلا وجه للغرابه والتعجب إذا انتصرت لأحد صباحاً تنكرت له مساءً، وإن حملت بيد ظرفاً حلواً حملت بأخرى ظرفاً مرّاً: «وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُتَّصِرَةٌ أَنْ تُمَسِيَ لَهُ مُتَّنَكِرَةٌ، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْدُوذَبَ (٥) وَاحْلَوْلَى (٦)، أَمَرَ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى! (٧)» .

نعم، هذه هي طبيعة الدنيا وستكون كذلك، حيث تستحيل حلاوتها مراره، ونصرها هزمه، وحياتها موتاً، وليست هناك أية قدره يسعها الحيلولة دون هذه الاستحاله والتغيير.

ثم واصل عليه السلام تأكيد هذه الحقيقه في أنّ الإنسان لا يصيب منها لذّة ونعمه إلّا أتبعته غصّه ورهقه، ودفعت به إلى ما يتعبه من الشدائد والنوائب، فلا يكاد يتمتع بلذّة الأمن حتى يزعجه ألم الخوف والخطر: «لَا يَنَالُ امْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا (٨) رَغْبًا، إِلَّا أَرْهَقَتْهُ (٩) مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا، وَلَا يُمَسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ آمِنٍ، إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ (١٠) خَوْفٍ» .

أجل، ليست هناك من فاصله يؤبه بها في هذه الدنيا لا مكانيه ولا زمانيه بين السعاده والشقاء، فقد تراه أحياناً جن عليه الليل وقد غرق في لذاته وشهواته وهنيء عيشه ودعته في هاله من فرحه وسروره، ولم يكد يطلع الصبح عليه حتى تتعالى الأصوات بالنيح والبكاء تنعى فقده ومفارقتة لهذه الدنيا، بل لعله يتجرع كأس المنون من يد أقرب مقربيه:

ثم استمر عليه السلام في الحديث عن غرور الدنيا وزوالها فقال: «عَرَّازَةٌ، غُرُورٌ مَا فِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيَّهَا، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى. مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اسْتَكْتَرَّ مِمَّا يُؤْمِنُهُ. وَمَنْ

ص: ١٢

١-١) «تطله»: من ماده «طل» على وزن تل المطر الخفيف ويقابله الوابل المطر الشديد.

٢-٢) «ديمه»: من ماده «دوام» مطر دوم في سكون لا رعد ولا برق معه.

٣-٣) «هتنت»: من ماده «هتن» على وزن حتم بمعنى إنصبت.

٤-٤) «مزنه» قطعه من السحاب الممطر.

٥-٥) «اعدوذب»: من ماده «عذب» الفرات الزلال.

٦-٦) «احلولى»: من ماده «حلو» الطعم المعروف.

٧-٧) «أوبى»: من ماده «وبى» المرض والهلكه.

٨-٨) «غضاره»: من ماده «غضر» على وزن نذر كثره النعم، وسعه العيش.

٩-٩) «أرهقت»: من ماده «رهق» على وزن شفق ألبسته بالقوه والقهر.

١٠-١٠) «قوادم»: جمع «قادمه» الواحده من الريشات في مقدم جناح الطائر، وهى زلقه عاده.

اسْتَكْتَرَتْ مِنْهَا اسْتَكْتَرَتْ مِمَّا يُوبِقُهُ (١)، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ .

وهكذا أورد الإمام عليه السلام هذه الصفات التي تصور تغير أحوال الدنيا وعدم ثباتها وأقول قدرتها وزوال موفقياتها ليخلص إلى نتيجة مفادها ضروره قناعه العاقل بالقليل منها (على قدر الكفاف) ليمهد السبل أمام أمنه واستقراره وراحه باله، وذلك لأن من طلب المزيد فيها غامر بنفسه وقذف بها في لهوات المخاطر، فيكون بذلك قد مهد السبيل أمام شقاء نفسه وبؤسها.

ص: ١٣

١-١) «يوبق»: في الأصل من ماده «وبوق» على وزن نبوغ، بمعنى الهلكه، وعليه فيوبقه يعنى يهلكه.

«كَمْ مِنْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعْتُهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَيْرَعْتُهُ. وَذِي أَبَّهٍ قَدْ جَعَلْتُهُ حَقِيرًا، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا سَيِّطَانُهَا دُوْلٌ وَعَيْشُهَا رَنْقٌ، وَعَيْدُهَا أُجَاجٌ، وَخُلُوقُهَا صَبْرٌ، وَغَدَاؤُهَا سَمَامٌ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ. حَيْثُهَا بَعْرَضٌ مَوْتٌ، وَصَيْحُهَا بَعْرَضٌ سَيْقَمٌ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيْزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا مَنكُوبٌ. وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ!»

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبه - إلى أمرين مهمين آخرين بشأن الحياه الدنيا ووضاعه متاعها الماديه:

الأمر الأول: أن لا شيء فيها يمكن الاعتماد عليه والوثوق به، فقد قال عليه السلام بهذا الشأن كم من وثق بهذه الدنيا وسكن إليها فجرعته الألم والمعاناه، وما أكثر الأفراد الذين اطمئنوا إليها فصرعتهم، وما أكثر الأفراد الذين كانوا من أهل السطوه والشوكه، فأذاقتهم لباس الذل والمسكنه: «كَمْ مِنْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعْتُهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَيْرَعْتُهُ. وَذِي أَبَّهٍ (١) قَدْ جَعَلْتُهُ حَقِيرًا، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلًا» .

نعم، ليس هنالك من فرد مهما كان مقامه، وموقعه بمأمن من الحوادث الخطيره والمكاره

ص: ١٥

١ - ١) «أبهه»: بمعنى العظمه وقد اشتقت من ماده «أبه» بمعنيين الفطنه حيث توصل ممن يتصف بها من الأفراد إلى المجد والعظمه.

التي تصيب الإنسان بغيته، فعظام الملوك والسلاطين والأبطال الأشداء أصحاب رؤوس المال من أهل الجاه والسطوه والشباب الذين يعيشون عنفوان النشاط والحيوية والجمال، كل هؤلاء ومن شاكلهم إنما يخضعون لهذه الحوادث التي تجرى عليهم وهم صاغرون، الحوادث التي تأتي على جميع النعم واللذات فتخطفها في لحظه وتذل الأعزّه والجابره وما التاريخ عنك بعيد، فقد شحن بمثل هذه الحوادث، وقد ورد في تاريخ الطبرى أنّ سليمان بن عبدالمملك لبس ذات يوم لباساً فاخراً واعتم بعمه خضراء وأخذ ينظر في المرآه (وهو يتلذذ بما يشاهد من نفسه فدفعه الفخر لأن) يقول: أنا ملك شاب سعيد الحظ، فلم يعمر بعد ذلك أكثر من سبعة أيام (١).

الأمر الثانى: هو أنّ حلاوتها قد عجت بالمراره وانتصاراتها بالهزائم: «سِلْطَانُهَا دُوْلٌ (٢) وَعَيْشُهَا رَنْقٌ (٣)، وَعَيْذُهَا أُجَاجٌ (٤)، وَحُلُوْهَا صَبْرٌ (٥)، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ (٦)، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ (٧)» .

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى حال ساكن الدنيا من أنّ حياته معرّض للموت والسقم والمرض يتربص بعافيته وصحته، ملك هذه الدنيا يستبطن الزوال والفناء، وعزيزها آيل إلى الانكسار، ووفره نعمها تحمل معها مفردات النفاد والانقضاء: «حَيْثُهَا بَعْزٌ مَوْتٌ، وَصَحِيحُهَا بَعْزٌ سُقْمٌ. مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيْزُهَا مَغْلُوبٌ، وَمَوْفُورُهَا (٨) مَنكُوبٌ (٩)، وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ! (١٠)» .

نعم، فمتع الدنيا ولذاتها إن وجدت، فهي مشوبه بأنواع المعاناه والألم، والحكام فى ذوى القدره والسطوه الذين نغبطهم على مدى قدرتهم وشده شوكتهم وتربعهم على العرش نراهم

ص: ١٦

١-١) الطبرى ٥/٣٠٥.

٢-٢) «دول»: بضم الدال وفتح الواو المشدده المتحول، الشىء الذى يتحول من يد إلى أخرى، ولما كانت حال الحكومات كذلك، فقد اصطلح عليها بالدول أيضاً.

٣-٣) «رنق»: صفه مشبهه من ماده «رنق» بمعنى الكدر.

٤-٤) «اجاجم»: شديد الملوحة تلدغ حرارته الفم.

٥-٥) «صبر»: جمع «صبره» على وزن كلمه أو جمع صبر على وزن فقر عصاره شجره مرّه، كما يطلق أحياناً على نفس الشجره.

٦-٦) «سام»: جمع «سم» المواد التي إذا خالطت بدن الإنسان أفسدته وأهلكته.

٧-٧) «رمام»: جمع «رمه» بالضم القطعه الباليه من العظم أو الحبل.

٨-٨) «موفور»: من ماده «وفور» الكثير من الشىء.

٩-٩) «منكوب»: من ماده «نكبه» بمعنى المصاب.

١٠-١٠) «محروب»: من ماده «حرب» القتال والحرب.

حين الاقتراب منهم أخوف ما يخافون حتى من مقربيهم، وأكثر الناس طاعه لأوامرهم، بل هم في غايه القلق والاضطراب ممّا يخبىء لهم الغد والمستقبل القريب.

ولعل هذا الأمر أشبه شيئاً بتلك القصة التي تحدثت عن ذلك الفرد الذي كان يتمنى التربع على العرش السلطه ولو ليوم واحد، فحققوا له ما يريد، غير أنّهم عقلوا على رأسه خنجراً حاداً ربطوه بشعره، فكان يتوقع في كل آن قطع تلك الشعره ونزول ذلك الخنجر على هامته، فكان يرجو بفارغ الصبر انقضاء ذلك اليوم والخلاص من مسند العرش الذى انطوى على ذلك الخطر، فما أروع الصورة التي رسمها الإمام عليه السلام لهذه الدنيا الغرور حين قال: «كَمْ مِنْ وَائِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طَمَإْنِينِهِ إِلَيْهَا قَدْ صَرََعَتْهُ» .

فليس هنالك ما يوثق به منها ولا يعتمد عليه فيها.

«أَلَسَيْتُمْ فِي مَسَاكِنٍ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَارًا، وَأَبْقَى آثَارًا، وَأَبْعَدَ آمَالًا، وَأَعَدَّ عَدِيدًا، وَأَكْتَفَى جُنُودًا! تَعَبُدُوا لِلدُّنْيَا أَى تَعْبُدِ، وَآثَرُوهَا أَى إِثَارٍ. ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبْلَغٍ وَلَا ظَهْرٍ قَاطِعٍ. فَهَلْ بَلَغْتُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سِيَّخَتْ لَهُمْ نَفْسًا بِفِدْيَةٍ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَيْنَتْ لَهُمْ صِيحْبَةً! بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَأَوْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ، وَضَعَضَتْهُمْ بِالنَّوَابِ، وَعَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ، وَوَطَّئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ، وَأَعْيَانَتْ عَلَيْهِمْ رَبِيبَ الْمُنُونِ. فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنْكُرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ لَهَا، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَيْدِ. وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إِلَّا السَّعْبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعَقَبَتْهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ! أَفَهَذِهِ تُؤَثِّرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ؟ أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهَمَهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا!»

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام الخطبة التي أوردتها في ذم الدنيا وسرعه زوالها وخداعها وغرورها مصطحباً مخاطبيه هذه المره ليغوص في أعماق تاريخ الأمم السالفة، ليصور من خلالها حياه أصحاب السلطه والقدرة ممن ملأ صيبتهم الأرجاء وكانت تقوم الدنيا وتقع بين أيديهم، وكذلك أصحاب الثروه والمال ليتساءل عليه السلام ألستم تحلون محل من كان قبلكم وتسكنون مساكنهم، ممن عمروا كثيراً وتركوا آثاراً وكانت لهم أمنياتهم وآمالهم ورغباتهم، وكانت لهم

جنودهم وحماتهم: «أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِينٍ مِنْ كَمَا نَقَبْتُمْ أَطْوَلَ أَعْمَارًا، وَأَبْقَى آثَارًا، وَأَبْعَدَ آمَالًا، وَأَعْيَدَ عَدِيدًا (١)، وَأَكْتَفَ (٢) جُنُودًا!». .

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى خمس خصائص إمتازت بها الأقسام السابقه وهى: طول العمر، وبقاء الآثار والمخلفات، وطول الآمال، وكثره السكان، وكثره الجنود، فهى خصائص منحتهم التفوق على سائر من سواهم، وإلا أن أى من هذه الامتيازات لم يحل دون زحف العدم والفناء لقصورهم وأديتهم، فكان مصيرهم أن تلاشوا وتساقطوا ركوعاً للموت تساقط أوراق الشجر فى فصل الخريف.

ثم أضاف عليه السلام مواصلاً كلامه بهذا الشأن: «تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيْ تَعَبَّدُوا، وَآثَرُوهَا أَيْ إِثَارًا. ثُمَّ طَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبْلَغٍ وَلَا ظَهْرٍ قَاطِعٍ». .

نعم، فرغم كل سعيهم وجهدهم فى سبيل عباده الدنيا والذوبان فيها وتجنيد كافة قواهم وطاقاتهم فى هذا الاتجاه، إلا أنهم لم يصيبوا أى شىء منها، ثم مشوا إلى حتوفهم وقد خلت جعبهم من الزاد والمتاع ودون حمل الورع والتقوى التى لا يجدى غيرها نفعاً هناك، فطريق الآخرة شاق طويل لا يجتازه إلا أهل الورع والتقوى.

ثم خاطب عليه السلام صحبه: هل بلغكم أن الدنيا قدمت لأحدهم فديه لتنجيه من الموت أو سكراته؟ أم هل أعانتهم بشىء فى هذا السبيل؟ أم هل كانت على الأقل صاحباً حسناً لهم: «فَهَلْ بَلَّغْتُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ (٣) لَهُمْ نَفْسًا بِفِدَائِهِ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونِهِ، أَوْ أَحْسَنْتْ لَهُمْ صُحْبَةً!». .

نعم، لم تقدم لهم أى عون ولم تنجيهم عن المكاره والأهويل، أفلا يكون ذلك عبره لم اعتبر من أبناء الدنيا!

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بهذا الخصوص قائلاً: «بَلْ أَرَهَقْتَهُمْ (٤) بِالْقَوَادِحِ (٥)، وَأَوْهَقْتَهُمْ (٦)

ص: ٢٠

١- ١) «عديد»: بمعنى «العدد»، كما ورد بمعنى الشبيه والمثل وأريد بها المعنى الأول فى عبارته الخطبه.

٢- ٢) «أكتف»: تفضيل «كتيف» بمعنى الكثير.

٣- ٣) «سخت»: من ماده «السخاوه» بمعنى العطاء.

٤- ٤) «أرهقت»: من ماده «إرهاق» ستر الشىء بالقوه، أرهقتهم بمعنى غشيتهم.

٥- ٥) «قوادح»: جمع «قاده» بمعنى الآفه.

٦- ٦) «أوهقت»: من ماده «وهق» حلقه توضع على رقبه الحيوان.

بِالْقَوَارِعِ (١)، وَضَعُضَعَتْهُمْ (٢) بِالنَّوَائِبِ، وَعَفَّرَتْهُمْ (٣) لِلْمَنَاخِرِ، وَوَطَّئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ (٤)، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِم رَيْبَ الْمُنُونِ (٥) .

فهذه العبارة المؤثرة تشير إلى أنّ الدنيا ليس فقط لم تقدم العون والمساعدة لعبادها وأصحابها، بل سارعت بكل ما أوتيت من وقوه لتوجيه ضرباتها الماحقه إليهم بغية إبادتهم، وإستئصال شوكتهم، حتى جندت جميع قواها وطاقاتها ضدهم.

والطريف فى بيان الإمام عليه السلام هو أنّه بدأ من المراحل الكبرى نزولاً إلى الصغرى فى إطار تصويره لإعانه الدنيا وما يمكنها أن تقدمه من نصره ومساعدته، بينما تدرج فى أضرارها التى تصيب من تعلق بها من المراحل السفلى إلى المراحل العليا المتمثلة بالانقضاض عليهم وإزالتهم من صحفه الوجود، ولعمري هذه قمه الفصاحه والبلاغه فى بيان الحقائق المريره والأليمه ويكشف النقاب عن مدى وضاعه الدنيا وانحطاطها وتنكرها لمن أخلد إليها واطمأن بها.

ثم خالص عليه السلام إلى نتيجة ممّا سبق مفادها تنكر الدنيا لأصحابها ممن آثرها على كلّ شىء وهو الأمر الذى رأوه بأمر أعينهم (أو لعلهم طالعهو بشأن الأمم التى سبقتهم) فقد سلمتهم للأقدار وساقتهم نحو الموت دون أن يعدّوا الزاد والمتاع لتلك الدار الآخرة: «رَأَيْتُمْ تَنَكَّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا، وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ (٦) لَهَا، حِينَ ظَنَعُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ» .

فهل أمدتهم هذه الدنيا بشىء سوى الجوع والفقر؟ وهل عرضتهم سوى للتعب والارهاق

ص: ٢١

١-١) «قوارع»: جمع «قارعه» بمعنى المحن والدواهى.

٢-٢) «ضعضعت»: من ماده «ضعضعه» بمعنى الذله والهوان، كما تأتى بمعنى الإباده.

٣-٣) «عفرت»: من ماده «التعفير» كتبهم على مناخرهم فى العفر وهو التراب.

٤-٤) «المناسم»: جمع «منسم» يكسر الميم وهو مقدم خف البعير.

٥-٥) «ريب المنون»: الريب الشك الذى يكشف عنه الغطاء آخر لأمر ويبلغ اليقين، والمنون يعنى الموت، وريب المنون الموت المحتمل ويراد بها أحياناً مكاره الدهر التى تكون فى البدايه مشكوكه ثم يحصل بها اليقين.

٦-٦) «أخلد»: من ماده «إخلاق» وأصلها من الخلود، والعبارة أخلد إليها بمعنى الركون، أى أنّ أصحاب الدنيا قد أبدوا منتهى الرغبه بالدنيا وكأنّهم التصقوا بها.

والضنك؟ وهل وهبتهم إلا الظلمة التي ليس معها نور؟ (أبدأ، بل أودعتهم حفراً مظلمة موحشه تفيض رعباً وخشيه)، وهل بقى لديهم من شيء سوى الحسره والندم: «وَهَلْ زَوَّدْتَهُمْ إِلَّا السَّغْبَ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ (١)، أَوْ نَوَّرْتَ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ، أَوْ أَعَقَبْتَهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ!». .

فكيف الوثوق بهذه الدنيا التي لا تضم لمن تعلق بها سوى البؤس والشقاء والهزيمة والفشل والظلمه، ولا تعقبه سوى الندم؟ أم كيف له التضحية بالغالى والنفيس فى سبيل الحصول على بعض حطام الدنيا وجعلها هدفاً فى حياته؟!

ومن هنا تساءل الإمام عليه السلام مستنكراً: «أَفَهَذِهِ تُؤَثِّرُونَ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ؟ أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبُسْتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهَمَهَا، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا!». .

حقاً، ليست هناك من عبارات أوضح وأفصح من هذه العبارات التي وردت بشأن تفاهه الدنيا والمصير والعاقبه المريره التي تنتظر من تعلق بها وسكن إليها، وهدف الإمام عليه السلام من هذه التأكيدات المتواصله والعبارات المنبهه الشديده إلى الوقوف بوجه الريح الدينويه العاتيه، وما إنطوت عليه من نعم جمه أفرزتها قضيه الفتوحات الإسلاميه والتي إستهوت قطاعات واسعه من المسلمين لتقذف بهم فى أتون الرفاهيه والراحه والدعه بما ينسيهم القيم والمثل والمبادئ السماويه الخالده، ويجعلهم يغطون فى سبات الغفله، علهم يفيقون إلى أنفسهم ويعودون إلى رشدهم فيهبوا لإحياء القيم الإسلاميه المغيبه، إلى جانب محاوله الإمام عليه السلام إعاده الأُمّه - لا سيما أولئك الأفراد الذين تكالبوا على الدنيا وثوراتها إبان عهد عثمان - إلى المسار الإسلامى الصحيح.

وما أروع هذه المواعظ والنصائح البليغه الواضحه للمتكالبين على الدنيا من أبناء عصرنا الراهن حيث يشهدون ذات الظروف، بل أسوأ منها والتي عصفت بالمجتمع وجعلته يتعلق بالدنيا، والحق لو لم يلتفتوا إلى هذا الأمر ويفكروا فى علاج وضعهم فلا من دين ولا دنيا معقوله يمكنهم أن يظفروا بها ويحصلوا عليها.

والعبارات تنسجم تماماً وما صرحت به الأحاديث النبويه الشريفه وروايات وكلمات

ص: ٢٢

(١-١) «ضنك»: بمعنى «الضيق» والشده وهى مفرده تستعمل بصيغه المفرد دائماً.

المعصومين عليهم السلام وبالتالي الآيات القرآنية، فقد صرّحت الآية ٩، من سورة الروم:

«أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» .

كما صرّحت الآية ٧ - ٨ من سورة يونس:

«إِنَّ الَّذِينَ لَمَّا يَزُجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مِثْلُ النَّارِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»

وورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ زَهَّدَ فِي الدُّنْيَا أَثْبَتَ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فِي قَلْبِهِ وَأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ وَبَصَّرَهُ عُيُوبَ الدُّنْيَا دَاءَهَا وَدَوَاءَهَا وَأَخْرَجَهُ مِنَ الدُّنْيَا سَالِمًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ» (١).

كما ورد عنه عليه السلام أنه قال: «مَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَشَتَّتْ أَمْرَهُ، وَلَمْ يَنْلُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ، مَنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ هَمِّهِ جَعَلَ اللَّهُ الْغِنَى فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ أَمْرَهُ» . (٢)

ص: ٢٣

[١- ١] اصول الكافي ٢/١٢٨. [١]

[٢- ٢] المصدر السابق / ٣١٩. [٢]

«فَاعْلَمُوا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ عَنْهَا. وَاتَّعَظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا: «مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً». حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا، وَأَنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعَوْنَ ضَمِيمًا. وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ، فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَمِيمًا، وَلَا يُبَالُونَ مَنْدَبَةً. إِنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا. جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ. مُتَدَنُونَ لَا يَتَرَاوِرُونَ، وَقَرِيبُونَ لَا يَتَقَارِبُونَ. حُلَمَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ. وَجُهَلَاءٌ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ، لَا يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ، إِسْتَبَدَلُوا بَطْنَهُ الْأَرْضِ بَطْنًا، وَبِالسَّعَةِ ضَمِيمًا، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً. فَجَاءَهَا كَمَا فَارَقَهَا، حُفَاءَ عُرَاهُ، قَدْ طَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمِ الْهِمِّ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالِدَّارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «كَمَا يَدُونا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعِيدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» .

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث مرّه أخرى عن تقلب أحوال الدنيا وغدرها وتنكرها لمن تعلق بها، إلى جانب الكلام عن المصير الحتمى الذى ينتظر كل إنسان والذى يتمثل بمفارقة الدنيا والرحيل إلى عالم الآخرة، فقال عليه السلام: «فَاعْلَمُوا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ (1) عَنْهَا» .

ص: ٢٥

(١- ١) «ظاعنون»: من ماله «ظعن» على وزن دفن بمعنى السفر والرحيل.

نعم، فلا بد لكل إنسان أن يذوق طعم الموت: «كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ . . .» (١).

وقال تعالى: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * يَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (٢).

ولعل الإنسان يشك في كل شيء، غير أنه لا يشك في حقيقة الموت: «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» (٣).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بضرورة الاتعاظ بمن كان قبلهم من الأمم ممن غرّتهم قواهم، فلم تنفعهم تلك القوّة شيئاً حتى حملوا راغمين إلى قبورهم، فلم يحلوا ضيوفاً على تلك القبور بعد أن ورد وهاقراً وإكراهاً دون أن يكون لهم أدنى إرادة واختيار: «وَاتَّعَطُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً» (٤). حَمَلُوا إِلَىٰ قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا (٥)، وَأَنْزَلُوا الْأَجْدَاثَ (٦) فَلَا يُدْعَوْنَ ضَيْفَانًا» .

ولعل العبارة إشارة لما ورد في الآية ١٥ من سورة فصلت القائلة: «فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً . . .» .

فالمعروف أنّ قوم عاد كانوا ذوى جثث ضخمة وقصور وبيوت فارهه عملاقه ينحتونها وسط الجبال، الأمر الذى جعلهم يصابون بالكبر والغرور، فلما عتوا عن أمر الله وعصوه أرسل الله عليهم ريحاً عاتية فأحالت جثثهم الضخمة إلى ما يشبه أوراق الأشجار التى تتناثر على الأرض، حيث حدّث عنهم القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ» (٧).

ص: ٢٤

١-١) سورة العنكبوت / ٥٧. [١]

٢-٢) سورة الرحمن / ٢٧ - ٢٨. [٢]

٣-٣) سورة الحجر / ٩٩. [٣]

٤-٤) سورة فصلت / ١٥. [٤]

٥-٥) «ركبانا»: صرّح بعض شراح نهج البلاغه [٥] أنّ العرب إعتادت الاصطلاح بالركبان على من يركب مختاراً وله التصرف فى مركوبه، فان نزلوا سموا ضيفان، أمّا الموتى الذين يحملون إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا ولا ضيفان.

٦-٦) «الاجداث»: جمع «جدث» على وزن قفص بمعنى القبور.

٧-٧) سورة القمر / ١٩ - ٢٠. [٦]

أمّا قوله عليه السلام «فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا» والركبان جمع راكب وذلك لأنّ الراكب من يكون مختاراً، ولا اختيار لهؤلاء، وقوله عليه السلام «فَلَا يُدْعَوْنَ ضَيْفَانًا» لأنّ الضيف يرد برغبته وإرادته إلى المكان الذي يستقبل فيه، وقد ورد مثل هذا المعنى فى الخطبه ١٨٨ من نهج البلاغه إذ قال عليه السلام: «حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ» .

ثم قال الإمام عليه السلام مواصلة لوصفهم: «وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ (١) أَجْنَانٌ (٢)، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنَ الرُّفَاتِ (٣) جِيرَانٌ» .

فالعباره إشاره إلى أنّ قبورهم خاليه من البناء والسقوف والأعمده والأبواب والنوافذ، فهى ليست أكثر من قبضه من الحجر والتراب على وجه الأرض، والتعبير عن التراب بالكفن فذلك لأنه يحيط ببدن الميت ويواريه كالكفن، وأمّا ذلك الكفن الذى يلف به الميت فهو مؤقت سرعان ما يبلى ويزول، ولا يبقى سوى الكفن الأصيل وهو التراب.

والجدير بالذكر هو أنّ الإمام عليه السلام واصل كلامه بالحديث عن هؤلاء الجيران وهم ليسوا أكثر من عظام نخره، فيكشف النقاب عن حقيقه وضعهم بعبارات غايه فى الجمال والروعه، وبما يدعو للتأمل والاعتبار: «فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمًا (٤)، وَلَا يُبَالُونَ مَنَدَبَةً (٥)» .

أضف إلى ذلك فهم على درجه من عدم الإكتراث بأى شىء بحيث: «إِنْ جِيدُوا (٦) لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَفْنَطُوا. جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِيرَةٌ (٧) وَهُمْ أَبْعَادٌ. مُتَدُونُونَ لَا يَتَرَاوِرُونَ، وَقَرِيبُونَ لَا يَتَقَارَبُونَ» .

حقاً، أنّهم عبره لمن اعتبر وأوضاعهم مدعاه إلى التأمل والنظر، فكل شأن من شؤونهم يختلفت ماماً وما عليه الحال بالنسبه لأهل الدنيا، فقد كانوا معاً حتى أمس القريب، ينجد

ص: ٢٧

١- ١) «صفيح»: وردت هنا بمعنى وجه الأرض، من ماده «صفح» على وزن مدح.

٢- ٢) «أجنان»: جمع «جنن» على وزن كفن بمعنى القبر، وأصلها بمعنى التغطية والستر، ولما كان القبر يستر بدن الميت فقد اطلق عليه الجنن.

٣- ٣) «رفات»: بمعنى كل شىء بالى ومتعفن، كما يراد بها العظام المندقه المحطومه والمتنافره.

٤- ٤) «ضيماً»: له مفهوم المصدر واسم المصدر ويعنى الظلم.

٥- ٥) «مندبه»: من ماده «ندبه» بمعنى البكاء.

٦- ٦) «جيدوا»: من ماده «جود» على وزن قوم مبنى للمجهول بمعنى مطروا.

٧- ٧) «جيره»: جمع «جار» وغالباً ما تجمع جيران.

بعضهم البعض الآخر، يهرعون لاستقبال السنين التي تدر عليهم النعم والمنافع، بينما كانوا ينزعجون من القحط والجذب، كما كانوا يطوون المسافات القريبه والبعيده لرؤيه بعضهم البعض الآخر، لكن دون خبر عن أوضاعهم وما عليه أحوالهم، قبورهم متصله متلاصقه مع بعضها، إلّا أنّ المسافه بينهما كأنّها ما بين المشرق والمغرب، ومن كان منهم يأن ليل نهار من عذاب البرزخ فلا يسمع أنينه أقرب مقربيه من صحبه من أهل القبور، بل حتى لو سمع صراخه وألمه لما وسعه نجاته وتقديم العون له.

وما أروع ما كان يردده الإمام السجاد عليه السلام حين مناجاته باكياً وهو يجسد ما أورده الإمام على عليه السلام بهذا الشأن، إذ كان يقول: وَأَضْحَوْا رِمِيمًا فِي التُّرَابِ وَأَقْفَرْتُ

ثم واصل الإمام عليه السلام حديثه عن أصحاب القبور بأنهم عقلاء قد ذهبت عداوتهم وخصومتهم، وفي نفس الوقت هم جهال قد طرحت أحقادهم وأضغانهم، فليس هناك ما يدعو للخشيه من ضررهم وشرهم، كما لا يؤمل أن يدافعوا عن أنفسهم، فقد انسلخوا من ظاهر الأرض ليوطنوا باطنها، فاستبدلوا بتلك السعه ضيقاً بالأهل والوطن والنور غربه وظلمه: «حُلَمَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ. وَجُهَلَاءٌ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ، لَا يُخْشَى فَجْعُهُمْ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ، إِسْتَبَدَّلُوا بَطْنَهُ الْأَرْضِ بَطْنًا، وَبِالسَّعَةِ ضَيْقًا، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً» .

والعجيب في الأمر أنه يصفهم في عبارته بالعقلاء، ثم يردفها بالعباره التاليه بوصفهم بالجهلاء، والواقع هو أنهم جثث خاويه قد خلت من الأرواح، فهم ليسوا بعقلاء ولا- جهلاء، بل وضعهم في موضع جعلهم أشبه بالعقلاء حيث زالت العداوه بينهم، وفي موضع آخر تشبهوا بالجهلاء حيث ماتت بينهم روح الحسد ودوافعه، فقد تغيرت جميع مفرداتهم في لحظه حيث استبدلوا بظاهر الأرض باطنها وبالذور الواسعه المنيره المليئه بالأهل والعيال، القبور الضيقه

والمظلّمه الموحشه الخاليه من الصخب والضجيج.

ثم إختتم حديثه عليه السلام بالقول: «فَجَاءُوهَا كَمَا فَارَقُوهَا، حُفَاءَ عُرَاهُ» (١).

والعباره مستوحاه من الآيه القرآنيه الشريفه: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى» (٢).

نعم كما خلق آدم عليه السلام من التراب، كذلك أولاده سيعودن حفاه عراه إلى هذه الأرض على غرار ولادتهم وقدومهم إليها، وإن حملوا معهم كفنًا، فهو ليس كذلك في الواقع، إذا سرعان ما يبلى ويزول ولا يعد له من وجود، بالتالي سيودع هذا الإنسان شاء أم أبى يوماً كل ما جمعه من أموال وأعدّ لنفسه من قصور ودور فارهه وحدائق ومراكب وإمكانات ووسائل، لينزل تلك الحفره حافياً عرباناً وعليه أن يستعد لتلك الظلمه والوحشه.

نعم، الشىء الوحيد الذى يحمله معه هو عمله والذى قد يكون أحياناً وبالاً عليه وأعظم بلاء يصيبه، وهو الأمر الذى أكده الإمام عليه السلام فقال: «قَدْ طَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالِدَّارِ الْبَاقِيَةِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» (٣).

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أشار فى ختام هذه الخطبه إلى نقطتين:

الأولى: عوده الإنسان إلى الأرض كما خلق منها.

والثانيه: النشأه الجديده فى الآخره.

ثم استشهد عليه السلام بالآيه القرآنيه الكريمه: «كَمَا يَدَّبْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»، لكى لا يبقى أدنى مجال للشك فى حقيقه عوده الإنسان إلى التراب الذى خلق منه فيرى هناك جزاء أعماله من ثواب أو عقاب.

ص: ٢٩

١- ١) اختلفت أقوال شراح نهج البلاغه [١]لهذه العبارة، ويبدو الأنسب هو ما أوردها سابقاً.

٢- ٢) سورة طه / ٥٥. [٢]

٣- ٣) سورة الانبياء / ١٠٤. [٣]

١ - سبل مواجهه التعلق بالدنيا

إنَّ حبَّ الدنيا كما ورد في الروايه هو رأس كل خطيئته وأساس جميع الذنوب والمعاصي، كما أنَّ التعلُّق بها والاعتزاز بزخارفها وحطامها يصد الإنسان عن ربِّه وينسيه الآخره والحساب يوم القيامه، ومن شأن هذه الغفله والصدود أن تشكل أحد العوامل المهمه التي تقذف بالإنسان في وحل الخطايا والذنوب، وقد شهد عصر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تنامي الأموال والثروات إثر التقدم السريع الذي أحرزه الإسلام والغنائم المتحصله من الغزوات، وهو الأمر الذي لفت إنتباه طائفه عظيمه من المسلمين ليشدّه إلى الدنيا ويدفع بها إلى التكالب عليها، وأفضل شاهد على ذلك الفساد المالى العظيم الذى حصل على عهد عثمان، ومن هنا لم ينفك الإمام عليه السلام فى أغلب خطب نهج البلاغه من ذمّ الدنيا والتحذير من الانخداع بها والركون إليها والوثوق بها، وقد أورد عباراته بمنتهى الفصاحه والبلاغه وبالشكل الذى يجعلها تثير حساسيه أهل الغفله ممن نسوا أنفسهم وتعلّقوا بالدنيا، ولا سيّما فى هذه الخطبه التى مرّ علينا شرحها، فقد سارت مواكبه للقرآن الكريم فى ذمّه للدنيا، وقد سلك الإمام عليه السلام مختلف الطرق من أجل بيان هذه الحقيقه منها:

١ - تحدّث عليه السلام بادية ذى بدء عن «عذر الدنيا وعدم ثباتها» وكيف استقطبت كل من تطلّع إليها بينما ولّت ظهرها وتنكرت له وقذفت به فى وحل البؤس والشقاء.

٢ - تحدّث أحياناً عن «تقلب الدنيا السريع» حيث سرعان ما تتبدل القوّه ضعفاً، والانتصار هزيمه، والغنى فقراً، والعافيه مرضاً.

٣ - كما تحدّث أحياناً أخرى عن إختلاط النعم بالآلام، والمعافاه والعدوبه بالمراره، فهناك الاشواك حيث الأزهار، والأفاعى حيث الكنوز، بهدف عدم اغترار الناس بالدنيا والتعلُّق بها والانخداع بزخارفها.

٤ - كما يصحب عليه السلام مخاطبيه تاره أخرى ليقفهم على نماذج عينيه ملموسه للغدر وعدم الثبات الذى تنطوى عليه طبيعه الدنيا، فيقول لهم: إنظروا إلى الدنيا ماذا فعلت بمن كان أشدّ منكم قوّه وأكثر جمعاً للأموال وأعظم جنداً.

٥ - وأحياناً أخرى يكون على غرار الرسّام الماهر الذى أمسك بريشته وجعل يرسم على لوحته الحالات المرعبه للإنسان على أعتاب الموت، وإنفصاله عن الأهل والولد والمال والثروه والجاه والمنصب، فيضع تلك اللوحه أمام أعينهم ليروها عن قرب فيعتبروا ويفكروا فى مصيرهم.

٦ - كما يعمد أحياناً أخرى لرسم لوحه صادقه معبره عن ضيق القبر وظلمته والذى يمثل آخر منازل الدنيا، فهو يحكى عن وحده الإنسان وغربته وسط ما يجاوره من قبور صامته، فليس هناك من تزاور بينهم قط، كما ليس لأحد منهم علم عن آخر، إلى جانب تصويره لانقطاع الإنسان عن زوجته وولده ومدى عجزه وحاجته.

والملفت للنظرها هو أنّ جميع هذه المباحث والمضامين إنّما تتحرك فى ظلّ آيات القرآن الكريم، فأحياناً تشير صراحة إلى تلك الآيات، وأخرى تكون العبارات مستقاه من الآيات القرآنيه، وهذا ما يسيغ نوراً ولمسات روحيه، وجذبات معنويه على كلمات الإمام على عليه السلام وبالتالى مضاعفه مدى تأثيرها.

يالىت أهل الدنيا ممن اغتروا بها وخذعوا بحطامها وزيفها وتزينها أن يلتفتوا لأنفسهم ولو لحظه واحده طيله عمرهم فيطالعوا هذه الخطبه الموقظه ويتدبروا عباراتها ومفاهيمها، بل ما أحرانا نحن أيضاً أن نتأمل هذه الخطبه وما شابهها من الخطب التى وردت فى نهج البلاغه لتتعمق معرفتنا بخصوص الدنيا والوقوف على مدى ضحالتها وتفاهتها فتتجدد فىنا روح الطاعه والابتعاد عن الخطيئه والمعصيه.

جدير بالذكر أنّ العديد من الأدباء والشعراء قد انطلقوا أيضاً فى ظلّ الآيات القرآنيه والروايات الشريفه والمفاهيم الدينيه فانشدوا أشعاراً تهزّ الضمير وتوقفه على واقع الدنيا، من أولئك الشعراء الايرانيين هو الشاعر الكبير والفريد «الحافظ الشيرازى» الذى أنشد أشعاراً كثيره بشأن سرعه زوال نعم الدنيا وغدرها وأنّ حلاوتها قد مزجت بالمراره وراحتها بالألم وسلامتها بالمرض والسقم، كما نظم قصائداً فى تقلب أحوال الدنيا وتغيرها المفاجيء وعدم استقرارها على حال. قصر الجديد إلى بلى والوصل فى الدنيا انقطاعه

أى اجتماع لم يعد

ومن كلام الحكيم فى الدنيا: «إنا قد أصبحنا فى دار رابحها خاسر، ونائلها قاصر، وعزيزها ذليل، وصحيحها عليل، والداخل إليها مخرج، والمطمئن فيها مزعج، والذائق من شرابها سكران، والواثق بسرابها ظمآن، ظاهرها غرور، وباطنها شرور، وطالبها مكدود، وتاركها محمود» .

٢ - الرد على سؤال

حين نطالع ما أورده الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه حول «أهل القبور» فى أنهم جيره لا يتراورون وقرييون لا يتقاربون وما إلى ذلك، يتبادر إلى الأذهان هذا السؤال وهو أنه وردت عدّه روايات صرّحت بعضها بأنّ أهل القبور يجتمعون أحياناً مع بعضهم ويطلع كل منهم على أوضاع الآخر وأنّ لهم مجالسهم وحلقاتهم، ومن ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كَأَنِّي بِهِمْ حِلَقٌ حَلَقٌ قُعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ» (١).

فكيف الجمع بين هذه الروايات وما ورد فى عبارات الخطبه المذكوره؟

ولعلّ الآجابه على هذا السؤال تتضح من خلال الالتفات إلى أنّ الروايات المذكوره إنّما وردت بشأن المؤمنين وأصحاب الأعمال الصالحه، وأمّا ما جاء فى هذه الخطبه، فإنّما ورد بشأن أصحاب الدنيا من أهل الأعمال السيئه، وعليه فليس هنالك من تعارض بين هذه الخطبه وما صرّحت به الروايات.

ص: ٣٢

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

ذكر فيها ملك الموت وتوفيه النفس وعجز الخلق عن وصف الله

نظره إلى الخطبه

تفيد بعض القرائن أنّ هذه الخطبه جزء من خطبه مفصله طويله، وهي تهدف في الواقع إلى بيان هذه الحقيقه التي تكمن في عجز البشريه عن إدراك كنه الذات وصفات الله سبحانه وتعالى، وذلك لأنّ الإنسان إن عجز عن معرفه ملك الموت وصفاته وطبيعه أعماله، فكيف يتوقع أن يقف على كنه الذات والصفات للخالق سبحانه كما هي عليه.

والذي يفهم من كتاب «تمام نهج البلاغه» أنّ هذه الخطبه هي جزء من الخطبه المعروفه بالأشباح والتي أوردتها الإمام على عليه السلام بشأن عجز الإنسان عن إدراك كنه الذات والصفات الإلهيه، والحق إنّ عباره هذه الخطبه تنسجم تماماً وعبارات خطبه الأشباح، فاذا ما وضعت الخطبتان مع بعضهما لتوصلنا إلى أنّ الخطبه التي بين أيدينا هي جزء من تلك الخطبه (٢).

ص: ٣٣

١ - ١) سند الخطبه: ورد في مصادر نهج البلاغه أنّه نقلها «على بن محمد الليثي» صاحب كتاب «عيون الحكم والمواعظ» مع فارق قليل، وقال ابن ميثم البحراني حين شرحه لهذه الخطبه أنّها جزء من خطبه طويله أوردتها الإمام على عليه السلام بشأن توحيد الله سبحانه وتعالى وتنزيهه. ويفيد هذا الكلام أنّه نقل هذه الخطبه من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٤٤).

٢ - ٢) كتاب «تمام نهج البلاغه»، ص ٦٥.

«هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا؟ ، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَدًا؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ. أَيْلُجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا؟ أَمْ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلَهُهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!». .

الشرح والتفسير

أينما تكونوا يدرككم الموت

كما ورد سابقاً فإن هذه الخطبة في الواقع جزء من خطبه التي تصدت لبيان صفات الله تعالى وعجز البشريه عن إدراك كنهه وصفاته سبحانه، وقد استدلل الإمام عليه السلام بمثال في هذه الخطبه يشخص الحقيقه المذكوره ويبيّن عجز الإنسان عن الوقوف على كنه ذات أغلب المخلوقات، وبناءً على ما سبق فكيف يمكن توقع وقوف هذا الإنسان على كنه ذات وصفات الخالق المطلق بينما لا يسعه إدراك كنه مخلوق مثله؟

فقد قال عليه السلام: «هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا؟ ، أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَدًا؟» .

قطعاً أنّ روح الإنسان تفصل عن جسده من قبل ملك الموت، كما صرحت بذلك العديد من الآيات القرآنيه، والحال ليس لدينا أى علم بولوجه من أجل قبض الروح ولا-خروجه، كما لا-نراه حين يقبض الروح، رغم أنّه مخلوق من مخلوقات الله سبحانه، وما أكثر من مثله من الملائكه الذين يتعذر علينا رؤيتهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالتطرق إلى مورد خاص بشأن قبض الروح والذي يتصف بالتعقيد والغموض، وهو قبض روح الجنين في بطن أمه، فقال عليه السلام: «بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ. أَيْلُجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا؟ أَمْ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا، أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا؟» .

ص: ٣٥

فمن البديهي أنه يشق على كل عالم بانتقاء أى من الأجوبه الثلاث على سؤال المذكور، فليس هنالك دليل يثبت أى منها، وعليه فقضيه قبض الروح بواسطه ملك الموت بحدّ ذاتها قضيه شائكه غايه فى التعقيد يعجز عن إدراكها الإنسان فضلاً عن قبض روح الجنين فى بطن أمّه.

ثم يخلص الإمام عليه السلام من العبارات السابقه إلى هذه النتيجة: «كَيْفَ يَصِفُ إِلَهُهُ مَنْ يَعْجُزُ عَن صِفِهِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ!». .

نعم، فهناك الألوف المؤلفه من المخلوقات والكائنات التى عجز الإنسان عن إدراكها حتى بعد تطور العلوم وتقدمها، فما حقيقه الروح؟ وما كيفيه إرتباطها بالجسد؟ كيف تنسلخ عن الجسد؟ وأين تتجه هذه الروح بعد انفصالها من البدن؟ ما حقيقه الحياه؟ لم استطاع العلماء جمع كافة العناصر الموجوده فى الخليه الحيه فى مختبراتهم بصوره صناعيه إلا أنّهم عجزوا عن نفخ الروح فيها!

ما حقيقه الزمان والمكان؟ ما كيفيه أمواج الجاذبيه التى تربط شرق العالم بغربه؟ ومئات الأسئلة من هذا القبيل.

فاذا عجزنا عن وصف هذه المخلوقات التى نشترك معها فى كثير من الأمور، فكيف نتوقع إمكانيه وصفنا لله الذى لا يشترك معنا فى أى أمر؟! بلى، لدينا علم إجمالى بوجوده وصفاته سبحانه، حيث نعلم أنه موجود وله الصفه الفلانيه على سبيل الإجمال، إلا أنّ الكل يعرب عن عجزه وفشله من اقتحام ميدان العلم التفصيلي، بما فيهم أنبياء الله سبحانه وتعالى.

تأملات

١ - ملك الموت أم ملائكه الموت

هل ملك واحد أم جماعه؟ سؤال يتبادر إلى أذهان الكثيرين، فقد وردت بعض الآيات القرآنيه التى نسبت إلى الله تعالى قبض الأرواح: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا. . .» (١).

ص: ٣٦

بينما نسبت البعض الآخر منها قبض الروح إلى الملائكة، كما نسبته إلى ملك الموت الذى عيّرت عنه أيضاً بالملائكة، فقد صرحت الآية ١١ من سورة السجده قائله: «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ. . .». وقالت الآية ٨ من سورة النحل: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ» .

ويعلم أرباب التفسير وأهل التحقيق فى القرآن أن ليس هنالك أى تعارض بين الآيات الثلاثه المذكوره، وذلك لأن السنه الإلهيه جرت فى تفويض الملائكه تدبير شؤون الخلق وأمور العالم، وعليه فالفعل المذكور هو فعل الله سبحانه من جانب حيث منه يصدر الأمر، وهو فعل الملائكه من جانب آخر كونها تباشر ذلك العمل، على سبيل المثال يقال الحاكم الفلانى جدد بناء المسجد الحرام فى التاريخ الفلانى، يعنى أنه أصدر أوامره للمهندسين والمقاولين والبنائين بمباشرة ذلك البناء، هذا من جهه.

ومن جهه أخرى: لملك الموت معنى الجنس، ونعلم أن الجنس يستعمل فى مفهوم العموم ومعنى الجمع أيضاً.

واستناداً لما مرّ معنا فإن قبضه الأرواح هو طائفه من الملائكه يباشرنا ذلك العمل بأمر الله سبحانه وكبير هذه الملائكه هو «عزرائيل» .

ويعتقد البعض بأن الملكين المأمورين بكتابه أعمال الإنسان هما اللذان يتوليان قبض روح الإنسان إذا انتهى أجله، ولعل العبارة الواردة فى الآية الشريفه: «وَكُلَّ بِكُمْ» أشارت إلى هذا المعنى.

ولما كان الصلحاء والأتقياء يتميزون بجميع خصائصهم عن الطلحاء والتمهتكين، فمن الممكن أن تختلف الملائكه التى تتولى قبض أرواحهم، ولقبض الروح الطاهره لعظماء الناس كالنبي الأكرم صلى الله عليه و آله، فإن شخص ملك عزرائيل عليه السلام هو الذى يتولى هذه المهمه (١).

٢ - كيفية قبض الأرواح

تبدو قضيه قبض الروح مبهمه وغامضه لدينا على غرار الابهام الذى يكتنف ولوج

ص: ٣٧

١ - ١) وردت إشاره لهذا المعنى فى روايه عن على عليه السلام (بحار الانوار ٦/١٤٢، ح ٦) .

الروح فى البدن، وكل الذى نعرفه بهذا الخصوص هو قطع الرابطة القائمة بين الروح والجسد حين قبض الروح، ولكن كيف يحصل ذلك وبأيه صيغه؟ فهذا ما يكتنفه الغموض والابهام.

ويبدو أنّ كل ما ورد فى الروايات الإسلاميه يكون من قبيل التلميحات والتشبهات، وإلا فليس لدينا سجناء عالم الماده من سبيل إلى مثل هذه الأمور المتعلقه بعالم ما وراء الطبيعه.

فهل ملك الموت كائن فى موضع - كما ورد فى بعض الروايات - والدنيا لديه كالدرهم فى كف اليد يقلبه كيف يشاء بحيث يتوفى كل أحد إذا ما صدر أمر وفاته، فيقبض روحه، أم أنّ ملائكه الموت انتشروا فى كل مكان من العالم ويتجهون لقبض الأرواح إذا حان أجلها؟

لقد ذكرت ثلاثه احتمالات فى الخطبه بشأن الأطفال الذين تقبض أرواحهم وهم أجنه فى بطون أمهاتهم:

الأول: ورود ملك الموت فى أحشاء الأم من بعض جوارحها.

والثانى: يدعو روح الجنين اليه وهو فى الخارج.

الثالث: كونه مع الجنين فى أحشاء الأم منذ البدايه، ولذا عدم ترجيح الامام عليه السلام أحد هذه الاحتمالات الثلاثه إشاره الى حقيقه أنّ صعوبه إدراكنا لجزئيات هذه الأمور بفعل وجودنا فى عالم الماده.

وقد ركز بعض شراح نهج البلاغه على الاحتمال الثانى من بين الاحتمالات الثلاثه المذكوره، ولعل دليلهم فى ذلك ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قيل لملك الموت عليه السلام: كيف تقبض الأرواح وبعضها فى المغرب وبعضها فى المشرق فى ساعه واحده؟

فقال: أدعوها فتجيبني، قال: ثم قال ملك الموت: إنّ الدنيا بين يدي كالقصبه بين يدي أحدكم يتناول منها ما شاء» (١).

ص: ٣٨

مِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي ذَمِّ الدُّنْيَا

نظرة إلى الخطبة

تحدّث الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن عدّة مسائل مهمّة مرتبطة مع بعضها البعض الآخر.

فقد حذر عليه السلام في القسم الأول من الخطبة من الدنيا، ثم ذكر عيوبها ومصائبها، حيث شبّهها بالدار الآيلة للسقوط فلا ينبغي الاغترار بها، ثم واصل في القسم الثاني كلامه بهذا الخصوص موصياً بعدم نسيان الموت والزهد في الدنيا من خلال عدم التعلّق بها.

وأخيراً اختتم الخطبة بالإشارة إلى تشتت المسلمين واختلافهم وإسناد ذلك إلى التهافت على الدنيا، وإنّ صلاح المجتمع في الحذر منها.

ص: ٣٩

١-١) سند الخطبة: ذكر البعض هذه الخطبة كل من الزمخشري في أوائل كتاب «ربيع الأبرار» والآمدي في كتاب «غرر الحكم» باختلاف طفيف يفيد أنّه نقلها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٤٧).

القسم الأول: التحذير من الدنيا

«وَأَحَدِرْكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعِهِ. وَلَيْسَتْ بِدَارِ نَجْعِهِ. قَدْ تَزَيَّنَتْ بِعُزُورِهَا، وَغَرَّتْ بِرِيئَتِهَا. دَارٌ هِيَ أَنْتَ عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلَالَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتِهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلُوقَهَا بِمَرِّهَا. لَمْ يُصِفِ فِيهَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَلَى أَعْيَادِهِ. خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ. وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسَلَبُ، وَعَامِرُهَا يَحْرَبُ. فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمُرُ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ، وَمِدَّةُ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ! اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلِبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ. وَأَسْجِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ» .

الشرح والتفسير

إتجه الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة نحو ذم الدنيا وأصحابها المتكالبين عليها، ثم حقرها وعدد عيوبها بما يوقظ كل عاقل وينبهه إلى أنّ الدنيا لا يمكنها أن تكون سبيل للنجاح وأداه للسعادة.

فقد استهل عليه السلام الخطبة بتحذير مخاطبيه بما فيهم الناس آنذاك واليوم وسائر الأفراد في كل العصور من الدنيا قائلاً: «وَأَحَدِرْكُمْ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعِهِ. وَلَيْسَتْ بِدَارِ نَجْعِهِ» .

«القلعه» بضم القاف وسكون اللام المشتقه من ماده «قلع» الموضع غير المستوطن الذي يجب أن يرحل عنه الإنسان في أى زمان.

و «النجعه» بضم النون عكس سابقتها فهى تعنى الموضع الذى عثر فيه الإنسان على الخير

والبركة، وقد عزم قطعاً على الاستقرار فيه، وعليه فمفهوم كلامه عليه السلام أن الدنيا منزل مؤقت عابر ولا قيمة لها لكي يتخذها الإنسان موضعاً للإقامة والاستقرار، ثم واصل عليه السلام الكلام بالإشارة إلى أدلّة المطلب السابق ليقول: «قَدْ تَزَيَّنَتْ بِعُزُورِهَا، وَعَزَّتْ بِزِينَتِهَا. دَارٌ (١) هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا، فَخَلَطَ حَلَالُهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرُهَا بِشَرِّهَا، وَحَيَاتُهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلُوهَا بِمُرِّهَا» .

إذا أردت الحصول على الرزق الحلال فإنّ عليك أن تتحمل آلاف المصاعب والمعاناة وأن تتجاوز الطرق الوعرة والمطبات الشائكة، كما عليك أن تعد بدنك لوخز الأشواك كلما حاولت غرس الزهور، وإن إبتغيت العسل فما عليك إلّا أن تتوقع لدغ الزنابير، فالواقع هناك أفعى كامنه في كل كثر ومراره في كل حلاوه، وعلى سبيل المثال فمن لم يرزقه الله الولد عاش الهم والغم الذي يثقل كاهله ويكدر روحه، ولكن ما إن يرزق الولد حتى يواجه سيل المشاكل التي تعقب ذلك، وهكذا سائر النعم التي يثير فقدانها الغم ووجودها التعب والإرهاق.

ثم أكد عليه السلام ذلك الكلام على أنه هو السبب الذي لم يجعل الله سبحانه يرضها ثواباً لأوليائه ولم يمنعها عن أعدائه: «لَمْ يُصْفِهَا (٢) اللَّهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ (٣) بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ» .

نعم، لو كان متاع الدنيا ثمين لخصّ بها الحق سبحانه أوليائه وزواها عن أعدائه، لكنّها لما كانت زهيده لا قيمة لها، فهو يهبها لكل شخص.

ثم أضاف عليه السلام: «خَيْرُهَا زَهِيدٌ وَشَرُّهَا عَتِيدٌ (٤). وَجَمَعَهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ، وَعَامِرُهَا يَحْرَبُ» .

والعجيب ليس هناك من تدريج في هذه التغييرات وزوال النعم وانهايار الحكومات وخراب المعمور، بل أحياناً يتغير كل شيء خلال ساعة، بل في برهه من الزمان والتاريخ مليء بمثل هذه الحوادث المرعبة والتي تنطوي على العبر والدروس.

فكيف والحال هذه يتعلق بالدنيا عاقل؟ ويتق بنعمها؟ ويفرح باقبالها ويحزن لإدبارها؟

ص: ٤٢

١ - ١) وردت هذه العبارة في سائر النسخ بهذه الصيغة «دار هانت على ربّها»، بينما يبدو أنّها وردت خطأ في نسخه صبحي الصالح والتي أقتبست منها هذه النسخة بهذه الصيغة «دارها هانت» .

٢ - ٢) «لم يصفها»: من مادة «الاصفاء» بمعنى الاختصاص إشاره إلى تفاهه نعم الدنيا بحيث منحها الله الجميع.

٣ - ٣) «لم يضمن»: من مادة «الضمن» بمعنى البخل.

٤ - ٤) «عتيد»: من مادة «عتاد» على وزن جواب بمعنى حاضر وتأتى بمعنى الإدخار.

ثم واصل الإمام عليه السلام الكلام بهذا الخصوص من خلال طرحه على شكل سؤال، لينطلق الجواب عليه من باطن قلب المخاطب فيكون له أثره البالغ والعميق: «فَمَا خَيْرٌ دَارٍ تَنْقُضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ، وَعُمُرٍ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ، وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ!». .

لقد استعمل الإمام عليه السلام قمه الفصاحة والبلاغة في هذه التشبيهات الثلاث، فقد شبه بادية الأمر الدنيا بدار خاويه باليه قد انفطرت جدرانها وأشرفت سقوطها على الانهيار، ثم شبه عمر الإنسان بالأطعمه التي توضع على المائدة وتأخذ بالتناقص مع مرور الزمان إثر تناولها، وأخيراً شبه فتره بقاء الإنسان في هذا العالم بالأسفار القصيره التي لا يكاد المسافر يحث خطاه فيها حتى ينقطع أمدها.

ثم إختتم عليه السلام هذا القسم من الخطبه بثلاث وصايا خاطب بها الجميع فقال: «اجْعَلُوا مِثْلَ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ، وَاسْأَلُوهُ مِنْ آدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمُ، وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ». .

فقد أوصى الناس في العبارة الأولى أن يهتم الناس على الأقل بالفرائض الشرعية بقدر طلباتهم الشخصية فيجدوا ويجتهدوا في هذا الأمر، لا أن يجعلوا الصداره لحاجاتهم الدنيويه ويهمشوا الفرائض الإلهيه والواجبات الشرعيه.

كما يحتمل أن يكون المراد اجعلوا التوفيق للإتيان بالفرائض والواجبات الشرعيه من حاجاتكم وطلباتكم بين يدي الله تبارك وتعالى، غير أن المعنى الأول يبدو هو الأنسب وذلك للإشاره إلى هذا المعنى والتي وردت في العبارة الثانيه إذ قال: «وَاسْأَلُوهُ مِنْ آدَاءِ حَقِّهِ»، وعليه سيكون تفسير الجملتين تكرار لمفهوم واحد.

وأخيراً أشارت العبارة الثالثه إلى التأهب والاستعداد لمواجهة الموت من خلال أداء حقوق الناس والتوبه من الذنوب وتدارك ما فرط، وبخلافه فإن الموت سيباغت الإنسان ويقذف به في عالم لم يعد العده لدخوله.

«إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا، وَيَسْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسُهُمْ وَإِنْ اِعْتَبَطُوا بِمَا رَزَقُوا. قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الآخِرِ، وَحَضَرَ تَكْمُ كَوَادِبِ الآمِلِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الآخِرَةِ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الآجِلَةِ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ مِمَّا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْتُ السَّرَائِرِ، وَسُوءِ الضَّمَائِرِ. فَلَا تَوَازُونَ وَلَا تَنَاصِحُونَ، وَلَا تَبَادُلُونَ وَلَا تَوَادُّونَ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى ثلاث نقاط تكمل المقطع المذكور من الخطبه وتؤكدده، وهي مقدمه للقسم القادم من الخطبه.

فقد إتجه أولاً إلى وصف الزهاد في الدنيا ليتضح وضع كل فرد من خلال مقارنه أحوال المخاطبين مع أحوال أولئك، فذكر ثلاث خصائص يتحلى بها الزهاد قائلاً: «إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا» .

صفتهم الثانيه تكمن في شدّه حزنهم رغم فرحهم وسرورهم: «وَيَسْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا» .

وأما صفتهم الثالثه فهم ناغمون على أنفسهم ساخطون عليها (وهم ليسوا راضين عن أعمالهم وطاعتهم) رغم شكرهم الله سبحانه وتعالى على موفور الرزق والنعمة: «وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسُهُمْ وَإِنْ اِعْتَبَطُوا (١) بِمَا رَزَقُوا» .

ص: ٤٥

١ - ١) قرأها أغلب شراح نهج البلاغه مبنيه للمجهول بينما قرأها البعض الآخر مبنيه للمعلوم ففهموا من العبارة شبيه ما ذكر، والحال يتبين من الرجوع إلى المتون اللغويه أن للاعتباط معنى آخر هو السرور وحمد الله وشكره على نعمه (انظر لسان العرب والقاموس وسائر المصادر اللغويه) .

نعم، فعيون قلوبهم باكية لما يرون في أنفسهم من نقائص وعيوب وما يتندر منهم من زلات أحياناً، وإن عاشوا حاله من السرور والضحك على مستوى الآداب الاجتماعيه والأخلاقه، إنهم يأسفون على ماضيهم ويغتمون لما كانت في أيديهم من فرص لم يستثمروها، رغم ما هم عليه ظاهرياً من الفرح والسرور، إلى جانب ذلك فإن لسانهم يلهج بحمد الله وشكره على ما حباهم به من نعم ماديه ومعنويه من جهه، ومن جهه أخرى فهم لا- ينفكون عن مقتهم لأنفسهم وتوبيخها لشعورهم بالتقصير في عدم استثمارها بالشكل الصحيح.

وخاصه القول فهم في مقام النقد لأنفسهم وإصلاح نقائصهم ومعايبهم المعنويه وهذا هو السبب في حركتهم التكاملية نحو الله سبحانه، فهم لا يقنعون بوضعهم السائد قط ليكون ذلك مدعاه لتخلفهم وإنحطاطهم.

ثم شرح في النقطة الثانيه وضع مخاطبيه ليقارنوا أنفسهم بالزهاد فيقفوا على عيوبهم، وقد بين لهم ثلاث صفات: «قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الْأَجَالِ، وَحَضْرَتُكُمْ كَوَاذِبُ الْأَمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الْآجِلَةِ» .

نعم، فالدنيا تستولى على عقل الإنسان وفكره وينسى الآخرة إذا ما غاب عن قلبه ذكر الموت وإنهمك في هذه الدنيا العابره واحاطه القلب بالأمانى الخياليه الكاذبه.

ثم إختتم عليه السلام هذا المقطع من الخطبه ببيان هذه النتيجة: «وَأِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إِلَّا خُبْتُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ. فَلَا تَوَازَرُونَ (١) وَلَا تَنَاصِحُونَ، وَلَا تَبَاذُلُونَ وَلَا تَوَادُّونَ» .

فالعبارة تشير إلى توفر سبل الوحده بينكم من خلال الإخاء الإسلامى وقد تصدعت هذه السبل بفعل الاختلافات التي تستند إلى التعصب والحقد والحسد وحب الدنيا وضيق الأفق، فأدى ذلك بالتبع إلى ضعف الأمن الداخلى والعجز أمام العدو الخارجى وبالنتيجه قطعت عنكم البركات الاجتماعيه كالتعاون والموازره وإسداء الخدمات المتبادله أو اصر المحبه والصدافه.

ص: ٤٦

(١- ١) «لا توازرون»: من ماده «موازره» بمعنى التعاون والمساعده.

فهذه العبارة تشير بوضوح إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ حبّ الدنيا وخبث السريرة وسوء التّيه والأخلاق لا يفسد الآخرة فحسب، بل يحيل المجتمع البشري إلى بؤره للتوتر والنزاع والاصطدام بحيث تنعدم فيه مظاهر التعاون والمساعدة.

ص: ٤٧

«مَا بِالْكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَخْزُنْكُمْ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمْ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذِلَّتُكَ فِي وُجُوهِكُمْ، وَقَلَّ صَبْرُكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مَقَامِكُمْ. وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ. وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلَّا مَخَافَهُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ. قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الْأَجْلِ وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينَ أَحَدِكُمْ لَعْنَةً عَلَى لِسَانِهِ. صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَّغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ» .

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام - في القسم من الخطبه والذي يمثل آخرها - أصحاب الدنيا وهو يسعى لإيقاظهم من سباتهم وغفلتهم من خلال الذم واللوم القائم على أساس الدليل والبرهان فقال: «مَا بِالْكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلَا يَخْزُنْكُمْ الْكَثِيرُ مِنَ الْآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ! وَيُقْلِقُكُمْ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذِلَّتُكَ فِي وُجُوهِكُمْ، وَقَلَّ صَبْرُكُمْ عَمَّا زُوِيَ (١) مِنْهَا عَنْكُمْ! كَأَنَّهَا دَارُ مَقَامِكُمْ. وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ» .

نعم، هذا حال أغلب أهل الدنيا الذين لا يخزنهم فوات الأمور المعنويه بينما تنقلب أحوالهم لأدنى ضرر مادي يحيق بهم، على سبيل المثال ليس هناك ما يقلقهم إذا فاتتهم صلاه الفجر

ص: ٤٩

١-١) «زوى»: من ماله «زى» على وزن حى بمعنى الجمع والأخذ والإبعاد والمراد بها فى العبارة الفقدان والإبعاد حيث وردت بصيغه الفعل المجهول مقرونه بالفعل عن.

لعدّه أيام متتاليات، أو لا يغمون إن حرموا لسنوات من فيوضات التهجد وقيام الليل، بينما يضجرهم خسران بضعة دارهم، فلا يتمالكون أنفسهم عن الزعيق بمن حولهم، ولعل هذا التفاوت الواضح والمخجل يستند إلى أحد أمرين: إمّا ضعف إيمانهم بالآخرة والوعد والوعيد الإلهي، أو أنهم مؤمنون بالآخرة والوعد والوعيد غير أنّ الهوى قد أحاط بقلوبهم واستولى على أنفسهم وسيطرت عليهم الغفلة بحيث لم يعودوا يروا سوى الدنيا وحطامها ومتاعها الزائل.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن نقطه ضعف أخرى يمتاز بها طلاب الدنيا والتي تتمثل بعدم قدره أى أحد منهم على التعرض لعيوب أخيه (بهدف الإصلاح والنهي عن المنكر) ما ذلك إلّا خشية أنّ يجابهه بنفس ذلك العيب: «وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبَلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ، إِلَّا مَخَافَهُ أَنْ يَسْتَقْبَلَهُ بِمِثْلِهِ» .

فالعباره تشير إلى حرمانهم من إصلاح بعضهم البعض الآخر رغم إتصافهم بكل تلك العيوب الناشئه من حبّ الدنيا، وذلك لأنّه لا يجراً أحد منهم أن يتصدى للإصلاح فهو يخشى الردّ من الآخرين الذين ينبرون له ويقولون: إنّ هذا العمل أو ذاك شيئاً فلم نفعله؟ وإن كنت طيباً فهلمّاً عالجت نفسك قبل أن تهتم بعلاج الآخرين (طبيب يداوى الناس وهو عليل)؟ وهل يصح اطلاق الحجر ممن كان بيته من الزجاج؟!

ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالقول كأنكم قد اتفقتم على نبذ الآخرة والذوبان فى الدنيا وقد أصبح الدين لقلقه لسان، وأنكم لأشبه بمن قام بعمله وأحرز رضى سيده ومولاه: «قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الْآجِلِ وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينَ أَحَدِكُمْ لُغْقَهُ (١) عَلَى لِسَانِهِ. صَنِيعَ مَنْ قَدْ فَرَّغَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ» .

قد تحصل أحياناً بعض الأفعال الشائنه بين الناس دون أن يكون هناك إتفاق مسبق عليها، إلّا أنّها على درجه من التناغم والتنسيق والانسجام وكأنّهم حضروا عدّه جلسات مخططه ومبرمجه، وقد اتفقوا على كل شىء، وما هذا إلّا التشابه الدوافع فى مثل هذه الأمور،

ص: ٥٠

١- ١) «لغقه»: من ماده «لغق» على وزن فرق بمعنى لحس الشىء وتطلق اللغقه على القليل من الطعام الذى يجعله الإنسان بأصبعه أو ملعقه صغيره على لسانه ويتلعه بسرعه، وهى كناية عن الشىء المختصر.

وأحد مصاديقها الواضحه يتمثل بعدم المبالاه بالقضايا المرتبطه بالآخره والخلود إلى الدنيا الماديه.

يمكن أن يكون مثل هؤلاء الأفراد الطلاب للدنيا من المتدينين ظاهرياً، غير أن تدينهم لا يتجاوز سلسله من الشعارات والمزاعم والألفاظ وأحياناً القليل من العبادات، والمفرده «لعهه» تشير إلى هذا المعنى، وقد يعيشون أحياناً حاله من الرضى عن أنفسهم وكأنهم عملوا بكل تكاليفهم الشرعيه ووظائفهم الإنسانيه وقد فازوا بمقام القرب الإلهى وبلوغ رضاه، والواقع هذا انحراف خطير أشار الإمام عليه السلام إليه فى آخر هذه الخطبه.

ص: ٥١

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

وفيها مواعظ للناس

نظره إلى الخطبه

مزج الإمام عليه السلام القسم الأول من هذه الخطبه حمد الله والثناء عليه بعبارات تكشف معالم طريق معرفه الله تعالى وتعلم الإنسان اسلوب الشهاده بالإخلاص، كما تبين أهميه الشهاده بالوحدانيه والنبوه وذلك بعبارات عميقه المعنى، وفي القسم الثانى من الخطبه دعى الجميع إلى التحلى بالورع والتقوى وتطرق إلى آثارها وبركاتها التى تنعكس على حياه الإنسان.

أما القسم الثالث فقد جرى فيه الحديث عن تقلب أحوال الدنيا وسرعه زوال النعم وعدم بلوغ الأمانى وقصر الحياه الدنيا، وأخيراً القسم الرابع الذى تضمن مختلف النصائح والمواعظ البالغه حيث دعى الجميع إلى طاعه الله سبحانه وحذرهم من نسيان الآخره والانغماس فى مخالف الغفله والغرور بالحياه الدنيا، ولا يخفى على أحد الترابط الوثيق بين الأقسام الأربعة

ص: ٥٣

١ - ١) سند الخطبه: ورد قسم مهم من هذه الخطبه فى كتاب «تحف العقول» الذى يحتمل تأليفه قبل نهج البلاغه، وقد نقل الزمخشري مقطوعها الأول فى أوائل كتابه «ربيع الابرار» والقسم الآخر فى أوائل المجلد الثانى من ذلك الكتاب، ويتضح من الفرق بين نقله ونقل السيد الرضى قدس سره أنه إقتبسها من مصدر آخر غير نهج البلاغه، كما نقلها مع اختلاف طفيف القاضى القضاعى (وهو من علماء القرن الخامس ومن مقربى أحد خلفاء الدوله الفاطميه فى مصر) فى كتابه «دستور معالم الحكم» والمرحوم الشيخ الطوسى فى الآمالى (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٥٢).

وتبلورها في عرض سلسله من المواعظ المتسقه.

أما فصاحه وبلاغه هذه الخطبه ولطافه وعذوبه عباراتها ليتبين ممّا صرّح به صاحب كتاب «الطراز» الإمام يحيى الزيدى (من علماء القرن الثامن) في ختام هذه الخطبه إقال: «لَوْ كَانَ كَلَامٌ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ مُعْجِزَةً لَكَانَ هَذَا هُوَ الْأَوَّلُ وَلَوْ أَعْجَزَ شَيْءٌ مِنَ الْكَلَامِ بَعْدَ كَلَامِ اللَّهِ لَكَانَ هَذَا هُوَ الثَّانِي» (١).

ص: ٥٤

١-١) مصادر نهج البلاغه ٢/٢٥٢. [١]

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى آلائِهِ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلَائِهِ. وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هَذِهِ النُّفُوسِ الْبِطَاءِ عَمَّا أَمَرَتْ بِهِ، السَّرَاعِ إِلَى مَا نُهَيْتَ عَنْهُ. وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَخْصِيَاهُ كِتَابُهُ: عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ، وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ، وَتَوْمِنٌ بِهِ إِيمَانٌ مِنْ عَيَايِنِ الْغُيُوبِ وَوَقْفٌ عَلَى الْمُوعُودِ، إِيمَانًا نَفَى إِخْلَاصُهُ الشُّرَكَ، وَيَقِينُهُ الشُّكَّ. وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُضِيحَانِ الْقَوْلَ وَتُزْفَعَانِ الْعَمَلَ. لَا يَخْفُ مِيزَانٌ تَوْضَعَانِ فِيهِ، وَلَا يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُزْفَعَانِ عَنْهُ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبه إلى مسائل مهمه في جانب حمد الله والثناء عليه والاستعانه بذاته المقدسه والاستغفار من الذنوب والمعاصي، فقال باديء ذي بدء: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ» .

قرن الحمد بالنعمة يستند إلى أن حمد الله تعالى بنعمه وشكره يجعل الإنسان جديراً بالنعمة، فهذا الحمد يجعل العباد يتمتعون بنعمه وأفضاله، كما تعود علاقته النعمه بالشكر إلى أن النعمه سبب الشكر، وذلك لأن العباد مكلفون بشكر كل نعمه، فالشكر واجب على كل نعمه (الواقع هو أن الحمد يشكل السبب التكويني للنعم والنعم السبب التشريعي للشكر) ، والشاهد على ذلك ما ورد في الخطبه ١٥٧ إذ قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ» .

طبعاً يمكن أن تكون هناك عدّه تفاسير أخرى للعبارتين المذكورتين من حيث تفاوت العلّه والمعلول، غير أن ما ورد هو أنسبها جميعاً.

ثم قال عليه السلام في المسأله الثانيه: «نَحْمِدُهُ عَلَى آيَاتِهِ، كَمَا نَحْمِدُهُ عَلَى بَلَائِهِ». في إشاره إلى أنّ البلاء الإلهي هو في الواقع نوع من النعم، كما بيّنا ذلك في بحثنا لفلسفه الآفات والبلاء ضمن مباحث التوحيد والعدل، فقد يكون البلاء سبباً لليقظه والعوده إلى الله تعالى وترك المعاصي أحياناً، وقد يكون أحياناً أخرى بلاءً ظاهراً، لكنّه نعمه باطنياً، غير أننا لا نميز ذلك، فربّما يكون البلاء كفاره للذنوب كما قد يكون وسيله لمعرفة قدر النعم وذلك لأنّ الإنسان قد لا يعرف قيمه النعم إلّا أن يفقدها ويتعرض إلى بعض الشدائد، وإلّا فالحكيم تبارك وتعالى لا يعرض شخصاً للبلاء عبثاً، وعليه فبلاؤه رحمه ودأؤه دواء.

ثم قال في المسأله الثالثه: «وَنَشْتَعِينُهُ عَلَى هَذِهِ النُّفُوسِ البِطَاءِ (١) عَمَّا أَمَرَتْ بِهِ، السَّرَاعِ إِلَى مَا نُهَيْتَ عَنْهُ».

إشاره إلى النفوس البشريه ما لم تبلغ المرحله المتكامله للنفس المطمئنه فهي ضعيفه في الإتيان بالوظائف الشرعيه وإمتثال الأوامر الإلهيّه ومسارعه في مقارفه الذنوب التي تنسجم والغرائز الحيوانيه، ويتعذر تجاوز مرحله النفس الأماره وبلوغ مرحله النفس اللوامه والوصول إلى النفس المطمئنه ما لم تكن هناك نصره الله ومدده.

ثم قال عليه السلام: «وَنَشْتَعْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ، وَأَخْصَاهُ كِتَابُهُ: عَلِمَ غَيْرَ قَاصِرٍ، وَكَتَابَ غَيْرِ مُعَادِرٍ».

فالعباره تشير إلى أننا إن لم نستغفر من الذنوب ولم نجل صدأ القلوب فسوف لن يسعنا التخلص من وساوس النفس والفوز بمقام القرب وبلوغ تلك المرحله من الإيمان التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً، والواقع هو أنّ الاستغفار تكميل للبحث السابق ومقدمه للبحث القادم.

أمّا القضية الأخيره فقد تناولت النتائج النهائيه لهذا البحث فقال: «وَتَوْمُنٌ بِهِ إِيْمَانٌ مِنْ عَايِنِ الغُيُوبِ وَوَقْفَ عَلَى المَوْعُودِ، إِيْمَاناً نَفَى إِخْلَاصُهُ الشُّرُكَ، وَيَقِينُهُ الشُّكَّ».

ص: ٥٦

إشاره إلى خلاص الإنسان من وساوس النفس إذا ما مزج حمد الله تعالى والثناء عليه بشكر النعم، وخرج سالماً معافى من ميدان الامتحان وتغلب على هواه ونزع عن ذنوبه وتاب من معاصيه آنذاك له أن يبلغ كمال الإيمان، الإيمان الذى يبلغ به درجه الشهود، وكأنه يرى الله ببصيرته ويشاهد بأَم عينيه الجنه والنار وثواب المحسنين وعقاب المسيئين، الإيمان المتزّه عن كافه أشكال الشرك واليقين الذى لا يتطرق إليه الشك.

نعم، فاليقين على مراتب: المرتبه الأولى وهى مرحله التى يتجه إليها الإنسان بواسطه البرهان والاستدلال التى يصطلح عليها باسم «علم اليقين»، والمرتبه الثانيه وهى مرحله التى يصلها الإنسان عن طريق الشهود وكأنه يرى من بعيد الأنوار الإلهيه وعرصه الحشر يوم الحساب، وهى مرحله المسماه «عين اليقين» يلمس جميع الأشياء، فالأنوار الإلهيه تحيطه من كل جانب ونسيم الجنه المنعش يداعب ظلال روحه ويتكدر لنيران جهنم المحرقه، وهى مرحله التى تدعى «حق اليقين»، وعلى هذا فالمراد بالعباره عاين ووقف هو تلك مرحله النهائيه للإيمان واليقين التى تبلغ فيها الإنسان مقام الشهود عن قرب وبالعاينه.

وأخيراً يتوجه الإمام عليه السلام صوب الشهاده بالتوحيد والنبوه ليختتم به هذا المقطع من الخطبه، فقال: «وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، شَهَادَتَيْنِ تُضِيحَانِ الْقَوْلَ وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلَ. لَا يَخْفُ مِيزَانُ تَوْضَعَانِ فِيهِ، وَلَا يَنْقُلُ مِيزَانُ تَرْفَعَانِ عَنْهُ».

فى إشاره إلى أنّ الشهاده بالوحدانيه والنبوه إن انطلقت من أعماق النفس البشريه وظهرت أثارها على القول والعمل، فإنها على درجه من الطهر الاخلاص بحيث تشكل أثقل الأوزان فى ميزان الأعمال يوم القيامة حتى لا يخف ذلك الميزان بوجودها، والعكس صحيح لا ثقل لذلك الميزان مهما وضع فيه دونها.

ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى لو أنّ السموات وعمريهنّ عندى، والأرضين السبع فى كفّ ولا إله إلا الله فى كفّ، ما لّت بهنّ لإله إلا الله» (١).

ص: ٥٧

١- ١) ثواب الأعمال، ([١] حيث نقل شرح نهج البلاغه، للعلامة الخوئي ٨/٥٧) وهذا هو الحديث الأول الذى ورد فى كتاب ثواب الأعمال. [٢]

وبالطبع ليس المراد بالزنه هنا الأوزان وما يرتبط بها عن ميزان، بل المراد زنه القيم على ضوء المعايير العقلية والمعنويه.

تأمل

أسس الموقية والنجاه

بين الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه والذي يشكل في الواقع مقدمه للقسم الثاني الذي يتحدث عن أهميه التقوى وآثارها، حقيقه جذور الورع والتقوى والتي يكمن أهمها في الإيمان واليقين والمعرفه، والإيمان القوى والراسخ الذي يبلغ بصاحبه درجه تجعله كأنه يرى الله ويشاهد نعم الجنه ونيران جهنم، ومما لا شك أن مثل هذا الإيمان هو ماده التقوى.

أضف إلى ذلك فقد أشار إلى الموانع الأصلية لهذا الأمر والتي تتمثل بالنفس الطائشه على أن الاستعانه باللطف الإلهي، هو سبيل النجاه منها وقد تطرق إلى ما ورد في سوره يوسف وشأنه مع زليخا: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» (١).

حيث استعان بعدّه وسائل من أجل بلوغ هذا الهدف ومن ذلك حمد الله والثناء عليه وشكره على النعم والبلاء والحديث عن التوبه والاستغفار بصفته أحد العوامل المؤثره في التوفيق في هذا المسير، وما أن يتم الانتهاء من هذا البرنامج الإلهي حتى يشرع بحث التقوى على أنه من الأبحاث المداعبه للقلب والتي تختزن تعتبر غايه في التأثير ولو استفاد المرّبون وأساتذه درس الأخلاق من هذا الطريق الذي علمناه الإمام عليه السلام لتحقيق هذا الهدف لما كان هناك من شك في تأثير حديثهم ونفوذ كلامهم.

ص: ٥٨

القسم الثاني: أعظم الفضائل

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَادُ: زَادٌ مُبْلَغٌ، وَمَعَادٌ مُنْجِحٌ. دَعَا إِلَيْهَا أَسْمِعُ دَاعٍ، وَوَعَاَهَا خَيْرٌ وَاعٍ. فَاسْمِعْ دَاعِيَهَا وَفَارِزَ وَاعِيَهَا.

عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مَحَارِمَهُ. وَالزَّمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَسِيَهَرَتْ لَيْالِيَهُمْ، وَأَظْمِيَتْ هَوَاجِرَهُمْ. فَأَخَذُوا الرِّاحَةَ بِالنَّصَبِ، وَالزِّيَّ بِالظَّمَامِ. وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلَاحِظُوا الْأَجَلَ» .

الشرح والتفسير

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام عن تلك المقدمة الرصينه والوثيقه فى المقطع الأول من هذه الخطبه، إتجه إلى أهم فضيله من الفضائل التى يكتسبها الإنسان وهى التقوى، فقد أشار فى البدايه إلى آثارها الأخرويه، فقال: «أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ وَبِهَا الْمَعَادُ: زَادٌ مُبْلَغٌ، وَمَعَادٌ مُنْجِحٌ» .

من البديهي أن يحتاج الإنسان فى أسفاره الطويله المليئه بالأخطار والمخاوف إلى شيئين: الزاد والمتاع اللازم والمنازل والأماكن التى تحفظه من المخاطر، وهو ما صرح به القرآن الكريم بقوله: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . . .» (١).

ص: ٥٩

وما اقتصه من خير يوسف عليه السلام حين لاذ بالتقوى كسبيل للنجاه حين وقف على حافة خطر هاويه الذنب: «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ . . .» (١).

حقاً إنّ التقوى كهف حصين وأمين وراسخ إزاء السيول الجارفة لأهواء النفس ووساوس الشيطان وحصن حصين للنجاه من نار جهنم يوم القيامة وأفضل زاد ومتاع في هذا السفر المليء بالخوف والخطر.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالحديث عن أهميّة التقوى في أنّ من دعا إليها أسمع داع نافذ الكلمة (إشاره الله تبارك وتعالى، أو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أو جميع الأنبياء والأولياء) وقد وعى تلك الدعوه خير واع (إشاره إلى كافه التقاه وأتباع مدارس الأنبياء): «دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ، وَوَعَاَهَا خَيْرٌ وَاعٍ. فَأَسْمَعُ دَاعِيَهَا وَفَازَ وَاعِيَهَا» .

ذهب البعض إلى أنّ المراد بالداع إلى التقوى قد يكون الله سبحانه وتعالى أو شخص النبي صلى الله عليه وآله الذي ينطق عن الله تعالى، والمقصود بواع التقوى هو على عليه السلام، ولا يبعد أن يكون لهما مفهوم عام يشمل جميع دعاه الحق ووعاته، على أنّ المنبع الأصلي هو الحق تبارك وتعالى والنبي صلى الله عليه وآله وإمام المتقين على بن أبي طالب عليه السلام.

ثم خاض عليه السلام في الآثار القيمه للتقوى في خاصه عباد الله فقال: «عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ حَمَتْ (٢) أَوْلِيَاءَ اللَّهِ مَحَارِمَهُ. وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَتَهُ، حَتَّى أَشْهَرَتْ لِيَالِيَهُمْ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ (٣)» .

طبعاً العبارتان المذكورتان بشأن الليل والنهار هما تعبيران كنهانين لطيفان، حيث المراد أصحاب الليل الذين يفيقون في جوف الليل، فيقومون للعباده والتهدد وقد أحجموا عن النوم وانهمكوا بالدعاء والمناجاه، إلى جانب صومهم نهارهم وذكرهم الله على كل حال، فالعباره تشير إلى أنّ تقوى الله هي ماده الحركه نحو جميع الفضائل والخيرات، وذلك لأنّ الإنسان حين يشعر بالمسؤوليه ينطلق في الحركه نحو إمتثال الطاعات واجتناب المعاصي

ص: ٦٠

(١-١) سورة يوسف / ٢٣. [١]

(٢-٢) «حمت»: من ماده «حمایه» بمعنى المنع، ولذلك يقال الحامى للذى يمنع عن الآخرين الخصوم والأعداء.

(٣-٣) «هواجر»: جمع «هاجره» وسط النهار في الجو الحار.

والمحرمات، وما إحياء الليل والصوم إلآجانب من آثار خشية الله تعالى التى تسمى بالتقوى.

ثم إختتم هذا المقطع من الخطبه بوصف طريقه عبوديتهم لرّبهم بأنهم آثروا المشقه والتعب على الراحة والكسل والعطش على الرى، وقد شعروا بقصر الدنيا ودنو الأجل وهذا ما دعاهم إلى المسارعه فى الخيرات ومبادره الأعمال الصالحه، وعدم الخلود إلى الأمل بعد أن جعلوا الموت نصب أعينهم: «فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ (١)، وَالرِّىَّ (٢) بِالظَّمِّ. وَاسْتَقْرَبُوا الْأَجَلَ فَبَادَرُوا الْعَمَلَ، وَكَذَّبُوا الْأَمَلَ فَلَا حَظَّوَا الْأَجَلَ» .

نعم، ففى الوقت الذى ينغمس فيه أهل الدعه والراحه فى مختلف الذنوب والأرجاس ترى هؤلاء يعضون الطرف عن الراحة بهدف مجانبه الذنوب والإتيان بالصالحات، وهم ليسوا كأهل الدنيا الذين خدعوا بها فوقعوا فى حباثلها وآمالها الكاذبه.

والواقع هو أنّ العبارة «فبادروا» و «فلا حظوا» هى نتيجة ومعلول للعباره «واستقربوا» و «كذبوا» يعنى من يرى قرب الأجل وسرعه العمر يبادر بالعمل، ومن يكذب الآمال يفكر بالموت ويراه أمام عينيه، والطبع فأنّ تحمل مصاعب وشدائد هذا العالم يؤدى إلى سكينتهم الخالده واستقرارهم التام، وهو ما عبّر عنه الإمام عليه السلام فى موضع آخر بقوله: «صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً» (٣).

ص: ٦١

١- ١) أعظم الفضائل «نصب»: بمعنى العناء والتعب.

٢- ٢) «الرى»: بمعنى الارتواء من الماء.

٣- ٣) نهج البلاغه، الخطبه ١٩٣ ([١] همّام) .

«ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ، وَغَيْرٍ وَعَبْرٍ؛ فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسُهُ، لَا تُخْطِيءُ سَهْمَاهُ، وَلَا تُؤَسِّى جِرَاحُهُ. يَزِمِي الْحَيَّ بِالمَوْتِ وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ، وَالنَّاجِيَ بِالعَطْبِ. أَكَلٌ لَا يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ. وَمِنَ العَنَاءِ أَنَّ المَرْءَ يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُ وَيَبْنِي مَا لَا يَسْكُنُ. ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا مَالََ حَمَلٍ، وَلَا بِنَاءَ نَقْلِ. وَمِنْ غَيْرِهَا أَنَّكَ تَرَى المَرْحُومَ مَغْبُوطًا، وَالمَغْبُوطَ مَرْحُومًا؛ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا نَعِيمًا زَلَّ، وَبُؤْسًا نَزَلَ. وَمِنْ عِبْرِهَا أَنَّ المَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَلَا أَمَلٌ يُدْرِكُ وَلَا مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَعَزَّ سُورُورَهَا وَأَظْمَأَ رِيَّهَا وَأَضْحَى فَيْئَهَا، لَا جَاءَ يُرَدُّ، وَلَا مَاضٍ يَزِيدُ. فَسُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ المَيِّتِ لِلْحَاقِقِ بِهِ، وَأَبْعَدَ المَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ!» .

الشرح والتفسير

لما كان الانغماس في الدنيا والتكالب عليها وفقدان النفس لتوازنها إزاء زخارف عالم المادة من أهم العوامل لعدم التقوى، فقد ورد الحديث هنا عن تفاهة الدنيا وتقلب أحوالها وما تنطوي عليه من شدائد ونوازل بهدف اجتثاث جذور التحلل وعدم استشعار الورع والتقوى فقال عليه السلام: «ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ، وَغَيْرٍ وَعَبْرٍ» .

حيث تشير العبارة إلى أربع خصائص تمتاز بها الدنيا والتي يقود التفكير بها الإنسان إلى التعرف على الصورة الحقيقية للدنيا، ثم خاضت العبارات التالية في شرحها الواحد بعد

الأخرى مع التطرق إلى بعض التفاصيل الدقيقة لكل واحده منها، فأشارت في البدايه إلى خاصيه فناء الدنيا، حيث صورت بعض علامات هذا الفناء في أنّ الدهر يشبه الرامي الماهر الذي يطلق سهامه دون أن تطيش وتخطيء الهدف، كما يتعذر علاج جروح من أصابته تلك السهام: «فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسُهُ، لَا تُحْطِئُ سِهَامُهُ، وَلَا تُؤَسَى (١) جِرَاحُهُ» .

فلا خلاص لأحد من الموت والعجز والمشيب والمرض والألم والعناء، ولذلك قال الإمام عليه السلام في شرحه لهذه العبارة: «يَزِيهِمُ الْحَيَّ بِالْمَوْتِ وَالصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ، وَالنَّاجِيَ بِالْعَطَبِ» . فأقوى أفراد البشر يستسلم يوماً للموت، كما يمرض الأصحاء ويهزم حتى الأبطال.

نعم، هذه طبيعه الحياه الدنيا، وهذا هو القانون الذي لا يعرف لاستثناء، والغريب في الأمر أنّ الجميع يعرف ذلك ويرونه بأعينهم ورغم كل ذلك فهم يتعلقون بالدنيا ويخلدون إليها ويغترون بها.

ثم يختتم عليه السلام كلامه بشأن توضيح فناء الدنيا قائلاً: «أَكَلٌ لَا يَشْبَعُ، وَشَارِبٌ لَا يَنْقَعُ (٢)» .

فقد كشف الإمام عليه السلام حقيقه فناء الدنيا من خلال العبارات الثمان التي أوردتها في وصف الدنيا، بحيث لا يشك من كان له أدنى عقل بفناء الدنيا وعدم دوامها.

ثم خاض عليه السلام في شرح وتفسير عناء الدنيا ومن ذلك جمعه الأموال التي لا يستفيدها جميعاً والمباني التي يشيدها دون أن يسكنها وأخيراً يودع كل ذلك وينتقل إلى عالم آخر دون أن يحمل معه شيئاً من الأموال أو الدور: «وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لَا يَأْكُلُ وَيَبْنِي مَا لَا يَسْكُنُ. ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا مَالًا حَمَلٌ، وَلَا بِنَاءً نَقَلَ» .

نعم، كثيرون هم الأفراد الذين يدّخرون أموالاً طائلة، إلّا أنّهم لا يستفيدون إلّا من جزء يسير منها وما أكثر أولئك الذين يبنون لأنفسهم أعظم القصور والدور فلا يقيمون فيها إلّا مدّة قليلة، بل قد لا يسكنونها حتى ليوم واحد، وقد رأينا بأم أعيننا إقامه مراسم العزاء على أرواحهم في تلك القصور الفخمة، فهم يتركونها في خاتمه المطاف ولا يحملون من مال الدنيا

ص: ٦٤

١-١) «توسى»: من ماده «أسو» بمعنى علاج الجرح.

٢-٢) «ينقع»: من ماده «نقع» على وزن نفع بمعنى إرواء وارتواء.

سوى الكفن، بل ربّما لم يحملوا حتى ذلك الكفن، فتكون ثيابهم أكفانهم وبيوتهم قبورهم.

ورد في البحار عن العلامة المجلسي أنّ على عليه السلام قال: «كَمْ مِنْ غَافِلٍ يَنْسِيحُ ثَوْبًا لِيَلْبَسَهُ وَإِنَّمَا هُوَ كَفَنُهُ وَيَبْنِي بَيْتًا لَيْسَ كُنُهُ وَإِنَّمَا هُوَ مَوْضِعُ قَبْرِهِ» (١).

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح الصفه الثالثه للدنيا فقال: «وَمِنْ غَيْرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطًا، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُومًا؛ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا نَعِيمًا زَلًّا (٢)، وَتُؤَسَّأَ نَزَلًا» .

حيث رأينا كراراً ليس في صفحات التاريخ فحسب، بل في حياتنا اليوميه عدّه أفراد كانوا من أهل السطوه وقمه القدره حتى يتمنى الجميع الحصول على شىء من قدرتهم، لكنهم هووا في مستنقع السقوط بما جعل الكل يترحم عليهم، وبالعكس فإننا نعرف بعض الأفراد ممن يشعر من يراهم بالأسى والحزن لصعوبه أوضاعهم ومعاناتهم، بينما تسلقوا فجأه سلّم القدره ليحظوا باعجاب الجميع وغبطتهم.

نعم، لم يكن «قارون» لوحده الذى استعرض يوماً كل تلك القدره و الثروه التى خطفت أبصار قصار النظر من بنى اسرائيل الذين اعتراهم الحسد والأمل، فتمنوا الحصول على تلك الثروه بدله، ولم تمض مدّه حتى شقت الأرض لتبتلع كل كنوزه و ثرواته، ممّا دفع من تمنى تلك الثروه إلى شكر الله أن لم يجعلهم بدلاً منه ولم يغدق عليهم الثروه والسطوه، أجل لقد تكررت هذه الصوره مراراً فى التاريخ ثم قال عليه السلام فى الصفه الرابعه للدنيا التى تختص بكونها عبره: «وَمِنْ غَيْرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ فَيَقْتَطِعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ. فَلَا أَمَلٌ يُدْرِكُ وَلَا مَوْءَلٌ يُتْرَكُ» .

فأحياناً يعدّ الإنسان عدّه مقدمات بغيه الحصول على المال والثروه أو الجاه والمنزله ولا يكاد يقترب من الوصول إلى أهدافه حتى يتخطفه الموت فيقضى على جميع طموحاته ورغباته ويحول دون تحقيقها، بل لا يدوم له حتى المال الذى يجنيه والمنصب الذى يشغله.

ثم يعرب الإمام عليه السلام فى آخر كلامه عن وحشته لمن يغترّ بمثل هذه الدنيا المليئه بالفناء والعناء والموصوفه بالغير والعبر: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَعَزَّ سُرُورَهَا وَأَظْمَأَ رِيَّهَا (٣) وَأَضْحَى

ص: ٦٥

١-١) بحار الانوار ٦/١٣٢. [١]

٢-٢) «زلّ»: من ماده «زل» على وزن حل بمعنى الانزلاق والسقوط.

٣-٣) «رى»: بمعنى الارتواء.

فَيَنْهَى، لَا جَاءَ يُرَدُّ، وَلَا مَاضٍ يَرْتَدُّ .

نعم، عابره جداً لحظات الفرح والسرور وهي أشبه بلحظات الإرتواء من النعم وزوال الفيء والظل.

يمكن أن تكون العبارة «لا- جاء يرد ولا- ماض يرتد» إشارة إلى الناس حيث تأتي طائفه لا يقدر أحد على صدها، كما تنتقل طائفه من هذا العالم وليس لأحد من قدره على إعادتها، كما يمكن أن تكون إشارة إلى حوادث الدهر شرّها وخيرها والتي لا يسع أحد الحيلولة دون وقوعها إن أبرمت وأصبحت قطيعه حتميه، كما لا- يمكن عوده ما تولى من أمور ودهور، فلا- عوده للطفوله في الشباب ولا الشباب في المشيب.

ثم إختتم عليه السلام هذا المقطع من الخطبه بهذه العبارة التي تكمل سابقتها من العبارات قائلاً: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَقْرَبَ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلْحَاقِهِ بِهِ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ لِانْقِطَاعِهِ عَنْهُ!» .

نعم، فالفاصله بين الموت والحياه قصيره جداً حتى صورتها الروايات بأنّها تكاد تكون كطرفه العين، ومن ما ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه و آله أنه قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا طَرَفْتُ عَيْنَايَ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ سَفَرِي لَا يَلْتَقِيَانِ حَتَّى يَقْبِضَ اللَّهُ رُوحِي وَلَا رَفَعْتُ طَرْفِي وَظَنَنْتُ أَنَّي حَافِضُهُ حَتَّى أُقْبِضَ وَلَا تَلَقَّنُ لُقْمَهُ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّي لَا أُسَيِّغُهَا حَتَّى أُعْضَّ بِهَا مِنَ الْمَوْتِ» (١).

إنّ من له أدنى إلمام بينه جسم الإنسان ليعلم بمدى قرب هذه الفاصله، فيكفى تخثر مقدار قليل من الدم ليغلق منافذ شرايين الفاصله أو الدماغ فيؤدّي بحياه الإنسان، بل يكفى نفوذ جزء يسير من الطعام إلى لسان المزمار بدلاً من إتجاهه إلى المعده ليختنق الإنسان ويموت من فوره، كما تكفى صدمه طبيعیه لهذا الإنسان قد توقف قلبه عن الدق وإلى الأبد.

أمّا بالنسبه للحوادث الخارجيه فبمجرد اهتزاز الأرض للحظه قد تنقلب مدينه رأساً على عقب، كما قد تأتي عاصفه أو سيل على كل شيء فتحيله خراباً لا حركه فيه ولا حياه، بل لصاعقه من السماء أن تحيل كل شيء إلى رماد.

ص: ٦٦

إلى جانب ذلك هنالك الحوادث اليومية في حياتنا المعاصره من قبيل الاصطدامات وسقوط الطائرات والحرائق والانفجارات التي تنهى حياه الأفراد خلال لحظات، نعم، تكاد تكون معدومه هي الفاصله بين الحياه والموت، ولكن من جانب آخر فإن هذه الفاصله قد تكون في غايه البعد، فلو اجتمع كافه الأطباء وأعدّوا مختلف الوسائل الطبيه، فليس لهم أن يهبوا الحياه للأموات، على غرار الوليد الذي لا يسعه الرجوع إلى بطون أمه و الثمار التي لا تعود ثانيه إلى الأشجار بعد سقوطها.

نختم الكلام بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ثَلَاثَةٌ أَشْيَاءٌ لَا يَتَّبِعِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَنْسَاهُنَّ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَنَاءُ الدُّنْيَا وَتَصَرُّفُ الْأَحْوَالِ وَالْآفَاتُ الَّتِي لَا أَمَانَ لَهَا» (١).

ص: ٦٧

«إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرِّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَيِّمَاءٌ أَكْبَرُ مِنْ عِيَانِهِ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَكْبَرُ مِنْ سَيِّمَاءِهِ. فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعِ، وَمِنَ الْعَيْبِ الْخَبْرِ. وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا. فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَاحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ! إِنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهَيْتُمْ عَنْهُ وَمَا أَجَلَ لَكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُّوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ. قَدْ تَكْفَلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ فَلَا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلْبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ، مَعَ أَنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ اغْتَرَضَ الشُّكُّ وَدَخَلَ الْيَقِينُ، حَتَّى كَانَّ الَّذِي ضَمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ الَّذِي قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ. فَيَادِرُوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَعْتَهُ الْأَجَلَ، فَإِنَّهُ لَا يُرْجَى مِنْ رَجْعِهِ الْعُمُرُ مِمَّا يُرْجَى مِنْ رَجْعِهِ الرِّزْقِ. مِمَّا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِي غَدًا زِيَادَتُهُ. وَمَا فَاتَ أَمْسٍ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ. الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي، وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي. فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» .

الشرح والتفسير

بين الإمام عليه السلام سلسله من النصائح والمواعظ في هذا المقطع من الخطبه والذي يمثل آخرها بهدف إعداد المخاطبين بحيث لو تأملها الإنسان وفكر فيها وسعه تحقيق السعاده والنجاه فقال:

«إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرِّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ» .

فالإنسان بصورة عامه يهرب من السوء والشر ويجنح نحو الخير، وقد جبل على السعى نحو جنى منفعه ودفع الضرر، فقد اعتمد الإمام عليه السلام هذا الأمر الفطرى ليدعو الناس إلى طاعه الله تعالى والابتعاد عن المعصيه والذنب فقال إنّ الأسوأ من السوء هو عقاب الله تعالى ومؤاخذته على الذنوب والأفضل من الخير هو جزاء الله تعالى وثوابه على الطاعه والاحسان، من الواضح أنّ المراد من الشر والخير (بقرينه الثواب والعقاب) هو المعصيه والطاعه، بينما يتسع معنى الشر والخير إن توسعنا فى معنى العقاب والثواب ليشمل العقاب والثواب التكويني (أى جزاء وبركات الأعمال فى الدنيا) .

وقد أورد الإمام عليه السلام مثل هذه العبارة فى موضع آخر حيث قال: «فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ» (١).

فقد إهتم الإمام فى النظره الأولى إلى النتائج ومن ثم إلى الأسباب والعلل، حقاً إنّ الذى يضمه فاعل الخير والشر أعظم ممّا يقوم به من عمل، لأنه لا يرى توفر أرضيته وأسبابه، من جانب آخر فإنّ نتائج الأعمال خالده بينما تزول الأعمال وهذا بحدّ ذاته دليل على أفضليه النتائج على نفس الأعمال.

ثم أضاف الإمام عليه السلام نقطه مهمه أخرى بهذا الخصوص فقال: «وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَيِّمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَيِّمَاعِهِ» ، هذه حقيقه فى أنّ المتع الماديه كالسراب له منظر خاص من بعيد، ولكن لا يبدو شيئاً يذكر حين يصله الإنسان، فللقصور والثروات والقدرات واللذات والمتع ظاهر أنيق من بعيد، ولكن ما أن يقترب منها الإنسان حتى يرى سيل المشاكل والمصائب، فيتمنى أحياناً أنّه لم يبلغها ويحصل عليها، فى حين ورد بشأن النعم الإلهيه الجمّه فى الآخره: «أَعِيدَتْ لِعِبَادِي مَا لَاعَيْنُ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا حَظَرٌ عَلَّ قَلْبٍ بَشَرٍ» (٢).

بل ليشعر الإنسان بالعجز عن وصف اللذه التى يعيشها فى هذه الدنيا حين مناجاته لله

ص: ٧٠

١- ١) نهج البلاغه، الكلمات القصار ٣٢.

٢- ٢) بحار الانوار ٨/١٩١ ح ١٦٨. [١]

وإحساسه بالقرب منه والفوز برضاه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأنّ الأمر إذا كان كذلك لا بدّ أن يغنيكم سماع الحقائق المرتبطه بالآخره بواسطه الأنبياء وأولياء الله سبحانه وتعالى عن رؤيتها: «فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعِ، وَمِنَ الْعَيْبِ الْحَبْرُ»، من البديهي أن يعجز الإنسان عن العالم الخارجى مادامه فى زنانه الجسد وفى دار الدنيا الظلماء الضيقه، فلا سبيل لإدراك أوضاع الآخره وتفصيلها سوى ما يوصله له هؤلاء العظام من أخبار يكتفى بها.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أمرين منطقيين بهدف التشجيع على الإتيان بالصالحات وإجتناّب السيئات فقال: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِّمَّا نَقَصَ مِنَ الْآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا. فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَاحٍ وَمَزِيدٍ خَاسِرٍ!»، وهذا هو الأمر الذى أشار إليه القرآن الكريم بوضوح إذ قال: «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ . . .» (١).

وكما قال فى موضع آخر: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ . . .» (٢).

وبناءً على هذا فالأموال والأعمار والإمكانات التى توظف فى مسار الآخره إن قلت فى الظاهر شيئاً من الدنيا، ولكن فى الواقع قد تضيف أحياناً مئة ضعف إلى ثواب الآخره، وبالعكس فإنّ الإنسان يدفع الثمن باهضاً إن أحلّ بشيء من آخرته وتنازل عن دينه وإيمانه وإنهمك بدنياه لينال شيئاً من حطامها، قال القرآن الكريم بهذا الخصوص: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَأَخْلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ . . .» (٣).

فهل هناك من عاقل مستعد لمعاوضه الصفقه الأولى المربحه بالثانيه الخاسره؟!

ثم قال الإمام عليه السلام فى الأمر الثانى: «إِنَّ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نَهَيْتُمْ عَنْهُ وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ» .

المراد من «ما أمرتم به» هنا الأمر فى مقابل الحظر، يعنى ما أجاز لكم بالنسبه إلى الذنوب

ص: ٧١

١-١) سورة البقره / ٢٦١. [١]

٢-٢) سورة التوبه / ١١١. [٢]

٣-٣) سورة آل عمران / ٧٧. [٣]

هو أوسع وأشمل، وترك الذنب لا يؤدي بكم إلى الضيق والعسر، بل أمامكم مسار واسع وشامل بهدف الحصول على الدين والدنيا، قطعاً إننا نصل إلى عدد محدود حين نحصى الذنوب ولا سيّما الكبائر، بينما نواجه دائره واسعه جداً إن أردنا إحصاء ما أجازته الشرع المقدس، ويصدق هذا الأمر على الحلال والحرام، فما أكثر الأغذية الحلال بالنسبه للطعام الحرام، وما أكثر معاملات الحلال قياساً بمعاملات الحرام، كما أنّ النساء اللاتي يحلّ الزواج منهن أكثر بكثير من تلك اللاتي يحرم الزواج منهن (١)، وعليه فطاعه أوامر الله تعالى ورعايه الحلال والحرام لا- تجعل الإنسان في حرج، وهذا في الواقع ردّ قاطع على أولئك الذين يرون دين الله سلسله من المحظورات والممنوعات، وهكذا يحث الإمام عليه السلام الجميع على ترك الذنوب والمعاصي والمحرمات، وهكذا والمحدوده والحركه باتجاه السبيل الرحب للحلال والمباح، فليست هنالك من مشكله في حياتهم الماديه ولا المعنويه.

والواقع هو أنّ هذه العبارة إشاره لما ورد في القرآن الكريم: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ . . .» (٢).

وجاء في الحديث النبوي الشريف: «بَعَثَنِي بِالْحَنْفِيهِ السَّمْحَةِ» (٣).

كما صرح القرآن الكريم قائلاً: «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ كُتُوبَكُمْ إِيَّاهُ تَعْتَدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ . . .» (٤).

ولما كان السعي من أجل المعاش والحرص لنيل الرزق يشكل أحد العوامل المهمه للغفله والكسل عن الإتيان بالفرائض الإلهيه والخوض في تهذيب النفس وتزكيتها، فإنّ الإمام عليه السلام أشار إلى مسأله دقيقه، وهي ضروره علمهم بأنّ الله قد ضمن أرزاقهم وأمرهم بالقيام

ص: ٧٢

١ - ١) الواقع أنّ العبارة «إنّ الذي أمرتم به . . .» إشاره إلى الأحكام التكليفيه الخمسه، والعبارة «ما أحل لكم . . .» ناظره إلى الأحكام الوضعيه، وعليه فلا داعي لأنّ نعتبر العبارتين مترادفتين للتأكيد كما ذهب إلى ذلك بعض شراح نهج البلاغه.

٢- ٢) سورة الحج / ٧٨. [١]

٣- ٣) بحار الانوار ٢٢/٢٦٤. [٢]

٤- ٤) سورة النحل / ١١٤ - ١١٥. [٣]

بالواجبات، وعليه فلا ينبغي لهم منح الأولويه لما ضمن والغفله عما يجب عليهم الإتيان به فقال: «قَدْ تَكْفَلُ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَأَمْرُكُمْ بِالْعَمَلِ فَلَا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلْبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ» (١).

وبعبارة أخرى فإن لدينا شيئين: الأول تحصيل الرزق والثاني القيام بالفرائض الإلهية، وقد تكفل الله تعالى بضمان الأول وقلدنا مسؤوليه الأمر الثاني، ومن هنا لا بد أن نبذل ما في وسعنا بالأمر الثاني، والحال القضييه على العكس في أن أغلب الناس يركزون جهودهم ويبدلون قصارى سعيهم ويشغلون فكرهم من أجل تحصيل الرزق والمعاش ويولون ظهورهم ليتناسوا الواجبات والفرائض الملقاه على عاتقهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «مَعَ أَنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ اعْتَرَضَ الشُّكُّ وَدَخَلَ (٢) اليقين، حَتَّى كَأَنَّ الَّذِي ضَمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَكَأَنَّ الَّذِي قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ».

ويبدو أن هذه العبارة تشبه ما ورد عن أمير المؤمنين على عليه السلام في مقارنته لطلب العلم بطلب المال حيث قال: «أَيُّهَا النَّاسُ اعْلَمُوا أَنَّ كَمَالَ الدِّينِ طَلَبُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلُ بِهِ، أَلَا وَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ أَوْجِبُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِ الْمَالِ إِنَّ الْمَالَ مَقْسُومٌ مَضْمُونٌ لَكُمْ قَدْ قَسَمَهُ عَادِلٌ بَيْنَكُمْ وَضَمَّنَهُ وَسَيَفِي لَكُمْ وَالْعِلْمُ مَخْزُونٌ عِنْدَ أَهْلِهِ وَقَدْ أَرْتُم بِطَلْبِهِ مِنْ أَهْلِهِ فَاطْلُبُوهُ» (٣).

لا- شك أن المقصود بالعبارات المذكوره ليس إيقاف الناس لأنشطتهم الاقتصادية الإيجابية ويتخلون عن مساعيهم من أجل ضمان الحياه المشرفه، بل الهدف هو الحد من الحرص

ص: ٧٣

١- ١) يعتقد بعض شراح نهج البلاغه [١] أن «طلبه» في العبارة المذكوره ليست نائب فاعل للمضمون ونائب الفاعل هو «الرزق» التي وردت في العبارات السابقه، وإلا أدنى تأمل يكشف أن هذا المطلب ينقض نسق العبارتين المذكورتين (المضمون لكم... المفروض عليكم) والحال يقتضى الانسجام بين هاتين العبارتين أن يكون كل من «طلب» و «عمل» نائب فاعل أحدهما للمضمون والآخري للمفروض، وعليه يصبح معنى الجملة «لا ينبغي أن تولون الأهميه للشئ الذى ضمنه لكم الله وتغفلون عما وجب عليكم من عمل» بعبارة أخرى فإن الطلب هنا بمعنى تحصيل وإعداد الرزق من جانب الله تعالى.

٢- ٢) «دخل»: يعنى الفساد فى مثل هذه الأمور ودخل على وزن دعل بمعنى الأمور الفاسده التى تتسلل داخل الإنسان فتؤثر على عقله.

٣- ٣) اصول الكافى ١/٣٠ [٢]

والتكالب على الدنيا والجنوح نحو الشره الذى يصد الإنسان عن العلم والمعرفه والأمر المعنويه.

ثم خلى الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة: «فَبَادِرُوا الْعَمَلَ، وَخَافُوا بَعْثَهُ (١) الْأَجَلَ، فَإِنَّهُ لَا يُرْجَى مِنْ رَجَعِهِ الْعُمُرُ مَا يُرْجَى مِنْ رَجَعِهِ الرَّزْقِ. مَا فَاتَ الْيَوْمَ مِنَ الرَّزْقِ رُجِيَ غَدًا زِيَادَتُهُ. وَمَا فَاتَ أَمْسٍ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعُهُ»، نعم، «الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي».

حقاً إنّه منطق بليغ واضح فى عدم إمكانية عوده ساعات العمر بأى شكل من الأشكال، فى حين يمكن استعادته متع الدنيا وفى كل الظروف وتداركها، بناءً على هذا فالذى يقوله العقل لابدّ من الحزم والحساسيه تجاه الأمور التى يمكن عودتها، لا الأمور التى إن فقدت اليوم أمكن الحصول عليها بالغد، والحال أنّ أغلب الناس يتصرفون على العكس من هذا الأمر، فأصواتهم ترتفع بالصراخ إلى عنان السماء لمجرد فقدانهم لشيء من حطام الدنيا، بينما لا يأنهون لتصرم الأيام والأسابيع والأشهر والسنوات، وهذا يدعو إلى الدهشه والعجب، وهذا ما دفع بالإمام عليه السلام للتأكيد على هذا المطلب وشبهه فى هذه الخطبه وسائر الخطب.

ورد فى الخبر أنّ شخصاً أتى إلى الإمام السجاد عليه السلام وقد شكى إليه وضعه وكأنه كان يعانى من قلّه الرزق فرد عليه الإمام عليه السلام أنّ بنى آدم عليه السلام مساكين يشهدون ثلاث مصائب كل يوم ولا- يعتبرون بها ولو اعتبروا بها لهانت عليهم المصائب، المصيبه الأولى: كل يوم يمر عليهم يذهب من عمرهم (لكنهم لا يأسفون على ذلك) لكنهم يحزنون إن قلّ مالهم، والحال هناك خلف للدينار والدرهم بينما ليس للعمر من عوده قط، المصيبه الثانيه: هو أنّ الإنسان يرتزق كل يوم فان كان رزقه حلالاً- كان فيه حساب وإن كان من الحرام فيه عقاب، المصيبه الثالثه وهى أعظمها جميعاً: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُمَسَّى إِلَّا وَقَدْ دَنَا مِنَ الْآخِرَةِ مَرَحَلَةً لَا يَدْرِي عَلَى الْجَنَّةِ أَمْ عَلَى النَّارِ» (٢).

وفى ختام الخطبه نصح الناس من خلال الوعظ بالآيات القرآنيه فقال: «فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» .

ص: ٧٤

١-١) «بغته»: من ماده «بغت» على وزن وقت يعنى الشىء الذى يحدث فجأه.

٢-٢) بحار الانوار ٧٥/١٦. [١]

والقول مستوحى من قوله تبارك وتعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (١).

تأملات

١ - غرور عن بعد ورعب من قرب

إنّ المتع الدنياوية الماديه والبهرجه لهذا العالم تبدو خلّابه ساحره من بعيد، لكن ما إن يبلغها الإنسان حتى يراها غايه فى الصغر والضحاله، بل تكون مقلقه ومرعبه أحياناً، مثلاً يرى الإنسان من بعيد حياه الملوّك فيظن لو إعتلى يوماً عرش السلطه، فقد سيطر على العالم بأسره وقد نال السعاده والموفقيه، ولكنّه ما إن يبلغ ذلك حتى يشعر أنّه فقد على الأقلّ ثلاثه أشياء من ركائز الحياه:

الأول: الأمن فهو يشعر فى ذلك المنصب بالخوف من أقرب مقربيه، فهو مطالب بالحدّ من بطانته دائماً حتى فى قصره وغرفه نومه فلا أمن ولا أمان، فما أكثر السلاطين الذين قتلوا على يد مقربيههم.

الثانى: الحريه، على سبيل المثال لا- يستطيع ممارسه حياهه كالأفراد العاديين من قبيل الخروج فى نزهه مع زوجته وأولاده أو الحضور بحريه فى المجالس والحفلات التى يقيمها الأصدقاء والأقرباء.

الثالث: راحه البال، فهو مشغول على الدوام ولا يهدأ أبداً، فما زلنا نذكر بعض رؤوسا الجمهوريات الذين صرّحوا علناً بأنهم لم يذوقوا طعم النوم الهادىء طيله ليالى حكومتهم وأن حاشيتهم كانوا يوقظونهم من نومهم ليطلعوهم على الحوادث التى تقع هنا هناك من العالم، نعم لم يذوقوا طعم النوم إلّا بعد أن تمت مدّه حكومتهم.

ومثال آخر لما ذكرنا آفاق حياه الأثرياء من بعيد فيظن الناظر أنّها مفعمه بالسعاده والرفاه، ولكن إن قدّر له أن يعيش ذلك الشراء فسيشعر أنّ بحاجه إلى جزء يسير من هذه

ص: ٧٥

الثروه فى حياهه بينما تثقل باقى الثروه كاهله، فالحرص على حفظ هذه الثروه وصيانتها من الأعمال الشاقه، والعداوه والبغض الحسد الذى يعانیه من الآخرين والذى يمثّل كابوساً مرعباً يقض مضجعه، ومن هنا عبّر الإمام عليه السلام بتلك العبارة الرائعه التى أوردها فى هذه الخطبه فى أنّ كل شىء فى الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وبالعكس بالنسبه للآخره فإنّ كل شىء فيها عيانه أعظم من سماعه، فهل لعقل بعد كل هذا أن يؤثر الدنيا على الآخره.

نعم، إن نشد الإنسان المقامات الماديه وثروات هذا العالم من أجل خدمه خلق الله تعالى، على حدّ تعبير القرآن الكريم فى إطار خطابه لقارون: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ. . .» (١).

وتحمل كل ما يترتب على ذلك من مشاكل وصعاب فذلك له حساب آخر، فقد ورد فى الخبر إنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام شكى إليه طلب الدنيا والتعلق بها، فقال له عليه السلام لم تطلب الدنيا؟ قال: لأصل بها رحمى وأنفق على عيالى وأعطى وأحج وأعتمر، فقال: «لَيْسَ هَذَا طَلْبُ الدُّنْيَا، هَذَا طَلْبُ الْآخِرَةِ». (٢).

٢ - الدنيا وآراء الناس

الكل يعلم أنّ هذه الدنيا والحياه فى هذا العالم لا تدوم لأحد، فهم يرون بأمر أعينهم مراحل انتقال الطفوله إلى الشباب ومنه إلى الكهوله ثم العالم الآخر تطالعنا صفحات النعى فى الصحف المسائيه كل يوم بالإعلان عن موت بعض الأعزّه الذين يتشكل بهم الأقرباء والأهل، ولا سيّما فى عصرنا الراهن الذى أصبح فيه الموت والحياه قريب جداً من الإنسان مقارنة الأزمنه الماضيه ومتوسط عمر الإنسان، فقد نسمع بسقوط مفاجىء لطائره فتتناثر أجساد ركابها فى الهواء لتقع هنا هناك، والحوادث الأخرى التى تزيد من عدد الوفيات كل يوم وفى مختلف الأماكن، حتى أنّ ضحايا الوسائل النقليه فى المناطق والمدن لتفوق ضحايا الحروب، وبغض

ص: ٧٦

١- ١) سورة القصص / ٧٧. [١]

٢- ٢) وسائل الشيعه ١٩/١٢. [٢]

النظر عما سبق فإنّ هذه الحياه القصيره مليئه بأنواع المعاناه والألم والمشاق، ويكفى في ذلك أن نلقى نظره عابره على مستشفى لنرى مختلف الأمراض التي يعانى منها الأطفال والشباب والكهول، أو نتطلع أحد السجنون ونشاهد عن كثب الأفراد الذين زجت بهم المظالم والشهوات والأخطاء والنزوات في ذلك المكان، ولكن مع ذلك أغلب الناس يتناسون كل هذه المسائل ليحصلوا على استقرار كاذب مزيف، والاستقرار الذى يشبه ذلك الذى يشعر به الحيوان الذى يخفى جسده فى الرمال مخافه الصياد، والحال يراه الصياد ويسارع إلى افتراسه.

ومن هنا فإنّ الإمام عليه السلام يورد وصاياه فى أغلب مواضع نهج البلاغه بهدف التنبيه إلى تلك الغفله والنسيان المميت وايقاظ الضمير البشرى الذى يغط فى سبات عميق، وقد اتبع الإمام مختلف الأساليب من أجل تحقيق هذا الغرض فتارة يذكر الدنيا على أنّها دار عناء وفناء وغير وعبر وأخرى يذكر إنزوائها على أنواع الشدائد والمشاكل، كما يتطرق إلى قصر المسافه بين الحياه والموت، إلى جانب ذلك يلفت الانتباه إلى هذه الحقيقه فى عدم إمكانيه عوده ما يتصرم من ساعات العمر، فى حين يمكن تدارك كافه سائر النعم الماديه، والحق لو تأمل كل إنسان مرّه واحده فى الاسبوع هذه الخطبه لما عانى من الغفله قط.

٣ - كيف نبحت عن سعاده الآخره فى الدنيا؟

ربّما يطلب الإنسان الدنيا من أجل إشباع أهوائه ورغباته إلى جانب الامتياز على الآخرين واستغلالهم واستعمارهم، كما قد يطلبها بهدف الحصول على الرفاه المتوازن، وأحياناً ينشدها بغيه وفره الإمكانيات لخدمه الآخرين، أخيراً قد يريد لها لترسيخ دعائم اقتصاد المجتمع الإسلامى وتحقيق مجده وعظمته ورفعته وإبعاده عن كافه أشكال التبعية للآخرين، ومن البديهي أنّ هذه الأهداف تتفاوت فيما بينها تفاوتاً تاماً.

فعلى ضوء الهدف الأول يتصف بأبشع الصفات الرذيله، والثانى يتّجه نحو الأهداف

المباحه والاستفاده من النعم الإلهيه، والثالث يمارس أرفع عباده وأخيراً الرابع يسدى أعظم الخدمات الإنسانيه والإسلاميه، وكل ما ورد من ذمّ في هذه الخطبه وسائر الأخبار والروايات عن أئمه العصمه عليه السلام وكذلك القرآن الكريم إنّما يشير في الواقع إلى الطائفه الأولى من الناس وهو الموصوف برأس كل خطيئه ومصدر جميع الذنوب، ولا عاقبه له سوى جهنم وبئس المصير.

ومن هنا فلا ينبغي تفسير ذمّ الدنيا والمتكالبين عليها بأنّ الإسلام يرتضى للمجتمع حاله الفقر والحرمان ويوصى بذلك، قد ورد هذا المضمون في الروايات الإسلاميه، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ مَنْ عَبَدَ الدِّينَارَ وَالدَّرْهَمَ» (١).

وقال المرحوم الشيخ الصدوق في تفسير هذا الحديث: «يعنى به من يمنع زكاه ماله ويبخل بمواساه إخوانه، فيكون قد آثر عباده الدينار والدرهم على عباده خالقه» (٢).

وجاء في الخبر أنّ علياً عليه السلام يفخر برفاه أهل الكوفه خلال مدّه حكومته رغم ما هو عليه من الزهد والعزوف عن الدنيا فقال: «مَا أَصْبَحَ بِالْكُوفَةِ أَحَدٌ إِلَّا نَاعِمًا، إِنَّ أَدْنَاهُمْ مَنَزِلَةً لِيَأْكُلُ التُّبْرَ وَيَجْلِسُ فِي الظِّلِّ وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ» (٣).

ص: ٧٨

١-١) بحار الانوار ٧/١٤٠. [١]

٢-٢) المصدر السابق. [٢]

٣-٣) المصدر السابق ٤٠/٣٢٧. [٣]

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

فِي الاسْتِسْقَاءِ

نظره إلى الخطبه

كما ورد في عنوان الخطبه فأنها دعاء في الاستسقاء، وقد أوردها الإمام في عصر حكومته حين أصاب الناس الجفاف، حيث أشار عليه السلام في البدايه إلى الأسباب التي تدعو إلى حبس المطر وشیاع الجفاف في أنّ أغلب الحوادث من هذا القبيل معلوله لمعاصی الناس وذنوبهم وسوء أعمالهم، ثم يبتهل إلى الله تعالى بالدعاء بعبارات رصينه عميقه المعنى سائلاً الحق تبارك وتعالى التلطف بنزول المطر، حتى أنّ عباراته لتخترق شغاف القلب وتملأه بالمعنويات والشده لله سبحانه.

وما أحرانا بالتوسل بهذه العبارات والمضامين الوارده في هذ الخطبه من أجل الاستسقاء.

ص: ٧٩

١ - ١) سند الخطبه: رواها قبل السيد الرضى المرحوم الشيخ الصدوق في كتابه «من لا يحضره الفقيه» في آداب صلاه الاستسقاء مع اختلاف كبير وإضافات تدلّ على أنّ ما نقله السيد الرضى في نهج البلاغه هو بعض ما اختاره من تلك الخطبه «من لا يحضره الفقيه ٢/٢٣٥» كما نقلها المرحوم الشيخ الطوسى في «التهذيب ج ٢، ص ١٥١» وفي «المصباح المتهجد» في آداب صلاه الاستسقاء مع اختلاف وما ورد في نقل السيد الرضى في نهج البلاغه ممّا يدلّ على وجود مصدر آخر اعتمده الشيخ، ونقلها من علماء العامه الزمخشري في «ربيع الابرار» وابن الأثير في «النهايه» (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٥٦). [١]

القسم الأول: الأمل بالله في القحط والجفاف

«اللَّهُمَّ قَدْ انصَحْتُ جِبَالَنَا، وَاعْيَرْتُ أَرْضَنَا، وَهَيَّأْتُ دَوَائِبَنَا. وَتَحَيَّرْتُ فِي مَرَابِضِهَا، وَعَجَّجْتُ عَجِيجَ الشَّكَالِي عَلَى أَوْلَادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرْدُّدُ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالْحَيْنِ إِلَى مَوَارِدِهَا! اللَّهُمَّ فَارْحَمِ أَيْنَ الْمَائِنِ، وَحَيْنَ الْحَيَّاتِ! اللَّهُمَّ فَارْحَمِ حَيْرَتَهَا فِي مِزَابِهَا، وَأَيْنَهَا فِي مَوَالِجِهَا! اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرْتُ عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ، وَأَخْلَفْنَا مَخَايِلُ الْجُودِ. فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَسِسِ، وَالْبَلَغَ لِلْمُلْتَمِسِ. نَدْعُوكَ حِينَ قَطَّ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخِذَنَا بِذُنُوبِنَا. وَأَنْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ الْمُتَبَعِ، وَالرَّبِيعِ الْمُعْدِقِ، وَالنَّبَاتِ الْمُونِقِ. سَحًّا وَابِلًا، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ».

الشرح والتفسير

بين الإمام عليه السلام في بدايه هذه الخطبه الوضع المأساوى الذى أصاب الناس إثر الجفاف ومع السماء بعبارات رائعه بعيده المعنى، حيث استهلها بسته جمل قائلاً: «اللَّهُمَّ قَدْ انصَحْتُ (١) جِبَالَنَا، وَاعْيَرْتُ (٢) أَرْضَنَا، وَهَيَّأْتُ (٣) دَوَائِبَنَا. وَتَحَيَّرْتُ فِي مَرَابِضِهَا (٤)، وَعَجَّجْتُ (٥) عَجِيجَ

ص: ٨١

١ - ١) «انصاحت»: من ماده «صوح» على وزن صوم بمعنى الانشقاق وقيل بمعنى الجفاف والتشقق والزوال الملازمه لبعضها البعض الآخر.

٢ - ٢) «اعيرت»: من ماده «غبار» وهى هنا إشاره إلى الجذب الذى يؤدى إلى جفاف الأرض.

٣ - ٣) «هامت»: من ماده «هيم» على وزن حيف بمعنى الحيره وتستعمل أحياناً بشأن الإنسان أو الحيوان الذى لا يدرى أين يذهب من شدّه العطش.

٤ - ٤) «مرابض»: جمع «مربض» موضع الماشيه ومبرك الغنم.

٥ - ٥) «عجت»: من ماده «عجيج» بمعنى الصراخ والصياح بأعلى الصوت.

التَّكَالِي (١) عَلَى أَوْلَادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرْدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالْحَيْنَ إِلَى مَوَارِدِهَا! .

فقد رسم الإمام عليه السلام صورته واضحة بعبارات فصيحته عن الجفاف الشديد الذي أصاب الناس في ذلك الزمان، وكشف النقاب عن وضع الجبال والأراضي والمراتع والدواب، ثم رفع يديه بالدعاء مبتهلاً إلى الله: «اللَّهُمَّ فَارْحَمْنَا أَيْنَ الْأَنَّةِ (٢)، وَحَيْنَ الْحَانَةِ (٣)» .

كما شكى شدة عطش الدواب وجوعها وصراخها في أماكنها: «اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا، وَأَيْنَهَا فِي مَوَالِجِهَا! (٤)» .

وأردف قائلاً: «اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرْتُ (٥) عَلَيْنَا حَدَابِيرُ السِّنِينَ (٦)، وَأَخْلَفْتَنَا (٧) مَخَائِلُ (٨) الْجُودِ (٩)» .

إنَّ دقة العبارات التي استخدمها الإمام عليه السلام في هذا الدعاء تشير إلى مدى حرقة الإمام عليه السلام والناس من جانب، ومن جانب آخر تستبطن تصويراً عميقاً لتلك الحادثة، فحدابير جمع حدبار تستخدم بشأن الجمل الذي تبين عظام سنامه وقد حز لحمه بصوره تامه إثر شدة الضعف (بسبب الجوع أو كثرة المشى) .

فقد شبه الإمام عليه السلام الجفاف المتواصل بهذا الجمل، ومن الطبيعي أن يدعو منظره إلى الأسى والحزن، كما أنَّ ركوبه يبدو متعذراً شاقاً.

أمَّا العبارة التي تضمنت «آنه» و «حائه» التي تستخدم كلهما بشأ تألم الحيوان حيث

ص: ٨٢

١- ١) «تكالى»: جمع «تكلى» المرأه التي مات إبنها.

٢- ٢) «آنه»: من ماده «أنين» وعاده ما تطلق على الشاه التي تتألم.

٣- ٣) «حائه»: من ماده «حنين» التي تطلق على الجمل حين يتألم.

٤- ٤) «موالج»: جمع «مولج» مدخل الشىء.

٥- ٥) «اعتكرت»: من ماده «عكر» على وزن مكر بمعنى الهجوم.

٦- ٦) «سنين»: اسم جمع السنوات، لكنّها ترد عاده في العبارات كالعباره المذكوره بمعنى القحط والجفاف (ورد معنيان لسنين في قاموس اللغة أحدهما بمعنى السنه والآخر بمعنى الجفاف والقحط) .

٧- ٧) «أخلفتنا»: من ماده «خلاف» بمعنى المخالفه.

٨- ٨) «مخايل»: جمع «مخيله» على وزن قبيله بمعنى الغيوم التي يأمل الإنسان بتزول المطر منها لكنّها ليست بمطره.

٩- ٩) «جود»: لفتح الجيم جمع «جائد» المطر الكثير والجود بالضم بمعنى السخاء والهبه.

تشير الأولى إلى الشاه والثانية إلى الجمل، فأما تشير إلى حاله الألم التي كانت تعيشها جميع الحيوانات في ذلك القى الشديد، وبالالتفات إلى أن القسم الأعظم من أراضي العراق تقع بين النهرين العظيمين دجله والفرات المروفان بوفره المياهما مقارنه بأنهار المنطقه يتبين أن القحط تلك السنوات على درجه من الشده بحيث ضيق على أهل العراق حتى في تلبه الحاجات الأوليه للحيوانات (تشير القرائن إلى أن الإمام عليه السلام ألقى هذه الخطبه بعد صلاه الاستسقاء حين كان في الكوفه) .

ثم ابتهل إلى الله سبحانه وتعالى في أنك الأمل والرجاء لكل بائس وحلال مشاكل كل طالب حاجه وقد سيطر اليأس على الناس وقد منعت السماء بركاتها والغيوم مياها وأشرفت الحيوانات على الهلكه ففسألك ألاً تؤاخذنا بسيئات أعمالنا ولا بوائق ذنوبنا: «فَكُنْتُ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَسِ (١)، وَالْبَلَاغَ (٢) لِلْمُلْتَمِسِ. نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْعَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ (٣)، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذْنَا بِذُنُوبِنَا» .

تفيد هذه العبارة أن أغلب الآفات والبلاء والشده معلوله لذنوب الناس، ولا تزال مشاكلهم قائمه مستعصيه ما لم يتوبوا إلى الله ويسألوه العفو والمغفره، والعبارة تشبه الشكوى التي بثها نبي الله نوح عليه السلام إلى ربه بشأن قومه: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا» (٤)

كما ورد في سوره الأعراف قوله: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (٥).

ثم طرح الإمام طلبته الأصلية على الحق تبارك وتعالى قائلاً: «وَأَنْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ

ص: ٨٣

١-١) «مبتس»: من ماده «بؤس» على وزن قرص الفقر وشده الحاجه.

٢-٢) «البلاغ»: بمعنى الكفايه وحل المشكله.

٣-٣) «سوام»: وسائمه الحيوان الذى يرعى فى الصحراء.

٤-٤) سوره نوح / ١٠ - ١١. [١]

٥-٥) سوره الأعراف / ٩٦. [٢]

بِالسَّحَابِ الْمُنْبَعِقِ (١)، وَالرَّبِيعِ الْمَغْدِقِ (٢)، وَالنَّبَاتِ الْمُونِقِ (٣). سَحًّا (٤) وَأَبْلًا (٥)، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ، وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ» .

فما ورد في عبارات الإمام عليه السلام إنعكاس تام لما عاناه الناس من قحط شديد ومصائب عضال من جهه، ومن جهه أخرى تضمنت طلباً للغيوم الملبده بالأمطار، وكذلك ربيعاً مباركاً ونباتات طريه جميله وأخيراً تتجه صوب نتیجه نهائيه هي الأمطار التي تحيي الأرض وتستعيد كل ما فقد؟ ولا تكون تلك السنه سنه عامره بالبركه فحسب، بل سنه تتلافى سنوات الجفاف السابقه.

ص: ٨٤

١ - ١) «منبعق»: من ماده «انبعاق» بمعنى انشقاق ولما كانت الغيوم حين نزول المطر تبدو منشقه وتجرى منها الأمطار فقد استخدمت هذه المفرده بشأن نزول المطر.

٢ - ٢) «مغديق»: من ماده «غديق» على وزن شفق الماء الوفير وتستعمل كناية بشأن السنوات المفعمه بالخير والبركه.

٣ - ٣) «مونق»: من ماده «أنق» على وزن شفق بمعنى السرور والاعجاب بالشيء.

٤ - ٤) «سح»: بمعنى انسياب الماء الوفير وبصوره مستمره.

٥ - ٥) «أبل»: المطر الشديد الضخم القطر.

«اللَّهُمَّ سُقِيَا مِنْكَ مُحِييَهُ مُرْوِيَهُ، تَامَهُ عَامَهُ، طَيَّبَهُ مُبَارَكَهُ، هَنَيْئَهُ مَرِيَعَهُ. زَاكِيَا نَبْتَهَا، ثَامِرَا فَرْعَهَا، نَاصِرَا وَرَقَهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلَادِكَ! اللَّهُمَّ سُقِيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا، وَتَجْرِي بِهَا وَهَادُنَا وَيُخْصِبُ بِهَا جَنَابَنَا، وَتُقْبَلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَتَنْدِي بِهَا أَقَاصِينَا، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا. مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ الْجَزِيلَةِ عَلَى بَرِيَّتِكَ الْمُزْمَلَةِ، وَوَحْشِكَ الْمُهْمَلَةِ. وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضَلَةً، مَدْرَارًا هَاطِلَةً، يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ، غَيْرَ خُلْبٍ بَزْفُهَا، وَلَا جَهَامٍ عَارِضُهَا، وَلَا قَزَعٍ رَبَابُهَا، وَلَا شَفَانَ ذَهَابُهَا، حَتَّى يُخْصِبَ لِامْرَأَعِهَا الْمُجْدِبُونَ، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِهَا الْمُسْتَيْتُونَ، فَإِنَّكَ تُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ».

الشرح والتفسير

طرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه طلبه وصحبه الرئيسي والذي يتمثل بنزول المطر المبارك فسأل الله سبحانه وتعالى مطراً ذات عشرين صفة تشير كل واحده منها إلى فضيه رائعه، وما أروع أن يذكر الإمام كل هذه الأوصاف للمطر المطلوب، وهي الأوصاف التي تجعل الإنسان يتواضع ويشعر بالخضوع أمام عظمه الخلاق، كما تفهم السامع عمق الآثار والبركات التي تختزنها هذه القطرات من المطر: «اللَّهُمَّ سُقِيَا مِنْكَ مُحِييَهُ مُرْوِيَهُ، تَامَهُ عَامَهُ،

طَبِيئَهُ مُبَارَكَةً، هَيْبَتُهُ مَرِيَعَةٌ (١). زَاكِيًا نَبْتُهَا، ثَامِرًا (٢) فَرْعُهَا، نَاصِرًا (٣) وَرَقُهَا، تَنْعِشُ (٤) بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا الْمَيِّتَ مِنْ بِلَادِكَ!». .

الواقع هو أنّ الإمام عليه السلام سأل الله تعالى مطرا تتوفر فيه الشرائط وبعيداً عن كل الموانع، فقد لوحظ في أغلب الأحيان نزول الأمطار على شكل سيول، لكنّها تحطم كل شيء تأتي عليه، أو إنّها تتركز في نقطه معينه ليست لها منفعه عامه، أو أنّها مصحوبه ببرد شديد قارس لا تخفى آثاره السلبيه، أو يكون مصحوباً ببعض الموانع من قبيل الرياح الحاره والعواصف الشديده والآفات التي تصيب النباتات كالجراد والحشرات المؤذيه وأمثال ذلك التي تقضى على آثار الأمطار، فالإمام عليه السلام يأخذ جميع هذه الأمور بنظر الاعتبار فيسأل الله تعالى اجتماع كافة الشرائط ودفع جميع الموانع.

ثم واصل الإمام عليه السلام الدعاء بذكر سبعة أوصاف أخرى ليكتمل عدد الصفات عشرين صفة فقال: «اللَّهُمَّ سُقِيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا (٥)، وَتَجْرِي بِهَا وَهَادُنَا (٦) وَيُخْصِبُ (٧) بِهَا جَنَابُنَا (٨)، وَتُقْبَلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَتَنْدِي (٩) بِهَا أَقَاصِينَا (١٠)، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا (١١). مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ الْجَزِيلَةِ عَلَى بَرِيَّتِكَ الْمُزْمَلَةِ (١٢)، وَوَحْشِكَ

ص: ٨٤

- ١-١) «مرع»: من ماده «مرع» على وزن كثيف النبات.
- ٢-٢) «ثامر»: بمعنى ذو ثمر.
- ٣-٣) «ناصر»: بمعنى ذو نصره.
- ٤-٤) «تنعش»: من ماده «نعش» على وزن فرش بمعنى الإثارة و اقامه.
- ٥-٥) «نجاد»: من ماده «نجود» على وزن سجود ما ارتفع من الأرض حيث تصطلح العرب بالنجد على الأرض المرتفعه.
- ٦-٦) «وهاد»: جمع «وهده» على وزن غفله ما انخفض من الأرض.
- ٧-٧) «يخصب»: من ماده «خصب» على وزن فكر كثير النبات.
- ٨-٨) «جناب»: ناحيه الدار أو المدينه.
- ٩-٩) «تندى»: من ماده «نداوه» الرطوبه و هي هنا كناية عن الجود والسخاء.
- ١٠-١٠) «أقاصى»: جمع «أقصى» النقطه البعيده.
- ١١-١١) «ضواحي»: جمع «ضاحيه» المنطقه الخارجه عن المدينه.
- ١٢-١٢) «مرمله»: من ماده «إرمال» الفقر ونفاد المتاع والزداد.

فقد كشف الإمام عليه السلام النقاب بهذا الدعاء عن سعه صدره وعمق نظره وعموميه شفقتة ورحمته، ذلك لأنه أخذ بنظر الاعتبار المناطق القاصيه والدانيه ولم يهمل الدواب حتى حيوانات الصحراء الوحشيه، فدعائه يشمل الجميع وسؤاله يهدف حاجه الجميع وهذا هو معنى لطف إمام المسلمين ورحمته العامه.

وأضاف الإمام عليه السلام فى معرض مواصله لطلب الماء ونزول المطر الذى يفيض بالخير والبركه قائلاً: «وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا سَيِّمَاءً مُخْضَلَةً (١)، مِدْرَاراً هَاطِلَةً (٢)، يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ (٣)، وَيَخْفِرُ (٤) الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ» .

كما واصل عليه السلام وصف الأمطار: «غَيْرَ خُلْبٍ (٥) بَزْقُهَا، وَلَا جَهَامٍ (٦) عَارِضُهَا، وَلَا قَرَعٍ (٧) رَبَابُهَا (٨)، وَلَا شَفَانَ (٩) ذَهَابُهَا (١٠)» .

ثم واصل الإمام عليه السلام الدعاء قائلاً: «حَتَّى يُخْصِبَ لِإِمْرَاعِهَا (١١) الْمَجْدُبُونَ (١٢)، وَيَحْيَا

ص: ٨٧

-
- ١-١) «مخضله»: من ماده «خضل» على وزن عمل الليل والرطوبه وتستخدم كناية للسنوات المليئه بالأمطار ونزول البركه.
 ٢-٢) «هاطله»: من ماده «هطل» على وزن سطل السيول والقطرات الضخمه.
 ٣-٣) «الودق»: حبات المطر، كما تطلق على ذرات الماء الصغيره التى تتعلق كغبار فى الجو حين نزول المطر، والمعنى الأول هنا أنسب.
 ٤-٤) «يخفر»: من ماده «خفر» على وزن نبض الدفع بشده.
 ٥-٥) «خلب»: بمعنى خارغ من ماده «الخلابه» وهى هنا إشاره إلى الغيوم ذات البرق والرعد الخاليه من المطر.
 ٦-٦) «جهام»: بالفتح السحاب الذى لا مطر فيه.
 ٧-٧) «قرع»: القطع الصغيره المتفرقه من السحب.
 ٨-٨) «رباب»: السحاب الأبيض (الذى لا مطر فيه) .
 ٩-٩) «شفان»: الرياح الباردة أو الجو البارد المقرون بالرطوبه (لسان العرب ومعجم دهخدا) وأصلها شفون على وزن فنون النظر بطرف العين أو النظره باعتراض، ولعل اطلاقها هنا على الرياح الشديده لأنها تسبب انزعاج الطرف المقابل.
 ١٠-١٠) «ذهاب»: جمع «ذهبه» بالكسر الأمطار القليله.
 ١١-١١) «امراع»: بمعنى كثير البركه.
 ١٢-١٢) «مجدب»: من ماده الجفاف بسبب قطع الماء ويقال مجدب لمن أصيب بالجفاف والقحط.

بَيْرَ كَيْتِهَا الْمُسْتُونَ (١)، فَإِنَّكَ تُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢) .

فقد بين الإمام في هذه العبارة تسع أوصاف أخرى للأمطار المفيدة النافعة ذات الخير والبركة، حيث يبلغ عدد الصفات مع ذكر سابقاً ٢٩ صفة، حقاً إنه لمن دواعي العجب والدهشه أن يستسقى الإمام عليه السلام ويوصف المطر بتسع وعشرين صفة بينما يصف ذلك الطالبون عادة بصفه، أو صفتين فيبتهلون إلى الله سبحانه وتعالى أن أسقنا الغيث المبارك، ومن هنا لا يشعر الإنسان سوى بالحيرة والذهول حين يتأمل عبارات أمير المؤمنين على عليه السلام، لقد استفرخ الإمام أقصى فصاحته وبلاغته في هذه الخطبه وشرح طلبه إلى الله تعالى بما يعرف الناس بلطف الله تعالى وفضله ورحمته ويفهمهم أن مسار النعمة مليء بكثير من الموانع بحيث لا يسعهم بلوغ الكمال المنشود ما لم تشملهم رعايه الله ورحمته، والحق يتعذر مثل هذا المنطق على من لم يكن مؤيداً من عند الله ويؤيد بروح القدس.

تفسير ما في هذه الخطبه من الغريب

نقرأ في ختام هذه الخطبه:

«قَالَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلِهِ: (انصِ احْتِ جِبَالِنَا) أَيْ تَشَقَّقَتْ مِنَ الْمَحُولِ يُقَالُ: لِنصَاحِ الثَّوْبِ إِذَا انشَقَّ وَيُقَالُ أَيْضاً: انصَاحَ انْبَتْ وَنصَاحَ وَصَوَّحَ إِذَا جَفَّ وَيَيْسُ كُلُّهُ وَقَوْلُهُ (وَزَهَامَتْ دَوَابِنَا) أَيْ عَطَشَتْ وَالْهَيْأُ: الْعَطَشُ، وَقَوْلُهُ (حَدَائِبِ السَّيْنِ) جَمْعُ جِدْبَارٍ، وَهِيَ النَّاقَةُ الَّتِي أَنْصَاهَا السَّيْرُ، فَسَبَّهَ بِهَا السَّنَةَ الَّتِي فَشَا فِيهَا الْجَدْبُ، قَالَ ذُو الرَّمَّةِ:

ص: ٨٨

١- (١) «المسنت»: هو المقحط.

٢- (٢) إقتباس من الآيه الشريفه: «وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ» (سوره الشورى / ٤٨).

[١]

حِدَابِيرٌ مَا تَنْفُكُ إِلَّا مُنَاخَهُ عَلَى الْخَسْفِ أَوْ نَرِمِي بِهَا بَلْدًا فَقْرًا

وَقَوْلُهُ: (وَلَا فَرْعَ رَبَابِهَا) الْفَرْعُ: الْقَطْعُ الصَّغَارُ الْمُتَفَرِّقَةُ مِنَ السَّحَابِ.

وَقَوْلُهُ: (وَلَا شَفَانَ ذِهَابِهَا) فَإِنَّ تَقْدِيرَهُ: وَلَا ذَاتَ شَفَانَ ذِهَابِهَا، وَالشَّفَانُ: الرِّيحُ البَارِدَةُ، وَالذَّهَابُ: الْأَمْطَارُ اللَّيْنَةُ، فَخَذَفَ (ذَاتَ) لِعَلِمِ السَّامِعِ بِهِ» .

تأملان

١ - صلاة الاستسقاء

صلاة الاستسقاء واحده من التعاليم الإسلاميه القيمه والتي ذكرها عامه فقهاء المسلمين من الفريقين في كتبهم الفقهيه، ومن جمله الآداب التي أوردتها مصادر أتباع أهل البيت عليهم السلام بشأن هذه الصلاه أن يصوم الناس ثلاثه أيام ويتجهون في اليوم الثالث وهم صيام إلى خارج المدينه، ويأتون بركعتين على غرار ركعتي عيد الفطر والأضحى حيث تشتمل الركعه الأولى على خمس قنوتات والثانيه على أربع قنوتات، ولكن يقتنون بالأدعية الواردة بشأن الاستسقاء ونزول الرحمه والمغفره بدلاً من الدعاء المأثور المختص بالعيد، فيصلون على النبي وآله قبل كل دعاء، فان فرغ الإمام من الصلاه قلب العباء رجاء نزول المطر واستقبل القبله وكبر بأعلى صوته مئة مره (ويكبر الناس معه) ثم يلتفت إلى الناس ويتوجه يمينا ويسبح الله سبحانه بصوت عال مئة مره ثم يلتفت شمالاً ويهلل بصوت عال مئة مره، ثم يستقبل الناس ويحمد الله مئة مره ويردد الناس من بعده، آنذاك يرفع يديه إلى السماء ويتضرع مع الناس إلى الله سبحانه وتعالى يسأله الرحمه ويؤمن الناس على دعائه.

وقد ورد في بعض الروايات التصريح بأن يحملوا معهم إلى الصحراء الشيوخ و النساء والأطفال وحتى الحيوانات الجائعه العطشى وأن يفرق بين الآباء وأولادهم بهدف التأثير على الناس حين يتجهون إلى الله في الدعاء (١).

فإن تعذر عليهم القيام بكل هذه الأمور تابوا إلى الله واستغفروه من ذنوبهم ورفعوا أيديهم

ص: ٨٩

١- ١) ذكرت آداب صلاة الاستسقاء في أغلب المصادر الفقهيه وكتب الحديث ومنها جواهر الكلام ١٢/١٢٧ و تحرير الوسيله للإمام الخميني، ج ١ و ج ٥، [١] ص ١٦٢ من وسائل الشيعه.

بالدعاء جمعه سائلين الله سبحانه العفو الرحمة.

حقاً إنها لمراسم ذات آثار عجيبة أدها حاله التضرع والخشوع التي يعيشها الداعي إلى الله تعالى، فهي تربط الفرد بالذات الإلهية المقدسة لله سبحانه الرحمن الرحيم وتؤدى إلى نزول الرحمة وشموله بها.

أضف إلى ذلك فإن لهذه الصلاة أثارها الكبيرة في تربية النفوس والتوبة من الذنوب والعودة إلى الطهر والعفاف، والذي يستتبع أحياناً نزول المطر الذي يعود على الجميع بالخير والبركة ويستفاد من الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يدعو بدعاء الاستسقاء حين يشكو إليه الناس من القحط والجذب، فكانت تنزل الأمطار بما يجعل الناس يطلبون توقفها (١).

وتفيد القرائن أن أمير المؤمنين عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد صلاة الاستسقاء حيث جاء في بعض الروايات التي نقلت هذه الخطبة بصورة تامه العبارة: «اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ» التي تكشف اتجاهه عليه السلام مع الناس إلى الصحراء ويختص هذا العمل عادة بصلاة الاستسقاء، وورد في بعض الروايات أن علياً عليه السلام بكى آخر هذه الخطبة وقد سأل الله سبحانه وتعالى بعبارة تفيض لوعه وحرقة.

وسياتى تفاصيل ذلك حين شرحنا للخطبة ١٤٣ من نهج البلاغه الوارده بشأن صلاة الاستسقاء.

٢ - الذنب وزوال البركة

وردت عدّه أبحاث في الكتب الفلسفيه والكلاميه والتفسيريه بشأن فلسفه الآفات والبلاء، فالذى يستفاد من القرآن الكريم هو تشديد البلاء على الأمم حين ظهور الأنبياء بغية إيقاظهم، حيث صرح القرآن الكريم قائلاً: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ» (٢).

ص: ٩٠

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٢٧٢؛ بحار الانوار ٨٨/٣٢٩. [١]

٢- ٢) سورة الاعراف / ٩٤. [٢]

فآليه تشير إلى أنّ هذا القانون عام ودائمي يهدف إلى الاستعداد لتقبل دعوه الأنبياء، فكانت تقع الحوادث الأليمه من جانب الله طيله تاريخ الأمم وحين بروز الغفله وذلك بهدف القضاء على تلك الغفله وايقاظ تلك الأمم، وربما تكون هذه الحوادث الأليمه والمفجعه نتيجه لذنوب الناس، والهدف أيضاً الفساد والإنابه والعوده إلى الله، فقد جاء في الآيه القرآنيه: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (١).

وهكذا يتضح أنّ أحد طرق التربيه الإلهيه هو هذه الحوادث الأليمه الطبيعيه أو الاجتماعيه، والقحط يمكن أن يكون أحد هذه الحوادث، كما أشار الإمام عليه السلام إلى ذلك في الخطبه المذكوره، حيث قال في هذه الخطبه: «نَدْعُوكَ حِينَ قَطَطَ الْأَنَامُ، وَمُنِعَ الْعَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ، أَنْ لَا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا» .

وقد ورد هذا المطلب بصورة أوضح في الخطبه ١٤٣، حيث حذر فيه الناس حين القحط بالنزوع عن المعاصي والاحتراز من الذنوب والإنابه إلى الله سبحانه وتعالى، واستشهد عليه السلام بآيات من سوره نوح بهذا الخصوص وهذا ما سيرد ذكره إن شاء الله في محله.

ونختتم هذا الكلام بما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِذَا فَشَتْ أَرْبَعَةٌ ظَهَرَتْ أْبَعَةٌ فَشَتْ لِرْنَا ظَهَرَتْ الرَّزَالِزُ وَإِذَا أَمْسَيْكَتْ الزَّكَاةُ هَلَكَتْ الْمَاشِيَةُ وَإِذَا حَارَ الْحُكَّامُ فِي الْقَضَاءِ أَمْسَكَ الْقَطْرُ مِنَ السَّمَاءِ وَإِذَا خَفَرَتْ الدَّمَةُ نَصَرَ الْمَشْرُكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ» (٢).

وورد في الحديث المعبر والمعروف عن أبي ولاد أنّ الإمام الصادق عليه السلام لما سمع الفتاوى غير الصحيحه لأبي حنيفه في بعض المسائل الفقهيّه قال: «فِي مِثْلِ هَذَا الْقَضَاءِ وَشِبْهِهِ تَحْبِسُ السَّمَاءُ مَاءَهَا وَتَمْنَعُ الْأَرْضُ بَرَكَاتَهَا» (٣).

ص: ٩١

١-١) سوره الروم / ٤١. [١]

٢-٢) بحار الانوار ٧٦/٢١، ح ١٣. [٢]

٣-٣) وسائل الشيعه ١٣/٢٥٦. [٣]

مِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَفِيهَا يَنْصَحُ أَصْحَابَهُ

نظرة إلى الخطبة

تألف هذ الخطبه فى الواقع من عدّه أقسام:

القسم الأول: وصف بليغ للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وجهاده العظيم فى إبلاغ الرساله ودعوه الناس إلى الإسلام.

القسم الثانى: التوجه إلى الناس بالوعظ والإرشاد والنصيحه، المواعظ المؤثره والبالغه.

القسم الثالث: الشكوى من الأصحاب ورجاء الله فى مفارقتهم وإلحاقه بصنوه من الأفراد.

القسم الرابع والأخير: الذى يختص بالإخبار عن فتنه طاغ واستعراض جانب من جنائاته وجرائمه أملاً فى إيقاظ الناس والوقوف بوجه هذه الجرائم من خلال التوبه إلى الله سبحانه والعوده إلى وحده ونبذ الخلافات والفرقه.

ص: ٩٣

١ - ١) سند الخطبه: تتضمن الخطبه إشاره إلى موضوع خلافه الحجاج للكوفه وما إرتكب فيها من جرائم، وقد نقل أغلب المؤرخين والمحدّثين هذا الجانب من الخطبه ومنهم ابن عبد ربه فى العقد الفريد، والمسعودى فى مروج الذهب، والأزهري فى تهذيب اللغة، وابن الفقيه فى كتاب البلدان، وابن أثير فى النهاية، والديلمى فى الإرشاد (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٥٩).

«أَرْسَلَهُ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ وَشَاهِدًا عَلَى الْخَلْقِ. فَبَلَغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَاِنٍ وَلَا مُقَصِّرٍ، وَجَاهِدًا فِي اللَّهِ أَعِدَاءَهُ غَيْرَ وَاِهِنٍ وَلَا مُعِيدِرٍ. إِمَامًا مِّنَ اتَّقَى. وَبَصْرًا مِّنَ اهْتَدَى.»

الشرح والتفسير

كما صرح البعض من سراح نهج البلاغه يبدو أنّ هذه الخطبه جزء من خطبه طويله حيث تطرق الإمام عليه السلام فيها إلى تشجيع صحبه على الجهاد والوقوف بوجه بغاه الشام وبين الأخطار التي تتهددهم في حاله الضعف وترك الجهاد ومقاتله العدو فآتم الحجّه عليهم.

ففي القسم الأول من هذه الخطبه أشار إلى الجهود الجباره التي بذلها رسول الله صلى الله عليه وآله في إبلاغ الوحي ونشر الرساله من أجل ترفيق قلوب المخاطبين فيتعرفوا على أهميه هذا الميراث العظيم ولا يتوانوا في الدفاع عنه والتصدي لهجمات خصوم الدعوه، فقال عليه السلام: «أَرْسَلَهُ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ وَشَاهِدًا عَلَى الْخَلْقِ».

فالواقع أخلص الإمام عليه السلام الرساله الإسلاميه التي نهض بها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هاتين العبارتين، قد دعى إلى الحق وإبلاغ الأحكام الشرعيه من جانب، وأشرف على حسن تطبيقها من جانب آخر، أمّا شهاده النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقد قيل المراد بها الشهاده على أعمال الناس أو الشهاده على الأنبياء في يوم القيامه حيث ورد في القرآن الكريم: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» (١).

ص: ٩٥

لكن ظاهر كلام الإمام عليه السلام يشير إلى أنّ المراد بالشهادة إطلاع النبي صلى الله عليه وآله على أعمال الناس من أجل إمتثال الأوامر الإلهية في هذه الدنيا، وبعبارة أخرى فإنّ وظيفه النبي صلى الله عليه وآله لا تقتصر على إبلاغ الدعوه إلى الحق، بل تتبع إجراء وتطبيق تلك الدعوه وهذا هو معنى إمامته وولايته التشريعية، ولا مانع طبعاً من الجمع بين المعنيين في أنّه شاهد على الأعمال في هذا العالم وكذلك شاهد عليها في العالم الآخر. ثم خاض في بيان أوصاف نبي الإسلام صلى الله عليه وآله ليذكر ست صفات آخر فقال: صلى الله عليه وسلم فَبَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَاِنِ (١) وَلَا مُقَصِّرٍ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاِهِنٍ وَلَا مُعَذِّرٍ (٢). إِمَامٌ مِّنِ اتَّقَى. وَبَصَرٌ مِّنِ اهْتَدَى. .

فقد تضمنت هذه العبارة القصيره جميع الخصائص التي ينبغي توفرها في القائد الشجاع المقتدر، عدم الضعف والوهن والتقصير ومجاهده العدو وعدم الاعتذار والتذرع، ومن جانب آخر فانه عدّ النبي صلى الله عليه وآله إمام المتقين ووسيله هدايه المبصرين، حيث يزود عنه الأفراد من المفسدين ويقصى المضلين المعاندين.

نعم، الكثيرون هم الأفراد الذين يخلقون الذرائع والحجج الواهيه بهدف التغطية على تقصيرهم وعدم جدّهم واجتهادهم، ويستبعد ذلك من زعيم شجاع ومدير مدبّر فلا يتّجه صوب الحجج والذرائع.

فالعبارات المذكوره تشير في الواقع إلى مدى ضعف أهل الكوفه ووهنهم وتركهم للجهد وتشبّهم بالذرائع من أجل الفرار من المسؤوليات، فالإمام صلى الله عليه وآله يذكرهم بأنّ نبيكم لم يكن كذلك فما بالكم تقيمون على هذا الحال.

ص: ٩٦

١-١) «وانّ»: من ماده «ونى» على وزن وحى بمعنى الضعف والثاقل، ويقال الوانى لمن يتباطىء في الأعمال.

٢-٢) «معذر»: من ماده «عذر» تقال لمن يعتذر ولا يثبت له عذر.

و منها: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا آغَلَمَ مِمَّا طَوَى عَنْكُمْ غَيْبُهُ، إِذَا لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعِدَاتِ تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لَا حَارِسَ لَهَا وَلَا خَالِفَ عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ كُلُّ أَمْرِيءٍ مِنْكُمْ نَفْسُهُ، لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا. وَلَكِنَّكُمْ نَسَيْتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمِيتُمْ مَا حُذِرْتُمْ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيِكُمْ، وَتَشَّتْ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ. وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَالْحَقْنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ. قَوْمٌ وَاللَّهِ مَيِّمِينَ الرَّأْيِ، مَرَاجِيحُ الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ. مَضَوْا قَدَمًا عَلَى الطَّرِيقِ وَأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحْجَةِ، فَظَفَرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ، وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ» .

الشرح والتفسير

يحذر الإمام صلى الله عليه وآله في هذا المقطع من الخطبه كافه الأفراد الذين يبدون الضعف فى مجاهدته العدو الغادر والغاشم، ويتهربون من المسؤوليه من خلال اللجوء إلى بعض الحجج والأعذار، فى أن الآفاق المعتمه إنما تكمن أمامكم، والمستقبل المظلم الذى يتسلط فيه العدو عليكم ويهيمن على مقدراتكم وسيصيبون عليكم جام غضبهم بما يجعلكم تفقدون صوابكم وعقلكم: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا آغَلَمَ مِمَّا طَوَى (١) عَنْكُمْ غَيْبُهُ، إِذَا لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعِدَاتِ (٢) تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ، وَتَلْتَدِمُونَ (٣) عَلَى أَنْفُسِكُمْ» .

ص: ٩٧

١- (١) «طوى»: من ماده «طى» بمعنى الكتمان والاختفاء وأريد بها هنا الكتمان.

٢- (٢) «صعدت»: جمع «صعيد» بمعنى بقعه الأرض والتراب والمواضع المرتفعه من الأرض، وهى هنا إشاره إلى الصحراء والجبل والسهل، وصرح البعض بأن صعدت جمع صعد على وزن دهل وصعدت جمع الجموع.

٣- (٣) «تلتدمون»: من ماده «لدم» على وزن لفظ بمعنى الضرب وإلتدام بمعنى ضرب النساء صدورهن للنياحه.

بل قد لا- تكتفون بذلك: «وَأَلْتَرَكْتُمْ أَمْوَالَكُمْ لَا حَارِسَ لَهَا وَلَا خَالِفَ (١) عَلَيْهَا، وَلَهَمَّتْ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ نَفْسَهُ، لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا» .

فهذه العبارات تجسد حال الشخص الذى يتلى بمصائب عظميه بحيث ينسى كل شىء سوى إنقاذ نفسه، فقد إتجه صوب الصحراء ويتابع لطم وجهه ورأسه يسكب دموعه ويتعالى صراخه، كما يسعى إلى التخلي عن أموال رغم مالها من أهميه لديه ومدى الجهود التى بذلها من أجل الحفاظ عليها، إلى جانب ذلك فهو لا يعير أهميه لمن خلفه حتى أنه لينسى أعزته وبطانته.

ويرى بعض شراح نهج البلاغه أن هذه العبارات ترتبط بأحوال يوم القيامة التى وردت فى مختلف الآيات القرآنيه، لكن بالنظر إلى ذيل الخطبه الذى يتحدث عن جرائم الحجاج وسبب الخطبه الذى يفيد ضعف أهل الكوفه فى جهاد العدو، فإن المعنى المذكور يبدو بعيداً، والظاهر أنها ناظره إلى سلطه بنى أميه والجرائم المروعه التى إرتكبها الحجاج وأمثاله.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشاره إلى المصدر الرئيسى الذى انبثقت منه هذه الحوادث: «وَلَكِنَّكُمْ نَسَيْتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمْتُّمَّ مَا حُذِرْتُمْ، فَتَاهَ (٢) عَنْكُمْ رَأْيَكُمْ، وَتَشَّتَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ» .

لا ينبغى لكم أن تتصوروا أبداً بأن الحوادث الأليمه التى تنتظركم إنما تأتاكم بغته، كلا ليس الأمر كذلك، فقد حذرتكم مراراً، وأدّيت لكم حق الوعظ والنصح، وكشفت لكم المستور، ثم أنذرتكم، لكن للأسف لم تعيروا وعظى ونصحى آدانا صاغيه، فقد نسيتم كل ما ذكرته لكم وتجاهلتم كل الإرشاد، ومن هنا لم تمارسوا ما ينبغى عليكم فى موقعه وأوانه ولم تعدوا الخطط اللازمه للوقوف بوجه الأعداء فلم تكن نتيجة ذلك الذى لا مثيل له فى التاريخ.

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ» .

إشاره إلى أنه طالما تعذر إصلاحكم فى ليتنى فارقتمكم، وليت القدر الإلهى أذن بالتحاقى

ص: ٩٨

١- ١) «خالف»: من ماله «خلوف» من يخلف فى الأهل والمال حين الخروج إلى السفر أو الحرب، كما وردت بمعنى الفرد الكثير الخلاف، إلّا أن المراد هنا هو المعنى الأول.

٢- ٢) «تاه»: من ماله «تاه» الحيره والقلق.

بمن ينسجم معى فى الأفكار والتطلعات.

ثم خاض عليه السلام فى شرح خصائص القوم الذين يراهم ينسجمون وأفكاره وتوجهاته: «قَوْمٌ وَاللَّهِ مَيَّامِينَ (١) الرَّأْيِ، مَرَّاجِيحُ (٢) الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ (٣) لِلْبُعْيِ. مَضَوْا قُدَمًا (٤) عَلَى الطَّرِيقَةِ وَأَوْجَنُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ، فَظَفَرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ، وَالْكَرَامَةِ الْبَارِدَةِ» .

فهذه العبارات إشاره واضحه إلى النبى صلى الله عليه وآله وطائفه من صحبه ممن يتصف بالخصائص المذكوره الست، صفتان فى برامج الحياه (نصره الحق ومصارعه الظلم) وصفتان فى العمل (الانطلاق باتجاه الحق والسرعه من أجل بلوغ الهدف) وصفتان فى الفكر (التحلى بالفكر الناضج والعقل التام) ، فبين أيضاً نتيجة هذه الصفات والتى تتمثل بالسعاده المطلقه والحياه الحره الكريمة.

مظلوميه أمير المؤمنين على عليه السلام

لا تقتصر المظلوميه على أن يقتل الإنسان من قبل فئه ظالمه جباره ناقضه للعهود وغادره فى معركة ليست متكافئه فحسب، بل من أسوأ نماذج المظلوميه أن يرى الإنسان الكفوء والمدير الناجح والأمر المقتدر والخبير الماهر والسياسى اليقظ والواعى نفسه وسط طائفه لا- تنسجم وأفكاره وكفاءته ولا يسعها الحركة باتجاهه، فهى تفعل على العكس من كل ما يقول ولا تتحرك خلفه مهما حذرهما وأنذرهما، فهى فرقه مشتته وجاهله وضعيفه وهنه مسلوبه الإراده، فابتلاء مثل هذا الزعيم بمثل هؤلاء الأتباع يؤدى إلى ضياع القيم وتناسى الأفكار، بل أبعد من ذلك يذهب بعض الجهال إلى إتهام هذا الزعيم بعدم القدره على إداره الأمور.

هذا هو أحد نماذج المظلوميه والذى عاشه أمير المؤمنين عليه السلام فى عصره، وقد أشار إلى ذلك

ص: ٩٩

١-١) «ميامين»: جمع «ميمون» بمعنى مبارك.

٢-٢) «مراجيح»: جمع «مرجاج» على وزن مثقال ذو حلم.

٣-٣) «متاريك»: جمع «متراك» على وزن مسواك من يترك الشئ تماماً.

٤-٤) «قدم»: من «ماده» قدوم بمعنى السبق، وهى هنا إما ظرف بمعنى فى مسار السبق وإما معنى جمعى بمعنى السابقون.

الإمام نفسه عليه السلام فى أكثر من خطبه من خطب نهج البلاغه، فتاره يقول عليه السلام: «لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنْ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِى بِكُمْ صَرْفَ الدِّينَارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّى عَشْرَةَ مِنْكُمْ وَأَعْطَانِى رَجُلًا مِنْهُمْ» (١).

وأخرى يقول: «مَلَكَتْنِى عَيْنِى وَأَنَا حَيِّ السُّ، فَسَيَّحَ لَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوْدِ وَاللَّدَدِ؟ فَقَالَ: «ادْعُ عَلَيْهِمْ» فَقُلْتُ: أَبَدَلْنِى اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَأَبَدَلَهُمْ بى شَرًّا لَهُمْ مِنِّى» (٢).

ويقول فى الثالثه: «يا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رِبَّاتِ الْحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّى لَمْ أَرَكُمْ» (٣).

والحق لعننا لا نعثر طيله التاريخ على زعيم وولى من أولياء الله قد واجه فى مده قصيره من حكومته بكل هذه العداوه والبغضاء والقسوه والجلاده والعنف والطغوى، وهذا أبشع أنواع المظلوميه، ومن هنا قيل: «على عليه السلام أول مظلوم فى العالم».

ص: ١٠٠

١-١ (١) نهج البلاغه، الخطبه ٩٧. [١]

٢-٢ (٢) المصدر السابق، الخطبه ٧٠. [٢]

٣-٣ (٣) المصدر السابق، الخطبه ٢٧. [٣]

«أَمَّا وَاللَّهِ لَيَسْلَطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامٌ ثَقِيفٌ الذِّيَالُ الْمَيَّالُ. يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ إِلَيْهِ أَبَا وَذَحَه!». .

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام الخطبه باستعراض صريح لا لبس فيه للإخبار عن المصير الأسود الذى ينتظر أهل الكوفه فقال: «أَمَّا وَاللَّهِ لَيَسْلَطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامٌ ثَقِيفٌ الذِّيَالُ الْمَيَّالُ (١) (٢). يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ». .

ثم أردفها بالقول: «إِلَيْهِ أَبَا وَذَحَه! (٣)» .

أجمع شراح نهج البلاغه على أنّ المراد بغلام ثقيف هو الحجاج بن يوسف الثقفى الذى ينسب إلى قبيله بنى ثقيف والذى ولى الكوفه على عهد عبدالملك بن مروان، كان مشهوراً بقسوته وتعطشه للدماء وقد إختاره عبدالملك بن مروان للانتقام من أهل الكوفه وإخماد الثوره ضد حكومه بنى أميه، وكما أخبر الإمام عليه السلام فى هذا الكلام، فهو لم يرحم أحد وقد نهب أموال الأمه وسفك دماءها، وقد صور الإمام أوضاع الناس على عهده بقوله: «يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ» .

ص: ١٠١

١-١) «الذيال»: من ماده «ذيل» آخر كل شىء وتصطلىح العرب بالذيال على الشخص الذى تخط ذيال ثوبه على الأرض، ولما كان هذا العمل يقوم به المتكبرون من الأفراد، فقد أطلقت الذيال على الأفراد الذين يتصفون بالكبر والأنانيه.

٢-٢) «الميال»: من ماده «ميل» الفرد الطائش.

٣-٣) «وذحه»: كما سيرد فى المتن بعره الشاه أو بولها والذى يلتصق بصوفها، كما ورد بمعنى الخنفساء، إلّا أنّ ابن أبى الحديد صرح بأنّ المعنى الثانى لم يرد فى أى من لغات العرب، والحال إذا رجعنا إلى متون اللغه لرأينا أنّ أغلب أرباب اللغه ذكروا هذا المعنى لمفرده الودحه.

لابد من الالتفات إلى أنّ «خضره» وإن كانت بمعنى محصول الحقول والأراضي الزراعيه، لكنها هنا تشير إلى كافة الأموال التي نهبها الحجاج والعبارة يذيب شحمتكم كناية عن شدة الضغط الذي يتعرض له الناس فيصبحوا على درجة من الضعف، وكأنه لم يبق لهم سوى الجلد والعظم، وهذا هو مصير الأفراد الذين يتمردون على القائد الفذ والشفيق الرؤوف بالأمة العادل معها كعلي عليه السلام. والمفردة «أيه» بالكسر والتنوين حسب تصريح أغلب أرباب اللغة تستخدم حين يراد تشجيع الشخص على مواصلة الكلام أو العمل وإياها بتنوين الفتح تستعمل حين يراد دعوه شخص لل سكوت أو الامتناع عن العمل، بالنظر إلى أنّ «أيه» وردت في نسخ نهج البلاغه بتنوين مكسور فالمفهوم ضاعف يا حجاج من ضغوطك على الأفراد الطلحاء وضعفاء الإيمان جاحدى الحق الطغاه الذين يتمردون على إمامهم العادل! وعبارة أخرى فإنّ هذه المفردة كناية في أنّ أولئك الأفراد يستحقون ما يحل بهم من عذاب إلهي، لا يعنى ذلك رضى الإمام عليه السلام بأى مقدار من ظلم الحجاج.

فالكلام أشبه بما نقوله لشخص إنّ هذا الدواء وإن كان مرّاً لكنه العلاج الذى يشفيك فلا يصغى لما يقال له، فإن اشتد ألمه وتعالى صراخه وارتفع صوته نقول له: تألم أكثر! فهذه نتيجة عملك، فمن البديهي أنّ مفهوم ذلك ليس رضانا بألمه ووجعه، بل معناه أنّ تلك هى النتيجة الطبيعى لعدم إمثاله لأوامر الأطباء والحكماء، وهذا الكلام شبيه ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبه ٢٨ حيث قال: «أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى، يَجُرُّ بِهِ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى» .

وأما وذحه فقد صرحت أغلب المصادر اللغويه من قبيل (لسان العرب، مجمع البحرين، أقرب الموارد)، أنّها تعنى الخنفساء، وقال البعض كصاحب القاموس والخليل بن أحمد فى كتاب «العين» أنّها تعنى بعرة الحيوان بوله الذى يلتصق بصوفه.

وأما بشأن انتخاب كنيه «أبا وذحه» للحجاج فقد وردت فيها عدّه آراء ذكرتها التواريخ وشروح نهج البلاغه، أنسبها أنّ الحجاج رأى يوماً خنفساء قرب موضع صلواته فدفعها عنه، فأنته ثانية فدفعها، فلما أنته ثالثة أمسكها بيده وعصرها فعضته فورمت يده فأدى به الورم إلى الموت، وكان الله تعالى أراد أن يرى هذا السفّاح مدى قدرته حيث قضى عليه وبواسطه

أحقر مخلوقاته، على غرار النمروود ذلك الطاغية المعروف والذي ولجت أنفه بعوضه قضت عليه.

وقال البعض أنّ الحجاج كان يتنفر من الخنفساء فلم تكد تقع عينيه عليها حتى يأمر غلمانه بدفعها، ومن هنا إصطلحت عليه الناس أبا وذحه، ولا يبدو مناسباً أن نذكر هنا سائر ما ورد في هذا الشأن وخلاصته أنّ الحجاج كان يشكو من مرض جنسى، فكان يعالج مرضه بالخنفساء، وقد صرح ابن أبي الحديد بعد ذكره لهذه الروايات أنّ الإمام عليه السلام إختار هذه الكنية للحجاج لأنّ عادة العرب جرت على ذكر الفرد بكنيته حين الاحترام وذلك للعظمه، وإن أرادوا تحقيره ذكروه بالكنيه أيضاً من قبيل كنيه عبدالملك بن مروان بأبى الذبّان، حيث كان الذباب يتجمع على فمه لخبث رائحته (أو كان حتى الذباب ينفر منه كما صرح بذلك البعض)، وكذلك كنيه يزيد بن معاوية بأبى زنه (١).

قال الشريف الرضى آخر هذه الخطبه: «الوذحه الخنفساء» وهذا القول يؤمى به إلى الحجاج وله مع الوذحه حديث ليس هذا موضع ذكره.

من هو الحجاج؟

الحجاج من أبشع الطغاه الذين عرفهم التاريخ البشرى، وقد ألفت مختلف القصص التى تعنى بجرائمه وجنایاته التى يصعق لها كل من طيلع عليها، كان والى عبدالملك بن مروان على الكوفه، وعبدالملك خامس الخلفاء بنى أميه، وقيل فى صفه الحجاج أنّه كان دميم الخلقه كريبه المنظر قصير القامه ضعيف أعوج الرجلين أبرص ولعل سفكه للدماء وولعه بها ناشىء من تلك العقده والشعور بالحقاره، وقد ذكر المؤرخ المعروف المسعودى فى «مروج الذهب»: «بأنّه كان يعترف بأنّ أعظم لذته فى سفك الدماء والإتيان بالأفعال التى لا يقوم بها الآخرون» (٢).

ص: ١٠٣

١-١ شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٧/٢٧٩. [١]

٢-٢ مروج الذهب ٣/١٢٥.

تولى إماره الحجاز «مكه والمدينه» من قبل عبدالملك بن مروان لستين فارتكب أشع الفضائع ومنها قصفه الكعبه بالمنجنيق، ثم وضع النار على طائفه من صحابه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله المعروفين مثل جابر بن عبدالله الأنصاري، وأنس بن مالك، وسهل بن الساعدي على أنهم اشتركوا فى قتل عثمان، ثم وجهه عبدالملك إلى العراق وولاه البصره والكوفه، حكم الحجاج مدّه عشرين سنه وبلغ من قتلهم الحجاج مئه الف وعشرين من غير الذين قتلوا على يديه وأعوانه فى الحروب، كان فى سجنه حين مات خمسون ألف رجل ثلاثين ألف وإمرأه سته عشر ألف منهم عراه، وكان يضع النساء مع الرجال ولم يكن لسجنه سقف فكانوا يعانون من شدّه الحراره فى الصيف والبروده فى الشتاء.

وقال ابن الجورى: أنّ حرس السجن كانوا يرمون السجنين بالحجر إن لاذ بالجدار من شدّه حراره الشمس، وكان طعامهم قليلاً من الخبز المخلوط بالملح والرماد، فكان يسود وجهه من يدخل السجن بحيث لا تعرفه أمه حين تأتي لرؤيته.

ولعل أبلغ كلام قيل فى الحجاج ما ذكره الشعبى حين قال: «لو أخرجت كل أمه خبيثها وفاسقها وأخرجنا الحجاج بمقابلتهم لغلبناهم» .

وكان موته ذا عبره أيضاً حيث أصيب بمرض شديد فكان يصرخ بشدّه من الألم حيث كانت تسيطر عليه بروده شديده فيضعون قربه ظروفاً مملوءه بالنار حتى كان يحترق جلده وهو يرتعش من البرد.

نعم، لقد احترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة، توفى فى الرابعه والخمسين من عمره عام ٩٥ هـ فى جهنم وبئس المصير. (١)

ص: ١٠٤

١ - ١) مروج الذهب ٣٦/١٦٦؛ وتاريخ ابن الجوزى حسب نقل سفينه البحار، وسيره الأئمه، ٢٤٤/؛ وشرح نهج البلاغه للمرحوم التستري ٦/١٢.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يُؤَبِّخُ الْبَخْلَاءَ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ

نظرة إلى الخطبة

يبدو أن هذه الخطبة القصيره هي جزء من خطبه طويله فصلها المرحوم السيد الرضى، ومن هنا لم يتضح سبب ووردها ولا أقسامها الأولى: والآخره، مع ذلك فهي تشمل على عبارات مؤثره ومعتبره رغم قصرها.

ويستفاد من بعض المصادر (٢) أن الإمام عليه السلام أورد هذه العبارات ضمن خطبه في نهايه معركة صفين فهي تناسب تلك الأجواء تماماً.

على كل حال فإن الإمام عليه السلام عرض بالذم المخاطبيه الذين يسحون في بذل الأموال والأنفس في سبيل الله سبحانه وتعالى فقال لهم اعتبروا بتاريخ أسلافكم واتعضوا بحياتهم كيف تركوا كل شيء وارتحلوا عنه.

ص: ١٠٥

١ - ١) سند الخطبه: ورد في مصادر نهج البلاغه أن أى مصدر غير نهج البلاغه لم يتعرض لنقل هذه الخطبه، ويكتفى بالإشاره إلى كلام ابن أبى الحديد في آخر هذه الخطبه وقال: جاء في بعض الروايات «أصل اخوانكم» بدلاً من «أوصل إخوانكم» ويستفاد إجمالاً من هذا الكلام أن هناك مصدراً آخر لابن أبى الحديد في هذه الخطبه.

٢ - ٢) تمام نهج البلاغه، ص ٦٥٩.

«فَلَا أَمْوَالَ يَدَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا، وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا. تَكْرُمُونَ بِاللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلَا تُكْرِمُونَ اللَّهَ فِي عِبَادِهِ! فَاعْتَبِرُوا بِتُرُوكِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصِلِ إِخْوَانِكُمْ» .

الشرح والتفسير

الفكر والاعتبار

إستهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة بدم طائفه من أصحابه وهو يعتب عليهم ويوبخهم فقال: «فَلَا أَمْوَالَ يَدَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا، وَلَا أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا» .

فالواقع هو أن الله تبارك وتعالى خالق الأنفس هو المالك الأصلي لهذه الأموال، وهذه الأموال والأنفس أمانه استودعها الله سبحانه الناس مدّه من الزمان، وإلا أنكم أخذتم إليها وإلتصقتم بها وكأنكم أنتم المالك الأصلي والخالق لها، وهذا قمه الجهل بالواقع، فالعبارة تبدو متناسبه تماماً وإلقاء هذا الكلام بعد معركة صفين، حيث كانت هناك فئه في جيش الإمام عليه السلام لم تكن مستعدة للمخاطره بأرواحها دفاعاً عن الحق ولم تكن حاضره لبذل ما في أيديها من أموال لتجهيز جند الإسلام.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «تَكْرُمُونَ (١) بِاللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَلَا تُكْرِمُونَ اللَّهَ فِي عِبَادِهِ!» .

حقاً إن هذا الإزدواج لشيء عجيب في أن يتوقع الإنسان أن يعزّه ويكرمه الناس على أنه عبد من عباد الله، بينما لا يكرم أى من عبيد الله سبحانه، فهو لا ينفق شيئاً من ماله ولا يضحى

ص: ١٠٧

(١-١) ورد الفعل تكرمون بصيغه الفعل الثلاثي المجرد المعلوم الذى يعنى الإكرام والاحترام، وهى هنا بمعنى انتظار الإكرام.

بنفسه من أجل الوقوف بوجه الظالم ونصره المظلوم.

ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه بتحذيرهم وضروره الاعتبار بمن سبقهم حيث سيجرى عليهم نفس الحكم، وإن كانوا رحلوا فسترحلون ويأتى قوم آخرين يسكنون مساكنكم كما سكنتم منازل من كان قبلكم كما عليهم الإتعاظ بانفصام عرى القرابه حتى مع أقرب إخوانكم، فقد رأيتم بأعينكم ذهاب بعض أعزتكم وقريباً ما تلحقون بهم: «فَاعْتَبِرُوا بِمَنْزِلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصِلِ إِخْوَانِكُمْ» .

فهذا دليل آخر على أنّ كافه الأموال والأنفس ودائع وهى مخلوقه جميعاً لله، وأنه سبحانه يداول هذه الأموال والمساكن والمناصب بين الناس إلى أجل مسمى، والتاريخ أعظم شاهد على هذا الأمر.

فلسنا أول من وطأنا هذا العالم، ولسنا بأخر من يغادره، إننا حلقة صغيره ضمن هذه السلسله الطويله الممتده منذ بدايه الخليقه حتى نهايه العالم، فمن الغفله ألا نرى الحلقات السابقه واللاحقه، فلا نعرف موقعنا فى هذا العالم ونرى هذه الدنيا خالده دائمه لنا.

وزبيده الكلام فإنّ الإمام عليه السلام كشف النقاب عن الممكنون بهذه العبارات بما يوقظ النائم الغافل ويقض مضجع من يشهد سكر المال والمقام والجاه.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي الصَّالِحِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ

نظره إلى الخطبه

كما ذكر في سند هذه الخطبه فقد صرّح بعض شراح نهج البلاغه أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام بعد معركة الجمل، حيث كان أصحاب الإمام عليه السلام وحده واحده وصفوف متراصه مطيعه لأوامره وتوجيهاته فحققوا نصراً سريعاً باهراً بعد أن قضوا بكل شجاعه وبساله على فلول العدو وأحمدوا نار الفتنة.

فقد أثنى الإمام عليه السلام عليهم بهذه العبارات البليغه القصيره، ثم أوصاهم بمواصله السير على هذا النهج، وأخيراً إختتم خطبته بإشاره عابره إلى مقام ولايته

ص: ١٠٩

١ - ١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه المؤرخ المعروف الطبري في كتابه «تاريخ الأمم والملوك»، وابن قتيبه الدينوري في كتاب «الإمام والسياسيه»، وابن أبي الحديد الذي قال في شرح هذه الخطبه، قال على عليه السلام هذا الكلام بعد معركة الجمل، كما نقلها المدائني، والواقدي في كتبهما (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٦١).

«أَنْتُمْ الْأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ، وَالْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْجُنُنُ يَوْمَ الْبَاسِ، وَالْبَطَانَةُ دُونَ النَّاسِ. بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ. فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحِهِ خَلِيَّتِهِ مِنَ الْغَشِّ، سَلِيمِهِ مِنَ الرَّيْبِ. فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!» .

الشرح والتفسير

الأصحاب الأوفياء

شحت أغلب خطب نهج البلاغه بالذم الشديد بالنسبه لطائفه من أصحاب الإمام عليه السلام خاصه بعد معركة صفين على ما أبدوه من ضعف وفرقه وغدر في ميدان المعركه، لكن في هذه الخطبه التي وردت بعد معركة الجمل، فإن الإمام عليه السلام يعرض بالمدح والثناء البليغ على أصحابه الأوفياء، ويدل هذا بوضوح على أن الإمام عليه السلام كان على الدوام يحث المحسنين من أصحابه ويرغبهم في الأعمال الصالحه، كما كان يذم المسيئين منهم، ليخلص الفريق الأول في عمله ويلتصق به، ويرعوى الفريق الثانى ويهم بإصلاح نفسه، فقد خاطب الإمام الصالحين من صحبه بأربع عبارات: «أَنْتُمْ الْأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ، وَالْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْجُنُنُ (١) يَوْمَ الْبَاسِ، وَالْبَطَانَةُ (٢) دُونَ النَّاسِ» .

نعم، أنتم إخوانى فى الدين وقد أثبتتم عدم تقصيركم فى نصره الحق، تفقون بكل شموخ فى ميادين القتال بوجه الأعداء، إلى جانب ذلك فأنتم ثقه فى حفظ الأسرار المتعلقة بالحرب والسلام.

ثم قال عليه السلام: «بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ» .

ص: ١١١

١- (١) «جنن»: جمع «جنه» على وزن قَوْه الوقايه.

٢- (٢) «بطانه»: من ماده «بطن» صاحب السر وخاصه الرجل.

إشاره إلى أنّ الناس على صنفين: صنف أدار ظهره للحق وهبّ لمقارعتة ولا سبيل هناك سوى التصدى له والوقوف بوجهه، وأنتم الأنصار في هذا القتال، وصنف آخر أقبل على الحق ولكن لا يتمتع بالمعرفه اللازمه والطاعه الكافيه، وسأعمل على تربيتهم بواسطةكم لكي ينقادوا لله ويطيعوه.

والخلاصه: فأنتم أنصارى في مقاتله العدو وكذلك في المجال الفكرى تجاه الصديق، ثم نصح عليه السلام صحبه الأوفياء بعبارتين عميقتين المعنى فقال: «فَأَعِينُونِي بِمُنَاصِحِهِ خَلِّتِهِ مِنَ الْعُشِّ ۖ سَلِيمِهِ مِنَ الرَّيْبِ» .

ففى العبارة إشاره إلى نقطه مهمه وهى أنّ بطانه الأمراء ومشاورى الحكام غالباً ما يقدمون مصالحهم الشخصيه أو منافع قرابتهم ومن لهم علاقته بهم، ثم يعرضونها للحكام على أساس إرادته الخير والخدمه، بل أحياناً يطرحون بعض الاقتراحات التى لا يقتنعون بها أنفسهم وهذا ما يؤدى بدوره إلى الإحباط والفشل فى أغلب الخطط، فالإمام عليه السلام يؤكد على أصحابه الإخلاص فى ما يطرحونه من أراء واقتراحات وابعادها عن كل ما يشوبها وعدم الأخذ بنظر الاعتبار سوى الخير وصلاح دين الحق وعباد الله.

وأخيراً يختتم خطبته بهذه العبارة: «فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ!» .

ولعل هذه العبارة دليل على العبارات السابقه، أى إئى إن توقعت نصرتكم ووقوفكم إلى جانبى فذلك كونى ولى أمر الناس باذن الله، بل إئى أولى بهم حتى من أنفسهم، وهذا ما ينبغى أن يجعلكم تشعرون بالرضى والسرور على إنكم تسرون خلف مثل هذا الإمام وتطيعون أوامره.

الثناء على الأصحاب

أثنى الإمام عليه السلام ثناءً بليغاً على أصحابه بعد معركة الجمل، حيث استطاعوا بمدّه قياسيه ومن خلال إتحادهم وصمودهم وقوّه إيمانهم من القضاء على قدرات العدو وإخماد نار الفتنة فى تلك المنطقه الإسلاميه الحساسه (البصره) .

بينما توالى الخطب التي تعرض بالذم لطائفه أخرى من أصحابه، وذلك بعد معركة صفين التي انتهت بفشلهم بفعل اختلاف كلمتهم وضعفهم في عقيدتهم وإرادتهم وعدم طاعتهم وإمتثالهم للأوامر، ولم يكن ذيك سوى في اللحظات الأخيرة التي أوشك النصر فيها على التحقق والرسوخ، فذلك الثناء وهذا الذم يفيد أن كل ذلك يتم على أساس حساب تخطيط وليس هناك من تناقض في الأمر، كما لم تطلق كلمه في هذا المجال تتعارض والحكمه والمصلحه، الأمر الذي ربّما يلتبس على البعض الذين لا يعلمون بشأن وورد هذه الخطبه.

النقطه الأخرى هي أنّ الإمام عليه السلام عين في هذا الكلام القصير وظيفه الأمه تجاه الحكومه، فيجب عليها من جانب الوقوف من أجل استقطاب الأوفياء ودفع الحاقدين، ومن جانب آخر التمعن في كافة الأنشطة السياسيه والاجتماعيه والعسكريه وإبداء المقترحات النافعه والانتقادات البناء بهذا الخصوص.

ثم يشير في آخر عبارته من هذه الخطبه إلى نقطه مهمه وهي مسأله الولايه الإلهيه، وهو الأمر الذي أكدّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في خطبه الغدير حيث قال: «أَلَسْتُ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ»، فردّ المسلمون: بلى يا رسول الله، ثم قال صلى الله عليه وآله: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلَيَّ مَوْلًا». . هكذا قطع رسول الله صلى الله عليه وآله الأعداء على جميع من يتشبث بالحجج الواهيه ويختلق الذرائع ليقول الولي هنا بمعنى الصديق.

والطريف في الأمر أنّ العلماء الأئمة صاحب كتاب الغدير قد نقل العبارة: «أَلَسْتُ أَوْلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» من أربعة وستين محدثاً ومؤرخاً إسلامياً، وهذا ما يؤكد إتفاق الجميع على هذه العبارة (1)، فالإمام عليه السلام ذكر هذه النقطه في الخطبه وأقسم قائلاً: «فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَوْلَىٰ النَّاسِ بِالنَّاسِ!».

من الواضح أنّ المراد من هذه العبارة هو أنّ أوامر الإمام المعصوم كأوامر الله تبارك وتعالى مقدمه على رغبات الناس، وإن كانت هذه الأوامر تصبّ في طريق مصالح المجتمع ومنافعه.

ص: ١١٣

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وقد جمع الناس وحضهم على الجهاد فسكتوا ملياً

نظره إلى الخطبة

كما ورد في سند الخطبة فإن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة إثر إحدى حملات معاوية وجيش الشام على أطراف العراق، فيعرض الإمام عليه السلام بالنقد اللاذع في هذه الخطبة لذلك الصمت السلبي وعدم الإكتراث من قبل الناس تجاه تلك الأحداث المؤذيه التي تضعف معنويات جند الإسلام وروحياتهم، وحين ردّ البعض على الإمام عليه السلام إن سرت سرنا معك، شدد الإمام عليه السلام من ذمهم وتوبيخهم على أنّ وظيفه الإمام وزعيم الجماعه ليست في أن يدفع بشخصه لإخماد أي تمرد ومطاردته عدو وترك مركز الحكومة الإسلاميه والتخلي عن مختلف وظائفه، فالإمام لا بدّ أن يقوم بهذا العمل في الأحداث الغايه في الأهميه ويترك لبعض الأمراء الصغار ممن دونه التعامل مع سائر الأحداث، فهذا أحد الأصول المسلمه للإداره والإمره وللأسف لم يكن أهل الكوفه على علم بذلك أو أنّهم لم يريدوا العلم بذلك.

ص: ١١٥

١-١) سند الخطبه: نقلت مصادر أخرى هذه الخطبه وكذلك فسّر ابن الأثير في «النهايه» بعض المفردات من هذه الخطبه، كما أشار إلى بعض عباراتها. قال ابن أبي الحديد في شرح لهذه الخطبه أنّ الإمام خطبها بعد معركة صفين والنهروان بعد غارات أهل الشام على مناطق البلاد الإسلاميه، وهذا يفيد وجود مصدر آخر لابن أبي الحديد غير الذي إعتمده السيد الرضى (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٦٣).

القسم الأول: المخلفون الضعفاء والجهال

«فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا بَالُكُمْ أَمْخَرَسُونَ أَنْتُمْ؟»

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ سِرَّتَ سِرْنَا مَعَكَ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا بَالُكُمْ! لَا سُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ! وَلَا هُدَيْتُمْ لِقَصْدٍ! أَفِي مِثْلِ هَذَا يَتَّبِعِي لِي أَنْ أُخْرَجَ؟ وَإِنَّمَا يُخْرَجُ فِي مِثْلِ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِي بَأْسِكُمْ، وَلَا يَتَّبِعِي لِي أَنْ أَدْعَ الْجُنْدَ وَالْمُضِيرَ وَبَيْتَ الْمَالِ وَجَبَايَةَ الْأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أُخْرَجَ فِي كَتِيبِهِ أَتْبَعُ أُخْرَى، أَتَقْلَقُلُ تَقْلُقُلَ الْقَدْحِ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ، وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَى، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتَهُ اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ نِقَالُهَا. هَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ الرَّأْيُ السُّوْءُ!.

الشرح والتفسير

حين بلغ الإمام عليه السلام هجوم أعوان معاويه على بعض المناطق الحدودية، جمع الناس وأمرهم بالحركة إلى الجهاد، لكن وكما ورد في الخطبة المذكوره سكت الناس ولم يجيبوه، فامتعض الإمام عليه السلام وتأثر شديداً فقال: فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا بَالُكُمْ أَمْخَرَسُونَ أَنْتُمْ؟»

فَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ سِرَّتَ سِرْنَا مَعَكَ».

فردّ عليهم الإمام بعنف بعدم التوفيق وبلوغ الهدف (1)، فلا ينبغي للإمام الحركة في مثل تلك

ص: ١١٧

١ - ١) هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغه [١] بشأن هذه الجملة هل هي جملة خبرية تخبر عن وضع جماعها الكوفه الضعيفه والمسلوبه الإراده على أنهم سلكوا سبيلاً لا يدهم يتوفون في حياتهم أبداً، أم أنها جملة إنشائية ونوع من الاشتمزاز، يبدو المعنى الثاني هو الأنسب.

الظروف: «فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا بِالْكُمْ! لَا سُدِّدْتُمْ (١) لِرُشْدٍ! وَلَا هُدَيْتُمْ لِقَصْدٍ! أَمِثَلٌ هَذَا يَتَّبِعِي لِي أَنْ أُخْرَجَ؟ وَإِنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثَلٍ هَذَا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِي بَأْسِكُمْ» .

فلم يكم متعارفاً في أى مكان من الدنيا ولا عصر من العصور أن ينهض زعيم فرقه أو رئيس دولة بشخصه للتدخل في حادثه صغيره وبلبله معينه، بل عاده ما يوجه لها أحد أمریه برفقه مجموعه من العناصر الشجاعه والوفيه من أجل إخماد الفتنة وحل النزاع، وذلك لأنّ التخلّى عن مركز الحكومه من شأنه أن يقود إلى عدّه مخاطر جانيه، ومن هنا واصل الإمام كلامه قائلاً: «وَلَا يَتَّبِعِي لِي أَنْ أَدَعَ الْجُنْدَ وَالْمَصِيرَ وَبَيَّتَ الْمَالِ وَجَبَايَةَ الْأَرْضِ، وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ، ثُمَّ أُخْرَجَ فِي كِتَابِهِ (٢) أَتَبِعُ أُخْرَى، أَتَقَلُّلُ تَقَلُّلَ (٣) الْقَدْحِ (٤) فِي الْجَفِيرِ (٥) الْفَارِغِ (٦)» .

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى سته جوانب تتضمن الوظائف المهمه لرئيس الدوله يمكنها الإنهيار جميعاً فيما إذا شغرت مركز الحكومه من ذلك الرئيس، وهى الاشراف على الجند وأمور العسكر والجيش والحفاظ على مركز الدوله وحفظ بين مال المسلمين وجبايه الخراج والضرائب والقضاء بينهم والدفاع عن حقوق عنهم.

فمن البديهي يمكن لرئيس الدوله أن يشخص بنفسه للتعامل مع الحوادث الضحمة ويهب لمواجهة العدو، أمّا في غيرها من الحوادث ذات الطبيعه العاديه، فيمكن لغيره التعامل معها، وتشير سيره الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنه كان يشخص بنفسه الشريفة في الغزوات المهمه المصيريه، فيتزعم الجند، وكان ينصب بعض الأفراد في الغزوات العاديه فيسلمه الرايه

ص: ١١٨

١- ١) «سددتم»: من ماده «سد» المعروف المعنى ولما كان السد هو البناء المحكم فالتسديد يعنى الإحكام والترسيخ وسدده وفقه للسداد.

٢- ٢) «كتيبه»: طائفه من الجيش قال بعض أرباب اللغه يتراوح عددها من مئه إلى ألف.

٣- ٣) «تقلقل»: الحركه من جانب إلى آخر.

٤- ٤) «قدح»: بكسر القاف السهم أو القطعه من الخشب وقيل أيضاً هو السهم قبل أن يراش وينصل.

٥- ٥) «جفير»: الكنانه التى توضع جانب الفرس وتوضع فيها السهام.

٦- ٦) «الفراغ»: بمعنى الخالى.

ويوصيه ببعض التعاليم كما يوصى الجيش بطاعه أوامره، وهكذا كانت تحصل أغلب الغزوات فى تاريخ الإسلام والتي يصطلح عليها عادة بالسريه، غايه ما فى الأمر أنّ صحابه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كانوا يأترون بأوامره بحيث يطيعونه فى كل ما يقول ولم يكن يرد عليه أحد بأن سرت سرنا معك.

نعم، صحيح لكل قسم مسؤول على أساس تقسيم وتنظيم شؤون البلاد، لكن لا يخفى الدور الحيوى الذى يلعبه الرئيس المشرف على أولئك المسؤولين فى تقدم الأعمال والنهوض بها قدماً، هذا الأمر واضح تماماً، بل هو من البديهيات، لكن أولئك المتقاعسون المسلوبون الإراده والضعاف الذين يتذرعون بمختلف الذرائع من أجل إجتناى مواجهه العدو فيشترطون شرطاً غايه فى البعد عن المنطق لخروجهم، وبعبارة أخرى شرطهم هو تعليق على المحال، ويواصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال تشبيه رائع لشخصه بقطب الرحا ومحورها والذى يفيد ضروره بقاءه فى موضعه (بـحيث تدور كل الأمور من خلاله) فان إبتعد هذا المحور عن مركزه اختلت حركه جميع الأشياء: «وإنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَى، تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي، فَإِذَا فَارَقْتَهُ اسْتَحَارَ (1) مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا» .

فقد جرت العاده سابقاً على الاستفاده من الرحى اليدويه أو المائيه والهوائيه من أجل طحن الحنطه والشعير، وكانت بنيه هذه الآليات بسيطه وواضحه، فقد كانت هناك حجره ثابتة فى الأسفل وأخرى تتحرك فى الأمام بواسطه حركه اليد أو ضغط الماء الذى يعبر من تحتها أو الرياح، وكان وسط الحجرين قطب يدور حول محوره الحجر لو كسر القطب لخرج الحجر عن مساره ووقع جانباً إلى جانب ذلك كان هناك جلد كبير أو قطعه من القماش تبسط تحت الرحا لجمع الدقيق بسهوله، حيث إذا خرج الدقيق من وسط الحجرين وقع عليه، ولو زال ذلك القطب والمحور الأصلي لوقفت الرحا عن الحركه ووقع الحجر على تلك القطعه من القماش أو الجلد واضطراب.

هذا ما أشار إليه الإمام بقوله: «اسْتَحَارَ مَدَارُهَا، وَاضْطَرَبَ ثِفَالُهَا» ، إضافة إلى ذلك فإنّ

ص: ١١٩

١-١) «استحار»: من ماده «تـحـير و حـير» بمعنى التردد والاضطراب وتطلق على السحب الثقيله التى لا تدعها الرياح تتحرك فى مسارها وكأنها تبقى مضطربه متردده.

الشيء الذى يحرك الحجر فى الرحا هو ذلك الواقع فى وسط الحجر والذى يتصل من الأسفل بمحور أكبر يصب عليه الماء من جانب ويحركه، وهكذا يكون القطب عامل حركه وعامل تنظيم، وهذه هى منزله الإمام والقائد.

وأخير يخلص الإمام إلى النتيجة صريحه بأن ذلك الاقتراح مرفوض تماماً فى أنّ يشخص بنفسه لإطفاء كل فتنة هنا وهناك تاركاً لمركز الحكومه: «هَذَا لَعَمْرُ اللَّهِ الرَّأْيُ السُّوءُ!». .

حقاً أنه لإقتراح فاشل بشهاده كل مدير ومسؤول له علم بهذه الأمور فى أنّ القائد لا يفارق موقعه ومركز ثقله ومهامه سوى فى الحوادث المهمّة.

«وَاللَّهِ لَوْلَا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوِّ - وَلَوْ قَدْ حَمَّ لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ؛ طَعَانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ رَوَّاعِينَ. إِنَّهُ لَا غِنَاءَ فِي كَثْرَتِهِ عِدَدِكُمْ مَعَ قَلْبِهِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ، مَنْ اسْتَقَامَ فِإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فِإِلَى النَّارِ» .

الشرح والتفسير

شدد الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه من ذمّه وتوبيخه لأهل الكوفه وعين نقاط ضعفهم وأعرب عن يأسه وعدم أمله في مستقبلهم وعاقبه أمرهم، فقال: «وَاللَّهِ لَوْلَا رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوِّ - وَلَوْ قَدْ حَمَّ (١) لِي لِقَاؤُهُ - لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ فَلَا أَطْلُبُكُمْ مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ» .

العبارة «مَا اخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ» ، إشاره إلى مراده أنني لم آتني إليكم أبداً، فالعبارة أشبه بما ورد في إحدى كلماته عليه السلام حين أقرح عليه عدم التسويه في العطاء من بيت مال المسلمين، فقال عليه السلام: «أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللَّهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا!» (٢).

ص: ١٢١

١-١) «حم»: من ماده «حم» على وزن غم بمعنى قدر، وعليه فمفهوم العبارة قد حم لي لو قدر لي مثل هذا الأمر، أو إن وفقت لهذا الأمر.

٢-٢) نهج البلاغه، الخطبه ١٢٦. [١]

تطالعنا هنا ثلاثة أسئلة تطرح نفسها:

الأول: كيف قال الإمام عليه السلام لولا رجائي الشهادة لما مكثت بينكم ولتركتكم، بينما ذكر سابقاً لا ينبغي لى أن أدع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين والنظر فى حقوق المطالبين، فكيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين؟

الثانى أنّ الإمام عليه السلام قد سمع بشاره رسول الله صلى الله عليه وآله له بالشهادة وكان يعلم أنه سيقتل على يدي أشقى الآخرين عبدالرحمن بن ملجم، فكيف قال لولا رجائي الشهادة عند لقائي العدو؟

الثالث: كيف يستطيع الإمام عليه السلام التخلي عن إمامته وزعامته ويخرج من الناس؟

وللإجابة على السؤال الأول لابد من القول أن نيل فيض الشهادة كان يشكل أحد الأهداف المقدّسه للإمام عليه السلام فى بقائه وسط تلك الفئه ولا مانع من أن يكون له أهداف أخرى، حيث بين اثر تلك الأهداف فلم تعد هناك من حاجه لديه لذكرها هنا (١).

ونقول فى الردّ على السؤال الثانى إنّ لقاء العدو يشتمل على مفهوم غايه فى السعه وإن بدى فى الوهله الأولى يجسد مواجهه الخصم فى ساحه المعركه والذى يمثل جزءاً من ذلك اللقاء، ونعلم أنّ شهادة الإمام عليه السلام كانت أحد مصاديق ذلك.

وأما السؤال الثالث: فيمكن الإجابة عليه بالقول بأن ترك فئه فاسده لا يمكن إصلاحها لا يعنى التخلي عن وظائف الإمامه أبداً، بل يمكن للإمام عليه السلام أن يتّجه صوب جماعه أعظم إستعداداً، على غرار ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله حين هاجر من مكه إلى المدينة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بذكر الأدله التى تدعوه إلى عدم الإرتياح منهم ويبيّن لهم نقاط ضعفهم على أمل الإلتفات إلى أنفسهم فيهموا باصلاحها فقال: «طَعَانِينَ عَيَّابِينَ، حَيَّادِينَ (٢) رَوَّاعِينَ (٣)» .

ص: ١٢٢

١- ١) للأسف وحسب علمنا فإنّ شرّاح نهج البلاغه لم يطرقوا هذا البحث ويردوا على هذه الأسئلة، وشذ منهم أحد أعلام القرن السادس هو المرحوم البيهقى الذى أجاب عن السؤال الثالث بأنّ الإمام عليه السلام قال: ذلك بغض النظر عن مقام الإمامه، وإلّا فإنّ مقام الإمامه يقتضى من الإمام أن يكون بين الناس مهما كانت الشرائط، وبعبارة أخرى فإنّ الإمام عليه السلام قال لولا مقام الإمامه وكنت حرّاً فى هذا الأمر لتركتكم.

٢- ٢) «حيادين»: من ماده «حيد» على وزن حرف بمعنى الانحراف ويقال الحياد، لمن ينحرف كثيراً عن جادهالحق.

٣- ٣) «رواعين»: من ماده «روغ» على وزن ذوق بمعنى الذهاب إلى هذا الطرف وذاك وهى كناية عن المكر والحيله، ومن هنا تستخدم هذه المفردة بشأن الثعلب، فيقال (راغ الثعلب).

فهذه الصفات الأربعه على درجه من القبح والبشاعه بحيث يكفى وجود واحده منها فى فرد لتدعو للنفره منه والابتعاد عنه، فضلاً عن اجتماعها جميعاً فيه، أى أنّ جلّ همّه الالتفات إلى المعايب والمثالب، بل يعطيها حجماً أكثر من واقعها فهو لا ينفك عن طرحها وتكرارها حتى شعر المقابل باليأس، فلا يرى الحق حتى يولى له ظهراً فتختلط حياته بالمكر والأسى، فكيف لرجل صالح أن يعيش وسط مثل هذه الفئه فضلاً عن الإمام المعصوم عليه السلام الزعيم للخلق والذى ليست أمامه من نتيجته لهذا الوضع الأساسى سوى الحزن والمعاناه، ومن هنا يرجو الإمام عليه السلام مفارقتهم والانفصال عنهم.

ثم أضاف الإمام عليه السلام بأنّه إلى جانب تلك العيوب الشخصيه هناك عيب اجتماعى كبير فيهم والذى يتمثل بعدم جدوى كثره عددهم مع قلّه اجتماع أفكارهم: «إِنَّهُ لَأَغْنَاءُ فِي كَثْرِهِ عَدَدِكُمْ مَعَ قَلِّهِ اجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ» .

صحيح أنّ عددكم يبدو كثيراً فى الظاهر، ولكن حيث تغيب الوحده التى ينبغى أن تجمع قلوبكم وتوحدها وحيث ينفرد كل بإرادنه وقراره، فلم يعد هناك من خير يؤمل فيكم، أو بعبارة أخرى فإنّ اجتماعكم الموتى وتجمعكم الوحشه.

ثم إختتم الإمام عليه السلام الخطبه بقوله أنّى قمت بوظيفتى تجاهكم: «لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لَا يَهْلِكُ عَلَيْهَا إِلَّا هَالِكٌ، مَنْ اسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ» .

فالإمام عليه السلام أوضح بهذه العبارة حقيقه مفادها أنّى قلت لكم كل ما ينبغى قوله وأتممت عليكم الحجه وإن تمنيت الخروج عنكم ومفارقتكم فذلك لا- يعنى أنّى قصرت فى مقام بوظيفتى تجاهكم، ولكن للأسف إنكم لستم بالأفراد للثقلين الذين يسعكم الاستفاده من البرامج التربويه التى يطرحها مرشد ربّانى شفيق عليكم.

القلوب الواعيه

أورد مؤرخ القرن الثالث المعروف أبو اسحاق الثقفى فى كتاب «الغارات» فى ذيل هذه الخطبه حين خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبه قام «جاريه بن قدامه السعدى» فقال: «يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا أَعْدَمَنَا اللَّهُ نَفْسَكَ وَلَا أَرَانَا فِرَاقَكَ أَنَا لِهَوْلَاءِ الْقَوْمِ فَسِرِّحْنِي إِلَيْهِمْ» .

فسر الإمام عليه السلام لكلامه وأثنى عليه، من جانب آخر قام إليه «وهب بن مسعود الخثعمي» فقال: «أنا لهم» .

فأمر الإمام عليه السلام جاريه أن يسير بألفين إلى البصره والخثعمي بألفين إلى الكوفه، ثم أمرهما بتتبع بسر بن أبي ارطاه أينما وجدوه (١).

والذي يستفاد من هذا البحث التاريخي:

أولاً: إنَّ شدَّه كلمات الإمام عليه السلام كان لها في خاتمه المطاف الأثر البالغ في بعض القلوب الواعيه فاستعد أصحابها لمواجهه الأعداء.

ثانياً: يتضح أنَّ هذه الخطبه قد وردت قبل المرحوم الرضى في كتاب «الغارات» .

ص: ١٢٤

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يَذَكَرُ فَضْلَهُ وَيَعْظُ النَّاسَ

نظرة إلى الخطبه

بدايه الكلمات إشاره إلى وجود أبواب الحكم وكنوز العلم لدى أهل البيت عليهم السلام الذين تعلموا من رسول الله صلى الله عليه وآله و آله تبليغ الرساله و تفسير كلمات الله سبحانه و تعالى، ثم خاض الإمام في إسداء مواعظه و نصائحه النافعه و حذر الناس في ضروره الاعتبار بالآخرين و الخوف من نار جهنم و أن يعملوا ما يجعل الناس يذكرونهم بكل خير بعد إيمانهم، فالسمعه الحسنه أفضل من الأموال تلحق الإنسان بعد وفاته، الأموال التي قد لا يعرف الورثه عاده قيمتها ولا يشكرون جامعها.

ص: ١٢٥

١-١) سند الخطبه: جاء في كتاب مصادر نهج البلاغه أن سليم بن قيس الذي عاش قبل السيد الرضى نقل القسم الأول من هذه الخطبه في كتابه، كما وردت سائر أجزائها بصوره متفرقه في كتاب «غرر الحكم»، ولما كان هناك تفاوت بين بعض عبارتها، فإن ذلك يعنى أنها أخذت من كتاب آخر غير نهج البلاغه، كما قال ابن أبي الحديد في شرح بعض عبارات هذه الخطبه نقلها جماعه بشكل آخر وهذا يشير إلى أنه كان لديه مصدراً آخر (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٦٤). [١]

«تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ. وَعِنْدَنَا - أَهْلَ الْبَيْتِ - أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَصِيَاءُ الْأَمْرِ. أَلَا وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَإِحَادَةَ، وَسِيْمَلَهُ قَاصِدَةً. مَنْ أَخَذَ بِهَا لِحَقٍّ وَغَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ. إِعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُدْخِرُ لَهُ الذَّخَائِرُ، وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ. وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرٌ لِيَوْمِ فَعَازِيهِ عَنْهُ أَعْجَزُ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ. وَاتَّقُوا نَارًا حَرُّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَلِيَّتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ. أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لَا يَحْمَدُهُ».

الشرح والتفسير

المواعظ القيمة

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن العلوم التي تعلمها من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ، وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ».

المراد بتبليغ الرسالات أساليب نشر المعارف الإسلامية وأحكام الدين بمختلف الطرق وايصالها إلى الناس، إشاره إلى أنى لم أتعلم الرسالات الإلهية فحسب، بل تعلمت من رسول الله صلى الله عليه وآله طرق التبليغ، فكنت لا أثنى في هذا السبيل.

والمراد باتمام العادات «الوفاء بالعهود» تلك وعود الله تبارك وتعالى بصورة عامه بالنسبة لجميع المؤمنين والوعود بصورة خاصه بالنسبة له عليه السلام، كما ورد في القرآن الكريم: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» (١).

ص: ١٢٧

يمكن أن يكون هذا الوعد الإلهي هو الوعد بالشهادة في سبيل الله، أو سائر الوعود من قبيل مقاتله الناكثين والقاسطين والمارقين، أو غير ذلك.

والمراد بتمام الكلمات يمكن أن يكون إشاره إلى تفسير آيات القرآن وتفسير كلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وتبيان وإكمال كافة الكلمات التي وصلت من الكتاب والسنة.

كما يحتمل أن يكون المراد الإمام صلى الله عليه وآله أنى أولى من جميع الأفراد بخلافه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وذلك لأننى تعلمت طريق تبليغ الرساله وتحقيق وعوده صلى الله عليه وآله وتفسير وتكميل كلماته، وعليه فإننى أستطيع النهوض لمسؤولية الخلافة، وقد ورد فى الحديث النبوى الشريف أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلى عليه السلام: «أَنْتَ وَصِيّ وَأَخِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَتَقْضِي دِينِي وَتُنْجِزُ عِدَاتِي» (١).

الاحتمال الآخر الذى يمكن ذكره بالنسبه لهذه العبارة هو أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يقول أنا أولى بالخلافه، لأننى أقدر على تبليغ جميع رسالات الله سبحانه، كما أستطيع العمل بالوعود التى أقطعها وكذلك أتم ما أورده من كلمات وأحاديث.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالقول: «وَعِنْدَنَا - أَهْلَ الْبَيْتِ - أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَصِيَاءُ الْأَمْرِ» .

والحكم بضم الحاء بمعنى الحكموهو القضاء، بناءً على هذا فالمراد بالعبارة عندنا أهل البيت طرق تدبير الحكومه وإقامه العدل وبسط الأمن، والحكم بكسر الحاء وفتح الكاف جمع الحكمه بمعنى العلوم والمعارف، ولا شك ولا ريب أنّ لدى أهل البيت عليهم السلام أبواب الحكمه وكنوز العلم والمعرفه، كما قرنهم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال فى حديث الثقلين المعروف: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِترَتِي» (٢).

ثم أورد الإمام عليه السلام خمس نصائح من شأنها نجاه العباد فى الدنيا والآخرة، وكأن العبارات الأولى لهذه الخطبه قد وردت لإعداد القلوب من أجل تقبل هذه النصائح ليقول أنّ كلامى يستند إلى علم عميق ودقيق بتعاليم الإسلام وتعاليم النبي صلى الله عليه وآله، فكانت النصيحة الأولى مسأله الإتحاد ووحده الكلمه وذلك لأن الاختلاف آفات سعادته الإنسان، فقال: «أَلَا وَإِنَّ

ص: ١٢٨

١- ١) بحار الانوار ٣٦/٣١١.

٢- ٢) للوقوف على مصادر هذا الحديث الشريف راجع كتاب نفحات القرآن ٩/٦٢ - ٧١. [١]

شَرَائِعِ الدِّينِ وَاحِدَةً، وَسُبُلُهُ قَاصِدَةٌ. مَنْ أَخَذَ بِهَا لِحَقٍّ وَعَنِمَ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ» .

المقصود بشرائع الدين كافة التعليمات التي صرّح بها الدين الحنيف بما فيها المعارف والعقائد والقوانين والوصايا والأموال الأخلاقية، فجذروها واحده في جميع الأديان السماوية وإن إقتضت الظروف الزمانية والتطور البشرى أن يكون هناك بعض الاختلاف شرحها وتفصيلها وتنوع فروعها.

كما يحتمل أن يكون المراد بشرائع الدين مختلف الطرق إلى الله سبحانه في الدين الإسلامى والتي تنتهى جميعاً إلى طريق رئيسى واحد وهو القرب إلى الله والسعادة المطلقة للبشر، فالصلاه الصوم والجهاد والحج والزكاه وكافه مثل هذه التعليمات إلى جانب التعاليم العقائديه والأخلاقية تتصل وتنتهى بنقطه واحده ويؤكد عليه السلام على أن بلوغ السبيل سهل وواضح وقريب، وعليه فإن الفرقه والاختلاف إنّها تحصل من مزج الأفكار الباطله والأهواء ووساوس النفس والشيطان بشرائع الدين، فقال تعالى فى كتابه العزيز: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ. . .» (١).

وقال عليه السلام فى الموعظه الثانيه: «إِعْمَلُوا لِيَوْمٍ تَذْخُرُ لَهُ الدَّخَائِرُ، وَتُبَلَى فِيهِ السَّرَائِرُ» .

العباره الأولى إشاره إلى الآيه الشريفه: «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ. . .» (٢).

والعباره الثانيه إشاره إلى الآيه القرآنيه: «يَوْمَ تُبَلَى السَّرَائِرُ» (٣).

من البديهي أن للإنسان قدره محدوده ينبغى توظيفها فى أفضل سبيل، فالعقل يقول: لم تستهلك طاقتك فى طريق لا يدوم أكثر من أيام، لم لا- تستهلكها فى سبيل يرافكك على الدوام ويخلد فيه معك، أضف إلى ذلك يوم تبلى فيه السرائر وكافه أعمال الإنسان الخفيه، فهو يوم عصب وفضيحه بالنسبه للطالحين.

وقال عليه السلام: فى عظته الثالثه: «وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُ حَاضِرٌ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ (٤) عَنْهُ أَعْجَزُ، وَعَازِبُهُ أَعْوَزُ (٥)» .

ص: ١٢٩

١-١ (١) سورة الشورى / ١٣. [١]

٢-٢ (٢) سورة النحل / ٩٦. [٢]

٣-٣ (٣) سورة الطارق / ٩. [٣]

٤-٤ (٤) «عازب»: من ماده «عزوب» بمعنى الابتعاد وعازب بمعنى بعيد.

٥-٥ (٥) «أعوز»: من ماده «عوز» على وزن مرض وعوز الشىء بمعنى لم يوجد ويراد به عدم وجود الشىء عند الحاجة.

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أراد بهذه العبارة مزج الأدلة العقلية بالنقلية وتعبئه الجميع من أجل متابعه سبيل الحق، وقد قال الإمام عليه السلام هنا ثلاثه أنواع لعقل هي: العقل الحاضر والبعيد والغائب، يمكن أن يكون الأول إشاره إلى المسائل العقلية الواضحه، والثاني إلى المطالب النظرية التي يبلغها الإنسان من خلال الطرق الاستدلالية الواضحه، والأخير إشاره إلى المواضيع المعقده التي يتعذر التوصل إليها من خلال الدليل والبرهان، فمن البديهي أن يتعذر إدراك المطالب النظرية والمعقده والبعيده عن الفكر على من لا يستفيد من المسائل الفكرية البسيطة.

ففي المسائل النظرية تتضح تماماً معرفه الله يوم القيامة (بالمبدأ والمعاد)، وذلك لأنّ آياته قد ملأت جميع العالم، والقيامه التي تمثل محكمته العادله ثابتة بحكم العقل، وفي المسائل العلميه فإنّ حسن العدل وقبح الظلم ومدح الصدق والوفاء والعفه والورع والتقوى مسلم للجميع، ولكن قد يحول التعصب الأعمى وأهواء الإنسان دون الوقوف على هذه الأمور الواضحه، فأني لمثل هذا الفرد أن يبدى رأيه في المسائل النظرية والمعقده ويبلغ الهدف المطلوب.

ثم خاطب الإمام عليه السلام الناس في المواعظه الرابعه بصفته منذر عالم فقال: «وَاتَّقُوا نَاراً حَرَّهَا شَدِيدٌ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَلِيَّتُهَا حَدِيدٌ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ» (١).

والعبارات البليغه التي أوردها الإمام عليه السلام بشأن نار جهنم والتي تكفي كل واحده منها لصد الإنسان عن الذنب إنما اقتبست من الآيات القرآنيه والأحاديث النبويه، فقد جاء في الآيه: «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا. . .» (٢).

وجاء في أخرى: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ. . .» (٣).

يعني أنّها على قدر من الكبر والسعه بحيث لا تمتلىء بسهولة، وجاء في آيه أخرى: (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ» (٤).

وجاء في آيه أخرى: «مَنْ وَرَّأَهُ جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ» (٥)، قطعاً من يؤمن

ص: ١٣٠

١-١) «صديد»: الماء الساخن، كما ورد بمعنى ماء الجرح الرقيق.

٢-٢) سورة التوبه / ٨١. [١]

٣-٣) سورة ق / ٣٠. [٢]

٤-٤) سورة الحاقه / ٣٠ - ٣٢. [٣]

٥-٥) سورة إبراهيم / ١٦. [٤]

بالآخِره ومحكمه العدل الإلهى وشىء من العذاب الأليم، فإنه يتحكم وسيطر على أهوائه ويجتنب الظلم والجور ولا يقارف الذنب والمعصيه، أما أولئك الذين ليس لهم من إيمان بهذه الأمور ولا يعتقدون بالحساب والكتاب والثواب والعقاب، فليس هناك ما يدعوه إلى السيطرة على أهواءه وكف الأذى عن الآخرين وعدم التعرض لحقوقهم.

نعم، يمكن للضمير أن يجد من هوس الأفراد إلى حدود معينه، لكن من اليقين أن ليس لذلك من بعد عمومى وشامل، وتأثيره يبقى متواضعاً، أضف إلى ذلك فإن نبتة الضمير تذبل وتجف وتموت ما لم تسق بماء تعاليم الأنبياء عليهم السلام.

أما الموعظه الأخيره والخامسه فقد أشار إلى نقطه مهمه جداً فقال: «أَلَا وَإِنَّ اللّٰسَانَ الصّٰلِحِ يَجْعَلُهُ اللّٰهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُرْتَبُهُ مَنْ لَّا يَحْمَدُهُ» .

إن أغلب الناس وبدافع حبهم لأولادهم وأزواجهم يبذلون قصارى جهدهم من أجل ضمان مستقبلهم ويفنون جانب عظيمياً من أعمارهم فى هذا المجال حتى أنهم يخلطون أحياناً الحلال بالحرام، لكنهم يغفلون عن قضيه مهمه دلت عليها التجربه أنه قلما نجد وارثاً يحمده من ورثه على ما خلفه لهم من ميراث، بل غالباً ما تكون الأموال الموروثة مصدراً للشقاق والاختلاف والنزاع، ولا غرو فكل فرد يسعى لأن يحصل لنفسه على السهم الأوفى، حتى قيل موت الغنى بدايه قتال الفقير.

بل قد يتجاوز الأمر ذلك لنشهد سب الوارث والتشنيع عليه والتعرض له بالذم من جراء ما خلفه من مشاكل بسبب الارث.

والحال لو تجاوز الإنسان وهو على قيد الحياه ذاته وأنفق قسماً من أمواله كصدقه جاريه وخدمه إنسانيه وثقافيه يسديها إلى المجتمع لبقى ذكره الطيب بين الناس فلن ينسوه أبداً، ويشنون عليه دائماً ويسألون الله له المغفره والرحمه، فهذا هو ثوابه فى الدنيا ولثواب الآخِره أعظم.

مِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

بعد ليله الهرير

وَقَدْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: الْأَمْرَيْنِ أَرْشُدُ؟ فَصَفَّقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى ثُمَّ قَالَ:

نظره إلى الخطبة

لابد من الالتفات إلى مناسبه وورد الخطبه من أجل الوقوف على عمق محتواها ومضمونها، فهذا الكلام يرتبط بمعركه صفين حين نهى الإمام عليه السلام الناس عن قبول التسليم للتحكيم، ثم دعاهم إلى قبوله، والمعروف بهذا الشأن أنّ عمرو بن العاص فكر بخدعه حين شارف جيش الشام على الهزيمه، فأمر برفع المصاحف ووضعها على أسنه الرماح، ثم دعى أصحاب على عليه السلام إلى تحكيم القرآن، فانخدع لذلك الكثير من السذج من أصحاب على عليه السلام فكفوا عن القتال واستجابوا لطلب أهل الشام، ثم أصرروا على تحكيم القرآن بشأن مصير

ص: ١٣٣

١ - ١) سند الخطبه: وردت هذه الخطبه فى عدّه كتب ألفت قبل المرحوم السيد الرضى مثل كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربّه و «الاختصاص» للشيخ المفيد، والكتب التى ألفت بعده «الكتب التى تفيد عباراتها أنّها نقلت الخطبه من مصادر أخرى غير نهج البلاغه» مثل «مطالب السؤل» لمحمد بن طلحه الشافعى، و «الاحتجاج» للطبرسى، و «ربيع الابرار» للزمخشرى مع اختلاف.

المعركة فى أن ينهض حكم من جيش الإمام عليه السلام وآخر من جيش معاويه، وبلغ بهم الأمر أن هددوا الإمام قائلين: «إن لم تفعل قتلناك كما قتلنا عثمان» .

الإمام كان يعلم بأنّ تلك مصيده خطيره كمنت فى طريقهم ورغم مخالفته لهذا العمل، وإصراره على مواصلة القتال، غير أنّه أُجبر على التسليم للتحكيم، وهذا ما دفع بالبعض للإعتراض على الإمام على عليه السلام، وفحوى اعتراضهم إنك نهيتنا عن التحكيم، واليوم تأمرنا به؟

فالخطبه ردّ على هذا الاعتراض وقد أشار الإمام عليه السلام إلى عدّه أمور فى إطار الجواب فقال أولاً: هذه نتيجة طبيعیه لفعلكم وعدم تبعيتكم لإمامكم، فلو عملتم بما أمرتكم به وواصلتم القتال لما أصبحتم اليوم تعانون من هذه المشكله، ثم بين الإمام نقاط ضعفهم التى أدت إلى هذه المشكله الكبيره وفى المرحله الثالثه ذكر طائفه من أوائل المسلمين فى صدر الإسلام كانت تهب مسرعه لتبليه نداء الجهاد ومواجهه العدو بفعل قوه إيمانها، فكانت تنتصر دائماً (إشاره إلى أن طريق النصر ما سلكوه، لا ما أنتم عليه) .

وأخيراً يعرض لهم بالنصح ثانيه فى مراقبه أنفسهم والحذر من مصائد الشيطان.

«هَذَا جَزَاءُ مَن تَرَكَ الْعُقْدَةَ! أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا، فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هِدَايَتَكُمْ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنِ أَيْبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ الْوُثْقَى، وَلَكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ؟ أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي، كَنَاقِشِ الشُّوكَةِ بِالشُّوكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا! اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطْبَاءُ هَذَا الدَّاءِ الدَّوِيَّ، وَكَلَّتِ النَّزْعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِيِّ!». الشرح والتفسير

ردّ الإمام عليه السلام بجواب قاطع على من اعترض عليه في أنّ هذه المصيبة التي عصفت بكم إنّما أفرزها التحكيم وهذا جزاء من ترك الرأي السليم: «هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ (١)!». .

لقد صرخت بكم أن واصلوا القتال ولا تتركوه في هذه المرحلة الحساسة فالنصر قريب، لكنكم وليتم ظهوركم واستسلمتم لخدعه عمرو بن العاص، فأبيتم إمام التحكيم، كان مكر ابن العاص في رفع المصاحف خدعه ظاهرها الإيمان وباطنها الكفر والنفاق على ضوء ما أخبر به الإمام عليه السلام في الخطبه القادمه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وقد أقسم بالله لو أجبرتكم على الجهاد - والذي لم يكن يروق لكم بينما فيه الخير الكثير - حين أمرتكم بقبول التحكيم (بفعل الاضطرار واصرار الجهّال) لكان خيراً لكم، فان سلكتم سبيل الحق هديتكم وإن انحرفتم أعدتكم إلى الصواب، ولو

ص: ١٣٥

تخلفت طائفه منكم لاستبدالها بأخرى (على كل حال لو أطمعتموني في مواصلة القتال) وهذا هو الحق الذى ليس بعده إلا الضلال، لكن من المؤسف إنكم لم تجيبوني، فمن استظهر على العدو وبمن أثق؟ «أما والله لو أنى حين أمرتكم به حملتكم على المكروه الذى يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم، وإن اغوجتكم قومتكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكأنت الوثقى، ولكن بمن وإلى من؟» .

فالإمام عليه السلام قد بين بهذا الرد القاطع حقيقه فى أن تبتى مواصلة الجهاد حتى تحقيق النصر، سيما أننا على أعتاب النصر، و كنت مستعداً لمواصلة هذا الطريق بكل قوه وعزم، ولذلك نهيتكم عن التحكيم، لكنكم أفراد ضعاف لا إراده لكم وطغاه عصاه لستم مستعدين للقيام بهذا العمل، وعليه فلم يكن لى من سبيل سوى قبول التحكيم، والحال رجعتم الآن عن رأيكم وسوّلت لكم أنفسكم الاعتراض علىّ.

ثم أعرب الإمام عليه السلام عن دهشته فقال: «أريد أن أداوى بكم وأنتم دائى، كناقش الشوكه بالشوكه، وهو يعلم أن ضلعها (١) معها!» .

فالتشبيه المأخوذ من المثل المعروف تشبيه غايه فى الدقه والبلاغه، فعاده ما يخرجون الشوكه التى تغوص فى الرجل يابره أو منقاش، فان أريد سلها بشوكه أخرى احتمال أن تغوص الثانيه فى الرجل أيضاً، فيزيد الطين بله حتى أصبح الأمر بصيغه مثل تعارف عند العرب حيث يقول: «كناقش الشوكه بالشوكه، وهو يعلم أن ضلعها معها» .

فالمثل يصرب لمن يحكم آخر لرفع الاختلاف بينه وبين شخص آخر والحال يرغب ذلك الفرد بزياده العداوه والنزاع، فمراد الإمام عليه السلام إنى أريد أن أضع بكم عصاه الشام بينما أنتم العصاه الذين يجب تأديبهم، على كل حال، فان هذه العبارات التى تفيض معاناه تفيد مدى الوضع العصيب الذى شهده الإمام عليه السلام، فان أمرهم بالهجوم ومواصلة القتال خالفوه وقالوا: عليك بالنزول لحكم القرآن، وإن طرح عليهم قضيه التحكيم اعترضوا عليه بالقول: لم تسلّم لمنطق العدو؟ فكل هواه ورأيه، ولكل فكره ونهجه، بحيث انتهى بهم الأمر إلى إتهام أعظم

ص: ١٣٦

١-١) «ضلع»: من ماده «ضلع» على وزن سبب بمعنى الميل نحو الشيء، وتعنى هنا الشبه والمثل.

إمام خلف رسول الله صلى الله عليه وآله على أنه ضعيف في التدبير، وليس ذلك إلا بسبب وجود فئه سيئه من الأتباع الضعاف، لم وكيف أصبح الأمر كذلك؟ كأن الحق سبحانه أراد امتحان الجميع بهذا الزعيم الفذ.

وأخيراً شكى الإمام وعرض حاجته إلى الله سبحانه فقال: «اللَّهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطْبَاءُ هَذَا الدَّاءِ (١) الدَّوِيَّ، وَكَلَّتِ (٢) النَّزْعَةُ (٣) بِأَشْطَانِ (٤) الرِّكِيِّ (٥)!». .

ياله من تعبير بليغ وموجع في نفس الوقت، فان أصيب شخص بمرض عضال ولم يجد معه نفعاً كل علاج يقدمه الطبيب المختص، فلا يشعر مثل هذا الطبيب سوى بالملل والإرهاق، على غرار الفلاح الذي يجهد نفسه في استخراج الماء من البئر ليسقى به الأرض المالحة فلا تخرج بالنبات، وهذا بالضبط حال الإمام على عليه السلام حين إبتلى بتلك العصابة من الجهال المسلوبه الإيمان والإرادة لا خير يرتجى فيهم.

ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن عيسى بن مريم عليه السلام قال: «دَاوَيْتُ الْمَرْضَى فَشَفَيْتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرَأْتُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَالَجْتُ الْمَوْتَى فَأَحْيَيْتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَالَجْتُ الْأَحْمَقَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى إِصْلَاحِهِ» (٦).

ص: ١٣٧

١- ١) «داء»: من ماده «دوى» بمعنى المرض الشديد.

٢- ٢) «كلت»: من ماده «كلول» على وزن ملول بمعنى الضعف.

٣- ٣) «نزعه»: من ماده «تزع» على وزن جمع نازع بمعنى السحب.

٤- ٤) «أشطان»: جمع «شطن» على وزن وطن الحبل الطويل الذى يسحب به الماء من البئر.

٥- ٥) «ركى»: جمع «ركيه» البئر.

٦- ٦) بحار الانوار ١٤/٣٢٣، ح ٣٦. [١]

«أَيْنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَاقْبَلُوهُ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكُمُوهُ، وَهَيِّجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلُّوهُا وَلَهُ اللَّقَاحُ إِلَى أَوْلَادِهَا، وَسَيَلْبُوا السُّيُوفَ أَعْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفًا زَحْفًا، وَصَفًا صَفًّا. بَعْضُ هَلْكَ، وَبَعْضُ نَجَا. لَا يُبَشِّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَلَا يُعَزُّونَ عَنِ الْمَوْتِ الْقَتْلَى. مُرَّةُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاةِ، خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبِيلُ الشَّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صَيْفُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهْرِ. عَلَى وَجْهِهِمْ غَبْرَةٌ الْخَاشِعِينَ. أَوْلَيْكَ إِخْوَانِي الدَّاهِبُونَ. فَحَقَّ لَنَا أَنْ نُنْظِمَ إِلَيْهِمْ، وَنَعَضَّ الْأَيْدَى عَلَى فِرَاقِهِمْ» .

الشرح والتفسير

ذكر الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه أصحابه الشجعان من أهل الإيمان بهدف إثاره قدراتهم وقواهم وحثهم على الجهاد، كما ذمهم على ضعفهم وتقصيرهم، أصحابه الذين تألقوا فى ساحات الحرب حين قتالهم للأعداء وكذلك فى ميدان الطاعة والعبوديه حيث كانوا سباقين فى هذه الميادين فقد قال: «أَيْنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَاقْبَلُوهُ، وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكُمُوهُ، وَهَيِّجُوا (١) إِلَى الْجِهَادِ فَوَلُّوهُا (٢) وَلَهُ اللَّقَاحُ (٣) إِلَى أَوْلَادِهَا، وَسَيَلْبُوا السُّيُوفَ أَعْمَادَهَا (٤)، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفًا زَحْفًا (٥)، وَصَفًا صَفًّا. بَعْضُ هَلْكَ، وَبَعْضُ نَجَا» .

ص: ١٣٩

١- (١) «هيجوا»: فعل مجهول من ماده «هيجان» وتعنى هنا أنهم كانوا يندفعون إلى الجهاد.

٢- (٢) «ولها»: من ماده «ولّه» على وزن فرح شدّه الشوق أو الحزن.

٣- (٣) «لقاح»: من ماده «لقوح» الناقه.

٤- (٤) «اعماد»: جمع «عمد» على وزن هند موضع السيف.

٥- (٥) «زحف»: تعنى فى الأصل المشى مع الثقل.

دقيقه هي الأوصاف التي أوردها الإمام عليه السلام في هذه العبارة لهم، فقد ابتدأها بالإيمان بالإسلام والفهم والإدراك الصحيح للقرآن والعمل به والذي الدافع الرئيسي للحركة نحو الجهاد، ومن ثم عشقهم للجهاد الذي يشبه بعشق الأم لولدها وولدها إليه، ويثنى على شجاعتهم حيث لم يفكروا قط في إغماد سيوفهم والتراجع عن الجهاد، وأخيراً مدح مدى حركتهم الجماعية - والذين كانوا يحضرون في الميدان في أي موضع كانوا - والحق من يتحلى بهذه الصفات، فهو منتصر على الدوام.

ثم واصل الكلام بالحديث عن سائر صفاتهم حيث يكشف النقاب عن علو معنوياتهم ومدى زهدهم وخضوعهم وخشوعهم لله تبارك وتعالى فقال: «لَا يُبَشِّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ، وَلَا يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَى» .

وهذه علامته علو روحيتهم حيث لم يكونوا يفكر قيود الحياه الماديه، بحيث ينزعجون لفقد الأحمه أو يهنى أحدهم الآخر على البقاء على قيد الحياه، إنهم يفخرون بالشهاده فى سبيل الله سبحانه ويرونها حلمهم فى نيل السعاده الأخرويه، ومن صفاتهم أيضاً: «مُرَّةُ (١) الْعُيُونِ مِثْنِ الْبُكَاءِ، حُمْصُ (٢) الْبُطُونِ مِنَ الصَّيَامِ، ذُبْلُ (٣) الشَّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ، صِفْرُ (٤) الْمَالِوانِ مِنَ السَّهْرِ (٥). عَلَى وَجْهِهِمْ غَبْرَةُ الْخَاشِعِينَ» .

نعم، فهم فى ساحات المعارك يزأرون كالأسد، وإن جن عليهم الليل ارتفعت أصواتهم بالنحيب والبكاء وجرت دموعهم على خدهم، هكذا هم فى الحالين.

ثم خلص الإمام عليه السلام بعد ذلك إلى الدرس والعبره التى ينبغى الاحتذاء بها فقال: «أُولَئِكَ إِخْوَانِي الدَّاهِبُونَ. فَحَقَّقْ لَنَا أَنْ نُنْظَمَ إِلَيْهِمْ، وَنَعُصَّ الْأَيْدَى عَلَى فِرَاقِهِمْ» .

لقد جرت عادة أرباب الترييه على الاستشهاد بالنماذج البارزه القيمه من أجل تهذيب الأفراد المطلوب تربيتهم ليتمكنوا من مقارنه أنفسهم بتلك النماذج فيحذو حذوهم، يقفون

ص: ١٤٠

١-١) «مره»: أمره من مضت عينه أو وجعت.

٢-٢) «خمص»: جمع «أخمص» ضامر البطن.

٣-٣) «ذبل»: جمع «ذابل» الجفاف والتيس.

٤-٤) «صفر»: جمع «أصفر» شاحب اللون.

٥-٥) «سهر»: البقاء واعياً فى الليل.

على أخطائهم فيهمون بتداركها وإصلاح أنفسهم، وهذا هو الأسلوب الذي إعتمده الإمام عليه السلام في إطار تربيته للأفراد، ولكن وللأسف لم يكن أولئك الأفراد آنذاك مستعدين لتقبل نصائحه ووصاياه وبرامجه التربويه، وبالطبع لا فائده لأى مربّ ومعلم مهما كان بصيراً ومشفقاً ونموذجاً ما لم يكن هناك من إستعداد في الطرف المقابل لتقبل أفكاره والاستجابة لها، فالأمطار المفعمه بالحياه والخير والبركه تنزل على كل مكان، ولكن لا- تخرج الأرض المالحه إلّا الخبث ولا يسعها الاستفاده من تلك الأمطار، والشمس هي الأخرى تضييء لكل ذى عينين، ولكن ماذا يسع الأعمى أن يرى منها، والرياح المنعشه تهب في كل مكان ولكن لا تنتفع بها قبور الموتى.

ص: ١٤١

القسم الثالث: الحذار من وساوس الشيطان

«إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَيِّئُ لَكُمْ طُرُقَهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً، وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ، وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ. فَاصْدُقُوا عَنْ نَزَعَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَاعْقِلُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» .

الشرح والتفسير

إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن الشيطان كون وساوسه تمثل مصدر البؤس والشقاء، حيث حذر صحبه ومخاطبيه من هذا المكر وضروره مراقبه الشيطان والالتفات إلى طرق نفوذه، وقد بين ذلك على شكل خلاصه بأربع عبارات فقال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَيِّئُ لَكُمْ طُرُقَهُ» .

ولما كان الشيطان يتبع الأساليب السياسيه شيئاً فشيئاً فإنه يسعى لتقويض جموح الدين والقضاء على العقائد والأعمال الواحده بعد الأخرى: «وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً» ، من ضمن برامجه وخططه أيضاً إيجاد الفرقة بدلاً من الإتحاد: «وَيُعْطِيكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ» ، فيثير الفتن بواسطه هذه الفرقة: «وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ» .

أجل أول برنامج للشيطان أن يبدى الطرق الوعره والخطيره معبده سهله في نظر الإنسان، فيستقطب إليه الجميع من خلال المرونه والتساهل وتصوير طريق الطاعه على أنه معقد خطير وصعب، فإن سلك سبيله واتبعه قاده كل يوم إلى ترك قانون من قوانين الشرع وعهد

ص: ١٤٣

١-١) «يسئى»: من ماده «سئاء» بمعنى الضياء وإن استعملت فى باب التفعيل وردت بمعنى يسهّل.

من عهوده المقدسه، وهو الأمر الذي أكدته القرآن الكريم أربع مرات محذراً من أتباع الشيطان: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ. . .» (١).

وقال تعالى: «وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ. . .» (٢).

فان جعل الإنسان غير مكترث للأحكام الإلهية وسادت المجتمع الأهواء، آنذاك يستفيد من تضارب المصالح الماديه والتعصبات الجاهليه ليدعو الناس إلى الفرقة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعِدَاوَةَ وَالْبُغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ. . .» (٣).

ومن الطبيعي إن اشتعلت نيران الفرقة والاختلاف والنفاق في المجتمع استتبع ذلك ظهور الفتن، ومما لا شك فيه فان دين الأفراد وديناهم تتحطم بفعل تلك الفتن، ولعل هذا هو الأمر الذي أجراه الشيطان في أحدث معركه صفيين، فقد لقنهم الشيطان بادية الأمر أن قبول التحكيم هو أسهل الطرق لبلوغ الصلح والاستقرار، ثم دعاهم للتمرد على أوامر المحكم أمير المؤمنين على عليه السلام في مجال الجهاد، آنذاك بث بذور الفرقة والنفاق بين صفوف الجيش حتى انتهى الأمر إلى فتنه عمرو بن العاص وأثرها فتنه الخوارج.

ثم قال الإمام عليه السلام بغية عدم سقوط أصحابه في شباك الشيطان: «فَاصْدِقُوا (٤) عَنْ نَزَاغَاتِهِ (٥) وَنَفَثَاتِهِ (٦)، وَأَقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَاعْقِلُوهَا (٧) عَلَى أَنْفُسِكُمْ» .

ويصدق هذا الأمر في عصرنا وزماننا، فالشيطان يرى طريقه المنحرفه سهله وبسيطه بادية الأمر، ويسحب الناس إليه، ثم يسلبهم القيم الإسلاميه الواحده بعد الأخرى، ثم يبث بينهم بذور الفرقة والخلاف، وأخيراً تقود الفرقة إلى اشتعال نيران الفتن السياسيه والاجتماعيه والاقتصاديه.

ص: ١٤٤

١-١) سورة البقره / ١٦٨. [١]

٢-٢) سورة البقره / ٢٠٨؛ [٢] سورة الانعام / ١٤٢؛ [٣] سورة نور / ٢١. [٤]

٣-٣) سورة المائده / ٩١. [٥]

٤-٤) «اصدقوا»: من ماده «صدق» على وزن عطف بمعنى الإعراض.

٥-٥) نزغات»: جمع «نزغه» على وزن ضربه وساوس.

٦-٦) «نفثات»: جمع «نفثه» تعنى هنا الوسوسه.

٧-٧) «اعقلوها»: من ماده «عقل» على وزن دغل احبسوها على أنفسكم لا تتركوها فتضيع منكم، والعقل ربط رجل ناقه.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قاله للخوارج، وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون

على إنكار الحكومه، فقال عليه السلام:

نظره إلى الخطبه

كما ورد أعلاه فإن هذه الخطبه جانب من حديث الإمام عليه السلام قبل معركة النهروان، ذكره الإمام حجه عليهم، فكان لكلامه بالغ التأثير بحيث تاب أغلب الخوارج وتراجعوا عن القتال، فقد قسمهم الإمام عليه السلام بادیء الأمر إلى فئتين، وقد فرق بين صفوفهم، فنه شهدت صفين وأخرى لم تشهدها، وفي القسم الثاني ذكر أصحاب الصفين بأنكم أنتم من فرضتم عليّ مسأله التحكيم، والحال كنت شديد المخالفه لذلك الأمر، وقد أمرتكم بمواصله الجهاد حتى تحقيق النصر.

وفي القسم الثالث أشار إلى مسأله وهي إننا كنا في صدر الإسلام نقاتل قرابتنا حين كانوا في معسكر الكفر من أجل نصر الدين، وأما الآن فالذى يقف في المعسكر المقابل إخواننا من

ص: ١٤٥

١ - ١) سند الخطبه: نقل المرحوم الطبرسى في كتاب الاحتجاج أقصر ممّا ورد في هذه الخطبه ممّا يدل على أنه أخذها من مصدر آخر، وقال ابن أبي الحديد إن هذا الكلام وإن كان متصلاً لكنّه يتألف في الواقع من ثلاثه أقسام منفصله، وقد جرت عاده السيد الرضى على انتخاب الأفصح من الكلمات وحذف سائر الكلمات (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٧١). [١]

المسلمين الذين أخطأوا الطريق وقد اختلفت الظروف الشرائط، وعليه فإنّ علينا أن ندفع الشبهه عنهم لتحل المشكله.

ص: ١٤٦

«أَكَلْتُمْ شَهِيدَ مَعْنَا صِفِّينَ؟ فَصَالُوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ. قَالَ: فَاِمْتَاَزُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً، حَتَّى أَكَلَمَ كُلًّا مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ. وَنَادَى النَّاسَ، فَقَالَ:

أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي، وَأَقْبِلُوا بِأَفْنِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدْنَا شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا.

ثُمَّ كَلَّمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيلَهُ وَغِيْلَهُ، وَمَكْرًا وَخَدِيْعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا وَاسْتَرَاْحُوا إِلَيَّ كِتَابَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَالْزَأَى الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ؟ فَقُلْتُ لَكُمْ: هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ، وَبَاطِنُهُ عُرْدُونَ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نِدَامَةٌ. فَأَقِيمُوا عَلَيَّ شَأْنَكُمْ، وَالزُّمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَيَّ الْجِهَادِ بِنَوَاجِدِكُمْ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَيَّ نَاعِقٍ نَعَقَ: إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ. وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْفَعْلَةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطِيْتُمُوهَا. وَاللَّهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجِبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا، وَلَا حَمَلَنِي اللَّهُ ذَنْبَهَا. وَاللَّهِ إِنْ جِئْتَهَا إِنِّي لِلْمُحِقِّ الَّذِي يُتَّبَعُ؛ وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِي، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ:»

الشرح والتفسير

كما ذكرنا سابقاً فإنَّ المخاطب بهذه الخطبه هم خوارج النهروان الذين كلمهم الإمام عليه السلام بهذا الكلام لإتمام الحجّه عليهم وهدايه وإرشاد الفئه الضاله المنخدعه، فقال بادىء الأمر من

أجل إعدادهم: «أَكَلَكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِينِ؟ فَقَالُوا: مِنَّا مَنْ شَهِدَ وَمِنَّا مَنْ لَمْ يَشْهَدْ» .

رغم أنّ المدّة بين معركة صفين ومقاتله خوارج النهروان لم تكن طويلة، لكن لا يعلم كيف اتصلت الفئه الثانيه التي لم تشهد صفين بالفئه الأولى الباغيه، وربّما أثرت عليها وساوس الفئه الأولى سمومها التي بثتها بين أهل الكوفه فجعلتها تلتحق بها وتقف معها في مواقفها الفاسده.

ثم قال عليه السلام: «فَامْتَاذُوا فِرْقَتَيْنِ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِينِ فِرْقَةً، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً، حَتَّى أَكَلَّكُمْ كُلًّا مِنْكُمْ بِكَلَامِهِ» .

فالعبارة تفيد أنّ المخاطبين بحديث مهم إن لم يكونوا على مستوى واحد فإنّ الفصاحة والبلاغه تقتضى تمييزهم عن بعضهم والتحدث لكل بما يتناسب ووضعه، ليكون للكلام أثره المرجو والمطلوب، ومن هنا سلك الإمام عليه السلام هذا النهج: «وَنَادَى النَّاسَ، فَقَالَ: أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلَامِ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ، فَمَنْ نَشَدَنَا (١) شَهَادَةً فَلْيُقِلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا» .

فالذى يستفاد من هذه العبارة أنّ خوارج أو جيش الإمام عليه السلام ممن حضر هناك، أو كلاهما، أنّهم كانوا مشغولين بالكلام مع بعضهم البعض الآخر، فقد دعاهم الإمام عليه السلام إلى الصمت والاستماع لما يقول والاقبال عليه بقلوبهم ليستعدوا للتفاعل مع الكلام، كما إختار من جمعهم بعض الشهود: «تَمَّ كَلَمَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:» (٢).

فقد أخذ الإمام عليه السلام أيديهم إلى الماضى القريب وذكّرهم بكبر أخطائهم وعظم معصيتهم وتمردهم، ثم خاطب الفرقه التي شهدت صفين: «أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصِيحَةَ حَيْلَهُ وَغِيْلَهُ (٣)، وَمَكْرًا وَخَدِيْعَةً: إِخْوَانِنَا وَأَهْلِيلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا (٤) وَاسْتَرَأَوْا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأَى الْقَبُولَ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسَ (٥) عَنْهُمْ؟» .

بعد ذلك طرح الإمام عليه السلام ردّه على تلك الخدعه: «فَقُلْتُ لَكُمْ: هَذَا مَرَّ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ،

ص: ١٤٨

١-١) «نشد»: من ماده «نشد» بمعنى النداء والسؤال والطلب وهنا بمعنى الاستشهاد.

٢-٢) هل هذه الجملة للسيد الرضى أم كلام روى الخطبه الذى نقل عنه السيد الرضى، لا يعلم بالضبط، لكن من المسلم به أنّ كلام الإمام عليه السلام أكثر ممّا ورد فى نهج البلاغه وقد اعتاد السيد الرضى على اقتطاف أفصح وأبلغه.

٣-٣) «غيله»: بمعنى «غدر» .

٤-٤) «استقالوا»: من ماده استقاله بمعنى عوده الشئء.

٥-٥) «تنفيس»: بمعنى الكف والحل.

وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ» .

وعليه: «فَأَقِمْوْا عَلَيَّ شَأْنَكُمْ، وَالزُّمُومَا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوْا عَلَيَّ الْجِهَادِ بِنَوَاجِدِكُمْ، وَلَمَّا تَلْتَفِتُوا إِلَيَّ نَاعِي نَعَقٍ: إِنَّ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِنْ تَرَكْتُ ذَلِكَ» .

لكن مع الأسف فقد وقعت هذه الفتنة (التحكيم) ورأيتكم استجبتم لها، والآن قد ارتفع صوتكم بعد أن سقطتم في الفتنة: «وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْفَعْلَةُ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا» .

حقاً، إنه لمن دواعي العجب! فقد عرضوا الإمام لأشد الضغوط في اللحظات الأخيرة لتلك المعركة المصيرية والتي أشرفت على تحقيق النصر النهائي حتى فرضوا عليه الاستجابة لخدعه عمرو بن العاص وقبول التحكيم، بل أبعد من ذلك هددوه بالقتل إن لم يصدر أمره لمالك الأشتر بالانسحاب والفرار عن القتال، ولما زالت الحجب وتكشفت الأمور وبانت الخدعة توجهوا باللوم إلى الإمام عليه السلام لم قبلت التحكيم، بدلاً من العوده إلى نفوسهم والاعتذار والهمم بإصلاح ما بدر منهم من أخطاء) .

الجدير بالذكر في هذا الأمر أنّ الإمام عليه السلام ميز الخوارج في بدايه الأمر إلى فرقتين، فرقه شهدت صفين وأخرى لم تشهداها، لتتضح قضيه وهي إن تمرّت الفرقة الثانيه بفعل جهلها وعدم إحاطتها بأحداث صفين، فما بالكم أنتم الذين شهدتم صفين وتابعتم الأحداث؟ فما المنطق والأسس التي دفعتكم للقدوم إلى النهروان؟ كيف تتهموني بمسؤوليه التحكيم؟

وهكذا أتمّ الحجّه عليهم وعلى أولئك الفريق الثاني الذي خدع بالفريق الأول ورافقه إلى الميدان، وليس هنالك أسوأ ممن لا يصغى لكلام الناصح الأمين المشفق، فان أصابته مصيبه بما قدمت يدها نسب التقصير فيها إلى ذلك الناصح وجابهه بالإعتراض، نعم، هذا هو دين الأفراد البعيدين عن الانصاف والذين ينسون ما يصدر منهم من أفعال.

ثم أوضح الإمام عليه السلام حقيقه الموقف بصوره أخرى ليقسم بأنّه لو لم يقبل التحكيم لما كان عليه من مسؤوليه في الالتزام بلوازمها ولا يحملها الله سبحانه ذنبها ووزرها: «وَاللَّهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجِبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا، وَلَا حَمَلَنِي اللَّهُ ذَنْبَهَا» .

إشاره إلى مراده: إن خالفت بشدّه مسأله التحكيم في بدايه الأمر فذلك لكى لا أكون مسؤولاً تجاه لوزامها ولا يلحقنى وزرها؛ لأنّ قضيه التحكيم أدت إلى تقويه حكومه

طواغيت الشام وذهبت بدماء شهداء صفين أدراج الرياح، فذلت دعاه الحق وأشعرتهم باليأس.

ثم قال عليه السلام إثر ذلك: «وَوَاللَّهِ إِنْ جِئْتَهَا إِنِّي لِلْمُحِقِّ الَّذِي يُتَّبَعُ؛ وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِي، مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحَبْتُهُ» .

إشاره إلى أنه حين رأيت ما وقع بينكم من شقاق في مسأله التحكيم يتطلب أن أمنعه، وبخلافه لنزع أحدكم الآخر وشهر السيف في وجه صاحبه ولقاد ذلك الأمر إلى فضيحه كبرى، وهنا شعرت بالاضطرار لقبول التحكيم.

أضف إلى ذلك فلو فرضتم التحكيم إلى من هو عالم به ولا يفارقه ومحيط بمضمونه ولم تتجهوا صوب فرد بسيط وجاهل كأبي موسى الأشعري، لفشلت تلك المؤامره وخمدت الفتنة، وإن كان فيها من ضرر فهو جزئي محدود، لكنكم فرضتم على التحكيم وكذلك أجبرتموني على تحكيم أبي موسى الأشعري، فسقطتم في هذه الفتنة وتكبدتم كل هذه الأضرار فما تقولون بهذا الخصوص؟ فهل على أن أتحمّل مسؤوليه تقصيركم؟ وأدفع ثمن جريمتكم؟ والذي نخلص إليه ما مر معنا من كلام:

١ - أن الإمام عليه السلام أقسم مرّتين في هذا المقطع من كلامه، سيّما في القسم الثاني الذي أردفه بالتوكيد ليبيّن بعده كل البعد عن أدنى تقصير.

٢ - ما بيّنه الإمام عليه السلام في القسمين المذكورين ليس فيه ما يدلّ على ترديده في مسأله للتحكيم، بل إشاره إلى حالتين مختلفتين، فقد كان مخالفاً بشدّه في البدايه، لأنّه كان يعتبرها مكر وحيله خطيره، ولما اختلف جيشه وصحبه، وأبى الأعم الأغلب منهم إلّا التحكيم، استجاب للتحكيم دفعاً للفتنه وإبعاداً للفرقه والشقاق، وعليه فقد كانت مخالفته في بدايه الأمر وموافقته تستند إلى الحكمه، وبغض النظر عمّا سبق لو لم يصرّ ذلك الفريق الجاهل على تحكيم ذلك العنصر الفاسد كأبي موسى الأشعري لما كانت المشاكل بذلك الحجم، فذلك الإصرار الفض هو الذي أدى إلى عقم نتائج معركة صفين والامتياز الذي حصل عليه أعداء الإسلام، وبناءً على هذا فإنّ هذه الفئه المتعصبه أخذت تفقد مواضعها الواحد بعد الآخر حتى انتهت إلى ذلك المصير الأسود، والعجيب أنّهم استجيب للتحكيم؟! !

لكن وعلى كل حال، فإنّ منطلق الإمام عليه السلام بهذا الخصوص قد أتى أكله فعادت طائفه عظيمه من الخوارج إلى نفسها فتابت وكفت عن القتال، حتى صرّحت كتب التاريخ بأنّ الأغلبية الساحقه من الخوارج قد تابت ووقفت على عظيم زلتها.

نبذه عن شخصيه معاويه

إنّ الأعمال التي مارسها معاويه طيله تاريخ حياته ولا سيما في مدّه حكومته لتكشف حقيقه واضحه لكل فرد منصف في أنّه لم يفكر بارساء العدل بين المسلمين، ولم يكن يهّم بنشر الإسلام، بل كان جلّ همّه ترسيخ دعائم حكومته المترلزله، ومن هنا فقد اعتمد كافه الأساليب التي يلجأ إليها جابره الدنيا من أجل ترسيخ حكوماتهم، وأبسط نموذج يمكن الإشاره إليه في هذا المجال إنّما يتمثل برفعه لقميص عثمان في الشام وذرف دموع التماسيح على الخليفه المقتول ظلماً بهدف إثارة الناس للتمرد على أمير المؤمنين على عليه السلام وسفك دماء المسلمين، إلى جانب إغداق الرشاوى الضخمه على زعماء القبائل، بل حتى بعض قواد جيش الإمام على عليه السلام وإيجاد الفرقة والخلاف بينهم وبين سائر الناس.

وكذلك توجيه الأراذل إلى مختلف نواحي البلاد الإسلاميه لنهب الثروات وإشاعه أجواء التوتر القلق. ولعل قضيه رفع المصاحف وحملها على أسنه الرماح تعدّ واحده من تلك الأساليب، فمعاويه لم يكن مستعداً لقبول حكم القرآن الكريم، كما لم يكن مهتماً بهذا الأمر، وكل ما يفكر فيه هو الحكومه، كما ذكر شراح نهج البلاغه أنّ معاويه قام بوجه أمير المؤمنين على عليه السلام في البدايه تحت شعار الطلب بدم عثمان، إلّا أنّه لم يصطدم قط بقتله عثمان بعد ظهوره عليهم، فقد كان يقول أحياناً، ألس من قتله عثمان؟ وأحياناً أخرى كان يسكت، ويغدق عليهم العطاء (هذا ما نقله العقاد في كتاب «معاويه» ونقل عبدالكريم الخطيب عن كتاب «على بن أبي طالب عليه السلام» أنّ عائشه بنت عثمان طالبت معاويه بالقصاص من قتله أبيها.

فأجابها معاويه: «لأنّ تكُونِي ابْنَةُ عَمِّ أمير المؤمنين خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَكُونِي امْرَأَةً مِنْ عَرَضِ النَّاسِ» مراده أنّ قضيه الطلب بدم عثمان قد انتهت، وكان الهدف منها الاستيلاء على

حكومه وقد حصل هذا الأمر، ولعل المطالبه بدم عثمان تهدد كياننا، وما عليك إلا الإكتفاء والقناعه بأنك ابنه عمى، ابنه عم حاكم المسلمين طبعاً، يمكن التعرف على شخصيه معاويه من خلال مقريه، فقد ذكر العقاد، أن عمرو بن العاص قال يوماً لمعاويه: «أترى أننا خالفنا علياً لفضلنا؟ لا والله إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها»، أى ولم يكن الحديث عن الإسلام والقرآن سوى الذريعه.

وذكر ابن الأثير أن سعد بن أبى وقاص قال لمعاويه: «السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ» .

فقال معاويه: «لِمَ لَمْ تُسَلِّمْ عَلَيَّ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ» .

فأجاب سعد قائلاً: «وَاللَّهِ إِنِّي مَا أُحِبُّ إِنْ وَلَّيْتُهَا بِمَا وَلَّيْتُهَا» .

ومراده أنك ولَّيتها بالمكر والحيله (١).

ص: ١٥٢

١- ١) فى ضلال نهج البلاغه، للمرحوم محمد جواد مغنيه، ذيل الخطبه التى بحثها ٢/٢٢٢.

القسم الثاني: بذلنا ما فى الوسع من أجل الوحده

«فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانَ وَالْقَرَابَاتِ الْأَقْرَبَاءِ، فَمَا نَزَدَادُ عَلَى كُلِّ مُصَيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا إِيمَانًا، وَمُضِيًّا عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيمًا لِلْأَمْرِ، وَصَبْرًا عَلَى مَضْضِ الْجِرَاحِ. وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّرْبِ وَالْإِعْوِجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ وَالْتَأْوِيلِ. فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْمِهِ لَيْلَمُ اللَّهُ بِهَا شَعْنًا، وَتَدَانِي بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا، رَغِبْنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا» .

الشرح والتفسير

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالإجابة المنطقية لأصحاب الخوارج، فقد قالوا: لِمَ استجاب الإمام عليه السلام إلى التحكيم؟ لِمَ لا نقاتل الأعداء إلى آخر نفس على غرار ما فعله المسلمون من صحابه النبي صلى الله عليه وآله في صدر الإسلام؟ هل أذعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لمسأله التحكيم؟ فقد أوضح الإمام عليه السلام حقيقه فى إجابته على أولئك بأن زماننا يختلف تمامًا عن زمان النبي صلى الله عليه وآله، ومن نقاتلهم الآن طائفه من المسلمين المخدوعين، والحال كان أعداؤنا فى صدر الإسلام هم الكفار والمشركون الذين وقفوا بوجه الإسلام.

فقد قال عليه السلام: «فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانَ وَالْقَرَابَاتِ الْأَقْرَبَاءِ، فَمَا نَزَدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلَّا

إِيمَانًا، وَمُضِيًّا عَلَى الْحَقِّ، وَتَسْلِيمًا لِلْأَمْرِ، وَصَبْرًا عَلَى مَضْضِ (١) الْجِرَاحِ .

نعم، لقد كنّا نهجم بشدّه آنذاك على العدو، وإن كان فيهم إخواننا وقرابتنا، فالمصاب وإن عظم علينا، لكن حيث كان ذلك يأمر فقد كنّا نزداد إيمانًا، ولم نجابه كل مصائب المعارك وجراحاتها إلّا بالصبر والشكر: «وَلَكِنَّا إِنَّمَا أَصِيبْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الْأَسْلَامِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالْإِعْوِجَاجِ، وَالشُّبْهَةِ وَالْتَّأْوِيلِ. فَإِذَا طَمَعْنَا فِي خَصْلِهِ يَلْتَمُّ (٢) اللَّهُ بِهَا شَعْنَنَا (٣)، وَتَنَدَانِي بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا، رَغْبْنَا فِيهَا، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا» .

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى أن قياس زمانه بزمان رسول الله صلى الله عليه وآله هو قياس مع الفارق، وذلك لأنّ القتال ذلك الزمان كان يدور مع العدو الخارجى، بينما أصبح زمان الإمام عليه السلام ضد الأصدقاء المخدوعين والمنحرفين من الداخل، فالواقع يستند موقف الإمام عليه السلام في قبول التحكيم إلى الآية الشريفة: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتِلُوا فَاصْطَلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (٤).

صحيح أنّ أصل مسألة التحكيم خدعه ولم يكن أمراء جيش الشام يعتقدون بالقرآن، ولهذا السبب كان الإمام شديد المخالفة في بادئ الأمر، لكنّه استجاب لذلك الأمر بعد ذلك الضغط الشديد الذى مارسه السواد الأعظم المخدوع من جيشه مع ذلك كان بالإمكان أن تتمخض مسألة التحكيم عن نتائج مرضيه لو خضعت لقيادته سليمة، ولكن كما نعلم فإنّ ضغوط الجهال قد دفعوا التحكيم إلى مسار لا يجر عليهم سوى الضرر والخسارة.

ص: ١٥٤

١-١ «مضض»: الألم والحرقه.

٢-٢ «يلتم»: من ماده «لم» على وزن غم بمعنى جمع، وتأتى أحياناً بمعنى الجمع والإصلاح.

٣-٣ «شعث»: وردت فى الأصل بمعنى ما يقع عليه الغبار، ثم يطلق على نوع من التشتت والتفرق.

٤-٤ سورة الحجرات / ٩. [١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قاله لأصحابه في ساحه ساعه الحرب «بصنِّين»

نظره إلى الخطبه

هذه الخطبه جزء من خطبه طويله إقتطف المرحوم السيد الرضى بعضها، وقد تضمنت إشاره إلى بعض النقاط المهمه، وهى:

١ - يجب على الأفراد الذين يتمتعون بقدرات فائقه فى القتال أن يدافعوا ويشدوا من أزر الضعاف.

٢ - إنَّ الأفراد الذين يهربون من الجهاد خشيه الموت هم على خطأ، لأنَّه لا يمكن الفرار من الموت الذى يدرك الجميع أينما كانوا.

ص: ١٥٥

(١ - ١) سند الخطبه: يمكن التعرف على هذا الكلام بصوره متفرقه فى سائر الكتب، ومنها: ١ - الكافى فى باب فضل الجهاد. ٢ - العقد الفريد لابن عبد ربه. ٣ - الجمل للشيخ المفيد نقلًا عن كتاب الجمل للواقدى. ٤ - الإرساد للشيخ المفيد. ٥ - تجارب الأمم لابن مسكويه طبق نقل تأسيس الشيعة. ٦ - الآمالى للشيخ الطوسى. (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٧٣). [١]

٣- لا موت أشرف وأكرم من الشهاده، فألف ضربه بالسيف خير من ميته على الفراش.

٤- إخبار عن هوان أهل الكوفه وذللهم فى المستقبل بسبب وهنهم وضعفهم فى مواجهه الظلمه.

ص: ١٥٦

«وَأَيُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ أَحْسَنُ مِنْ نَفْسِهِ رَبَّاطَهُ جَاشٍ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلًّا، فَلْيَذُبْ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فَضَّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ. إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَيْثُ لَا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ. إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَيَّ الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ!». .

الشرح والتفسير

يشتمل هذا الكلام - سواء أوردته الإمام عليه السلام على أعتاب معركة الصفين كما ورد آنفاً أو حسبما صرح به بعض المحققين على هامش معركة الجمل بعد ضجه معسكر عائشه، أو في المعركتين وذلك لأنه يتناسب مع كل مهما - على نقاط مهمه وردت ثلاث منها في هذا القسم من الخطبه:

الأولى: لزوم التنسيق بين أفراد الجيش بحيث يتولى الأقوياء الدفاع عن الضعفاء للحد من جسامه الخسائر، فقد قال عليه السلام: «وَأَيُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ أَحْسَنُ مِنْ نَفْسِهِ رَبَّاطَهُ (١) جَاشٍ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلًّا، فَلْيَذُبْ عَنْ أَخِيهِ بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ (٢) الَّتِي فَضَّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ». .

ص: ١٥٧

١ - ١) «رباطه جاش»: جاش على وزن عرش والرباطه الربط بإحكام، فالمراد بالعباره قوه القلب عند لقاء العدو، حيث يراد بالجاش القلب والصدر.

٢ - ٢) «نجدته»: من ماده «نجد» على وزن مجد، بمعنى الشجاعه.

ثم أضاف عليه السلام: «فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ» .

فان وهبه القوه والصلابه فقد وجب عليه الشكر، والمراد أنّ أفعال الله وإن استندت إلى الحكمة جميعاً، مع ذلك فمن تمتع بنعم كثيره وجب عليه الشكر بافاضتها على الآخرين ليؤدّي بذلك الشكر العملى للنعمه.

والثانيه: لو لم يكن هناك من تنسيق بين العسكر فإن ذلك يؤدّي إلى إحباط الجميع، وذلك لأنّ العدو إنّما يهجم على الجانب الذى يشعر بضعفه، فإنّ اخترقه وقضى عليه، إلتفّ ليحاصر باقى العسكر، وعليه وإضافه لمسأله الشكر فإنّ فنون القتال وسياسه المعركه تتطلب من الأجنحه القويه من العسكر شد ظهور الأجنحه الضعيفه وعدم التوانى فى الدفاع عنها، بحيث لا تسدد إليها ضربات العدو، ولا سيّما إذا استطاع العدو أن يشلّ حركه طائفه من الجيش، فإنّه سيتمكن من تحطيم معنويات الجميع.

ثم إتجه الإمام عليه السلام صوب نقطه مهمه أخرى وهى ضروره ألا- يتصور أحد أنّه يستطيع الفرار من مخالف الموت، فهو يدرك المقيم والمنتظر والهارب: «إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَيْثُ لَا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ، وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ» .

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: الموت على نوعين: موت حتمى، وموت معلق أو مشروط، والذى لا- يمكن تغييره هو الموت الحتمى، أمّا الموت المشروط، فهو قابل للتغيير على ضوء تغير الظروف والشرائط، ولعل الموت فى ساحه القتال ليس من الموت الحتمى فكيف إستدل الإمام عليه السلام بهذه المسأله وقال بشأن الموت لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب.

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بوجهين:

الأول: هو أنّ الإمام عليه السلام ناظر للموت الحتمى فقط سواء فى ساحه القتال أو غير ساحه القتال فلا يمكن إجتنابه.

والثانى: على فرض أنّ الإنسان يستطيع الهروب من مخالف الموت المشروط أو المعلق، ولكن ما جدوى ذلك؟ فالموت الحتمى بالتالى سيدرك جميع الأفراد دون استثناء، فلا ينبغى للإنسان أن يستسلم للظلمه فى مقابل البقاء عدّه أيام (1).

ص: ١٥٨

(١- ١) مرّ علينا بالتفصيل بحث الموت الحتمى والمعلق فى المجلد الثالث من هذا الكتاب.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه مهمه وقيمه فقال: «إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ! وَالَّذِي نَفَسَ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبِهِ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مَيَّتِهِ (١) عَلَى الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ!». .

فالعباره تفيد عظمه مقام الشهداء إلى درجه أنّ الإمام عليه السلام يعرب عن إستعداده لتحمل ألف ضربه بالسيف يؤثرها على ميته الفراش الطبيعى، وهذا هو لسان حال أو قال جميع المؤمنين المخلصين والشجعان الذين يعشقون طريق الحق، طبعاً لا تعنى العباره أنّى لا أشعر بألم ضربات السيف - كما ذهب إلى لذلك بعض شراح نهج البلاغه - بل المراد أنّ الأولى بالإنسان من حيث الجانب المعنوى أن يفتح صدره لتحمل أقسى الضربات بدلاً من الموت الطبيعى على الفراش، لأنّ وسام الشهاده يجعل الإنسان يتحمل الألم والمعاناه، ولا ننسى هنا الروايات التى صرّحت بأنّ الإنسان بحكم الشهيد إن مات على الفراش على سلامه من دينه، وهو الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى آخر العباره.

الشهاده عرس الأبطال

الشهاده من القيم الساميه التى تضمنتها ثقافه الإسلاميه، والشهيد يمثل قمه المرتبه الإنسانيه، وأولياء الله كما أورد الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه يفكرون دائماً بالشهاده ويأبون الموت طبيعياً على الفراش، ويرون الشهاده أفضل ألف مره من ميته على فراش، وكانوا مستعدين لتلقى آلاف الضربات والفوز بالشهاده دون الموت على الفراش، وذلك لأنّ روح الإنسان أعظم هديه إلهيه، وما أروع أن تبذل هذه الهديه فى سبيل الله سبحانه، لا أنّ تذهب هدرأ فى الموت.

ويكفى فى فضل الشهاده ما ورد فى حيث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حين شاهد فرداً يدعو الله تعالى قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا تُسْأَلُ فَأَعْطِنِي أَفْضَلَ مَا تُعْطِي». .

ص: ١٥٩

١-١) «ميته»: بكسر الميم بمعنى كيفيه الموت، والميته بفتح الميم الشخص الميت (بدلاً من الالتفات هنا إلى ميت مذكر ومؤنث ميته). .

فقال صلى الله عليه وآله: «إِنْ أُسْتُجِبَ لَكَ أُهْرِيْقَ دَمُكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (١).

كما ورد في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَيَتَمَنَّى أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا إِلَّا الشَّهِيدُ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجَعَ فَيَقْتَلَ عَشْرَ مَوَلٍ مِمَّا يَرَى مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ» (٢).

نعم، مقام الشهداء رفيع جداً في التعاليم الإسلامية، وهم الذين حفظوا الإسلام حين الخطر، ولولا تضحيات الشهداء كشهداء بدر وأحد وشهداء كربلاء لما بقى من الإسلام اليوم شيئاً سوى اسمه، ويعيش أعداء الإسلام اليوم حاله من الرعب إزاء الشهادة وفلسفتها في الإسلام، وذلك لأنَّ الشهيد قد يبدد في لحظات مخططات الأعداء وبرامجهم التي تستوعب تكاليفاً باهضة.

أضف إلى ذلك فهم لا يمتلكون أى سلاح يمكنهم من مواجهه هذا السلاح، سمع أخيراً أنَّ الدوائر الصهيونية وإثر عجزها عن مواجهه انتفاضه الشعب الفلسطيني، قد أكدت على ضروره إجتماع جذور ثقافه التفكير بالشهادة، لابدّ من اسقاط مفرده الشهاده من كتاب الدراره المتوسطه والثانويه، كما لابدّ من إزاله الآيات القرآنيه المتعلقة بالشهادة من الكتب الدينيه، ومن المؤكد أنَّ البلدان الإسلاميه العميله وما أكثرهم قد ساروا على هذا النهج، وقد اصطلحوا على الشهاده بالإنتحار والشهيد بالإرهابى لتشويه هذه المفرده الطيبه، لكن ولحسن الحظ فإنّ هذه الثقافه قد إتسعت وترسخت بحيث لا يسع هذه الدعايات الوقوف بوجهها، حتى سارع إليها العديد من الشباب والشابات، وهذا ما يشكل أعظم خطر على أعداء الإسلام، نأمل أن يتعرف المسلمون أكثر فأكثر على هذه القيمه الساميه التي تدعو إلى الفخر والاعتزاز.

ص: ١٦٠

١-١) مستدرک الوسائل ١١/١٣، ح ٢١. [١]

٢-٢) المصدر السابق، ح ٢. [٢]

و منه: «وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكْشُونَ كَشَيْشَ الضَّبَابِ: لَأَتَأْخُذُونَ حَقًّا، وَلَمَا تَمْنَعُونَ ضَمِيمًا. قَدْ خُلِيتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالْتَحِاهُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَكَةَ لِلْمُتَلَوِّمِ».

الشرح والتفسير

يرى البعض من شراح نهج البلاغه أنّ هذا الكلام مستقل، ومن هنا ذكره بصوره مستقله، بينما يراه البعض الآخر استمرار للكلام السابق، فمن ذكره بصوره مستقله استدللّ بعدم وجود إرتباط بين هذا المقطع والمقطع السابق، حيث حث الإمام عليه السلام أصحابه في المقطع السابق على الجهاد والقتال ببسالة، بينما جرى الكلام في هذا المقطع عن الهزيمة والفرار، وليس هنالك من إنسجام بين هذين المقطعين، ولكن بالنظر إلى أنّ هذا المقطع يخبر عن المستقبل، وهو المستقبل الذي لا يكون فيه الإمام عليه السلام بين ظهرائهم ويشهدون حاله من الفرقة والتشتت والضعف والهوان والذلّة، وعليه يمكن تصور إرتباط بين هذا المقطع وسابقه.

ولكن على حال سواء كان هذا المقطع مستقل أم مرتبطاً، فهو كلام الإمام عليه السلام ويخبر عن المصير المرير لأفراد يوثرون العافيه والدعه على الجهاد، فقال: «وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكْشُونَ كَشَيْشَ الضَّبَابِ (١)».

فالعباره يمكن أن تكون إشاره إلى الحيوانات المعروفه الضباب جمع ضب بالكسر والتي إن تحركت بصوره جماعيه اضطربت وإحتك بعضها ببعض الآخر فيظهر من هذا الاحتكاك

ص: ١٦١

(١-١) «كشيش الضباب»: بمعنى الصوت الذي لا يرتفع كثيراً ويطلق على صوت الضفدع، والضب وصوت الناقه.

صوتاً، والمراد أنكم اضطربتم حين الفرار، بحيث إندك بعضكم بالبعض الآخر وقد انبعث صوت اضطرابكم.

ثم قال عليه السلام: «لَا تَأْخُذُونَ حَقًّا، وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْمًا (١)» .

أى حال أسوأ من أن يصبح الإنسان على درجه من الضعف والعجز بحيث لا يستطيع الدفاع عن حقه أو عن صحبه وقرابته وإخوته فى الدين، كما لا يستطيع الوقوف بوجه الظلم الذى يوجه إليه وإلى الآخرين، حقاً إنَّها لحاله مؤلمه مهينه.

ثم إختتم خطبته بالقول: «قَدْ خُلِيْتُمْ وَالطَّرِيقَ، فَالْتَّجَاهُ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ (٢)» .

فالعباره قد خليتم والطريق تشير إلى إتمام الحجه الكامله، فقد بين الطريق إلى الهدف بكل وضوح من قبل زعيم عالم، وقد زالت الموانع التى تحول دون سلوكه، وعليه فلن تعد هناك من حجه لمن يقصير فى هذا الطريق، ولذلك بشر سالكين هذا الطريق بالسعاده، بينما هدد المتباطىء بالهلكه.

ص: ١٤٢

١-١) «ضيم»: بمعنى الظلم.

٢-٢) «متلوم»: من ماده «تلوم» بمعنى الانتظار والتباطىء والتوقف.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي حَثِّ أَصْحَابِهِ عَلَى الْقِتَالِ

نظره إلى الخطبه

وردت هذه الخطبه كما يفهم من عنوانها بشأن حث الإمام عليه السلام لأصحابه على الجهاد، وذلك لأنه حسب تصريح شراح نهج البلاغه أنها وردت قبل معركة صفين، ومن هنا تضمنت إشاره إلى بعض الأمور المهمه:

١ - ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبه مطالب دقيقه بخصوص فنون القتال وانتخاب أفضل السبل في مجابهه العدو، بحيث يمكن التوصل إلى النتائج بأقل الخسائر.

٢ - حذر أصحابه في المقطع الآخر من الخطبه وضمن مدحه لمقاتليه من الفرار الذي يستتبع الفضيحه والعار، كما يتطرق إلى ذكر مقامات الشهداء.

٣ - يلعن في المقطع الثالث أعدائه ويقوى عن هذا الطريق عزائم أصحابه المجاهدين.

ص: ١٤٣

١-١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه نصر بن مزاحم المتوفى عام ٢٠٢ ق في كتاب صفين، كما نقلها المؤرخ المشهور الطبرى في تاريخه عن أبى مخنف في حوادث عام ٣٧ هـ، كما وردت في كتاب الجهاد عن الكافى وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفى (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٧٧).

«فَقَدُّمُوا الدَّارِعَ، وَأَخْرُزُوا الحَاسِرَ، وَعَضُّوا عَلَى الأَصْرَاسِ، فَإِنَّهُ أُنْبَى لِلسُّيُوفِ عَنِ الهَامِ؛ وَالتَّوَّأَ فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمُورٌ لِلأسِنَّةِ؛ وَعَضُّوا الأَبْصَارَ، فَإِنَّهُ أَرْبِطُ لِلحَرَّاشِ، وَأَسْكَنُ لِلقُلُوبِ؛ وَأَمِيتُوا المَاصُوتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلفَشْلِ. وَرَايَتُكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تُخْلُوهَا، وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَالمَانِعِينَ الذَّمَّارَ مِنْكُمْ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الحَقَائِقِ هُمُ الَّذِينَ يَحْفُونَ بِرَايَاتِهِمْ، وَيَكْتِنِفُونَهَا: حِفَافِيهَا، وَوَرَاءَهَا وَأَمَامَهَا؛ لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيَسِيلُموها، وَلَا يَتَقَدِّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا. أَجْزَأُ امْرُؤٌ قِرْنَهُ، وَآسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكُلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ، فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ» .

الشرح والتفسير

يرى بعض كبار المحدثين أن هذه الخطبة تبدأ كالاتي: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ دَلَّكُمْ عَلَى تِجَارِهِ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ وَتُشْفِي بِكُمْ عَلَى الخَيْرِ الإِيمَانُ بِاللهِ وَالجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَجَعَلَ ثَوَابَهُ مَغْفِرَةً لِلذَّنْبِ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُيُوتًا مَرْصُوصًا» (١) فَقَدُّمُوا الدَّارِعَ. . .» (٢).

ثم أشار في مواصلته لهذا الكلام إلى سبع وصايا هامه في فنون تحقيق النصر، فقال في

ص: ١٦٥

١-١ (١) سورة الصف / ٤. [١]

٢-٢ (٢) الكافي ٥/٣٩، ح ٤. [٢]

وصيته الأولى بهذا الشأن: «فَقَدِّمُوا الدَّرَعَ (١)، وَأَخْرُوا الحَاسِرَ (٢)» .

فمن الطبيعي أن يكون قليلاً هو الضرر الذي يتعرض له من يلبس الدرع بفعل السهام والسيوف، ومن هنا لا يسع العدو السيطرة عليهم، ومن لم يتدرع يمكنه أن يواصل قتاله وهجماته من خلفهم، والذي يستفاد من هذه العبارة وجود فئه في ميدان القتال لم ترتدى الدرع، وذلك إمّا يعود إلى الأزمات والمشاكل التي يعيشها المجتمع الإسلامي، أو أنّ إرتداء الدرع كان يثقل على البعض ويعيق حركته في ميدان القتال، ولذلك كان الأشداء من المقاتلين هم الذين يتدرعون.

وقال عليه السلام في وصيته الثانية: «وَعَضُّوا عَلَى الأَضْرَاسِ (٣)، فَإِنَّهُ أَنْبَى (٤) لِللسُّيُوفِ عَنِ الهَامِ (٥)» .

وكما ذكرنا في شرح الخطبة الحادية عشرة أنّ لهذه الخطبة فائدتان، الأولى إزالة الخوف والرعب، أو الحدّ من هذا الخوف إلى أقلّ درجه، ومن هنا فإنّ الإنسان يعمد إلى إطباق أسنانه على بعضها حين الخوف بهدف إزالتها، والأخرى تبقى على صلابه عظام الرأس فلا تتأثر كثيراً بضربات السيف.

وقال في الوصيه الثالثه: «والتَّوَّأ (٦) فِي أطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أَمُورٌ (٧) لِلأسِنَّه» .

والوصيه أشبه بما يقال اليوم، إن أراد أحد أن يرمىك تحرك يميناً وشمالاً، أى عليك بتغيير موضعك باستمرار حتى لا يتمكن العدو من التصويب باتجاهك.

جدير بالذكر أنّ بعض شراح نهج البلاغه أشار أنّ المراد بالانعطاف والانحناء حين الهجوم بالحربه على العدو، فإنّ ذلك يضاعف من دقه الحربه لمواجهه ضد جسد العدو، لكن

ص: ١٦٦

١-١) «الداع»: بمعنى لابس الدرع من ماده درع على وزن فعل.

٢-٢) «الحاسر»: من لا درع له من ماده حسر على وزن عصر بمعنى العرى.

٣-٣) «أضراس»: جمع «ضرس» على وزن حرس الإنسان وردت بمعنى سن العقل.

٤-٤) «أنبى»: من ماده «نبو» على وزن عفو بمعنى عدم العمل.

٥-٥) «الهام»: جمع «هامه» على وزن قامه رأس الإنسان أو رأس أى موجود حى.

٦-٦) «التوؤا»: من ماده «التواء» بمعنى الانعطاف أو الميل لهذا الجانب وذاك.

٧-٧) «أمور»: من ماده «مور» على وزن غور بمعنى الحركه السريعه، كما وردت بمعنيين الذهاب الإياب والاضطراب وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

بالإلتفات إلى الوصايا السابقه واللاحقه لهذه الوصيه والتي تبيّن فنون الدفاع، فإنّ المعنى الأول يبدو هو الأنسب، لا سيّما التعبير بالحرف في لا يتناسب والمعنى الثاني، بينما يتناسب ما اخترناه حتى التعبير الأمور المأخوذ من ماده مور والذي يعنى الاضطراب.

وقال في الوصيه الرابعه بعض النظر (وعدم النظر إلى كثره العدو وآخره) فذلك أسكن للقلب: «وَعُضُّوا الْأَبْصَارَ، فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَاشِ (١)، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ» .

تختلف هذه الوصيه عن سابقاتها لاشتمالها على بعد نفسى ونعلم جميعاً أنّ روحه الجنود كلما كانت مرتفعه كان الأمل بالنصر أكثر، ومن هنا أكد الإمام عليه السلام هذا المعنى مراراً وقد مرّ علينا نموذج ذلك في الخطبه ١١ و ٦٦.

وقال في الوصيه الخامسه: «وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشْلِ» .

من الطبيعي أنّ الإنسان حين ينشغل بالحديث فأنه يستهلك جانباً من قواه الفكرية وكذلك جانباً من طاقته البدنيه ويحد من تركيزه الفكرى والالتفات إلى حملات العدو المبرمج، ومن هنا فإنّ العدو الصامت البعيد عن الضوضاء والضجيج يبدو أخطر من غيره. ولذلك ورد بشأن معركة بدر أنّ قريش تعجبت من قلّه عدد جيش الإسلام وتصورت أنّ عدد المسلمين أكثر ممّا ترى ولعلمهم إختفوا خلف التله حيث يردون ميدان القتال فى الوقت المناسب، فبعثوا بعمير بن وهب لينظر أطراف الميدان، فركب فرسه وجعل ينظر حول الصحرا ولم ير شيئاً، فعاد وقال: عدد المسلمين يقارب الثلاثمائه، إلّا أنّى رأيتهم مستعدين للقتال ولا يقوى أحد على مواجهتهم، أمّا ترونهم خرسا لا يتكلمون، يتلمذون تلمذ الأفاعى ما لهم ملجأ إلّا سيوفهم وما أراهم يولون حتى يقتلوا ولا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم (٢).

وقال في الوصيه السادسه: «وَرَأَيْتَكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تُخَلُّوهَا (٣) وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ، وَالْمَانِعِينَ الدَّمَارَ (٤) مِنْكُمْ» .

ص: ١٦٧

١-١) فسرت هذه المفرده سابقاً.

٢-٢) منتهى الآمال، ج ١، وقائع العام الهجرى الثانى.

٣-٣) «تخلّوا»: من ماده «تخليه» بمعنى الإخلاء والترك، وعليه فالصحيح فتح الخاء لأنها من باب التفعيل.

٤-٤) «ذمار»: بكسر الذال ما يلزم الرجل حفظه وحمايته.

ثم أتمّ كلامه باستدلال منطقي قائلاً: «فإنّ الصّابرين على نُزولِ الحقائقِ (١) همّ الذين يحفون برأيائهم، ويكتنفونها: حفافياً (٢)، ووراءها وأمامها؛ لا يتأخرون عنها فيسلموها، ولا يتقدمون عليها فيفردوها» .

كان للرايه أهميه خاصه في ميدان القتال في الأزمنه الماضيه، وذلك لدورها في إرتباط الصفوف والتحامها، وحين كان ينهمك المقاتلون وسط الميدان وجوانبه بالقتال، كانوا يلتفون حين الضروره حول الرايه لإعاده تنظيم صفوفهم وشن الحملات من جديد، وإن سقطت الرايه اضطرب العسكر وأحياناً كان ينهار، ولذلك ترى العدو يسعى جاهداً للإحاطه بالرايه، بينما يحاول الطرف الآخر الإبقاء على الرايه مرفوعه وهو يدافع عنها بكل ما أوتى من قوه، فقد كان سقوطها يعنى الهزيمه، وزبده الكلام فإن انتصاب الرايه دليل على القدره وسبب قوه وعزيمه المقاتلين وحلقه اتصالهم مع بعضهم، ولهذا ما انفك الإمام عليه السلام عن التأكيد وصاياهم بحفظ الرايه، حيث أكد من جهه ضروره ثبوت موضع الرايه وأن حمايتها من أشجع الأفراد، ومن جهه أخرى يوصى حمله الرايه بعدم التخلي عنها ومراقبتها من جميع الجهات، لا أن يتخلفوا عنها ولا يتقدموا عليها، ويضحوا بالغالى والنفيس من أجل حفظها بفضلها علامه الاقتدار والشموخ وورد فى شأن غزوه خيبر التى. لف الفريقان بخصوصها عشرات الروايات أن رسول الله صلى الله عليه و آله أعطى الرايه فى اليوم الأول إلى أبى بكر فلم يتمكن من فتح قلاعها، وفى اليوم الثانى أعطاها عمر بن الخطاب، فلم يفلح، فقال صلى الله عليه و آله: «لأعطين الرايه غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كراز غير فرار يفتح الله عليه» (٣).

فامتدت الأعناق فى اليوم التالى ليروا من هو ذلك الرجل، وقد تمنى كل فرد (شجاع) أن

ص: ١٤٨

١- (١) «الحقائق»: جمع «حاقه» على وزن جاده النازله الشديده.

٢- (٢) «حفافى»: منى «حفاف» على وزن كتاب بمعنى جانب الشىء وحفافيتها هنا إشاره إلى جانبى الرايه يمينها وشمالها.

٣- (٣) الكامل لابن الأثير ٢/٢١٩، [١] وتفسير الثعلبى (طبق نقل غايه المرام، ٤٦٧/ [٢] وصحيح مسلم، ج ٤ كتاب الفضائل الصحبه الحديث ٣٢؛ صحيح البخارى ٥/١٧١ باب غزوه خيبر (طبعاً ذكرت الجملة [٣] الأخيره فقط بشأن على عليه السلام فى صحيح البخارى مسلم) .

يكون هو المعنى فيعطيه رسول الله صلى الله عليه وآله الرايه، نادى رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام وسلّمه الرايه فلم يرجع إلبعد أن فتح خيبر واستسلم له أهلها، هذه دلالة على الأهميّة الفائقة للرايه وحاملها في ذلك الزمان، وقد تكرر نفس هذا المعنى في عصر على صلى الله عليه وآله مالك الأشتر النخعي وقال له علمت بوقوفك في القتال وشجاعتك ولولا ذلك لدفعت الرايه إلى غيرك، فردّ عليه بالقول: «لأسرنك اليوم يا مالك أو أقتل شهيداً» (١).

ثم أشار الإمام عليه السلام في وصيته السابعه والأخيره إلى قضيه أخرى من تكتيكات الحرب أنذاك فقال: «أجزاً امرؤ قزئه (٢)، وآسى (٣) أخاه بنفسه، ولم يكَل قزئه إلى أخيه، فيجتمع عليه قزئه وقزئ أخيه» .

يتضح المفهوم الدقيق لهذا الكلام فيما لو دققنا بصوره صحيحه على وضع الحروب في ذلك الزمان، فقد كانت للمعركه في ذلك الوقت ثالث صور (وأحياناً كانت تتحقق الصور الثلاث في نفس المعركه) :

الأولى: أن يتقدم أحد الشجعان وسط الميدان ويدعو شجاعاً آخر من العدو لمبارزته، فيتبارزان حتى يهلك أحدهما.

الثانيه: أن يتقدم الميدان عدّه أفراد ليقف كل واحد منهم أمام خصمه فيبدأ بينهم القتال.

الثالثه: أن تدور المعركه بين المعسكرين بأكملهما طبعاً هناك صوره رابعه تكون المعركه فيها غادره كأن تنهال طائفه على فرد فتزل عليه ضرباتها من كل جانب، ويبدو أنّ العبارة تشير إلى هذه الصوره الثانيه التي يبرز فيها عدّه أفراد إلى أمثالهم، وفي هذه الحاله لا- ينبغي لأحد أن يترك خصمه لآخر، بل يبارز كل واحد خصمه فيراعى المساواه والمواساه وتقف من خلال هذه الوصايا على مدى خبره الإمام عليه السلام بفنون القتال حيث يعرّف أصحابه على أدق تفاصيل القتال قبل البدء فيه.

ص: ١٦٩

١- ١) شرح نهج البلاغه للعلامة التستري ١٣/٥٥٨.

٢- ٢) «قرن»: الكفو وعدل الإنسان في الشجاعه في ميدان القتال ويطلق أحياناً القرن على كل كفو، وقد اشتق في الأصل من قرن بفتح القاف والاقتران الذي يعنى الاقتراب بين شيئين أو عده أشياء، ومن هنا يقال للزمان الطويل قرن حيث تكون فيه طائفه من الأجيال مع بعضها.

٣- ٣) «آسى»: من ماده «وسى» على وزن مشى بمعنى عاون والمواساه تعنى المعاضده ومساعدته كل واحد الآخر.

القسم الثاني: الجنة تحت ظلال السيوف

«وَإِئْمُ اللّٰهِ لَئِن فَرَرْتُمْ مِّن سَيْفِ الْعَاجِلِهِ، لَتَسْلَمُوا مِّن سَيْفِ الْآخِرِهِ، وَأَنْتُمْ لَهَا مِيمُ الْعَرَبِ، وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ. إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَهُ اللّٰهِ، وَالذُّلَّ اللَّازِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلَا مَحْجُوزٍ [مَحْجُوبٍ] بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ. [مَنْ] الرَّائِحُ إِلَى اللّٰهِ كَالظَّمَانِ يَرِدُ الْمَاءَ؟ الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي! الْيَوْمَ تُبْلَى الْأَخْبَارُ! وَاللّٰهِ لَأَنَا أَشَوْقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى ثلاثة أمور بهدف إعداد الأصحاب في ميدان القتال، فأحياناً يهددهم إن هم فروا من القتال، وأخرى يمدحهم ويتعرض لما يتحلون به من نقاط إيجابيه يراها فيهم، وأخيراً يشجعهم ويحثهم على الثواب والأجر الأخرى، وعليه يمكن إيجاز هذا المقطع من الخطبه في ثلاثه محاور هي: التهديد، والتشجيع، والتمجيد، فقد قال على مستوى المحور الأول: «وَإِئْمُ اللّٰهِ لَئِن فَرَرْتُمْ مِّن سَيْفِ الْعَاجِلِهِ، لَتَسْلَمُوا مِّن سَيْفِ الْآخِرِهِ».

فالعباره سيف الآخره إشاره إلى عذاب الله الذي يشمل الفارين من ميدان الجهاد، ولا شك أنّ الفرار من الزحف من الكبائر، وذلك لأنّ فرار عدّه أفراد يؤدّي إلى هزيمة عسكر جرّار ويقود حضاره عريقه إلى السقوط والإنهار، أو يجعل العدو يسدد ضرباته الموجهه إلى

الإسلام، ثم قال على مستوى المحور الثاني، أى المدح والثناء: «وَأَنْتُمْ لَهُامِيمٌ (١) الْعَرَبِ، وَالسَّنَامُ (٢) الْأَعْظَمُ. إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةً (٣) اللَّهُ، وَالذَّلَّ اللَّازِمَ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ. وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرٌ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ، وَلَا مَحْجُوزٌ (٤) بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ» .

فهو يعدهم من جانب بصفته مبرزى شخصيات العرب التى تشد نحوها الأنظار، من جانب آخر يذكرهم بمساوىء عار الفرار وهى الغضب الإلهى والذل الدائم والهوان والفضيحة الأبدية، على صعيد آخر ذكرهم بهذه النقطة وهى إن كان الهدف من الفرار هو التمتع بعمر أطول فإن هذا الهدف لا يحصل بالفرار، ذلك لأنه لا محيص من الممات واليوم الذى قدر فيه فلا يدفعه دافع.

نعم، قد يتصور الإنسان أنه يحصل على عمر أطول عن طريق الفرار، ولو فرض أن الأمر كذلك فما قيمه هذا العمر وهو يتضمن العواقب الثلاث متمثله بغضب الله والذل والهوان الأبدى، وقد خاطب القرآن الكريم أولئك الذين يشعرون بالقلق من تواجدهم فى جبهات القتال قائلاً: «قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ. . .» . (٥)

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بعبارة قصيره عميقه المعنى تهدف حثهم على جهاد العدو فقال: «مَنْ الرَّايِحُ (٦) إِلَى اللَّهِ كَالظَّمَانِ يَرِدُ الْمَاءَ؟ الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي (٧)!». .

وأخيراً قال عليه السلام بأن اليوم تبلى أخبار وأعمال كل فرد ويتميز فيها الغث من السمين:

ص: ١٧٢

١-١) «لهاميم»: جمع «لهموم» على وزن حلقوم الجواد السابق من الإنسان والخيول.

٢-٢) «سنام»: أعلى الجمل ثم اطلق على كل شىء بارز.

٣-٣) «موجده»: من ماده «وجد» علث وزن نجد بمعنى الغضب، كما ورد بمعنى الحزن والمعنى الأول هو الأنسب هنا.

٤-٤) «محجوز»: من ماده «حجز» بمعنى المنع.

٥-٥) سورة آل عمران / ١٥٤. [١]

٦-٦) «رائح»: من ماده «رواح» الاندفاع بسرعه خلف شىء.

٧-٧) «العوالى»: جمع «العاليه» تعنى أسنه الرماح، كما تعنى الرمح.

«الْيَوْمَ تُبْلَى الْأَخْبَارُ!» .

العباره من الرائح إلى الله سبحانه إشاره إلى الأفراد الذين يقبلون بكل شوق ورغبة وعشق الشهاده، كعشق العطشان إلى الماء الزلال.

وقد أورد الإمام عليه السلام شبيه هذا المعنى فى وصيته قبل الشهاده وبعد ضربته حيث قال: «وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدٍّ، وَطَالِبٍ وَحَيْدٍ...» (١). والعباره اليوم تبلى الأخبار هى فى الواقع إقتباس من الآيه ٣١ من سوره محمد صلى الله عليه وآله: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ» .

والفرده أخبار إمّا تعنى الأعمال أوالكلام والزعم والتي تبلى جميعاً فى ميدان الجهاد، والعباره: «الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي!» . تشبه العباره التي أوردها رسول الله صلى الله عليه وآله فى ميدان معركة أحد، حيث قال: «الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» .

الجدير بالذكر أنّ أحد الأنصار سمع هذا القول من رسول الله صلى الله عليه وآله وفى يده تميرات يلو كها، فقال: بخ بخ! ليس بينى وبين الجنة إلا هذه التميرات، ثم قذفها من يده وكسر جفن سيفه وحمل على قريش فقاتل حتى قُتل (٢).

ثم قال فى العباره الأخيره من أجل حث صحبه على الجهاد: «وَاللَّهِ لَأَنَا أَشَوْقٌ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ» . بمعنى لا دافع عندهم للجهاد وهم يحرصون على العوده إلى بيوتهم، بينما أحرص على جهاد عدو الحق والعداله، فالمراد هلموا لكل رغبة لميدان الجهاد واعلموا أنّ النصر حليفكم حين تقاتلون عدواً لا دافع له.

ص: ١٧٣

(١ - ١) نهج البلاغه، الرساله ٢٣. [١]

(٢ - ٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٨/٦ [٢] الحديث (الجنة تحت ظلال السيوف) ، كما ورد الحديث فى بحار الانوار

[٣]. ٩٧/١٣

«اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ. إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنِ دِرَاكِي، يَخْرُجُ مِنْهُمْ [مِنْهُ] النَّسِيمُ، وَضَرْبُ يَفْلِقِ الْهَامَ، وَيُطِيحُ الْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ السَّوَاعِدَ وَالْأَقْدَامَ؛ وَحَتَّى يُزَمَّوا بِالْمَنَاسِرِ تَتَّبَعُهَا الْمَنَاسِرُ؛ وَيُزَجِّمُوا بِالْكَتَائِبِ، تَقْفُوهَا الْحَمَائِبُ؛ وَحَتَّى يُجَزَّ بِإِعَادِهِمُ الْخَمِيسُ يَنْلُوهُ الْخَمِيسُ؛ وَحَتَّى تَدْعَقَ الْخُيُولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِيهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام على عليه السلام في هذا المقطع - الذي يمثل المقطع الأخير من الخطبه - في أمرين:

الأول: يدعو فيه على العدو، وهو الدعاء الذي يجر عليهم الهزيمة والعذاب الإلهي ويشد من عزيمه صحبه ويضاعف إرادتهم فقال: «اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ (١) جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ (٢) بِخَطَايَاهُمْ» .

جدير ذكره أن الإمام عليه السلام اشترط اللعن بعدم قبول الحق، وذلك لأن الهدف النهائي من هذا القتال لا يكمن في الاستيلاء على العدو والسلطه، بل ليس للإمام عليه السلام من هدف سوى قبول الحق، فإن قبله انتفت الحرب، وهذه هي فلسفه قتال دعاه الحق وأهل الإيمان طيله التاريخ.

ص: ١٧٥

١- ١) «افضض»: من ماده «فضض» على وزن خط بمعنى الهزيمة.

٢- ٢) «أبسِل»: من ماده «بسِل» على وزن نسل بمعنى المنع من الشيء أو القهر والغلبه والإبسال بمعنى التسليم للهلكه والعباره إشاره إلى هذا المعنى.

والأمر الآخر: هو أن الإمام عليه السلام ذكر اختلاف الكلمه ضمن دعائه كوسيله لتفريق العدو وهزيمته والذنوب من أسباب البؤس والشقاء، ومن هنا كان دعاؤه درساً، ليس درس واحد بل دورس. وفي القسم الآخر من هذا المقطع من الخطبه أشار إلى وصيته قتاليه مهمه أخرى فقال لهم، إن أردتم الانتصار عليكم بتوجيه الضربات الموجهه إلى العدو وأن تقوم كل فرقه من العسكر بمهمتها الخاصه ومتابعه العدو حين الهزيمة دون إمهاله ليتحقق النصر الشامل، فشرح ذلك قائلاً: «إِنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنِ دِرَاكٍ (١)، يَخْرُجُ مِنْهُمْ النَّسِيمُ، وَضَرْبِ يَفْلِقِ الْهَامَ، وَيُطِيحُ (٢) الْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ (٣) السَّوَاعِدَ وَالْأَقْدَامَ» .

ثم واصل عليه السلام حديثه مؤكداً على ضروره شن الهجمات عليهم تلو الهجمات وأن تتبنى فرقه مطاردتهم ورميهم بالسهام، وأن تعاضد كل فئه الأخرى وتحمل على العدو، كما يقوم الفرسان بمطاردتهم حتى المدن حتى تندوس حوافر خيلكم آخر نقطه في أرضهم والاستيلاء على مسار الذهاب والأياب والطرق المرأى من كل جانب: «وَخَيْتِي يُزْمُوا بِالْمَنَاسِرِ (٤) تَتَّبِعُهَا الْمَنَاسِرُ؛ وَيُزَجِّمُوا بِالْكَتَائِبِ (٥)، تَقْفُوهَا الْحَلَائِبُ (٦)؛ وَحَتَّى يُجَرَّ بِيَلَادِهِمُ الْخَمِيسُ (٧) يَتْلُوهُ زَالِ الْخَمِيسِ؛ وَحَتَّى تَدْعُقَ (٨) الْخَيُْولُ فِي نَوَاحِرِ (٩) أَرْضِهِمْ، وَبِأَعْنَانِ (١٠) مَسَارِيهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ (١١)» .

ص: ١٧٦

١ - ١ «دراك»: من ماده «درك» متتابع متوال وكأن كل واحد منهم يدرك الآخر ويصله، وعليه فإن طعن الدراك بمعنى السهام التي تطلق تبعاً على العدو.

٢ - ٢ «يطيح»: من ماده «إطاحه» بمعنى الاسقاط.

٣ - ٣ «يندر»: من ماده «اندار» بمعنى يسقط، كما يطلق على طرح شيء من الحساب.

٤ - ٤ «مناسر»: جمع «منسر» على وزن محفل القطعه من الجيش تكون أمام الجيش العظيم ويطلق عليها الطليعه، ومنسر على وزن منبر بمعنى منقار الطيور.

٥ - ٥ «كتائب»: جمع «كتيبه» طائفه من الجيش من مئه إلى ألف.

٦ - ٦ «الحلائب»: جمع «حليبه أو حلوبه» بمعنى الجماعه التي تجتمع على صوب، كما تطلق على الخياله.

٧ - ٧ «الخميس»: بمعنى الجيش الكامل الذي يتألف من خمسه أقسام، المقدمه واليمينه والميسره والقلب والساقه.

٨ - ٨ «سيأتى تفسير كلمه «تدعق» فى كلام السيد الرضى.

٩ - ٩ «سيأتى تفسير كلمه «نواحر» فى كلام السيد الرضى.

١٠ - ١٠ «أعنان»: قال صاحب لسان العرب جمع «عنن» على وزن كفن بمعنى نواحي الشيء وأطرافه.

١١ - ١١ «مسارب»: جمع «مسربه» بمعنى المرعى وكذلك مسارح بمعنى المرعى، إلا أن بعض شراح نهج البلاغه [١] ذهب إلى أن المسارب ما يسرب فيه المال والمرعى، والمسارح ما يسرح فيه والفرق بين مسرح ومسرب أن السروح إنما يكون فى أول النهار وليس ذلك بشرط فى السروب. (شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٨/٩). [٢]

فقد علم الإمام عليه السلام في هذه الخطبه جنوده الآداب الفرديه للقتال، وفي القسم الأخير الآداب الجماعيه في كيفيه عمل الكتاب والفرق والخِيَاله والمشاه وتنسيقها فيما بينهما تجاه العدو والاعتماد على الأساليب العلميه في القضاء على العدو، ومن النقاط المهمه التي تطرق إليها الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه هي عدم التواني في إتمام النصر على العدو، وريما كانت للإنسحابات أبعاد المباغته، والهدف تشديد الحملات، فلا يدمى تعقيب العدو إلى أقصى نقاط مناطقه والاستيلاء على كل مكان ليزول بالمره أى احتمال لأنّ يشن العدو هجماته.

والحق لو عمل جيش الإمام عليه السلام بهذه الوصيه في صفين والتي أوردها الإمام عليه السلام قبل المعركه لخدمت فتنه بنى أميه إلى الأبد ولزال شبح ظلمهم وجور حكمهم عن المسلمين، ولكن والأسف فقد سمعوا كل هذه الوصايا وضربوها عرض الحائط فتجرعوا مراره تمردهم.

خاض المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه في نهايه هذه الخطبه بشرح بعض مفرداتها الصعبه فقال:

الدعق: الدعق، أى تدق الخيول بحوافرها أرضهم، ونواحر أرضهم: متقابلاتها ويقال: منازل بنى فلان تتناحر أى تتقابل، انتهى كلام السيد الرضى.

ولكن فسّر أغلب أرباب اللغه النواحر بمعنى المناطق البعيده وهذا ما يناسب الخطبه.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي التَّحْكِيمِ وَذَلِكَ بَعْدَ سَمَاعِهِ لِأَمْرِ الْحَكَمِيِّينَ

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في السابق أنّ هذه الخطبة وردت بصورة عامّة بشأن التحكيم بعد معركة صفين، وهي تتألف من عدّة أقسام، فقد بيّن الإمام عليه السلام قبول التحكيم من خلال الاستدلال بالآيات القرآنية.

وفي القسم الثاني يتكفّل بالردّ على الاعتراضات

والقسم الثالث والأخير ينصح الإمام عليه السلام بالكفّ عن الخلاف وإعداد أنفسهم من أجل الوقوف بوجه ظلمه الشام كما ذمّهم على ما أبدوه من تقصير واعتراض وعدم انضباط.

ص: ١٧٩

١-١) سند الخطبة: تطرق المؤرخ المعروف الطبري في حوادث عام ٣٧ هـ إلى هذه الخطبة وشأن صدورها وخلاصته أنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام في الخوارج حين حاججهم ابن عباس، حيث أمر الإمام عليه السلام ابن عباس بالسكوت، ثم حمد الله وأثنى عليه وقال لهم: «من إمامكم؟ قالوا: ابن الكواء، قال: لم خالفتموني، قالوا: لقبولك التحكيم في صفين، فقال: ناشدكم الله ألم تطالبوني بالكفّ عن القتال حين رفعت المصاحف على أسننه الرماح، فقلت: لكم إني أعلم بهم منكم، فلا دين لهم ولا قرآن، فلم تسمعوا قولي وأبيتم إلّا التحكيم فقبلت، لكنني اشترطت عليهم أن يحكموا القرآن وإلّا لا نستجيب لحكمهم؟ قالوا: أمن العدل تحكيم الأفراد في دماء المسلمين؟ قال عليه السلام: إننا لم نحكم الرجال بل حكمنا القرآن. ثم أورد الطبري جانباً من الخطبة، كما نقلها باختلاف طفيف السبط بن الجوزي في تذكره الخواص، والمرحوم المفيد في الإرشاد، والطبرسي في الاحتجاج.

«إِنَّا لَمْ نُحْكَمْ الرَّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَا يَدُّ لَهُ مِنْ تَرْجَمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرَّجَالُ. وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحْكَمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلَّى عَنْ كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ قَالِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ). فَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ أَنْ نُحْكَمَ بِكِتَابِهِ، وَرُدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا» .

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً فإن الخطبه ردّ على اعتراض قبول الإمام عليه السلام للتحكيم، ومضمون كلام المعترضين: لم قبلت تحكيم فردين في هذا الأمر الديني المهم؟ والحال لا حكم إلا لله وليس لعامة الأفراد من حق في الحكم في الوظائف الدينية، أما الإمام عليه السلام فقد أشار في رده إلى نقطه مهمه فقال: «إِنَّا لَمْ نُحْكَمِ الرَّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ مَسْتُورٌ (١) بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ (٢)، لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ، وَلَا يَدُّ لَهُ مِنْ تَرْجَمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرَّجَالُ» .

ص: ١٨١

١-١) «مستور»: الشيء الخفي، إلا أن هذه المفردة وردت مسطوره في بعض النسخ من ماده سطر وردت صفهللخط في العبارة وهي أنسب.

٢-٢) «دفتين»: مثنى «دفعه» بمعنى جانب كل شيء ويقال دفتين لجانبى الكتاب أو القرآن.

إشاره إلى أن القرآن الكريم بين طائفه من الأحكام الكليه وعلى العالمين بالقرآن استنباط الأحكام الجزئيه وإبلاغها إلى عموم الناس، أو بعبارة أخرى تطبيق تلك الكليات على المصاديق، على سبيل المثال قال القرآن الكريم: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (١).

لا- شك أن معركة صفين أحد مصاديق هذه الآيه، ووظيفه الحكمين - إن كانا على الصواب وعالمين بالأمر - أن يقولوا: لما بايع الناس علياً عليه السلام إضافة إلى نص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عليه فإن عامه الأمة والصحابه قد قبلت خلافته، فمن سلك غير هذا السبيل كان مصداقاً للباغى والظالم وعليه العوده إلى الأمة و التوبه، فان أبى وجب على المسلمين مقاتلته حتى يرعوى عن غيه.

ومسأله التحكيم لا تشذ عن هذا الأمر، فهي ليست سوى ما يقوم به قضاء الإسلام، أى أنهم يطبقون أحكام الكتاب والسنة على مصاديقها ويصدرون الأحكام بهذا الخصوص، فهل هناك من اعتراض على هذا الكلام؟ للأسف لم يدرك الخوارج الجهاد هذا المطلب الواضح ولم يدعهم تعصبهم وجهلهم ليفهموا ذلك فيعوا الهدف الأصلي من الحكومه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى توضيح هذا المعنى قائلاً: «وَلَمَّا دَعَاْنَا الْقَوْمُ إِلَى أَنْ نُحْكَمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلَّى عَن كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: «فَإِنْ تَنَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» (٢)» .

فوضح الإمام عليه السلام الآيه بالقول: «فَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ أَنْ نُحْكَمَ بِكِتَابِهِ، وَرُدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ؛ فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ وَأَوْلَاهُمْ بِهَا» .

ومن هنا فقد أثبت الإمام عليه السلام بوضوح أن تحكيم الكتاب والسنة لا تعنى سوى الرجوع إليهما، ولما كنا مأمورين بهذا الأمر، فليس لأحد أن يعترض علينا لم قبلنا التحكيم، فخطأ

ص: ١٨٢

١-١) سورة الحجرات / ٩. [١]

٢-٢) سورة النساء / ٥٩. [٢]

المعترض فى تصوره أننا قبلنا تحكيم الأشخاص، والحال إننا لم نقبل سوى تحكيم كتاب الله.

وهنا سؤال يطرح نفسه: يفهم من كلام الإمام عليه السلام هذا أنه قبل التحكيم على ضوء رغبته ورضاه ووظيفته الشرعيه، والحال يفهم من عدّه خطب وردت فى نهج البلاغه أنّ التحكيم فرض على الإمام عليه السلام وكان ممتعظاً من هذا الأمر، فكيف يمكن حلّ هذا التناقض؟

لابدّ من القول فى الإجابة عن هذا السؤال أنّ الإمام عليه السلام لم يكن مخالفاً للتحكيم قط، بل كان الإمام عليه السلام يؤكّد على أمرين: الأول: هو أنّ رفع المصاحف على أسننه الرماح كان خديعه ومؤامره تهدف الحيلولة دون انتصار جيش الإمام عليه السلام فى اللحظات الأخيره من المعركه، وإيجاد الفرقه والاختلاف بين صفوف عسكر الإمام عليه السلام، وإلّا فأهل الشام لم يكونوا مستعدين لقبول تحكيم القرآن الكريم، فلم يكونوا من أهل الدين ولا القرآن حسب تعبير الإمام عليه السلام (١).

الأمر الآخر: هو أنّ الإمام عليه السلام كان معترضاً على أبى موسى الأشعري كمثل له فى تحكيم القرآن، وعليه فليس هنالك من تناقض بين هذه الخطبه وسائر الخطب نهج البلاغه، والشاهد على ذلك ما فعله الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء طبق نقل أرباب المقاتل أنّه وضع المصحف على رأسه وخاطب أهل الكوفه: «يا قوم إنّ بينى وبينكم كتاب الله وسننه جدي رسول الله» (٢).

قضية التحكيم

نعلم أنّ جيش معاويه حين أشرف على الهزيمة المنكره فى صفين، فبادر عمرو بن العاص المعروف بمكره إلى توصيه أهل الشام برفع المصاحف على أسننه الرماح والقول بالتسليم لحكم القرآن، من جانبه قال الإمام عليه السلام بأنّ هؤلاء لا يسلمون لحكم القرآن وليس ذلك سوى خدعه بهدف منع تلك الهزيمة الحتميه، إلّا أنّ فئه من جهّال عسكر الإمام عليه السلام إلى جانب

ص: ١٨٣

١-١) كما ورد فى سند هذه الخطبه.

٢-٢) مسند الإمام الشهيد ٢/٤٣، وقد نقل هذا الأمر فى الأصل مقتل الحسين، للمقرّم وقد نقله عن تذكره الخواص لابن الجوزى (مقتل الحسين / ٢٣٣). [١]

المنافقين لم يسمعوا كلام الإمام عليه السلام وأصروا على إيقاف المعركة، حتى هددوا الإمام عليه السلام بالقتل، فلم يكن من الإمام عليه السلام وبهدف الحيلولة دون ذلك الاختلاف والشقاق وبحكم الإيجاب إلّا أن أصدر أوامره بإيقاف القتال.

ثم قالوا بوجوب انتخاب فردين من العسكريين لتحكيم القرآن، والعجيب أن طائفه منهم بعد ذلك وقفوا بوجه الإمام وهتّبوا لمخالفته والاعتراض عليه في قبوله للتحكيم، الخطأ الآخر الذي بدر من الجهّال والمنافقين هو اختيارهم لأبي موسى الأشعري الجاهل كحكّم وفرضوه على الإمام عليه السلام وهو الأمر الذي أدّى إلى تلك الانتكاسه المريره والعجيب في الأمر فته بعد هذه الحادثه رفعت رايه التمرد على الإمام عليه السلام معترضه على قبوله للتحكيم، في حين هذا القرآن يصرّح قائلاً: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» (١)، فكان من نتائج ذلك وقوع معركة أخرى عرفت بمعركة النهروان، وقد رجعت طائفه منهم إلى نفسها بعد أن سمعت كلام الإمام عليه السلام فتابت إلى الله سبحانه، ولم تبق إلّا فئه قليله لم يكتب لها الدوام، وقد كان عمل الإمام عليه السلام واضحاً في هذا الأمر للأسباب التاليه:

١ - تحكيم القرآن في حلّ الخلافات العالقه بين المسلمين ليس بخفى على أحد، وقد أمر القرآن المسلمين صراحه بالرجوع إلى كتاب الله وسنّه نبيّه صلى الله عليه وآله في حاله حدوث اختلاف بينهم (الآيه ٥٩ من سوره النساء التي استشهاد بها الإمام عليه السلام في كلامه). وبناءً على ما سبق فتحكيم القرآن واستناداً لعقيده كافه المسلمين الذين للقرآن الكلمه الفصل في حل المنازعات ليست بالأمر الذي يدعو إلى الاعتراض على الإمام عليه السلام، لكن لم يكن من أولئك الجهّال إلا أن يصوروا الأمر على أنّه نقطه ضعف في الإمام عليه السلام.

٢ - لا شك أنّ الذين أثاروا فتنه رفع المصاحف على أسنه الرماح لم يكن لهم من اعتقاد بحكم القرآن ولا الحق والعدل، بل لم يكن لساسه الكفر عديمى الإيمان من همّ سوى التسلط على الأممه والهيمنه على إمكاناتها الماديّه، وقد كشف الإمام عليه السلام اللثام منذ البدايه عن كنه هذه المؤامره، ولكن ما جدوى ذلك حيال الجهّال الذين رفضوا منطق الإمام عليه السلام.

ص: ١٨٤

٣ - قطعاً ليس للقرآن من دور في التحكيم من خلال نفسه، وإنما يتسنى ذلك بواسطة أهل الذكر العالمين بالقرآن فيجتهدون في استنباط أحكامه في كل مسأله وإبلاغها إلى الناس، ولو حصل هذا الأمر في حادثه صفيين لتبين أن عسكر معاويه مشمولون بالآيه التاسعه من سوره الحجرات القائله: «فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى . . .» فينبغى إدانتهم بصفتهم بغاه طغاه هبوا للوقوف بوجه إمام المسلمين والحكومه الإسلاميه.

والمؤسف أن الحكيمين هما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص اللذان ليس لهما من علم بالقرآن، ونهض بالأمر من هو عارف بالقرآن، فإن ذلك ليس خلافاً فحسب، بل يمثل عملاً بالقرآن وأحكامه، لكن حيث لم تحصل الشرائط اللازمه في أيه مرحله، وكانت النتيجة مريه على تلك الفئه الجاهله، فعمدت إلى لوم الإمام عليه السلام بدلاً من ذمها لنفسها، فلم تعمد لإصلاح منظرها، بل اتجهت إلى كسر المرآه، طبعاً لا ينبغى تصور قضيه التحكيم على أنها ترتبط بحادثه تاريخي عابره، بل هي قضيه تكرر في مختلف العصور والأزمئه وحتى في عصرنا الحاضر، فهناك من يتستر خلف بعض المقدمات من ثم يحملوها بعض القراءات الخاطئه عن علم وبدونه ويختارون ما يتماشى ومصالحهم اللامشورعه.

فلعمروا بن العاص وأبو موسى الأشعري - هذان الجاهلان - أشباههما في كل زمان، وأما أكثر ما تتكرر واقعه صفيين وحمل المصاحف على السنان والتحكيم التي تتخذ لنفسها صوراً مختلفه، فلا تتمخض سوى عن النتائج التي تؤدي إلى مظلوميه من يسير على النهج العلوي.

«وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلًا فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتَ ذَلِكَ لِيَتَّيَنَ الْجَاهِلُ، وَيَتَّيَبَتِ الْعَالَمُ؛ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هَذِهِ الْهُدْيَةِ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ وَلَا تُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا، فَتَعْجَلَ عَنِ تَبْيِينِ الْحَقِّ، وَتَتَفَادَى لِأَوَّلِ الْغَيِّ. إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ - وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَّهُهُ - مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَايْتَدَهُ وَزَادَهُ. فَأَيُّنَ يَتَاهُ بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتَيْتُمْ! اسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لَا يُبَيِّنُ زُؤْنَهُ، وَمُوزَعِينَ بِالْجُورِ لَا يَعْبُدُونَ بِهِ، جُفَاهٍ عَنِ الْكِتَابِ، نُكِبَ عَنِ الطَّرِيقِ. مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعَلِّقُ بِهَا، وَلَا زَوَافِرَ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَيْسَ حُشَّاشُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ! أَفَّ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرَحًا، يَوْمًا أَنْادِيكُمْ وَيَوْمًا أَنْاجِيكُمْ، فَلَا أَحْرَارٌ صِدْقٍ عِنْدَ النَّدَاءِ [اللقاء] ، وَلَا إِخْوَانَ تَقَى عِنْدَ النَّجَاءِ!» .

الشرح والتفسير

يتألف كلام الإمام عليه السلام في الواقع من قسمين: الأول يعالج شبهات الخوارج وأمثالهم، ثم يحثهم على جهاد ظلمه الشام، فكلام الإمام عليه السلام في القسم الأول إشاره إلى ميثاق التحكيم الذي وقع بين الإمام عليه السلام ومعابيه (وسياتى شرح ذلك في موضوع تأملات) وعلى ضوء العهد فقد منح الحكمان مدّه سنه لحلّ اختلاف الأمة دون التسرع في ذلك، والمعترضون الجهّال يشكلون أحياناً على أصل التحكيم والذي أجاب عليه الإمام عليه السلام في القسم السابق من الخطبه، وأحياناً أخرى كانوا يشكلون على تفاصيله، أي مسأله المدّه، ومن هنا ردّ الإمام عليه السلام على الإشكال

الأخير بالقول: «وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجْلاً فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتَ ذَلِكَ لِيَتَّبِعَنَّ الْجَاهِلُ، وَيَتَّبِعْتَ (١) الْعَالِمُ» .

ثم أضاف: «وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُضِلِّحَ فِي هَذِهِ الْهُدْيَةِ (٢) أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ وَلَاتُؤَخِّدُ بِأَكْظَامِهَا (٣)، فَتَعَجَّلَ عَنْ تَبْيِينِ الْحَقِّ، وَتَتَفَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ» .

فقد بين الإمام عليه السلام عدّه فوائد للأجل الوارد في مسأله التحكيم، الأولى: أن يترث الجهال ويكفوا عن شططهم وتعصبهم ويحققوا في المسأله المصيريه، والأخرى: أن يقوم القوم علماء الأّمه من أصحاب على عليه السلام بدراسه جوانب المسأله ويختاروا ما ينطوى على الحد الأدنى من الخسائر ويهدوا الحكمين لانتخاب الصحيح، والثالثه: التفكير خلال هذه المدّه في الطرق التي تتكفّل بإصلاح أمر الأّمه بصوره كليّه واجتناب الأفعال المتسرعه التي تقود إلى الضلال، والغريب في الأمر التسرع والطيش الذي مارسه الخوارج الجهال بهذا الشأن ليعرضوا مصير الامه للخطر دون أدنى دراسه وتحقيق، وهذا هو ديدن الجهال من الأفراد في كل عصر ومصر.

أمّا العبارة: «لَاتُؤَخِّدُ بِأَكْظَامِهَا» فهي كناية عن الحريه من أجل المطالعه واتخاذ القرار والانتخاب، وهي كناية فصيحه وبلغه، والعبارة: «تَتَفَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ» إشاره إلى أن التسرع في القرار ضلاله عاده.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن المراد بأول الغي رفع المصاحف على أسننه الرماح التي تعدّ أول خطوه في الضلال (٤)، ويبدو التفسير الأول بقرينه الجملة التي سبقتها أنسب.

ثم خاض الإمام عليه السلام في نصحهم ووعظهم بالانقياد للحق وعدم مجابتهه بالتعصب واللجاجه وملاحظه المنافع الشخصيه، فقال: «إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ - وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَّهُهُ (٥) - مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةٌ وَزَادَهُ» .

ص: ١٨٨

١-١) «يتثبت»: من ماده «ثبت» بمعنى التحقيق.

٢-٢) «هدنه»: من ماده «هدون» على وزن قرون بمعنى الهدوء والسكون، وتستعمل عاده بمعنى المصالحه بعدالقتال أو وقف اطلاق النار.

٣-٣) «أكظام»: جمع «كظم» على وزن عزم وجمع كظم على وزن قلم بمعنى مخرج النَّفس.

٤-٤) منهاج البراعه، للعلامة الخوئي ٨/١٨٠.

٥-٥) «كرث»: من ماده «كرث» بمعنى شدّه الغم.

الواقع إنَّ علامته المؤمن الحقيقي هي هذه، يعني ان وقف على مفترق طرق بحيث كان الحق في جانب والمنافع الشخصية في جانب آخر، ولي ظهره لمنافعه الشخصية واندفع نحو الحق، وإلَّا فلا فخر في تعصب الإنسان للحق الذي ينسجم مع حفظ مصالحه الشخصية، ومن هنا ذمَّ القرآن الكريم طائفه من اليهود التي عملت على هذا الضوء فقالوا: «تُؤْمِنُ بِيَعُضٍ وَنُكْفِرُ بِيَعُضٍ . . .» (١)، كانت تلك الطائفة تدعن للقوانين الموافقة لميلها ورغبتها وتحقق منافعها، بينما تتمرد على تلك التي تتعارض ورغباتها، والحق إنَّ مثل هذا التفكيك لا يعني عبادة الله سبحانه، بل عبادة الهوى، ويصدق هذا الكلام على الأفراد الذين يهتدون لنصره الباطل بدافع التعصب واللجاجه ودعم الأصدقاء والقرباه، وقد ورد مثل هذا الكلام عن علي عليه السلام في خطابه لعمر بن العاص حيث أقسم أنه يعرف الحق، إلَّا أنه يتجاهله، ولم يدفعه للإلتحاق بصفوف أعداء الله سبحانه سوى منافعه (٢).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «فَأَيْنَ يَتَاهُ (٣) بِكُمْ! وَمِنْ أَيْنَ أُتَيْتُمْ (٤)!» .

آنذاك دعاهم لجهاد القوم الظالمين، وقد نعتهم بخمس صفات سلبية تتمثل بحيرتهم عن الحق وعدم رؤيته وقد شجعوا على الظلم والجور، ومن هنا فلا يسعهم الاقلاع عنه، وقد ابتعدوا عن كتاب الله وانحرفوا عن الصراط، رغم حملهم المصاحف ووضعها على الرماح وكلامهم عن تحكيم القرآن الكريم: «اشْتَبَعُوا لِلْمَسِيرِ إِلَى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لَمَا يُبْصِرُونَ، وَمُوزَعِينَ (٥) بِالْجُورِ لَيَعْدِلُونَ بِهِ، جُفَاهٍ عَنِ الْكِتَابِ، نُكْبِ (٦) عَنِ الطَّرِيقِ» .

وهكذا أشار الإمام عليه السلام إلى إننا نمتلك خمسة أدلَّة قاطعه إن أردنا قتال هؤلاء وكل واحد من هذه الأدلَّة يكفي سبباً لقتالهم!

ص: ١٨٩

١-١ (١) سورة النساء / ١٥٠. [١]

٢-٢ (٢) شرح نهج البلاغه، للمرحوم التستري ١٠/٢٦٣؛ تاريخ الطبري ٤/٥٠ طبعه الأعلمي بيروت.

٣-٣ (٣) «يتاه»: من ماده «تياه» على وزن قيد بمعنى الحيره والاضطراب، ويقال التيه للصحراء التي يحترار فيها الإنسان.

٤-٤ (٤) «اتيتم»: من ماده «إتيان» لها معاني مختلفه وتعنى هنا الانخداع والتسليم للباطل.

٥-٥ (٥) «موزعين»: من ماده «إيزاع» بمعنى التشجيع وإيجاد الرغبه فى شىء وترد بمعنى الإلهام والتوفيق، والمعنى الأول هو المراد بها فى هذه العبارة.

٦-٦ (٦) «نكب»: جمع «ناكب» من ماده نكب على وزن نفى الانحراف عن الشىء.

فقد حادوا عن الصواب وانحرفوا عن الصراط، ولا يكثر ثون للقرآن الكريم، اعتادوا على الظلم والجور، وقد عجزت أعينهم عن رؤيه الحق فأصبحوا يدورون حول ذواتهم.

ثم لهج لسان الإمام عليه السلام بالشكوى فى عباراته الأخيره وعرضهم لأشدّ الذمّ واللوم، لعلمهم يفيقون إلى أنفسهم ويعيدون النظر فى أعمالهم فقال: «مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقِهِ يُعَلَّقُ بِهَا، وَلَا زَوَافِرَ (١) عَزٌّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا. لَبِئْسَ حُشَّاشٌ (٢) نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ!». .

ثم شدد عليه السلام فى تقريرهم فقال: «أَفْ لَكُمْ! لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرَحًا (٣)، يَوْمًا أَنْادِيكُمْ وَيَوْمًا أَنْاجِيكُمْ، فَلَا أُحْرَاؤُ صِدْقٍ عِنْدَ النَّدَاءِ [] [الْقَاءِ] ، وَلَا إِخْوَانٌ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ (٤)!». .

فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى حقيقه فى هذه العبارات وهى إن كانت هنالك من مشكله قد ظهرت فى أمر الجهاد وحكومته عليه السلام فأنما مرد ذلك إلى عدم كفاءه جمع من صحبه، وذلك لأنهم كانوا يبدون الضعف والوهن فى كل ميدان يطرقه الإمام عليه السلام، ومن الطبيعى أنّ هناك ضروره للوصول المقتدره فى بدايه المعركه والتى ينبغى أن تحصل من قبل الرجال الأشداء والشجعان والمخلصين، ولم يكن من ينهض بهذا الدور فى معسكر الإمام عليه السلام، من جانب آخر فان القائد حين ينادى أن أحملوا! فلا بدّ من حركه الجميع بشكل منسجم، إلّا أنّهم كانوا أضعف وأوهن من ذلك، وإن كانت هناك من خطط حربه يطلعون عليها بصوره سريه، لا بدّ أن يجدوا ويجتهدوا فى حفظها، إلّا أنّهم لم يكونوا من حفظه الأسرار ويوثق بهم، وعليه لا يبدو من الصواب توقع حصول نصر خاطف فى ظلّ وجود مثل هؤلاء الأفراد، والعجيب فى الأمر فانّ مثل هؤلاء الأفراد وبهذا المدى من الضعف والوهن حين يصابون بفشل، فهم يوعطونه إى الخارج ويحملوا الإمام عليه السلام مسؤوليه زلاتهم دون أن يهتموا ويفتشوا عن أسباب ذلك فى أنفسهم، وهذه مشكله كبرى.

ص: ١٩٠

١-١) «زوافر»: جمع «زافره» من ماده على وزن فقر بمعنى الألم والصراخ، ولما كان أعوان الإنسان بصفتهم المواسين فى الألم والأين فقد اطلقت مفرده الزافره على النصير وهذا هو المعنى المراد فى العبارة.

٢-٢) «حشاش»: جمع «حاش» من ماده حش على وزن شك بمعنى إيقاد النار، والمراد بها هنا الأفراد الذين يسددون أولى الضربات للعدو.

٣-٣) «برح»: بفتح الباء الشده والغضب.

٤-٤) «نجاه»: ونجوى الهمس فى الاذن والشىء الذى يقال للآخرين سرّاً.

حين استغل ظلمه الشام قضيه رفع المصاحف على أسنه الرماح وخذعوا بها أهل العراق، ففرض الصلح على أمير المؤمنين على عليه السلام كتب هذا العهد بين الفريقين:

«هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب (١) ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي بن أبي طالب على أهل العراق ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين أنا ننزل عند حكم الله وكتابه ولا يجمع بيننا إلا إياه وإن كتاب الله سبحانه بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحى ما أحيا القرآن ونميت ما أمات القرآن فإن وجد الحكمان أن ذلك في كتاب الله إتبعناه وإن لم يجداه أخذنا بسننه العادله غير المفترقه والحكمان عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص (٢).

وقد نقل هذا الصلح أو العهد (أو مهما سميته) في مختلف الكتب مع اختلاف طفيف، وكلها تشير إلى أن المسأله كانت مسأله تحكيم القرآن الكريم لا- تحكيم الأشخاص، وبعبارة أخرى فإن الأشخاص كانوا مكلفين باستنباط ما في القرآن بهذا الشأن وتطبيقه على مصاديقه، بينما اعتبرها الخوارج تحكيم للأفراد في دين الله فأثاروا مختلف الولايات والمأسى التي أفرزتها الجهل والحماقه.

٢ - حوار الإمام عليه السلام مع الخوارج

روى أن أمير المؤمنين على عليه السلام أرسل عبدالله بن عباس إلى الخوارج وكان بمرآى منهم

ص: ١٩١

١- ١) ورد في أغلب التواريخ أن كتاب الإمام عليه السلام كتبوا أمير المؤمنين إلى جانب اسمه، فاعترض عمرو بن العاص وقال: لو علمناك أميراً للمؤمنين فلا بد أن يكون من يعاديك أميراً للفاسقين، لا بد من محو هذه الكلمه، فأطرق على عليه السلام وذكر صلح الحديبيه فقال: «الله أكبر لقد كتبت محمد رسول الله صلى الله عليه وآله فاعترض الكفار وطالبوا بمحو رسول الله، فلم أفعل، فأشار عليّ النبي أن أمحوها ثم محاها بنفسه دفعاً للفتنه، فغضب عمرو بن العاص وقال تشبهنا بالكفار فلن أبق في هذا المجلس - فقال عليه السلام: أسأل الله أن يظهر مجلسي من مثلك، ثم استمر الكلام حول كتابه لقب أمير المؤمنين حيث رأى البعض عدم محوها وإن شهرت السيوف، ولكن محيت تلك الكلمه آخر الأمر (انظر تاريخ الطبرى ٤/٣٧ [١] والتواريخ الأخرى)

٢- ٢) بحار الانوار ٣٢/٥٤٢؛ [٢] وقد ورد هذا العهد في تاريخ الطبرى ٤/٣٨ [٣] مع بعض الاختلاف.

ومسمع ليسألهم ما الذى نعموا عليه؟ فقالوا فى الجواب: نعمنا يابن عباس على صاحبك خصلاً كلها موبقه مكفره تدعو إلى النار:

أما أولها: فإنه محى اسمه من إمره المؤمنين، ثم كتب بينه وبين معاويه فإذا لم يكن أمير المؤمنين فنحن المؤمنون فلسنا نرضى أن يكون أميرنا.

وأما الثانية: فإنه شك فى نفسه حين قال للحكمين: انظر فإن كان معاويه أحق بها فأثبتاه، وإن كنت أولى بها فأثبتانى، فإذا هو شك فى نفسه، فنحن فيه أشدّ شكاً.

والثالثة: أنه جعل الحكم إلى غيره وقد كان عندنا أحكم الناس.

الرابعة: أنه حكم الرجال فى دين الله ولم يكن ذلك إليه.

الخامسه: أنه قسم بيننا الكراع والسلاح يوم البصره ومنعنا النساء والذريه.

السادسه: أنه كان وصياً فضييع الوصيّه.

قال ابن عباس: قد سمعت يا أمير المؤمنين مقاله القوم فأنت أحق بجوابهم. فقال عليه السلام: نعم، ثم قال له: قل لهم يابن عباس أترضون حكم الله ورسوله؟ فقالوا: بلى، ثم قال: أما الأولى فقد كتبت عهد الصلح يوم الحديبيه «بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اصطلح عليه رسول الله وأبوسفيان وسهيل بن عمرو» فقال سهيل: إنا لا نعرف الرحمن الرحيم أولاً، وثانياً ولا نقر أنك رسول الله، وثالثاً ولكننا نحسب ذلك شرفاً لك أن تقدّم اسمك قبل أسمائنا، . إن كنا أسن منك، فأمرنى رسول الله صلى الله عليه و آله أن أكتب بدلاً من «بسم الله الرحمن الرحيم» «بسمك اللهم» وبدلاً من «رسول الله» «محمد بن عبدالله»، ثم قال لى: إنك تدعى إلى مثلها فتجيب وأنت مكره، وهكذا كتبت بينى وبين معاويه وعمرو بن العاص، فقال الخوارج: هذه لك خرجت منها.

وأما الثانية إنى شككت فى نفسى حيث قلت للحكمين: انظروا فان كان معاويه أحق بها منى فأثبتاه، فان ذلك لم يكن شكا منى فقد قال القرآن: «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (١).

ولم يكن ذلك شكاً وقد علم الله أنّ نبيه على الحق، فقالوا: وهذا لك، وأما قولكم أتى جعلت الحكم إلى غيرى وقد كنت عندكم أحكم الناس، فهذا رسول الله صلى الله عليه و آله قد جعل الحكم إلى سعد

ص: ١٩٢

يوم بنى قريظه وقد كان أحكم الناس، وقد قال الله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» (١)، قالوا: وهذه لك بحجتنا، قال وأما قولكم إنى حكمت فى دين الله الرجال، فما حكمت الرجال
ولكن حكمت كلام ربى فقال فى الصيد عند الاحرام: «وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ
مِنْكُمْ» (٢)، فدماء المسلمين أعظم من دم طائر، قالوا: وهذه لك، قال وأما قولكم: إنى قسمت يوم البصره الكراع والسلاح
ومنعتكم النساء والذريه، فانى مننت على أهل البصره كما من رسول الله صلى الله عليه و آله على أهل مكه، وبعد فأيتكم كان
يأخذ عائشه فى سهمه، قالوا: وهذه لك بحجتنا قال وأما قولكم إنى كنت وصياً فضيبت الوصيّه، فأنتم كفرتم وقدمتم على
وأزلتم الأمر عنى... قالوا: وهذا لك وإثر ذلك رجع بعضهم وبقي منه أربعه آلاف فقاتلهم فقتلهم. (٣)

ص: ١٩٣

١-١) سورة الأحزاب / ٢١. [١]

٢-٢) سورة المائده / ٩٠. [٢]

٣-٣) الاحتجاج للطبرى ١/٤٤٢، ([٣] يتصرف ونقل بالمعنى) ووردت فى مناقب ابن المغازلى / ٤٠٦ [٤] مع اضافته، وبحار الانوار
ص ٣٣٧/٣٣ [٥] مع اختلاف.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

لَمَّا عُوتِبَ عَلَى التَّسْوِيَةِ فِي الْعَطَاءِ

نظرة إلى الخطبة

يبدو الهدف من هذه الخطبة كما يفهم من عنوانها هو جواب الإمام عليه السلام لمن أشار عليه باغداق أموال بيت المال على الأشراف وزعماء القبائل الذين يمكنهم التأثير على الحكومة، فيعطيهن سهماً أكثر من غيرهم ويميزهم بالعطاء، وذلك من أجل ترسيخ حكومته، وقد تضمنت إجابته الإمام عليه السلام الإشارة إلى أمرين:

الأول: ليس لي قط ترسيخ دعائم حكومتي من خلال الظلم والجور والتمييز بين الناس وإعطاء حق أحد لآخر، فلا يسعني بلوغ الحق والعدل بواسطة المعصية.

الثاني: أن من يمارس هذا الفعل فإن عاقبته جحود أولئك الأفراد الذين أهدق عليهم.

ص: ١٩٥

١ - ١) سند الخطبة: هذه الخطبة جزء من خطبه طويله للإمام عليه السلام في تقسيم بيت المال لما اعترض عليه، ويبدو أنها مرتبطة بالخطبة ١٤٢، والجزءان من خطبه واحده، وقد نقلها الكثيرون ممن عاشوا قبل السيد الرضى وبعده ومنهم: ابن قتيبه في الإمامه السياسه، وابن شعبه في تحف العقول، والكليني في فروع الدين، والشيخ المفيد في كتاب المجالس، والمرحوم الشيخ الطوسي في كتاب الآمالى (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٨٢). [١]

«أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللَّهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَيَمَرُ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا! لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ! أَلَا وَإِنْ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْدِيدٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللَّهِ. وَلَمْ يَضَعْ امْرُؤٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلَمَّا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لَغَيْرِهِ وَدُهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْمًا فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَالْأَمُّ خَدِينٍ!» .

الشرح والتفسير

المنصب والعدالة

أورد المرحوم الكليني في بدايه نقله لهذه الخطبه عن أبي مخنف أنّ جماعه من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام اقترحوا على تقسيم أموال بيت مال المسلمين على الزعماء والأشراف (في أن يعطيهم من سهمهم) لتستقر الحكومه ومن ثم يعود إلى التسويه في العطاء، فانزعج الإمام عليه السلام وأورد هذه الخطبه ليوضح لهم عدم إمكانية الوصول إلى هدف مقدّس من خلال وسيله ليست مقدّسه، فهذا الأمر لا ينسجم مع تعاليم الإسلام فقال: «أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ!» .

أو ليس الهدف من الحكومه هو بسط العدل والقسط؟ كيف تقترحون على تثبيت هذه الحكومه بالظلم والجور؟ هذا تناقض واضح للعيان، وهو أمر لا يرتضيه الحق تبارك وتعالى.

ص: ١٩٧

ثم أضاف عليه السلام قائلاً: «وَاللَّهِ لَا أَطُورُ (١) بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ (٢)، وَمَا أُمَّ (٣) نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا!». .

فقد بين الإمام عليه السلام رسوخ عزمه بهذا الشأن بعبارات صريحة وقويه، فهو يقسم من جانب، ويستعمل العبارة لا أطور من جانب آخر، والمراد ليس فقط لا أفعل هذا، بل لا أقاربه ولا أحوم حوله، إلى جانب ذلك أشار إلى الحركة المتواصله والأبديه للنجوم في السماء والليل والنهار في الأرض، كناية عن مراده لو كان عمرى خالداً فلسيت مستعداً للمارسه مثل هذا الظلم والتمييز، ثم أكد ذلك بقوله: «لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ!». .

فالعباره وإن بدت صعبه على الأفراد الذين ليس لهم بُعد نظر وأولئك الذين يضحون بالحق والحقيقه من أجل المصلحه، إلّا أنّ الحق هو أنّ هذه العبارة إنّما تتفق وسنّه رسول الله صلى الله عليه وآله وتعاليم القرآن الكريم والقيم الإسلاميه العليا، وهذا ما سنعرض له في البحث القادم.

ثم أشار الإمام على عليه السلام إلى مفسد الظلم والجور والتقسيم غير العادل لأموال بيت المال فقال: «أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْدِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللَّهِ». .

قد يكون التبذير والاسراف بمعنى واحد ويرادف كل منهما الآخر تارة، وتارة أخرى بمعنيين، لأنّ التبذير بالمعنى الواقعي يختلف عن الاسراف، فالتبذير من ماله بذر بمعنى نثر البذور وتستعمل حين يضيع الإنسان نعمه الله ويترحمها جانباً، وعبارة أخرى ينفق الأموال في غير موضعها، أمّا الاسراف فهو المبالغه في إستهلاك النعم بحيث يخرج من حاله الاعتدال

ص: ١٩٨

١- ١) «أطور»: من ماده «طور» على وزن غور بمعنى حام حول الشىء، والمفرده طور وجمعها أطوار وردت بمعنى نوع وحاله وصيغه.

٢- ٢) «سمير»: من ماده «سمر» على وزن تمر حديث الليل، وقال البعض أن المعنى الأصلي لهذه الماده هو الاختلاط بالنور والظلمه، ولما كانت أحاديث الليل تتم أحياناً في ظلّ النور، فقد استخدمت هذه المفرده بشأن أحاديث الليل، وإن اطلق الأسمر على بعض الأفراد فذلك لأنّ بياض بشرتهم مشوب باللون الغامق.

٣- ٣) «أمّ»: من ماده «أم» على وزن غم بمعنى القصد، والعبارة (ما أمّ نجم في السماء نجماً) كناية عن طلوع النجوم وغروبها متتابعه، وكأنّ كل نجم يقصد متابعه الآخر.

دون أن يضيع شيئاً ظاهرياً، كأن يعد طعاماً كثيراً للغايه وفاخراً لبضعه أفراد، بينما يمكن إطعام عشرات الأفراد بتلك القيمه، فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من خطبته إلى الآثار المعنويه السيئه لصرف الأموال فى غير مواضعها، حيث يمكن أن يحظى الإنسان فى ظلها بمكانه معينه إلى أجل بين الناس، بينما يسقط بالمره أمام الله ويعرض نفسه لأشد العقاب فى يوم الجزاء، وأما نعته مثل هذا العطاء بالتبذير والاسراف، فذلك لأنه يؤدى إلى اشاعه التبذير والاسراف فى وسط المجتمع، فأولئك الذين يأخذون أكثر من الحد اللازم، لا يسعهم غالباً إفاضة جزء منه على الآخرين، كما لا يستطيعون احتمالاه بأنفسهم، فلا مناص من بروز حاله التبذير والاسراف.

ثم إختتم الإمام عليه السلام خطبته بالإشاره إلى الآثار الدنيويه السيئه لذلك العمل فقال: «وَلَمْ يَضَعْ أَمْرُهُ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلَا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ شُكْرَهُمْ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وَدُهُمْ. فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْمًا فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَلِيلٍ وَالْأَمُّ خَدِينٍ (١)!»

والعباره الأم خدين إشاره إلى أن أولئك الأفراد الذين أحسن إليهم ليس فقط لا يقدمون المساعده لمن أحسن إليهم فى يوم عوزه فحسب، بل تبلغ بهم الوضاعه واللؤم أن يتحولوا إلى ذامين، أما ما فهمه بعض شرّاح نهج البلاغه من أن العباره تعنى اللوم والتوبيخ، فلعل ذلك كون الصديق هو المصداق الواضح للوضاعه حين الحاجه، وقد دلّ التاريخ والتجارب الشخصيه كراماً ومراراً على أن أغلب الظلمه والأثرياء الذين يغدقون الأموال على أصدقائهم، لم يمهد أحد لهم يد العون حين ذاقوا وبال أعمالهم، بل نفر عنهم أقرب أصدقاؤهم القدمات، ولعل بيت الشعر المعروف للشاعر المشهور حافظ الشيرازى والذى تتناقله الألسن ومضمونه «أنى لم أتأثر قط بما يفعله الأجنب، بقدر ما أتأثر مما يفعله الصديق» إشاره إلى هذا المعنى.

بحث فى اسلوب تقسيم العطاء

يستفاد من هذه الخطبه الشريفه أن الإمام عليه السلام كان شديد الحرص على تقسيم أموال بيت

ص: ١٩٩

(١-١) «خدين»: من ماده «خدن» بمعنى الصداقه وخدن على وزن اذن بمعنى الصديق وجمع ذلك أخدان.

مال المسلمين بينهم بالسويه دون أن يكون هناك أدنى امتياز لشريف على وضع وشخصيه سياسيه واجتماعيه وحتى السابقين فى الإسلام، بل حتى أهل الحاجه على أحد من الناس، وهذا ما كانت عليه الحال على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ويبدو أنه كان النهج الذى اعتمده الخليفه الأول أيضاً، حتى خلافة عمر حيث إتبع التمييز والاخذ بنظر الاعتبار الأمور السياسيه والاجتماعيه فى تقسيم بين المال.

قال ابن أبي الحديد: أمّا عمر فأنه لما ولى الخلافة فضل بعض الناس على بعض، ففضل السابقين على غيرهم، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضل المهاجرين كاهه على الأنصار كاهه، وفضل العرب على العجم، وفضل الصريح على المولى، وقد كان أشار على أبى بكر فى أيام خلافته بذلك، فلم يقبل وقال هذا خلاف كتاب الله، ولما ولى عثمان الخلافة بلغ التمييز قمته، فقد فضل آنذاك كاهه قرابته وبطانته، فقسم بينهم أغلب أموال بيت المال (1)، وقد ذكر العلامة الأمينى رحمه الله فى المجلد الثامن من كتابه الغدير الصفحه (486) عنواناً أسماه (الفوضى فى مال الله) جمع فيه الأرقام الدقيقه التى روتها مختلف مصادر العامه بشأن هباته إلى قبيلته وأعوانه، وهى الأرقام التى تذهل كل إنسان حين يتأملها، فكان هذا أحد العوامل التى دعت الناس للقيام عليه، كما أنّ رفع هذه الامتياز من قبل الإمام عليه السلام كان أحد العوامل التى جعلت زعماء القبائل يتمردون عليه (كما يفهم من هذه الخطبه وسائر خطب نهج البلاغه) (2).

والطريف فى الأمر أنّ أصحاب الإمتيازات فى ذلك الزمان لم يخفوا هذا الأمر، كما نقل ذلك الطبرى فى تاريخه، حيث قال رجل لأبى عبدالرحمن السلمى (الذى كان معروفاً آنذاك) (3): ناشدتك الله متى عاديت علياً عليه السلام أليس ذلك حين قسم العطاء ولم يعطك وأهلك شيئاً (وقد استغلوا بيت المال قبل ذلك)؟ قال أبو عبدالرحمن: بلى هو كذلك. (4)

ص: ٢٠٠

١- ١) مَرّت تفاصيل ذلك فى شرحنا للخطبه الشقشقيه.

٢- ٢) انظر الخطبه ٢٣٢.

٣- ٣) ابو عبدالرحمن السلمى من مشاهير التابعين، ولم يكن من الصحابه وقال البعض كان بادىء الأمر من خواص أمير المؤمنين عليه السلام (الكنى واللقاب).

٤- ٤) كتاب منتخب ذيل المذيل، ص ١٤٧ نقلاً عن العلامة التستري فى شرحه لنهج البلاغه ٦/٤٩١.

على كل حال لابد من بحث جذور مسأله المساواه التي تأكدت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام، قطعاً إن ذلك يعود إلى ماهيه الأموال التي كانت ترد بيت المال، وتوضيح ذلك أن الأموال التي كانت ترد بيت المال تستند إلى نواحي:

الأولى: غنائم الحرب وتعلم أن ليس هناك أى تفاوت بين المقاتلين بخصوص الغنائم الحربية، سوى أن الفارس كان يأخذ ضعف الراجل (بسبب التكاليف المتعلقة بالمركب، فهم الذين كانوا يعدونه، إضافة إلى دور الفارس مقارنة بدور الراجل فى المعركة) .

الثانية: أموال الخراج وهى الأموال المتعلقة بالأراضى الإسلاميه والتي كانت تشكل أغلب بين المال على عهد الخلفاء، فهذه الأموال تتعلق بجميع المسلمين ولا بد من تقسيمها بالسويه عليهم، وذلك لأن أراضى الخراج ملك لعامة المسلمين وينبغى توزيعها عليهم بالسويه، حيث يتقسم دخل الملك المشاع بالتساوى على جميع المالكين، لأن سهم ملكيه الجميع متساوى.

الثالثة: الجزية والأموال التي تجبى من غير المسلمين إزاء ما يتمتعون به من دعم وحمايه من جانب الحكومه الإسلاميه إلى جانب حفظ أموالهم وأعراضهم، ويرى طائفه من كبار الفقهاء أن مصاريف الجزية هى مصارف الخراج المتعلقة بجميع المسلمين.

الرابعة: الزكاه التي تفرض على بعض الأجناس بمقدار معين وقد تكفل القرآن الكريم ببيان مصاريفها الثمانيه، وقد قسمت بصوره عامه إلى الفقراء، والمساكين، حسب حاجتهم وفى موارد مصاريف الجهاد حسب الحاجات، وعليه فالمعيار فى تقسيمها الحاجه لا المساواه.

الخامسه: الخمس وهى الأموال المفروضه على كافة الإيرادات بعد طرح التكاليف ومخارج السنه، وعلى ضوء ما أورده القرآن الكريم والروايات فإن الخمس نصفان، نصف يتعلق بأهل الحاجه من بنى هاشم، والنصف الآخر بإمام المسلمين والذي ينفقه فى حاجيات الحكومه الإسلاميه.

السادسه: الأنفال التي تشمل جميع الأموال التي ليس لها ملكيه خاصه كالأراضى الموات والبساتين وبعض المعادن وسواحل البحار والأراضى البوار التي غادرها أصحابها وانصرفوا عنها، فهى الأخرى جزء من أموال الدوله وتعلق بجميع المسلمين، ولكل مصدر من المصادر

الست الماضيه بحث مفصل ورد فى الكتب الفقهيه مثل كتاب الخمس وكتاب الزكاه وكتاب الجهاد.

وهنا يطرح هذا السؤال: أى من هذه الأموال الست التى ينبغى توزيعها بصورة مساويه بين المسلمين وقد عمل بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله واستمر العمل بها حتى فى زمان الخليفه الأول، وواصلها الإمام على عليه السلام إحياءً للسنة بعدما إندرت على عهد الخليفه الثانى والثالث؟

يبدو أنّ تلك الأموال هى أموال الخراج (ويحتمل إلحاق الجزية بها) والتى كانت تشكل فى ذلك الزمان القسم الأعظم من بيت المال، وقد كانت إلى درجه من الكثرة بحيث لم تكن هناك من أهميته لسائر موارد بيت المال فى مقابلها، ولذلك فإنّ أحد البرامج الرئيسيه للولاه الذين يتجهون إلى مختلف المناطق جبايه الخراج، ويستفاد هذا المعنى من أغلب الرسائل الوارده فى نهج البلاغه، ومن ذلك عهد الإمام عليه السلام إلى مالك الأشرى رضى الله عنه ورسالته عليه السلام إلى مصقله بن هبيرة (الرساله ٥٣ و ٤٣).

وبناءً على ما تقدم فإنّ وزع قسم آخر من أموال بيت المال بصورة غير متساويه على أساس مصالح المسلمين والحكومه الإسلاميه على ضوء المدارك الفقهيه، فليس هناك من منافاه مع ما ورد فى هذه الخطبه وأمثالها.

أضف إلى ذلك فإنّ هناك تقسيماً لأموال بين المال على أساس مصالح المسلمين والخدمات التى يقوم بها بعض الأفراد، لا على أساس المصالح الشخصيه كما كان يفعل ذلك معاويه، حيث كان يشتري زعماء القبائل بما يغدق عليهم من أموال، حتى كان يغرب بعض الأفراد ضعاف الإيمان من جيش الإمام عليه السلام فيغيرهم بما ينفقه عليهم من أموال كثيره (١)، وهذا بحد ذاته يمثل جنايه عظمى لا يمكن تداركها والإغماض عنها، وقد كان الإمام عليه السلام كما ورد فى هذه الخطبه يتنفر من هذا العمل، وقد غضب بشده على من اقترح عليه استعماله الأشراف وزعماء القبائل بالأموال.

وبالطبع فإنّ هذه مدرسه الأحرار والأتقياء الأوفياء التى كانت وما زالت تتضاد ومدرسه سماسره السياسه وعبداه المناصب وأسرى الأهواء.

ص: ٢٠٢

١- ١) ورد عن معاويه أنه قال: «والله لأستميلنّ بالأموالِ أهلَ ثقاتِ عليّ ولأُقسيَمَنّ فيهم المالَ حتى تغلبَ دُنْيَايَ على آخِرَتِي» شرح نهج البلاغه للعلامة التستري ٦/٤٩١.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وفيه يبين بعض أحكام الدين

ويكشف للخوارج الشبهه وينقض حكم الحكمين

نظره إلى الخطبه

خاطب الأمام عليه السلام الخوارج بهذه الخطبه، رغم عموميه نفع الخطبه، تتألف الخطبه من عدّه أقسام، فند الإمام عليه السلام فى القسم الأول عقيدته الخوارج فى تكفير مرتكب الكبيره وحكمهم بقتل عامه أمه النبي صلى الله عليه وآله، وذلك من خلال الأدله المحكمه، وأشار عليه السلام فى القسم الثانى إلى غفله الخوارج وجهلهم وسلوكهم المفرط فى عدوانهم، بينما أفرط البعض الآخر منهم فى موالاتهم، فكلاهما على ظلاله، والقسم الثالث تضمن التأكيد على متابعه جميع المسلمين وعدم الإنفراد عنهم والتحذير من الفرقة، وأن شعار الخوارج هو شعار مضل وخطير، وأخيراً القسم الرابع وهو إشاره إلى خطأ الحكمين، كما يوضح أن وظيفه الحكمين العمل بأحكام القرآن، ولكنهم ضلوا الطريق، وعليه فليست هنالك أية قيمه لحكمهم.

ص: ٢٠٣

١ - ١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه المؤرخ المعروف الطبرى فى حوادث سنه ٣٧ هـ عن أبى مخنف باختلاف طفيف، وابن الأثير فى كتاب النهايه وأشار إلى المفرده (بجر). (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٨٥).

«فَإِنَّ أَيْتِمَّ إِلَّا أَنْ تَرْعُمُوا أَنْى أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُظَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِضَلَالَى، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطِيئِي، وَتُكْفِرُونَهُمْ نَبْدُنُوبِي! سَيُؤْفِكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضْمُونَهَا مَوَاضِعَ الثُّبْرِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلُطُونَ مَنْ أَدْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ؛ وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ. وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ؛ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعَهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ» .

الشرح والتفسير

هذا المقطع من الخطبة ناظر إلى الردّ على شبهات الخوارج التي لحقت بهم بفعل جهلهم وتعصبهم وتقليدهم الأعمى، فهم يعتقدون بكفر من ارتكب الكبيرة، والكافر يجب قتله، فقد صنعوا لأنفسهم صغرى وكبرى وعلى أساسهما أجازوا لأنفسهم قتل أى فرد من أصحاب على عليه السلام أينما وجدوهم، ومن هنا حمل هؤلاء الضالون المتعطشون لدماء الأبرياء سيوفهم على عواتقهم ليسفكوا دماء من شاءوا من الأبرياء فى مختلف مناطق البلاد الإسلامية، فأتوا بالأفعال الشنيعة التي يندى لها جبين التاريخ، نعم لقد ابتكروا لأنفسهم صغرى وكبرى وقالوا: إن علينا عليه السلام قبل تحكيم الأفراد فى مقابل القرآن، وعليه فقد ارتكب الذنب، وكل من ارتكب الذنب فهو كافر، واتباع على عليه السلام كذلك فهم كفره، والكافر يجب قتله وقد رد الإمام على عليه السلام

بالعبارة المذكورة على خطأهم ليطم الحجج عليهم، فلو فرض (وفرض المحال ليس بمحال) أنه ضل فما الذى يدعو إلى الحكم بضلاله كإمه محمد صلى الله عليه وآله بضلاله: «فَإِنْ أَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُظَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِضَلَالِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطِيئِي، وَتُكْفِرُونَهُمْ نَبْدُنُوبِي!». .

ثم واصل كلامه بالقول: «سَيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ (1) تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّتْمِ، وَتَخْلُطُونَ مِنْ أَدْنَبٍ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبِ» .

فهذا العبارات تتضمن إشاره إلى عدّه أجوبه: الأول بطلان التصور القائم على أنى أخطأت وضللت، فأولاً: أنى قبلت التحكيم بفعل ضغوطكم، وثانياً: لو تمّ التحكيم بصوره صحيحه لكان مطابقاً للقرآن، فالواقع أنّ الحكم هو القرآن، ومن ينهض بالتحكيم إنّما يرجع إلى القرآن ويستنبط منه حكم الله سبحانه، فيطبق الكليات على مصاديقها، كما مرّ ذلك فى الخطب السابقه، وعليه فليس هنالك من عمل مخالف حكم الله حتى يؤدّى إلى الخطأ والضلاله، ثالثاً: على فرض أنى إرتكبت خلافاً فما معنى حمل ذلك على سائر المسلمين؟ لم تكفرونهم وتريقون دماء الأبرياء؟ أى قانون هذا الذى تتمسكون به؟ وبأى شرع تؤمنون؟

ثم إتجه الإمام عليه السلام صوب خطأهم الأصلي المتمثل بقولهم كل مذنب كافر، فردّ عليهم ردّاً قاطعاً فقال: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَثَهُ أَهْلُهُ؛ وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلُهُ. وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ، ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ؛ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ» .

فقد أراد الإمام عليه السلام عدّه شواهد من سنّه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله تؤكد وضوح خطأ الخوارج، الأول أنّ النبى صلى الله عليه وآله كان يعدم الزانى والقاتل، ثم يصلى عليهما ويورث أهلهما، لو كفر هؤلاء بارتكابهم الزنا وقتل النفس لما وجب توريث أهلهم لهم حسب عقيدتكم، لأنّ المسلم لا يرث الكفار، (هذه عقيدته أغلب فقهاء العامه)، كما حدّ رسول الله صلى الله عليه وآله سائر المذنبين كالسارق

ص: ٢٠٦

(١ - ١) «عواتق»: جمع «عائق» قسم من الجسم يقع بين الرقبه والكتف.

والزاني غير المحصن، فقطع يد الأول وجلد الثاني، لكنهم بقوا في صفوف المسلمين فأجازهم جميع الأحكام الإسلامية كالزواج من المسلمات وأخذهم سهمهم من بيت المال، والحال لا تجرى عليه أى من هذه الأحكام إن كفر بارتكاب الكبيرة.

تأملات

١ - الخوارج وتكفير أهل الذنوب

يستفاد من هذه الخطبه أنّ الخوارج يعتقدون بأنّ ارتكاب الكبيرة يوجب الخروج من دين الإسلام، بناءً على هذا فمن ارتكب الكبيرة وكان قبل ذلك مسلماً فهو مرتد يجب إعدامه، وقد استدلل هؤلاء الجهال بظاهر بعض آيات القرآن التي لم يدركوا مفهومها، ومن ذلك الآية الشريفة ٩٧ من سورة آل عمران بشأن تارك الحج والتي تقول: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» ، والآية ٤٤ من المائدة: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» ، والآية ٢٣ من سورة الجن التي تحدثت عن المذنبين جمعاء: «وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا» .

فقد أطلقت هذه الآيات على بعض المذنبين كلمه الكفر أحياناً، وأحياناً أخرى الخلود في جهنم الذي يختص بالكفار، وقد غفلوا عن أنّ مفردة الكفر في اللغة واصطلاح الشرع لا تعنى على الدوام الخروج من الإسلام، بل الكفر درجات ومراحل: فقد يكون بمعنى ارتكاب الذنب، ويكون أحياناً أخرى بمعنى إنكار الله والعقائد الدينيه، وبعبارة أخرى الكفر بمعنى مجانبه الحق أو ستره وهو على مراحل ودرجات، ولكل أحكامه الخاصه، كما للإيمان درجات، لكل منها أحكامه الخاصه، فقد ذكر الإمام الصادق عليه السلام في الروايه المعروفه في اصول الكافي خمس معاني للكفر الوارد في القرآن، أحدهما: أنّ الكفر بمعنى ترك أوامر الله والعصيان، ثم يورد الإمام شواهد من القرآن الكريم على هذه المعاني الخمسه (١).

ص: ٢٠٧

١-١) أصول الكافي ٢/٣٨٩، باب وجوه الكفر، ح ١.

وأوضح دليل على بطلان هذه العقيدة ما أورده أمير المؤمنين على عليه السلام في هذه الخطبة من كثره عدد المذنبين في عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والذين كان يقيم عليهم الحد، مع ذلك كان يجري عليهم كافة أحكام الإسلام، حتى وإن لم يتوبوا من قبيل إقامه صلاه الميت والدفن في مقابر المسلمين وأحكام الارث، ومن كان حياً بعد إقامه الحد؛ أجرى عليه سائر الأحكام كأخذه لسهمه من بيت المال والزواج من المسلمات وأمثال ذلك، هذه هي سيره رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تواصلت في العهود اللاحقه حتى عصرنا الحاضر بين جميع مسلمى العالم والتي تدل على أن مرتكب الكبيره ليس بكافر بمعنى خروجه من الإسلام قط، وليس فقط لا يراق دمه فحسب، بل هناك ديّه على أدنى جرح يعرّض له.

٢ - جانب من جنایات الخوارج

إنّ أدنى مطالعه لجانب من التاريخ المظلم للخوارج تكفى لأن نقف على مدى فضاعه الفئه التي وقفت بوجه أمير المؤمنين على عليه السلام، والأسباب التي عاقت برامجه عليه السلام في النهوض بالأمه، فليست هنالك فئه تشبه الخوارج شهدها التاريخ، فهى فئه متعصبه عاشت جميع التناقضات ويسفكون الدماء بكل بساطه ولا يرحمون كبيراً ولا صغيراً حتى الجنين فى بطن أمه، كما وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبه حيث وضعوا سيوفهم على عواتقهم فيريقون دم من يريدون، ولم يأمن أحد فى منطلق حكومتهم التي لم تدم طويلاً لحسن الحظ، وكأنّهم يرون أنفسهم المالكين والناس عبيد فلهم أن يفعلوا بهم ما يشاؤون من قتل وتعذيب وتشريد.

قال ابن أبي الحديد فى شرحه لنهج البلاغه: حين مضى الخوارج إلى النهروان أصابوا فى طريقهم مسلماً ونصرانياً، فقتلوا المسلم لأنه عندهم كافر، إذ كان على خلاف معتقدهم، واستوصوا بالنصراني، قالوا: احفظوا ذمّه نبيكم، ونحو ذلك أنّ واصل بن عطاء (وهو من مشاهير علماء عصره) أقبل فى رفته فأحسوا بالخوارج، فقال واصل لأهل الرفقه: إنّ هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعوني وإيّاهم، فقالوا: شأنك، فخرج إليهم، فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ فقال: قوم مشركون مستجرون بكم، ليسمعوا كلام الله، ويفهموا حدوده، قالوا:

قد أجرناكم، قال واصل: فعلمونا، فجعلوا يعلمونهم أحكامهم، ويقول واصل: قد قبلت أنا ومن معي، قالوا: فمضوا مصاحبين فقد صرتم إخواننا.

فقال: بل تبلغونا مأمنا لأن الله تعالى يقول: «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ» (١).

فنظر بعضهم إلى بعض، ثم قالوا: ذاك لكم، فساورا معهم بجمعهم حتى أبلغهم المأمن (٢).

ومعروفه هي قصة قتلهم صحابي النبي صلى الله عليه وآله المعروف: عبدالله بن خباب وقتلهم لإمرأته وهي حامل، وقد عرضنا لشرح ذلك سابقاً، وهذا غيض من فيض جرائم الخوارج، هذا في الوقت الذي إذا قتل أحدهم خنزيراً، واعترضوا عليه على وأن ذلك فساد في الأرض وأنكروا قتل الخنزير (٣)، يبدو أنّ الجهل والتعصب والعجب هي العوامل الأصلية لظهور هذه الفئه السفاهة التي لا تتورع عن ارتكاب أيه جريمة وجنايه، أو ليس جزاء هؤلاء تلك الحملات المتتاليه التي شنها عليهم جيش الإمام على عليه السلام بعد إتمام الحجّه وتوبه المخدوعين منهم، لكي لا تبقى لهم من باقيه، كما حدث في النهروان؟!

٣ - الردّ على سؤال

تصدى الإمام عليه السلام في الخطبه المذكوره للردّ على الخوارج الذين يقولون بكفر من ارتكب الكبيره، في أنّ ذلك خلاف سيره رسول الله صلى الله عليه وآله في إقامته للحدود على مرتكبي الكبائر، وفي الموارد التي تتطلب إعدام صاحبها من قبيل قصاص القاتل، فقد كان يحكمم بقتلهم ويورثهم أهلهم من المسلمين.

هذا في الوقت الذي نعتقد فيه على ضوء مذهبنا بأنّ المسلم لا يرث الكفار وعليه فان إيصال إرثهم إلى وارثهم المسلمين ليس دليلاً على نفى كفرهم، وللإجابة على هذا السؤال لا بدّ

ص: ٢٠٩

١- ١) سورة التوبه / ٦. [١]

٢- ٢) سرح ابن أبي الحديد ٢/٢٧٩ - ٢٨١. [٢]

٣- ٣) انظر نفحات الولاية ٢/٣٧٧. [٣]

من القول بأنّ الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام طبق مذهب أغلب العامّة والخوارج الذين يعتقدون بعدم إرث الكافر للمسلم ولا المسلم من الكافر، وبناءً على هذا فقد استدلّ على ضوء مسلمات مذهبهم، أمّا مذهب أهل البيت عليهم السلام الكافر لا يرث المسلم بينما يرث المسلم الكافر، للرواية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام: «إِنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَزِدِ الْمُسْلِمَ إِلَّا عِزًّا فِي حَقِّهِ» (١).

ص: ٢١٠

١-١) وسائل الشيعة ١٧/٣٧٧. [١]

«ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ! وَسَيَهْلِكُ فِي صِنْفَانٍ: مُحِبُّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِي حَالِ الْنَمَطِ الْأَوْسَطِ فَالزُّمُوهُ، وَالزُّمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ!»

فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذُّبِّ. أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشُّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ» .

الشرح والتفسير

أوضح الإمام عليه السلام جهراً في ما مضى من كلام الخطبه بطلان عقيدته الخوارج في تكفير المسلمين، وقد حدّثهم بمنتهى المرونه حسبما يقتضيه البحث المنطقي، أما في هذا القسم (القسم الثاني) فقد عنّفهم في الكلام ليحدّ من غرورهم ويعرضهم بمكائنتهم بين المسلمين على أنّهم شر الناس وأغراض الشيطان الذي أضلهم وأوردتهم الحيره، وأفضل شاهد على ذلك أفكارهم الشيطانيه وأعمالهم العدوانيه ضد البشريه: «ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ!» .

حقاً ليس هناك من فئه في أوساط المسلمين شر من الخوارج، فهم مصداق الآيه الشريفه: «اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ» (١).

ص: ٢١١

وهم مصداق واضح للآية: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» (١).

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه أخرى وهي أنّ الإفراط والتفريط شيمه الأفراد الجاهل، فمنهم من ألهنى ومنهم من كفرنى، فقال عليه السلام: «وَسَيَهْلِكُ فِي صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ» .

فإن دفعكم جهلكم وجنايتكم لأن تعتبرونى كافراً، فإنّ هناك من ذهب إلى عكس ذلك - وبدافع الجهل أيضاً - ليقولوا بالوهيتى، والفتتان ضالتان، والطريف فى الأمر إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر الإمام عليه السلام منذ سنوات بهذا الإفراط والتفريط تجاهه، فقد روى ابن عبدالمالكى فى كتاب «الاستيعاب» أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خاطب علياً عليه السلام بالقول: «لَا يُحِبُّكَ إِلَّا الْمُؤْمِنُ وَلَا يُبْغِضُكَ إِلَّا الْمُنَافِقُ... وَيَهْلِكُ فِيكَ رَجُلَانِ مُحِبٌّ مُفْرِطٌ وَكَذَّابٌ مُفْتَرٍ... وَتَفْتَرِقُ فِيكَ أُمَّتِي كَمَا افْتَرَقَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي عِيسَى» (٢). (الحديث إشاره إلى أنّ طائفه من بنى غ اسرائيل آمنت واعتقدت بالوهيته وطائفه لم تؤمن وراته ابن الله والعياذ باللله).

وروى المرحوم السيد محسن الأمين فى «أعيان الشيعة» عن «مسند أحمد» و «صحيح الترمذى» و «الاستيعاب» لابن عبد البر و «مستدرک الحاكم» أنّ المعروف بين الصحابه بغض على عليه السلام علامه النفاق والذى يميزه عن المؤمن الصادق.

ثم أضاف والثابت تاريخياً أنّ معاويه كان يسب علياً عليه السلام ويدعو الناس إلى سبه (وعليه فمعاويه كان من المنافقين) (٣).

على كل حال فالجهال دائماً على الإفراط والتفريط، الغلو أو العداوه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وبالتأكيد على حفظ الاعتدال فقال: «وَخَيْرُ النَّاسِ فِي حَالِ النَّمَطِ الْأَوْسَطِ فَالزَّمُوهُ» .

ص: ٢١٢

١-١) سورة الكهف / ١٠٣ - ١٠٤. [١]

٢-٢) الاستيعاب ٣/٣٦. [٢]

٣-٣) شرح نهج البلاغه لمغنيه ٢/٢٤٧، [٣] كما وردت فى كتاب الغدير عدّه روايات من المصادر المعتره للعامه بخصوص معرفه المؤمن يحبّ على عليه السلام والمنافق ببغضه (الغدير ٣/١٨٣) .

فقد ورد عنه عليه السلام أنه قال: «أَلَا إِنَّ خَيْرَ شَيْعَتِي النَّمَطُ (١) الأَوْسَطُ إِلَيْهِمْ يَرْجِعُ الْغَالِي وَبِهِمْ يَلْحَقُ التَّالِي» (٢).

ثم أصدر أمراً مهماً كانت مخالفته السبب في سقوط الخوارج في وادي الضلال فقال: «وَالزُّمُوا السَّوَادَ (٣) الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ». كما بالغ في هذا التأكيد ليقول: «وَأَيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ! فَإِنَّ الشَّاذَّ (٤) مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذُّئْبِ».

فالجماعه المؤمنه غالباً من تنطلق في مسار الحق، فان ضلت طائفه منهم ذكرتها طائفه أخرى وانقذتها من وادي الضلال، أما الأفراد الشاذون والفئات الصغيره والمعزوله عن المجتمع الإسلامى فهى عرضة لأنواع الأخطاء والانحرافات والشيطان غالباً من ما يشدد من وساوسه بينهم فهم لقمه سائغه للشيطان على غرار الشاذه من الغنم، فتكون لقمه سائغه للذئب، ثم أورد فى وصيته فى الخصوص تقضى بقتل كل من رفع شعار لا حكم إلا لله ودعى إليه الناس وإن لاذ بالإمام عليه السلام واختفى تحت عمامته: «أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشَّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ».

وهكذا أصدر حكمه النهائى بشأن هذه الفئة الفاسده والمفسده والقاسيه المتعطشه للدماء والذى لا يشكلون سوى الخطر الجدى على الإسلام والمسلمين، أما ما هو مراد الإمام عليه السلام من مفرد «الشعار» التى وردت فى العبارة المذكوره فقد اختلفت فيه أقوال شراح نهج البلاغه فقول: المراد بالشعار التفرقه، قيل يعنى شعار الخوارج، وكان شعارهم أنهم يحلقون وسط رؤوسهم ويبقى الشعر مستديراً حوله كالإكليل (٥)، وقيل هو الشعار الذى يعد شعار الخوارج أينما حلوا وقد إرتكبوا بواسطته ما لا يحصى من الفتن والمفاسد وأشعلوا بالنيران المجتمع

ص: ٢١٣

١- ١) «النمط»: هو الطائفة من الناس التى لها هدف واحد، كما تستعمل هذه المفردة أحياناً بمعنى الأسلوب والطريق.

٢- ٢) بحار الانوار ٦/١٧٨. [١]

٣- ٣) «السواد»: تعنى فى الأصل اللون الأسود، ولما كانت الجماعه الكثيره والأشجار المتشابهه والكثيره تبدو سواء من بعيد فقد وردت هذه المفردة بهذين المعنيين، وقد جاءت فى هذه الخطبه بمعنى الجماعه.

٤- ٤) «شاذ»: من ماده «شذوذ» بمعنى القله والندره ويطلق الشاذ على من يتخلف عن الجماعه وينفرد لوحده.

٥- ٥) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٨/١٢٣. [٢]

الإسلامي، والواقع قد مهدوا بهذا الشعار أسباب الفرقة، والقتال وسفك الدماء والفساد في الأرض، ومن هنا فقد حكم بالإعدام على حمله هذا الشعار.

كما وردت عدّه تفاسير للعبارة: «لَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ»، أنسبها ما ذكرناه سابقاً، وهو وإن اعتصم هؤلاء الأفراد الفاسدين بي ولاذوا بداري وكانوا تحت ثيابي.

تأملات

١ - الحذر من الإفراط والتفريط

من بين المسائل التي أكد عليها الإمام عليه السلام في هذه الخطبة ضلاله وهلاك الفئة المفرطة والمفرطة، وقد ظهرت هاتان الفئتان بصوره جليه بشأن الإمام عليه السلام في أوساط المجتمع الإسلامي، الفئة التي تصوّرت الإمام عليه السلام هو الله والتي عاشت على عهده عليه السلام وقد تلقت أشد العقاب من الإمام عليه السلام، والفئة الأخرى التي تراه - نعوذ بالله - كافراً، وقد عوقبت هذه الفئة أشد العقاب أيضاً، فالإفراط والتفريط مذموم في كل شيء ومصدر البؤس والشقاء، ولا يقتصر ذلك على القضايا العقائديه، بل يتجاوزه ليشمل الحياه المتواضعه، وعاده ما يستند هذا الإفراط والتفريط إلى الجهل والعصبيه، فهناك طائفه انحرفت عن الإسلام وشذت عن إتباع منهج أهل البيت عليهم السلام، فهبطت بالله إلى منزله متسافله لتراه كالجسمانيات فصوّرتة كفتى أمرد وشعر مجعد وما إلى ذلك من صفات الأجسام، بينما رفعتة فئه أخرى عن فكر البشر، لتقول باستحاله معرفه ذاته لدينا، وأبعد من ذلك بأننا لا نعلم شيئاً من صفاته، وبعبارة أخرى قال بتعطيل معرفه الله، فئه سلكت طريق الإفراط فقالت: بالتفويض، وأخرى سلكت سبيل التفريط فقالت: بالجبر، أمّا أئمة الهدى عليهم السلام فقد وصفوا أنفسهم بأنهم «النمرقه الوسطى» أي الفئة المعتدله البعيده عن الإفراط والتفريط، والتي ينبغي أن يعود إليها المتطرفون ويلحق به المغالون: «نَحْنُ النُّمْرَقَةُ الوُسْطَى بِهَا يَلْحَقُ التَّالِي وَإِلَيْهَا يَوْجَعُ الْغَالِي» (١).

ص: ٢١٤

(١-١) نهج البلاغه، [١] الكلمات القصار، ١٠٩.

ورد التأكيد في الخطبه المذكوره على مرافقه ومسايره السواد الأعظم، أى جماعه المسلمين والابتعاد عن كافه أشكال العزله والتفرد، فقال عليه السلام صراحه: «يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ»، فالجماعه الإسلاميه كانت قويه ومقتدره ذات شوكة كما كانت متحده ومتفقه، بينما عاشت الذل والهوان والضعف كلما سادها النفاق والشقاق، فمقاطعه الجماعه الإسلاميه وبعبارة أخرى الانعزال الاجتماعى يشكل أحد الانحرافات والفكرية والعقائديه، والأفراد الانعزاليون عاده كما يعيشون خيال العجب بالنفس فيظنون أنهم أفضل من غيرهم وعلى الآخرين أن يعظموهم، وحيث لا يرون ذلك فى الناس تشتعل فى قلوبهم نيران العداوه والبغضاء وسوء الظن، الأمر الذى يجعلهم يهمون أحياناً بالتأثر وقتل الأبرياء والإساءه إلى المثل الاجتماعيه، وأحياناً أخرى يدعى النبوه أو الإمام أو نياحه الإمام لمهدى عليه السلام فيصبح مصدرأ لكل شقاق وفرقه ونفاق، ومن هنا نقف على عمق عبارته الإمام فى قوله: «فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْعُنَمِ لِلذُّبِّ». طبعاً المراد من مسايره الجماعه بمعنى الأكثرية الموصوفه بالإيمان والقيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية، وإلا فالإسلام لا يوصى بمسايره الأكثرية الفاسده، قال عليه السلام فى موضوع آخر: «لا تَسِيْرُ تَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلْبِهِ أَهْلِهِ» (١). واما الذم الذى أورده القرآن الكريم على لسان عدّه آيات بشأن الأكثرية إذا كان المراد بها الأكثرية الفاسده والمفسده: «قُلْ لَيْسَ تَوَى الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٢).

٣ - شرار الخلق

وصف الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه الخوارج بصفتها شرار الناس، فهذا الكلام ليس مبالغه، فالحق أن الخوارج شرف فئه ظهرت فى أوساط المسلمين، ليس فقط لتكفيرهم أشرف مؤمن

ص: ٢١٥

(١-١) نهج البلاغه، الخطبه ٢٠١. [١]

(٢-٢) سورة المائده / ١٠٨. [٢]

بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أى على عليه السلام الذى سقى شجره الإسلام بدمائه الزكية فاستقام عودها وكثفت أغصانها، وليس لحملهم سيوفهم على عواتقهم وسفكهم لدماء الأبرياء، بل لأنهم أسسوا لأنفسهم بالتدريج مدرسه منحرفه من حيث العقائد، كما ابتعدت عن أحكام الإسلام والقرآن السنّه، ففي جانب عقائدهم وردت عدّه أبحاث فى كتب الملل والنحل تصوّر مدى اختلافها وتضاربها، ولعل ذلك بسبب اختلاف فروعهم، مع ذلك فقد ذكر المؤرخ المعروف المسعودى اشتراك الخوارج فى ما يلى:

١ - تكفير عثمان وعلى عليه السلام (والعياذ بالله)

٢ - وجوب القيام ضد الإمام الجائر.

٣ - كفر من ارتكب الكبيره (وجوب قتله).

٤ - أنهم بريئون من الحكمين (أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص).

٥ - كفر معاويه وأتباعه وأتباعه.

لكنهم يختلفون فى بعض المسائل كالتوحيد والوعد والوعيد فى القيامه والإمامه (١).

وعدّ البعض الآخر من جملة عقائدهم المشتركة وجوب انتخاب الأئمه للخليفه سواء كان من قريش أم من غيرها، والأخرى قبولهم الخلفاء الأربعة (وإن عزلوا عثمان وعلى عليه السلام)، وكذلك شدّه مخالفتهم لكافه خلفاء بنى الأميه وبنى العباس، خاصّه أنهم يسبون بنى أميه (٢).

وأما الأباضية الذين ينتشرون اليوم فى عمان ومراكش وليبيا والجزائر وتونس ومصر والذين يعدّون أحياناً من الخوارج، فهناك فارق كبير لعقائدهم مع عقائد الخوارج، وإن اشتركوا معهم فى مخالفه التحكيم فى صفين وعدم اشتراط وصف القريشى فى إمام المسلمين.

ولعل عقائد الأباضية تشبه كثيراً عقائد الشيعة مثل:

١ - صفات الله ليست زائده على ذاته.

٢ - استحاله رؤيه الله فى الآخرة.

٣ - القرآن حادث لا قديم.

ص: ٢١٤

٢-٢) قاموس دهخدا، ذيل مفرده الخوارج.

٤ - مرتكب الكبيره كافر بالنعمة لا كافر ملى (يعنى مثل هذا الفرد مسلم وليس خارجاً عن الإسلام).

٥ - وجوب موالاه أولياء الله والبراءه من أعدائه.

وروى بعض أنهم يقولون بوجوب حبّ الخليفه الأول والثانى وبغض عثمان وعلى عليه السلام إلّا أنّ الأباضية فى هذا الزمان ينكرون ذلك (١).

ص: ٢١٧

١- ١) الملل والنحل لآيه الله السبحانى ٥/٢٤٢ و ٢٤٩.

«فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَ إِن لِّحَيِّ يَا مَيَّا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمَيِّتَا مَيَّا أَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَإِحْيَاؤُهُ الْاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الْإِفْتِرَاقُ عَنْهُ. فَإِنْ جَرَّ نَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِمْ أَتْبَعْنَا هُمْ، وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا أَتَّبَعُونَا. فَلَمْ آتِ - لَأَبَا لَكُمْ - بُجْرًا، وَلَا خَتَلْتُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلَا لَبَسْتُمْ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلِكِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يَتَّعِدَا الْقُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَمَا الْحَقَّ وَهَمَّيَا يُبْصِرَ رَأْيَهُ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا - فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ - سُوءَ رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا» .

الشرح والتفسير

عاد الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه والذي يمثل آخرها إلى الأدله المنطقيه ليكشف بالبراهين القاطعه خطأ الخوارج. توضيح ذلك أنّ الخوارج حين رأوا النتيجة المريره لقضيه التحكيم التي خدع فيها الماكر عمرو بن العاص أبى موسى الأشعري الساذج وقد حسم التحكيم لصالح معاويه، ارتفعت أصواتهم ليقولوا لم قبلنا التحكيم، ولماذا قبل على عليه السلام التحكيم، رغم أنّهم يعلمون:

أولاً: أنّ التحكيم فرض على على عليه السلام.

ثانياً: أنّ الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بأبى موسى الأشعري ممثلاً عنه في التحكيم، بل كان رأيه أن يلعب ابن عباس ذلك الرجل العالم دور التحكيم، رغم ذلك أصر أولئك الجهال وفرضوا عليه أبى موسى الأشعري، وقد خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه فى جواب

آخر على أن تحكيم الحكيم كان مشروطاً بأن يتم على ضوء القرآن لا على أساس الأهواء النفسية والعقد الشخصية، فلم يعملوا بهذا الشرط وهذا ذنبهم لا ذنب الإمام عليه السلام فقال: «فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَ مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمِيتَ مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ» .

جدير بالذكر إنه ورد نفس هذا المطلب الذي أشار إليه الإمام عليه السلام في متن العهد الذي أشرنا إليه سابقاً: « وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بَيْنَنَا مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ نُحْيِي مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ وَنُمِيتُ مَا أَمَاتَ » .

ثم أضاف قائلاً: «وَإِحْيَاؤُهُ الْإِجْتِمَاعَ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الْإِفْتِرَاقُ عَنْهُ» ، ووضح هذه العبارة من خلال التأكيد على مضمونها بالقول: «فَإِنْ جَرَّرْنَا الْقُرْآنَ إِلَيْهِمْ اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّوهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا» .

فهذا الكلام منطقي يدركه من كان له أدنى فكر وشعور، لكن كأن الخوارج لم يتمتعوا حتى بهذه النعمة الإلهية، ثم بين الإمام عليه السلام هذا المطلب بتعبير أوضح بحيث يبدو وكأنه اشتراط غضباً من جهلهم وكلامهم الذي يفتقر إلى المنطق فقال: «فَلَمْ آتِ - لِأَيِّكُمْ - بُجْرًا (١)، وَلَا - خَتَلْتُمْ (٢) عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلَا - لَبَسْتُمْ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيٌ مَلِكُكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ» ، لكنهم فقدوا عقلهم «إيمانهم» وتركوا الحق وهم يرونه بأعينهم، كما كان الظلم والجور يديهما وهما فاتخذوا سبيلاً وقد كنا اشترطنا عليهما قبل أن يحكما بذلك الحكم الظالم أن يستندا إلى العدل ولا يهملوا الحق: «فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَمَا الْحَقَّ وَهَمَّأَ يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا - فِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمْدِ (٣) لِلْحَقِّ - سُوءَ (٤) رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا» .

فالواقع أن زبده الكلام الإمام عليه السلام هي:

أولاً: إنَّ انتخاب الحكيم كان على أساس ضغطكم وإصراركم على هذا الأمر، فان كان

ص: ٢٢٠

١- (١) «بجر»: بضم الباء الشر والأمر العظيم، كما ورد بمعنى اتساع البطن وملأها.

٢- (٢) «ختلت»: من ماده «ختل» على وزن قتل بمعنى المكر والخداع.

٣- (٣) «الصمد»: بمعنى المكان المرتفع، كما يرد بمعنى القصد وعدم الاعتماد وهذا هو المعنى المراد في العبارة.

٤- (٤) «سوء»: مفتوح مفعول سبق الذي ورد في أول العبارة ومفهوم الجملة قبل أن يبدى هؤلاء الرأى الظالم والفاقد قد اشترطنا عليهم إننا سوف لن نقبل رأيهم إن حاد عن الحق.

خلافاً فهو خلاف منكم لا منى.

وثانياً: إننا اشترطنا عليهم الحكم على ضوء الآيات القرآنية، لكنهم آثروا هوى أنفسهم وانحرفوا عن السبيل البين الذى هديناهم إليه، وعليه فإن كان هناك من خلاف فقد بدر منهما لا منى (١).

ولكن طبيعة الأفراد الجهّال والمتعصبين حين يرتكبون مخالفه ويبتلون بسوء عواقبها شرعان ما يغرونها إلى الآخرين ويحملونها مسؤوليه أخطأهم وهذا أخس الأساليب، والحال يقتضى العقل والانصاف والإيمان الاعتراف بالذنب فى مثل هذه الموارد والاعتذار منها ومن ثم التفكير فى تدراكها.

تأمل

دروس التحكيم

كثير هو الكلام بشأن قضيه التحكيم وهى تنطوى على الدروس والعبر التى نقلتها التواريخ والسير ومنها: أن عمرو بن العاص اشترط على معاوية إن انتصر فى معركة أن يسلمه حكومه مصر، وقد وفى له معاوية بهذا الشرط وقد قدّم أكثر رشوه لعمرو بن العاص، ولم تمض مدّه حتى كتب معاوية لعمرو بن العاص أن إعطنى خراج مصر لهذا العام فبيت المال لا يسدّ حاجات أهل الحجاز والعراق، فرفض عمرو ذلك من خلال شعر بعثه لمعاوية، فلم يعد معاوية للحديث عن خراج مصر - أمّا كتابه الذى ضمنه فهو: مُعَاوِي حَطَّى لَا تَغْفَلِ

ص: ٢٢١

١-١) ورد شبه هذا المعنى مع إختلاف طفيف فى الخطبه ١٧٧.

وَأَثْبَتَهَا فِيكَ مَوْرُوثَةً تُبَوِّتُ الْخَوَاتِمَ فِي الْأَنْمَلِ
وَهَبْتَ لِغَيْرِي وَزَنَ الْجِبَالَ وَأَعْطَيْتَنِي زِنَةَ الْخَرَدَلِ
وَإِنَّ عَلَيَّ غَدًا خَصْمُنَا سَيَحْتَجُّ بِاللَّهِ وَالْمُرْسَلِ
وَمَا دَمَ عُثْمَانُ مُنْجٍ لَنَا فَلَيْسَ عَنِ الْحَقِّ مِنْ مَزْحَلٍ (١)

ص: ٢٢٢

(١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ١٠/٥٦ [١] بتصرف.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ عَنِ الْمَلَّاحِمِ بِالْبَصْرَةِ

نظره إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى عدّه أمور:

١ - فتنه صاحب الزنج وهم جماعه من العبيد بزعامه فرد أسمى نفسه على بن محمد العلوى وقد قاموا في زمان خلافه المهتدى العباسى، وقد سفكوا الكثير من الدماء.

٢ - إشاره إلى فتنه أخرى فسرها شراح نهج البلاغه بفتنه المغول والعجيب أنه أشار إلى أغلب صفاتهم هنا وفي القسم السابق.

٣ - بيان الإمام عليه السلام بشأن الغيب بعد أن سأله أحد الحاضرين إنك تعلم الغيب فتخبر عن المستقبل، كما أشار إلى الفرق بين العلم الذاتى والعلم الإكتسابى، وهو فى الحقيقه تفسير للآيات القرآنيه التى تنفى بعضها عن العباد علم الغيب بينما يثبتها البعض الآخر.

أمّا المرحوم ابن ميثم فقد إختتم الخطبه فى شرحه لنهج البلاغه بهذه العبارة «وناظرها

ص: ٢٢٣

١ - ١) سند الخطبه: جاء فى كتاب مصادر نهج البلاغه أنّ هذا الكلام جزء من خطبه طويله لإمام عليه السلام فى البصره بعد موقعه الجمل، وقد نقل المرحوم ابن ميثم البحرانى فى شرح نهج البلاغه أجزاء منها، والمخاطب هو الأحنف بن قيس من أشرف قومه والمعروف بحكمته وسابقته، وترتبط هذه الخطبه بالخطبه رقم ١١٠ التى شرحت سابقاً (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٨٨). [١]

بعينها» واعتبر بقيه الخطبه، خطبه أخرى، وهذا ما نهجه أيضاً المرحوم الخوئي وابن أبي الحديد، فقد قسموا الخطبه إلى قسمين واعتبروا كل قسم خطبه منفصله، بينما اعتبرهما المرحوم مغنيه في شرحه كصباحي الصالح خطبه واحده.

ص: ٢٢٤

«يَا أُحْنَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ عُبَارٌ وَلَا لَجِبٌ، وَلَا قَعْقَعَهُ لُجْمٌ، وَلَا حَمْحَمَهُ خَيْلٌ. يُثِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ. (قَالَ الشَّرِيفُ: يَوْمِي بِذَلِكَ إِلَى صَاحِبِ الزَّنَجِ) ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيَلُّ لِسَتَكِكُكُمْ الْعَامِرَةَ، وَالذُّورِ الْمَزْخَرَفَةَ الَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ، وَخَرَاطِيمٌ كَخَرَاطِيمِ الْفَيْلَةِ، مِنْ أَوْلِيَّتِكَ الَّذِينَ لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفَقَدُ غَائِبُهُمْ. أَنَا كَاتِبُ الدُّنْيَا لَوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاطِرُهَا بِعَيْنِهَا» .

الشرح والتفسير

خاطب الإمام عليه السلام باديء الأمر الأحنف بن قيس (١) وهو من أشرف قبيلته، فقال: «يَا أُحْنَفُ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالْجَيْشِ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ عُبَارٌ وَلَا لَجِبٌ (٢)، وَلَا قَعْقَعَهُ لُجْمٌ (٣)، وَلَا حَمْحَمَهُ خَيْلٌ (٤). يُثِيرُونَ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ (٥)» .

ص: ٢٢٥

١-١) المراد بالأحنف بن قيس من أشرف البصره وأحد صحابه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله سأل الله له المغفرة، فكان يثق بدعائه رغم أنه رجل شريف وكريم، كما وجهه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى البصره لنشر الإسلام، شهد صفين في عسكر أمير المؤمنين على عليه السلام ولم يشهد الجمل بوصيته منه عليه السلام حيث قال: إن لم أشهد المعركة فلي أن أمنع عنك سته آلاف سيف فوافقه عليه السلام. سفينه البحار ماده حنف وأسد الغابه ١/٥٥، وشرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٢/٢٤٩. [١]

٢-٢) «لجب»: بمعنى الصياح وتطلق أحياناً على أصوات الخيل والمقاتلين.

٣-٣) «قعقعه»: الصوت الذي ينبعث من احتكاك الأشياء اليابسه كالجام الذي ورد في الخطبه.

٤-٤) «حمحمه»: بمعنى صوت الفرس التي لا تبلغ الصهيل المرتفع.

٥-٥) «نعام»: حويان المعروف.

والإمام عليه السلام لم يذكر إسمًا لزعيم الجيش، إلا أن القرائن الواردة في هذه العبارات وما بعدها تشير إلى أن المراد به صاحب الزنج الذى قام فى البصره عام ٢٥٥ هـ ق وجمع حوله العبيد وقد خلق هناك فتنه عظيمه سنعرض لتفاصيلها فى البحث القادم إن شاء الله.

والعبارة: «لَا يَكُونُ لَهُ عُبَارٌ» والعبارات القادمه تدلّ صراحه على أنّ جيش صاحب الزنج كان من المشاه، حيث لم يكن لهم من خيول ليركبوها، طائفه من العراه المستضعفين الذين ساءت أحوالهم فقاموا على الأسياد فارتكبوا الجرائم الفضيعة، والعبارة يثيرون الأرض بأقدامهم تدلّ على أنّهم كانوا حفاه وقد اتسعت أرجلهم بسبب المشى حفاه طيله أعمارهم لتصبح كرجل الناقه، مع ذلك كانوا مخفين فى السير والحركه، وحين وصل هنا المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه قال: (قَالَ الشَّرِيفُ: يُومئ بذلك إلى صاحب الزنج).

ثم قال عليه السلام: «وَيْلٌ لِّسَيِّئِكُمْ الْعِمَارِهِ، وَالذُّورِ الْمُزْخَرَفَةِ الَّتِي لَهَا أُجْنِحَةٌ كَأُجْنِحَةِ النُّسُورِ، وَخَرَاطِيمٌ كَخَرَاطِيمِ الْفِيلَةِ، مِنْ أَوْلِيكَ الَّذِينَ لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ» .

والذى يستفاد من هذه العبارة أنّ البصره كانت عامره (وإن عاش العبيد منتهى الشقاء والعسر) فقد كانت بيوتهم كالقصور مزوده بالشرفات والظلال الجميله وخراطيم المياه التى تزيدها روعه وجمالاً وكما سيأتى فإن كل ذلك قد تحطم إثر قيام صاحب الزنج وقد ضرج أصحاب القصور بدمائهم، والعبارة «لَا يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ، وَلَا يُفْقَدُ غَائِبُهُمْ» .

تشير إلى أنّ العبيد لم يكونوا ذوى زوجات وأولاد، بل كانوا عزاباً فلا ناديه لهم من الأقرباء ليبحثوا عنهم ويفقدونهم ويبكون عليهم، وهذه هى صفات العبيد فى ذلك الزمان حيث كانوا يجلبون إلى البلاد الإسلاميه وغير الإسلاميه بالقهر والغلبه من البلدان البعيده خاصه أفريقيا، وخلافاً للتعالم الإسلاميه فقد كانوا يعاملون كالحوانات، فكان قيام صالحب الزنج ردّ فعل تجاه المعامله غير الإسلاميه والإنسانيه، ثم قال آخر كلامه: «أَنَا كَابٌ (١) الدُّنْيَا لَوَجْهِهَا، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا، وَنَاطِرُهَا بِعَيْنِهَا» .

فهذه العبارات الثلاث إشاره إلى تفاهه متاع الدنيا لدى الإمام عليه السلام وكأنّ الدنيا موجود

ص: ٢٢٤

(١-١) «كاب»: من ماده «كب» على وزن خط تعنى فى الأصل طرح الشىء على وجهه فى الأرض.

حتى شريراً لا- قيمه له وقد كبه الإمام عليه السلام على وجهه وهو ينظر إليه بحقاره، وتشبه هذه العبارة ما ورد عن الإمام عليه السلام في قصار كلماته حيث قال: «يَا دُنْيَا يَا دُنْيَا، إِلَيْكَ عَنِّي أَبِي تَعَرَّضْتَ؟ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتَ؟ لَأَحَانَ حِينُكَ، هَيْهَاتَ! غُرِّي غَيْرِي، لَا حَاجَةَ لِي فِيكَ، قَدْ طَلَّقْتُكَ ثَلَاثًا لَا رَجْعَةَ فِيهَا!» (١).

ولعل شقاء أهل الدنيا المتكالبين عليها إنما يعود إلى تقييمهم الباطل للدنيا فهم يرونها بعين أخرى فيعظمونها ويركعون لها ويضحون بالغالي والنفيس من أجلها، أما ما هو الارتباط بين هذه العبارة والعبارات السابقة بشأن أخطار صاحب الزنج، فيبدو أنّ شراح نهج البلاغة لم يخوضوا في توضيح هذا الأمر، وربما كان الارتباط من خلال ذلك الظرف العصيب الذي أصاب أهل البصرة بسبب حبّ الدنيا، فقد شيّدوا القصور واهتموا بالدور وعاشوا الاسراف والتبذير في حياتهم، في حين عانى غالبية العبيد في مدنهم ومزارعهم الأمرين فسامهم الزوج أنواع العذاب.

تأمل: قيام صاحب الزنج

ظهر في البصرة عام ٢٥٥ هـ ق على عهد الخليفة العباسي المهدي رجل زعم أنّه على بن محمد ونسب نفسه إلى الإمام زين العابدين وزيد بن علي عليهما السلام وقد دعى العبيد للقيام ضد مالكيهم ولتّبوا دعوته مسرعين بسبب صعوبه معيشتهم في الدور والمزارع في خدمه السلاطين فاجتمع له مائه نفر وألف نفر، وقد وعدهم بعقبتهم وتسليمهم أموال مالكيهم ومزارعهم، وكانت الطبقيه شديده في ذلك الزمان، فالبعض مرفه في القصور كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذه الخطبه، والبعض الآخر يعيش الحياه الصعبه، لذلك إلتحق به جماعه من غير العبيد أيضاً، فاجتمع له جيش عظيم، لقد أشعل في قلوب العبيد والمحرومين نار

ص: ٢٢٧

الانتقام حتى أمر غلمانه بعد غلبته للأثرياء بأن يضرب كل رجل منهم خمسمائه شطبه وسبى نساءهم وكان يبيع كل واحده منهم بدرهمين أو ثلاث وملكهن العبيد.

قال المؤرخ المشهور المسعودى فى «مروج الذهب» أنّ صاحب الزنج قتل النساء والأطفال والشيخ الفانى والمريض وكان يحرق أموالهم وأدواتهم ويخرب بيوتهم، وقد قتل فى البصره ثلاثمائة ألف، ومن فرّ إلى الصحراء ونجى من القتل كان يأكل الكلاب والقطط والفئران، وأحياناً يأكلون الأموات، إستولى على قسم عظيم من العراق وإيران ودام حكمه مدّه تزيد على أربع عشره سنه (وهذا يدلّ على أنّ حركته لم تكن عابره بل كانت متجذره فى أعماق ذلك المجتمع).

وقد أو شكك صاحب الزنج أن يسقط الدوله العباسيه، فهب له أبو أحمد الملقب بالموفق وهو أخو الخليفه العباسى فقاتله بجيش كبير حتى تمكن من قتله فى شهر صفر عام ٢٧٠ هـ وفرق جيشه بعد معركة دمويه طويله، لقد ألفت عدّه كتب بشأن قيام صاحب الزنج فهو ليس بالأمر الهين الذى يمكن المرور عليه بسهولة، وذلك لأنّ جمع جيش يقارب عدده ثمانمائة ألف أو ثلاثمائة ألف آنذاك ليست بالشىء البسط وكذلك تلك المدّه من الحكم والتي تعتبر طويله نسبياً، وكل ذلك يشير إلى رسوخ ذلك القيام بفعل الاضطراب وغياب العدل والذى ساد آنذاك، وإن قاد هذا القيام إلى الكثير من المظالم والجنايات.

وهنا لابدّ من الإشارة إلى بعض الأمور:

١ - شبّه بعض الكتّاب قيام صاحب الزنج بثوره العبيد التي حدثت فى ايطاليا عام ٧٣ قبل الميلاد بزعامه اسبارتكوس الذى جمع حول فئه عظيمه من العبيد وقد قاتل الأثرياء والمرفهين وأحرز عدّه انتصارات حتى قتل عام ٧١ قبل الميلاد مع أربعين ألف من العبيد، لكن يبدو أنّ هناك بوناً شاسعاً بين قيامه وقيام صاحب الزنج، فقيام صاحب الزنج كان أوسع وأشمل وقد تمكن من تشكيل الحكومه آخر الأمر والتي حكمت قسماً كبيراً من العراق وايران لمدّه أربع عشره سنه، على كل حال فهو رجل دموى ومجرم رغم إمتلاكه للحجج التي تبدو منطقيه نسبياً من أجل قيامه وثورته.

٢ - كما ذكرنا سابقاً فإنّ صاحب الزنج أسمى نفسه على بن محمد ومن نسل الإمام السجاد عليه السلام، وتلقب بالعلوى، إلّا أنّ ذلك لا حقيقه له، ولم يكن هدفه سوى شرعيه حركته

والاستفاده من مكانه آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، ولذلك ورد عن الإمام الحسن العسكري أن قال: «صاحب الزنج ليس منا أهل البيت» (١)، وكما أوردنا فإن قيام صاحب الزنج كان أواخر عمر الإمام الحسن العسكري عليه السلام وتزامناً مع ولادته المباركة لإمام العصر والزمان المهدي عليه السلام.

٣ - كان ظاهر قيام صاحب الزنج وفتنته الدفاع عن العبيد والمحرومين، لكنّه انحرف عن هذا الهدف وتسبب في دمار عظيم وسفك للدماء، حتى قال المسعودي في «مروج الذهب» (٢) أنه قتل خمسمائة ألف من النساء والأطفال والشيوخ وهذا أقل عدد لقتلهم، وقال بعض المؤرخين أنه دخل البصره بعد عامين فأحرق مسجدها الجامع وكثير من البيوت، وأحرق حتى المواشى وجرت الدماء في أزقه البصره (٣).

٤ - رغم كل نقاط الضعف في صاحب الزنج فقد كانت فيه بعض الجوانب الإيجابية ومنها خطه الجميل وضلوعه بعلم النجوم وقد نقلت عنه بعض الأشعار التي تدلّ على ذوقه الشعري ومن أشعاره: لَهْفَ نَفْسِي عَلَى قُصُورِ بَغْدَا

ومن الشعر المنسوب إليه: وَإِنَّا لَتَصْبِحُ أَسْيَافُنَا

فهذان البيتان يكشفان بوضوح عن روحيته وأهدافه.

ص: ٢٢٩

١-١) بحار الانوار ١٩٧/٦٣. [١]

٢-٢) مروج الذهب ٤/١٢٠.

٣-٣) الكنى والألقاب ٢/٤٠٢.

منه فى وصف الأتراك

«كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْمًا «كَأَنَّ وُجُوهُهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ»، يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالذِّيَابَ، وَيَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ.
وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ قَتْلِ حَتَّى يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ، وَيَكُونُ الْمُفْلِتُ أَقْلًا مِنَ الْمَأْسُورِ!» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبه فى نبوءه عجيبه أخرى طبقها المرحوم السيد الرضى وتقريباً كاهه شراح نهج البلاغه على المغول وحملا-تهم الوحشيه الهدامة، ومن هنا قال المرحوم السيد الرضى: القسم الآخر من الخطبه فى وصف الأتراك (المغول) .

فقد قال الإمام عليه السلام: «كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْمًا «كَأَنَّ وُجُوهُهُمْ الْمَجَانُّ (١) الْمُطْرَقَةُ (٢)» .

وردت المفردة «كأنى» فى عدّه موارد من نبوءات أمير المؤمنين على عليه السلام، والمفردة أراهم إشاره إلى الشهود الباطنى والبصيره التى كانت ترى الحوادث المستقبلية عبر القرون فيخبر عنها بصوره دقيقه، وتشبيهه وجوههم بالدروع لأنّ وجوههم كانت عريضة وكبيره ووصفها

ص: ٢٣١

١- ١) «المجان»: جمع «مجن» ومجنه الترس.

٢- ٢) «المطرقه»: من ماده «طرق» على وزن برق بمعنى دق الشىء بالمطرقه أو مطلق الدق، وعليه فالمطرقه الشىء الذى دقّ بالمطرقه.

بالمطرقة يمكن أن يكون إشاره أن أغلب وجوههم كانت تشبه بالضبط موضع المطرقة على صفيحه الترس، ثم قال عليه السلام: «يَلْبَسُونَ السَّرَقَ (١) وَالذَّبِيحَ (٢)، وَيَعْتَقِبُونَ (٣) الْخَيْلَ الْعِتَاقَ (٤)» .

فالعباره تفيد أن هؤلاء وإن كانوا فقراء وجوعى أول أمرهم يرتدون الثياب الخشنه، إلا أنهم حين يستولون على البلدان الغنيه وسيطرون على أموالهم وثرواتهم يتجهون صوب الثياب الفاخره والخيول النفيسه، ويحتمل أن يكون المراد أن لهم رغبه شديده فى القتال، ومن المعروف أن لبس الحرير يمنح الإنسان قوه القلب ويجعله أكثر مقاومه للسياق، كما للخيول الخفيفه دور مهم فى ميدان القتال، وهذا ما يجعلهم يتجهون إلى هذه الأمور.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى أعمالهم وأشار بعبارات قصيره إلى أبعاد ما يرتكبونه من فاجعه فقال: «وَيَكُونُ هُنَاكَ اشْتِخَارًا (٥) قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ، وَيَكُونُ الْمُفْلِتُ (٦) أَقْلًا مِنَ الْمَأْسُورِ (٧)!». .

فالعبارتان تشيران إلى مدى سعه أبعاد الفاجعه، حيث لا يبقى فى الأرض مكان يسمح لعبور الجرحى، لا بد من وضع أقدامهم على أجساد القتلى، ومن لم يقتل يؤسر، وقليل هم الناجون، وإن أدنى مطالعه فى تاريخ المغول تفيد انطباق جميع هذه الأوصاف عليهم، قال ابن أبى الحديد: واعلم إن هذا الغيب الذى أخبر به على عليه السلام قد رأيناه نحن عياناً ووقع فى زماننا فقد فعل هؤلاء القوم ما لم تحتو التواريخ منذ خلق الله تعالى آدم إلى عصرنا هذا على مثله (٨).

وهنا يبرز هذا السؤال: ماذا كان قصد الإمام عليه السلام بالإخبار عن فتنه صاحب الزنج التى

ص: ٢٣٢

١- ١) «السرقه»: بمعنى الحرير الفاخر أو الحرير الأبيض، وقال أغلب أرباب اللغه أصلها فارسى أخذ من السرّه بمعنى الحسن والخالص.

٢- ٢) «الديباح»: بمعنى القماش الحريرى الملون، كما يستعمل أحياناً بمعنى كل قماش حسن النقش، وأصله فارسى أيضاً.

٣- ٣) «يعتقبون»: من ماده «اعتقاب» يحبسون كرائم الخيل ويمنعونها غيرهم.

٤- ٤) «اعتاق»: جمع «عتيق» بمعنى كل شىء حسن وقيم وتستعمل فى الخيل الأصيله.

٥- ٥) «استحرار»: من ماده «حراره» بمعنى الشده والحدّه.

٦- ٦) «المفلت»: من ماده «فلت» على وزن فرد بمعنى الهروب والفرار وتطلق مفرده المفلت على من ينجو من الشده.

٧- ٧) «المأسور»: بمعنى الأسير.

٨- ٨) شرح نهج البلاغه ابن أبى الحديد ٨/٢١٨. [١]

وقعت بعد مئتي سنه وفتنه المغول التي وقعت بعد ستمائه سنه؟ ربّما أراد الإمام عليه السلام أن يذكرهم بأنّ أعمالكم الطالحة هذه والتي تأتون بها في هذا العصر وقد وليتم ظهوركم للحق وأقبلتم على الباطل وضربتم أحكام الإسلام ووقعتم أسرى هوى أنفسكم، فإنّ تواصلت هذه الأعمال في أجيالكم القادمة ستشهدون عواقب وخيمه وسيطالكم العقاب الإلهي، كما يحتمل أن يكون الإمام عليه السلام أراد تحذيرهم من البلاء العظيم الذي ينتظرهم، عليكم أن تتحدوا وتركزوا قوتكم لتمكنوا من التقليل من آثاره المخربه.

فتنه المغول

المغول فرع من الترك الذين عاشوا في آسيا المركزيه والشرقيه في حدود الصين وهم طوائف مختلفه، طائفه منهم التاتار، وكانوا يأترون عادة بأوامر سلاطين الصين، وكان والد جنكيز أول من نهض من هذه الطائفه وإدعى الاستقلال، وحين خلف جنكيز أباه ٥٦٠٠ هـ سعى للسيطره على الأقوام المختلفه لتلك المنطقه حيث أراد الرئاسه العامه لنفسه واستولى على قسم واسع من الصين وسيطر على عاصمتها بكين.

أمّا السلطان محمود خوارزم شاه الذي كان يحكم أكثر الشرط الأوسط وآسيا المركزيه، فقد عقد الهدنه باديء الأمر مع جنكيز، ولكن لم تمض مدّه حتى نشبت بينهما عداوه فقتل رسل جنكيز، فما كان من جنكيز وبدافع الانتقام إلّا أن هجم على ايران وسائر المناطق الخاضعه لنفوذ خوارزمشاه.

أمّا ابن أبي الحديد الذي عاش في ذلك الزمان وقد شهد تلك الأحداث حسب قوله كما سمع بعضها الآخر، فقد أفرد ٢٥ صفحه في شرحه لنهج البلاغه وتطرق فيها بالتفصيل إلى حملة المغول على المناطق الإسلاميه وقال: واعلم أنّ هذا الغيب الذي أخبر به الإمام عليه السلام قد رأيناه نحن عياناً، ووقع في زماننا، وإليك الآن جانب ممّا أورده ابن أبي الحديد بهذا الشأن:

هم التاتار الذين خرجوا من أقاصى المشرق حتى وردت خيلهم العراق والشام، وقد فعلوا بالقوقاز وبلاد ما رواء النهر وبخراسان وما والاها من بلاد ما لم تحتو التواريخ منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى عصرنا هذا على مثله، رئيسهم هو جنكيز الذي كان شجاعاً عاقلاً

موفقاً منصوراً في الحرب، كما كان عسكريه من الأفراد الشجعان وكانوا يعيشون بصورة شبه وحشيه وأنهم من أصبر الناس على القتال، لا يعرفون الفرار ويعلمون ما يحتاجون إلى من السلاح بأيديهم، وأن خيلهم لا تحتاج إلى الشعير، بل تأكل نبات الأرض وعروق المراعى، وأنّ عندهم من الخيل والبقر ما لا يحصى، وأنهم يأكلون الميتة والكلاب والخنزير وهم أصبر خلق الله سبحانه على الجوع والعطش والشقاء، وثيابهم أخشن الثياب مساً، ومنهم من يلبس جلود الكلاب والدواب والميتة، وأنهم أشبه شيء بالوحش والسباع، كانوا يقتلون كل من يرونه من الرجال ويغنمون الأموال ويحرقون المدن ويسبون النساء الأطفال، لقد دخلوا من شرق ايران وأشاعوا الخوف والرعب بحيث لم يفكر أحد في مواجهتهم، ومن قاومهم استسلم أخيراً لهم، وأحياناً كانت تفتح لهم أبواب المدن بعد أن يعطيهم التاتار الأمان حين يطلبونه، ولكنهم كانوا ينقضون عهدهم ويقتلون أهالي المدن ويسبون النساء والأطفال ويعذبون الناس بأنواع العذاب في طلب المال. . ومن العجيب في هذ الأحداث أنهم وصلوا إلى إصفهان بعد أن سيطروا على المدن الإيرانية، فحصلت بين الفريقين مقتله عظيمه، ولم يبلغوا منها غرضاً حتى اختلف أهل إصفهان في سنه ثلاث وثلاثين وستمائه وهم طائفتان: حنفيه وشافعيه، وبينهم حروب متصله وعصبيه ظاهره، فخرج قوم من أصحاب الشافعي إلى ما يجاروهم ويتأخموهم من ممالك التتار، فقالوا لهم: اقصدوا البلد حتى نسلمه إليكم، وفتحت أبواب المدينه فلما دخلوا البلد بدؤا بالشافعيه فقتلوهم قتلاً ذريعاً، ولم يقفوا مع العهد الذي عهدوه لهم، ثم قتلوا الحنفيه، ثم قتلوا سائر الناس وسبوا النساء وشقوا بطون الحبالى ونهبوا الأموال وصادروا الأغنياء، ثم أضرموا النار، فأحرقوا إصفهان حتى صارت تلوياً من الرماد.

ثم ساروا إلى بلاد العرب فهجموا على بغداد فتصدى لهم عسكر بغداد وثبت أحسن ثبوت ورشقوهم بالسهم، وبعد مدّه توفى جنكيز وخلفه حفيده هولوكو الذى تمكن من السيطرة على بغداد بعد أن قتل آخر خلفاء العباسيين المستعصم بالله وقد أنهى حكومتهم بذلك.

وبقى المغول في إيران والبلدان الإسلاميه وقد فقدوا ما طبعوا عليه من وحشيه بالتدريج وتأثروا بالثقافه الإسلاميه، وأسلم هولوكو حتى تشيع السلطان محمد خدابنده أحد سلاطين المغول (١).

ص: ٢٣٤

«فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ أُعْطِيتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمَ الْغَيْبِ! فَضَحِكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ، وَكَانَ كَلْبِيًّا: يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ. وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا عَدَدَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ يُنَزَّلُ الْغَيْبِ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ... .) الْآيَةَ، فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى، وَقِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطْبًا، أَوْ فِي الْجَنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقًا. فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَمَّا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي، وَتَضَطَّمَ عَلَيْهِ جَوَانِحِي» .

الشرح والتفسير

حين خاض الإمام عليه السلام في تلك الحادتين المهمتين (قيام صاحب الزنج وفتنه المغول) وذكر خصوصياتهما «فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: لَقَدْ أُعْطِيتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمَ الْغَيْبِ!» .

فالعباره وإن كانت على سبيل الإخبار، لكنها في الواقع استفهاميه، لأنه سمع أن علم الغيب مختص بالله سبحانه، ولذلك طلب توضيح الإمام عليه السلام: «فَضَحِكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ، وَكَانَ كَلْبِيًّا: يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ» .

قطعاً أنّ ضحك الإمام عليه السلام لم يكن بدافع السخريه ولم يفرزه الغرور، بل كان ضحك الفرح

والسرور، ولعل مرد ذلك إلى حسن الأمر في طرح ذلك السؤال من الرجل الكلبى ليكشف الإمام عليه السلام عن كنه ذلك الموضوع أمام الجميع. . أو أنّ ضحكه كان من تعجبه في أنّه لا ينبغي أن يكون مثل هذا الأمر بخفى على أحد، على كل حال فإنّ عبارته الإمام عليه السلام تشير إلى حقيقته في أنّ ذلك العلم مختص بالله وهو علم ذاتي، والعلم الممكن لما سوى الله، فهو العلم الحاصل من التعلم والذي له بُعد إكتسابي، يعنى يتعلّمه الإمام عليه السلام من النبي صلى الله عليه وآله والنبي عن طريق الوحي الإلهي (سيأتي شرح هذا المطلب).

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَأَيْمًا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا عَيَّدَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْبَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ. . .» (١)» .

ثم أوضح معنى ذلك قائلاً: «فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَيْخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطْبًا، أَوْ فِي الْجَنَّةِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقًا» .

فخلص عليه السلام إلى نتيجة نهائية مؤداها: «فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لَمَّا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنِيهِ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعْيَهُ (٢) صَدْرِي، وَتَضَطَّم (٣) عَلَيْهِ جَوَانِحِي (٤)» .

فالذي يستفاد من مجموع هذه العبارات:

أولاً: أنّ علم الغيب علم ذاتي مختص بالله سبحانه وتعالى، لكن العلم الإكتسابي والإعطائي لا يسمى بعلم الغيب، بل هو ذلك العلم الذي علّمه الله سبحانه نبيّه وعلمه النبي من يراه مستعداً لذلك العلم.

ثانياً: لهذه العلوم التعليمية استثناءات وردت خمسه منها في الآيه الشريفه الأخيره من

ص: ٢٣٦

١- ١) سورة لقمان / ٣٤. [١]

٢- ٢) «يعي»: من ماده «وعى» على وزن سعى بمعنى حفظ الشيء في القلب، أو بعباره أخرى التعلم والايدياع في الحافظه.

٣- ٣) «تضطم»: من ماده «ضم» بمعنى جمع الشيء.

٤- ٤) «جوانح»: جمع «جانحه» الأضلاع تحت الترائب ممّا يلي الصدر.

سوره لقمان، وهذه مصاديق علم الغيب التي لم يعلمها الله سبحانه أحداً من الخلق.

وهنا لابد من طرح هذه الأسئلة

١ - كيف يستفاد من الآيه الشريفه أنّ هذه العلوم الخمسه مختصه بالله سبحانه؟

٢ - كيف تختص هذه العلوم بالله والحال أخبر النبي صلى الله عليه وآله والأئمه عليهم السلام أحياناً عن نزول الأمطار والأطفال في الأرحام أو الزمان والمكان الذي يتوفون فيه، بل أحياناً أخرى كانوا يخبرون عن العلوم المعاصره فمثلاً متى وأين سينزل المطر، وذلك الجنين ولد أم بنت؟

٣ - ما الفارق بين هذه العلوم الخمسه وسائر الأمور الخفيه التي لا يعلمها غير الله سبحانه؟

ويقال في الإجابة على السؤال الأول: العبارة الأولى بشأن القيامه قد بينت بوضوح إختصاص علمها بالله سبحانه، وتقديم عنده على علم الساعه دلالة على الحصر، يعنى العلم بالقيامه مختص فقط بالذات الله المقدس، كما تدلّ العبارة والرابعه والخامسه على الحصر أيضاً حيث قالت: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ...» .

وبناءً على ما تقدم فإنّ المورد الثانى والثالث بمقتضى وحده السياق جزء من العلوم المختصه بالله سبحانه، والروايات المتعدده الوارده عن أئمه العصمه عليهم السلام فى تفسير الآيه شاهد آخر على هذا المعنى (١).

ويقال فى الردّ على السؤال الثانى: أنّ الالتفات إلى هذه النقطة ضروره، وهى أنّ العلم بهذه الأمور الخمسه بصوره تفصيليه مختص بالله سبحانه، وإن أمكن حصول العلم الإجمالى للمعصومين أو بعض أولياء الله سبحانه، مثلاً يمكن أن يعلم المعصوم أنّ المطر ينزل غداً، أو الشخص الفلانى يموت فى الأرض الفلانیه، أما العلم بجزئيات هذا الأمر من قبيل العلم بلحظه الشروع وحباب المطر التى تنزل فى المكان، وكذلك العلم بلحظه الموت والبقعه التى يموت فيها والحالات الناشئه من سكرات الموت وما إلى ذلك فى أمور فهو مختص بالذات الإلهيه المقدسه،

ص: ٢٣٧

١- ١) تفسير نور الثقلين، ووردت أحاديث سبعة أقللاً فى هذا المضممار فى ذيل الآيه الشريفه.

والشاهد على ذلك ما أورده الإمام عليه السلام بشأن الجنين في رحم أمه فقال: «فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ، وَسَيِّئٍ أَوْ بَخِيلٍ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطْبًا، أَوْ فِي الْجَنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقًا»، وسائر الأمور التي يقتصر علمها على الله تبارك وتعالى، وبناءً أهلى هذا فما يعلمه الناس من حالات في بعض الأدوار الجنينية من خلال تعلم الغيب أو المختبرات المتداوله في الوقت المعاصر، فهو من قبيل العلم الجزئي، والحال يختص العلم الكلي بالله سبحانه.

وأمّا الإجابة على السؤال الثالث: فلا بدّ من الإذعان بأننا لا نرى من فارق بين الموارد الأربعة الأخرى غير القيامه وسائر الأمور الخفيه، سوى أنّ الآيه المذكوره وروايات المعصومين عليهم السلام تفرّق هذه الأمور مع سائر الأمور الخفيه وتقول بأنّ العلم التفصيلي فيها مختص بالذات الإلهية، ولكن في الموارد الأخرى كالذي ورد في هذه الخطبه بشأن فتنه صاحب الزنج وحمله المغول، فممكّن أن يزود الله بعض الخواص من عباده بعلمها الإجمالي والتفصيلي، وعلى كل حال فاننا تبع للنصوص القرآنيه وروايات المعصومين المعتمره.

علم الغيب في الآيات والروايات

اختلف العلماء في قضيه علم الغيب وهل هناك من يعلم الغيب سوى الله سبحانه أم لا؟ ويبدو اختلافهم يعود إلى اختلاف ظواهر آيات القرآن والروايات الإسلاميه، فبعض الآيات القرآنيه صرّحت علانيه قائله أنّ علم الغيب مختص بالله تبارك وتعالى، مثل الآيه ٦٥ من سوره النمل: «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ. . .» .

وصرحت في الآيه ٥٩ من سوره الأنعام قائله: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ. . .»، في حين يستفاد من البعض الآخر من الآيات أنّ جانباً من علم الغيب على الأقل قد زود به بعض أولياء الله تعالى، كما في الآيه ٤٩ من سوره آل عمران بشأن السيد المسيح عليه السلام: «ءَأُتْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ. . .»، والآيه ٢٦ و ٢٧ من سوره الجن: «عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ. . .» .

ونرى نفس هذا التفاوت في الروايات، فمثلاً جاء في الحديث أنّ الإمام الصادق عليه السلام ورد مجلساً غاضباً وكان فيه أبو بصير وبعض أصحابه، فلما جلس قال: «يَا عَجَباً لَأَقْوَامٍ يَزْعُمُونَ أَنَّا نَعْلَمُ الْغَيْبَ مَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» (١).

بينما يستفاد من عدّه روايات علم الأئمة المعصومين عليهم السلام بأغلب الأمور الخفيه كالذى ورد في هذه الخطبه بشأن فتنه صاحب الزنج والمغول، أو سائر خطب نهج البلاغه بخصوص الأمور المستقبلية، ومما لا شك فيه أنّه ليس هناك من تضارب بين الآيات المذكوره وأمثالها ولا بين الروايات السابقه (والروايات الأخرى التى وردت بهذا المضمون) وقد ذكر المحققون عدّه آراء من أجل الجمع بين هذه الآيات والروايات، منها:

١ - المراد بعلم الغيب الذى اختصته الآيات والروايات بالله تبارك وتعالى هو العلم الذاتى، وما يعلمه الأنبياء والأولياء هو العلم التعليمى من جانب الله سبحانه (وهو ما ورد فى كلام الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه).

٢ - أسرار الغيب على قسمين: قسم يختص بالله تعالى ولا يعلمه أحد إلّا هو كزمان الساعة والأمور الأخرى التى وردت فى الآيه ٢٤ من سوره لقمان، وقد أشارت الخطبه إلى هذا الوجه فى الجمع وقد تقدم شرح ذلك.

٣ - علم الله سبحانه بأسرار الغيب بالفعل يعنى يعلم كل شىء فى كل زمان، أمّا علم أولياء الله سبحانه، فليس بفعلى بل حينى، أى إن أرادوا أن يعلموا شيئاً وتحقق هذه الإراده باذن الله تعالى ورضاه، ومن هنا نقرأ فى سوره يوسف أنّ يعقوب لم يكن يعلم مصير ولده فى صحراء كنعان، والحال علم بعد سنوات بمصيره فى مصر، فقد وجد ريح يوسف من مصر بينما لم يجده فى بئر كنعانه، فلم يكن مأذوناً فى المورد الأول لأن يريد فيعلم، بينما أذن له فى المورد الثانى.

٤ - الطريق الآخر للجمع بين الآيات والروايات المختلفه فى أنّ أسرار الغيب مثبتة فى موضعين، اللوح المحفوظ والذى لا يحدث فيه أدنى تغيير ولا- يعلمه إلّا تعالى، واللوح المحو والإثبات وهو فى الواقع علم بالمقتضيات لا علم بالعله التامه، ومن هنا فهو قابل للتغيير، وما

ص: ٢٣٩

(١-١) اصول الكافي ١/٢٥٧، ح [١] ٣ من باب «نادر فيه ذكر الغيب» .

يعلمه أولياء الله إنما يرتبط بهذا القسم.

ومن أراد المزيد من الشرح لكل من الطرق الأربعة المذكوره، فليراجع المجلد ١٩، من تفسير الأمثل فى تفسير سوره الجن.

ص: ٢٤٠

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

فى ذكر المكايل والموازين (٢)

نظره إلى الخطبه

خاض الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه بوعظ المسلمين فأورد عدّه نصائح شافيه وكافيه، الأولى وتحدث فيها عن قصر عمر الدنيا وأنّ الناس فيها كالضيوف وستنتهى بسرعه هذه الضيافه، بينما تبقى تبعات أعمال الإنسان حين الحساب والجزاء، ثم تحدث فى الثانيه عن سعه الفساد فى ذلك العصر شاكياً منه، وأشار فى الثالثه إلى الأخيار والصلحاء والأتقياء والسّمحاء ليحذر من خلال المقارنه بضروره إصلاح النفس وإجتثاث الفساد من المجتمع وأخيراً إختتم الخطبه بدم المرّئين الذين يأمرّون بالمعروف وليسوا من أهله، وبنهون عن المنكر ولا ينتهون عنه.

ص: ٢٤١

١-١) سند الخطبه: ورد فى مصادر نهج البلاغه أنّ هذه الخطبه وإن كانت فى رعايه العدل فى الكيل والميزان، لكن لا يرى مطلب بهذا الخصوص فى هذه الخطبه سوى إشاره قال فيها الإمام عليه السلام: «اين المتورعون فى مكاسبهم»، وهذا يدلّ على أنّها جزء من خطبه طويله أشارت إلى هذه المسأله المهمه، إلّا أنّ المرحوم السيد الرضى كعادته يختار منها ويترك بقيتها، رواها الزمخشري فى «ربيع الأبرار»، كما ورد قسم منها فى «غرر الحكم» (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٩٠).

٢-٢) مكايل جمع مكيال، والموازين جمع الميزان.

«عِيَادَ اللَّهِ، إِنَّكُمْ - وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا - أَثَوِيَاءُ مُوَجَّلُونَ، وَمَا يَدِينُونَ مُقْتَضُونَ: أَجَلٌ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ. فَزُبَّ ذَائِبٍ مُضَيِّعٌ، وَرُبُّ كَادِحٍ خَاسِرٌ. وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنِ لَأَيِّزَادُ الْخَيْرِ فِيهِ إِلَّا إِذْبَارًا، وَلَا الشَّرُّ فِيهِ إِلَّا إِقْبَالًا، وَلَا الشَّيْطَانُ فِي هَلَاكِ النَّاسِ إِلَّا طَمَعًا. فَهَذَا أَوْ أَنَّ قَوِيَّتَ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمَكَّتْ فَرِيَسَتُهُ. إِضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتُ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ [تنظر] [إِلَّا- فَقِيرًا يُكَابِدُ فَقْرًا، أَوْ غَيِّبًا يَدُلُّ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا، أَوْ بِخِيَلًا- اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللَّهِ وَفِرًا، أَوْ مُتَمَرِّدًا كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنِ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقُرًا!].»

الشرح والتفسير

كما ورد في سند الخطبه وخلافاً لما جاء في عنوان هذه الخطبه فاننا لا نشاهد في متنها ما يشير إلى رعايه العدل في الكيل والوزن، ولعل ذلك يعود إلى أحد سببين: إما أنّ المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه قد حذف بعض جوانب الخطبه المتعلقه بالكيل والوزن حسب طريقته في اختيار الأصح، أو ليس هنالك من حذف في الخطبه إلا أنّ الإمام عليه السلام خطب بهذه الخطبه في ظروف حين اتسع الفساد في الكيل والوزن والتطيف في البيع وظلم الناس وساد ذلك في المجتمع، وبالنظر إلى ذلك أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبه ليحذر المردّه، بعبارة أخرى فإنّ شأن وورد الخطبه قضيه الكيل والميزان وإن لم يذكر ذلك صريحاً في متنها، إلّا أنّه ذكر من خلال الدلاله الالتزاميه، على كل حال خاطب الإمام عليه السلام عامه الناس وقد حذرهم من تقلب الدنيا

وفساد المجتمع فقال: «عِيَادَ اللَّهِ، إِنَّكُمْ - وَمَا تَأْمُلُونَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا - أَثَوِيَاءُ (١) مُؤَجَّلُونَ، وَمَا يَدِينُونَ مُقْتَضُونَ: أَحِلُّ مَنْقُوصٌ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ» .

فقد شبّه الإمام عليه السلام وضع أهل الدنيا بهذه العبارة بالضيوف الذين دعوا لمدّه معينه في ضيافته، وبالأفراد المدنيين الذين لا يتركهم دائنهم، فمن الطبيعي ألا يرى الضيف دار المضيف محطته الأبدية، فهم لا يتعلق بها أبداً ولا يثق بها ولا يحرص عليها، وليس الشخص المدنيين الذى يتابع دائماً من قبل الدائن من سبيل سوى منحه كل ما يجد بالتدريج، أملاً بأن يأتي اليوم الذى يكون قد سدد فيه كل دينه، كأنّ العمر الذى منحنا الله تعالى من ديوننا التى تؤخذ منا كل لحظه، والمشكله المهمه أنّ إلى جانب ذلك العمر المتقلب والذى ينقضى بسرعه أعمالنا التى نقوم بها والتى تحفظ ويجب علينا تحمل تبعاتها.

ورى بعض شرّاح نهج البلاغه عن بعض الصلحاء قوله: «مَا أَدْرِي كَيْفَ أَعْجَبُ مِنَ الدُّنْيَا! أَمِنْ حُسْنِ مَنْطَرِهَا وَقُبْحِ مَخْبَرِهَا أَمْ مِنْ دَمِّ النَّاسِ لَهَا وَتَنَاخُرِهِمْ عَلَيْهَا» (٢).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «فَرُبَّ دَائِبٍ (٣) مُضَيِّعٍ، وَرُبَّ كَادِحٍ (٤) خَاسِرٍ» .

صحيح أنّ السعى والجهد رمز الموفقيه والنجاح، إلّا أنّ هذا ليس قانوناً كلياً، فهناك الأفراد الذين أفنوا عمرهم فى السعى والجد وأجهدوا أنفسهم ليل نهار ولم يظفروا بشيء، وهذا أحد إبطات الإنسان فى الحياه الدنيا، ولعل العبارة إشاره إلى السعى المتعلق بالأمر الماديه أو المعنويه، لأنّهم كثيرون هو الأفراد الذين أجهدوا أنفسهم من أجل الوصول إلى المقامات المعنويه والنجاه الأخرويه، ولكن تسللت إليهم أهواء النفس ووساوس الشيطان فى اللحظات الحساسه فاشتعلت النيران فى مزارع طاعتهم وأحرقت كل شيء، ثم أشار إلى الأوضاع المزريه لزمانهم وإقبال الناس على المساويه وفرارهم من الصالحات فقال: «وَقَدْ

ص: ٢٤٤

١-١) «أثوياء»: جمع «ثوى» على وزن قوى بمعنى الضيف وفى الأصل من ماده «ثواء» بمعنى الإقامه فى مكان.

٢-٢) شرح نهج البلاغه ابن أبى الحديد ٨/٢٤٧. [١]

٣-٣) «دائب»: من ماده «دؤوب» على وزن غروب المداوم فى العمل.

٤-٤) «كادح»: من ماده «كدح» على وزن مدح الساعى بجهد ومشقه فى القيام بعمل.

أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنِ لَمَّا يَزْدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ إِلَّا- إِذْيَارًا، وَلَمَّا الشَّرُّ فِيهِ إِلَّا- إِقْبَالَ، وَلَا الشَّيْطَانُ فِي هَلَاكِ النَّاسِ إِلَّا طَمَعًا. فَهَذَا أَوْ أَنَّ قَوِيَّتْ عُدَّتُهُ، وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ، وَأَمَكَنْتْ فَرِيستُهُ (١). .

فهذه العبارات الصريحة والواضحة تشير إلى مدى سقوط الوضع الأخلاقي للمسلمين في ذلك العصر والزمان بفعل الحكومات المستبده، ومدى الوسط المضحك الذي واجهه الإمام عليه السلام في عهده، نعم إن فسد مسؤولوا البلاد ومن كان على رأس الحكومة فإن الفساد سيضمحل كل شيء «الناس على دين ملوكهم» .

فما الذي يمكن توقعه من الناس إن وزع الخليفة أموال بيت المال المسلمين على بطانته، وولى قرابته الطالحة ونصبهم في المواقع الحساسة، وتعاطى عامله الشراب علانيه ليدخل المحراب فيصلى بالناس جماعه ثملاً، ويمارس الآخرون الرذيله والأعمال البشعة، أو ليست سلطه الشيطان بالتكالب على الدنيا وإبتاع الأهواء؟

نعم، إن سادت هذه الأمور تيسرت حكمه الشيطان، فقد ورد في الخبر أن ابن عمر وبعض ولد أبي بكر وسعد بن أبي وقاص قصدوا علياً عليه السلام حين خلافته وسألوه زياده العطاء من بين المال، فصعد عليه السلام المنبر وخطب الناس قائلاً: « . . . إذا منعتمهم ما كانوا فيه يخوضون وصيرتهم إلى ما يستوجبون فيفقدون ذلك فيسألون ويقولون: ظلمنا ابن أبي طالب وحرمانا ومنعنا حقوقنا - إلى أن قال - أما أني أعلم الذي تريدون ويقيم أودكم، ولكن لا أشتري صلاحكم بفساد نفسي . . . » (٢).

ثم قال: «اضرب بطرفك (٣) حيث شئت من الناس، فهل تبصر» [تنظر] [إلا فقيراً يكابد (٤) فقراً، أو غنياً يدل نعمه الله كُفراً، أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً (٥)، أو متمرداً كأن

ص: ٢٤٥

١- (١) «فريسه»: من ماده «فرس» على وزن قرض بمعنى الصيد.

٢- (٢) اصول الكافي ٨/٥٥١.

٣- (٣) «طرف»: وردت أحياناً بمعنى العين، وأخرى حركة جفن العين، كما استعملت بمعنى النظر لأن الأجفان تتحرك حين النظر.

٤- (٤) «يكابد»: من ماده «كبد» بمعنى تحمل المشقه وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة، كما وردت بمعنى الجعل في المشقه.

٥- (٥) «الوفر»: بمعنى الوفير والكثير.

بَأذُنِهِ عَنِ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقَرَأَ (١)!». .

فقد ركز الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغة والرائعة على أربع فئات محرومه أو منحرفه تشكل أساس فساد المجتمع وإنهياره:

الأولى: الفقراء الذين يقعون أسرى الفقر، وهو الفقر الذى عبرت عنه الروايات بالقول: «كَأَدَّ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا». . الثانية: الأغنياء الذين غرقوا فى النعم والملذات والشهوات حتى نسوا كل شىء وهووا فى الكفر.

الثالثة: البخلاء الذين تصوروا أن البخل سبب زيادة الثروه.

الرابعة: المتمردون الذين عاشوا الغرور ولم تعد آذانهم تسمع كلام الحق.

فعبارة الإمام عليه السلام التى قال فيها: «أَضْرِبْ بِطَرْفِكَ (٢) حَيْثُ شِئْتَ. . .» فلا تبصر أحداً سوى هذه الفئات الأربع دليل على أن الفقر والفساد أصبح على درجه من الشموليه بحيث ظهرت آثارهما فى كل مكان، والدليل على تلك السعه والشموليه ما أشير إليه فى العبارة المذكوره.

ص: ٢٤٦

١ - ١) «الوقر»: بمعنى الثقل.

٢ - ٢) «طرف»: وردت أحياناً بمعنى العين، وأخرى حرکه جفن العين، كما استعملت بمعنى النظر لأن الأجنان تتحرك حين النظر.

«أَيْنَ أَخْيَارِكُمْ وَصِيْلِحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أحرَارِكُمْ وَسِيْمِحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعُنُوا جَمِيعاً عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدِّيْنِيَّةِ، وَالْعَاجِلِ الْمُنْغَصِيَّةِ. وَهَلْ خُلِقْتُمْ إِلَّا فِي حُثَالِهِ لَا تَلْتَقَى بِعَدْمِهِمُ الشَّفَتَانِ، اسْتِضِيْعَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ! فَاِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» ، (ظَهَرَ الْفَسَادُ) ، فَلَا مُنْكَرَ مُعَيَّرٍ، وَلَا زَاجِرَ مُزْدَجِرٍ. أَفَبِهَذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللَّهَ فِي دَارِ قُدْسِيهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟ هَيْهَاتَ! لَا يُخْدَعُ اللَّهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ. لَعَنَ اللَّهُ الْآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ النَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ! .

الشرح والتفسير

استعمل الإمام عليه السلام عبارات بليغة رائعة في هذا المقطع من الخطبه ليكشف النقاب عن فساد الزمان والتولى عن الصالحات والاقبال على السيئات فقال: «أَيْنَ أَخْيَارِكُمْ وَصِيْلِحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أحرَارِكُمْ وَسِيْمِحَاؤُكُمْ! (١) وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ (٢) فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! .

فقد بحث الإمام عليه السلام بهذه العبارات عن ستة طوائف في المجتمع ليدل فقد انها أنذاك على مدى الانحطاط والفساد، والطوائف الست هي: الأخيار، الصالحون، الأحرار، السمحاء،

ص: ٢٤٧

١-١) «سمحاء»: جمع «سميح» الشخص الرؤوف وصاحب الكرم، وقيل من يبذل حين وفره النعمه وضيقها.

٢-٢) «متورع»: من ماده «ورع» بمعنى اجتناب الذنب والشبهه.

المتورعون، والمنتزهون، حقاً إن افتقرت المجتمعات البشرية إلى هذه الطوائف الشريفة والنجيبه فى المجتمع، فليس هناك سوى الفساد والانحراف، والمراد من المتورعين فى مكاسبهم، الأفراد الذين لا يطفون فى البيع ولا يغشون ولا يكذبون ولا يقسمون بالباطل ولا يرابون والذين ينقضون عهودهم ومواثيقهم، فمن يرى المجتمع الصالح العاير بالأخيار والصلحاء والأحرار والسمحاء على أنهم نماذج المجتمع إنما يشعر بالامتعاظ لا سيما إن رأى بدلاً منهم الأشرار والطلحاء والأسرى والبخلاء فلا يمتلك سوى الصراخ: اين أولئك الأعزّه؟ كيف خلى مكانهم؟

ثم قال الإمام عليه السلام: «أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا (١) جَمِيعاً عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدِّيَّةِ، وَالْعَاجِلِ الْمُنْغَصِ (٢)» .

فأردفها عليه السلام بالقول: «وَهَلْ خُلِقْتُمْ (٣) إِلَّا- فِى حُثَالِهِ (٤) لَأَتَلْتَقَى بِبَدْمِهِمُ الشَّفَتَانِ، اسْتِضِيءَ غَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ! فَ(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)» .

وقد انبثقت هذه الظروف العصيبه والأفراد المنحطين منذ انحراف الخلافة الإسلامية عن محورها الأصلي وقد بلغ الأمر ذروته على عهد عثمان، فقد فوضت المواقع الحساسة من الحكومه الإسلامية إلى أصحاب الدنيا البعيدين عن الورع والتقوى وقد تغلغلوا فى المجتمع الإسلامى بحيث كان من المتعذر تغييرهم ابان حكمه على عليه السلام، كما كان هؤلاء الأفراد هم السبب لكافة المعارك التى حدثت ضد الإمام عليه السلام.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الوظيفة التى ينبغى أن يقوم بها أصحابه تجاه تلك الظروف والأوضاع فقال: «ظَهَرَ الْفَسَادُ، فَلَا مُنْكَرَ مُعَيَّرٍ، وَلَا زَاجِرَ مُزْدَجِرٍ. أَفَبِهَذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللَّهَ فِى دَارِ قُدْسِهِ، وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ؟» .

ص: ٢٤٨

١- (١) «ظعنوا»: من ماده «ظعن» السفر والرحيل.

٢- (٢) «المنغصه»: من ماده «نغص» على وزن نقص الكدر وعدم الصفاء ماء الشرب، ثم اطلقت على كدوره العيش ومنه العيش المنغص.

٣- (٣) وردت هذه المفردة فى أغلب شروح نهج البلاغه خلقتم التى لا- تختلف كثيراً عن «خُلِفْتُمْ» كما لم تذكر إلأى العبارة إلأى بدمهم.

٤- (٤) «حثاله»: تعنى فى الأصل راسب الدهن ثم استعملت بشأن الأفراد الأراذل الذين لا شخصيه لهم.

طبعاً إنّ هذا الاستفهام إستفهام استنكاري، والمراد على ضوء هذا الوضع الذي سلكتموه وقد سكتم إزاء الفساد أو أعنتم عليه، فلا- من أمر بمعروف ولا نهى عن منكر، فليس لكم أن تنالوا القرب الإلهي وتكونوا في صفوف أولياء الله، فأكد ذلك بالقول: «هَيْهَاتَ! لَا يُخَدَعُ اللَّهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلَا تَنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ» .

فأولئك المسلمون ظاهراً ويحسبون في صفوف أهل الإيمان لكنهم راضون بالفساد ساكتون باطناً، لا يقدرّون على خداع الله العالم بأسرارهم وأعمالهم، لعلم يخدعون الآخرين، بل وأنفسهم لمدّه، ولكن أنى لهم ذلك يوم القيامة يوم لا يخفى على الله منهم خافيه، فليس أمامهم سوى الندم.

ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّيِّ وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ مَا خَلَصَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَقَهُ الْأَعْمَالُ» (١).

ثم إختتم الخطبه مشدداً في التأكيد فقال: «لَعَنَ اللَّهُ الْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ!» .

صحيح أنّ عمل الإنسان لا يشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعبارة أخرى فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفتان مستقلتان وإن كان نفس الإنسان تاركاً للمعروف وعاملاً بالمنكر.

كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ وَأَنْهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوا كُلَّهُ» (٢).

ولكن أن يأمر الإنسان بالمعروف ولا يأتمر به وينهى عن المنكر ولا ينتهي عنه بحد ذاته نوع من النفاق الواضح، والمنافق يستحق اللعن واللولم والعقاب.

وبعبارة أخرى فإنّ اختلاف الظاهر والباطن الذي يكون سبباً لخداع الناس وروح النفاق من أسوأ الصفات التي يجعل الإنسان يستحق اللعن فيوجب بعده عن الله ورحمته.

ص: ٢٤٩

١-١ (١) بحار الانوار ٦٢/٦٦، ح ٢٦. [١]

٢-٢ (٢) كنز العمال ٦٦/٣، ح ٥٥٢٢.

من المسائل الغايه فى الصعوبه والمراره فى التاريخ الإسلام هو أنّ علياً عليه السلام بدلاً من أن يأخذ بزمام أمور الأمة الاسلاميه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لينشر الإسلام فى الشرق والغرب ويحفظ مبادئ الإسلاميه، قد تسلم الحكومه الإسلاميه والأئمه الإسلاميه عاشت الانحراف عن العداله والزهد بفعل اضطراب عهود الخلفاء ولا سيما عهد عثمان الذى ضاعت فيه القيم الإسلاميه وقد وضعت الأموال والمناصب تحت تصرف حثاله بنى أميه وآل مروان، فهم لا يفكرون إلّا فى المال والثروه والمقام والسيطره على الناس، وقد انتعشت أغلب مثل الجاهليه، فقد قام الإمام عليه السلام فى ظل هذه الظروف العصيبه من أجل إحياء القيم الإسلاميه وسنّه رسول الله صلى الله عليه وآله وإطفاء فتن الجاهليه، من خلال الحث والتبشير أحياناً والانداز واللوم أحياناً أخرى، ون خلال الاستشهاد بحوادث عصر النبى الأكرم عليه السلام ومقارنتها بالأوضاع السائده، كما يستعين أحياناً بتاريخ سالف الأنبياء والعذاب الذى صبّ على العتاه الذين تمردوا عليهم، وهكذا أخذت تظهر الفضائل الإسلاميه والإنسانيه شيئاً فشيئاً بين أصحاب الإمام عليه السلام حتى استقرت وتبلورت بعد أن رويت شجرتها بدم الإمام عليه السلام، وكادت أن تثمر، ولكن مع الأسف الشديد أنّ تلك الأوجاء تعكرت بفعل فتن الناكثين والقاسطين والمارقين، وقد بلغت الجريمه بأحدهم لأن ينهال بالسيف على رأس الإمام عليه السلام لتبقى تلك البرامج ناقصه، فتنشط من جديد الشياطين لتعيث فى الأرض الفساد.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

لأبي ذرٍّ رحمه الله لما أخرج إلى الربذه

نظره إلى الخطبه

لما إنهال أزالام بنى أميه وبنى مروان على بيت مال المسلمين بتلويح من عثمان فجعلوا ينهاون ما يريدون، واجههم أبو ذر رحمه الله ذلك الصحابي الشجاع والأسوه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فأصبح يشكل خطراً جدياً على منافعهم، فأشاروا على عثمان بنفيه إلى ربذه التى تعتبر أسوأ المناطق مناخاً، أما الإمام عليه السلام فقد أراد أن يثبت عدم شرعيه هذا الحكم الجائر من جهه، وأن يشد من عزمه أبى ذر من جهه أخرى، فيعينه على تحمل ما يواجهه من صعوبات، ومن هنا شايح أبى ذر وقد واساه بكلمات رائعه وعميقه وأمله بالمستقبل الزاهر الذى ينتظره، كما أضاف ورقه سوداء أخرى إلى سجل بنى أميه ومروان المظلم.

ص: ٢٥١

١-١) سند الخطبه: ذكرها المرحوم الكلينى فى كتاب «روضه الكافى» باختلاف طفيف ويستفاد من ذيلها أن ليس على عليه السلام شيعه إلى الربذه فقط، بل شيعه الإمام الحسن والحسين عليهما السلام وعمار (وعقيل حسب بعض الروايات)، وبعبارات رائعه سيأتى بيانها فى الأبحاث القادمه (الكافى ٨/٢٠٦، ح ٢٥)، قال صاحب مصادر نهج البلاغه بعد الإشاره إلى روايه الكافى نقلها ابن أبى الحديد عن كتاب «السقيفه» لأحمد بن عبدالعزيز الجوهري (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٩١). [١]

«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلَّهِ، فَمَارِجٌ مِنْ غَضَبِ بَتِّ لَهُ. إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَخَفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَاهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خَفْتَهُمْ عَلَيْهِ، فَمَا أَحْوَجُهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَسَيَتَعَلَّمُ مِنَ الرَّابِحِ غَدًا، وَالْأَكْثَرُ حُسْدًا» [حسيراً]. [. وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَيْنَ كَانَتَا عَلَى عِبْدٍ رَتَقًا ثُمَّ اتَّقَى اللَّهُ لَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجًا! لَا يُؤْنَسُ نِكَ إِلَّا الْحَقُّ، وَلَا يُوجِسُّكَ إِلَّا الْبَاطِلُ. فَلَوْ قَبِلَتْ دُنْيَاهُمْ لِأَحْبُوكَ، وَلَوْ قَرَضَتْ مِنْهَا لِأَمْنُوكَ. » .

الشرح والتفسير

كما ذكرنا فإن الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام حين نفى أبو ذر من قبل عثمان إلى الريذه، جاء في الخبر: لما أخرج أبو ذر إلى الريذه أمر عثمان، فنودي في الناس ألا يكلم أحد أبا ذر ولا يشيعه، وأمر مروان بن الحكم أن يخرج به، فخرج به، وتنحى عنه الناس إلما على بن أبي طالب عليه السلام وعقيلاً أخاه وحسنًا وحسينًا عليهما السلام وعماراً رحمه الله، فأنهم خرجوا معه يشيعونه، فجعل الحسن عليه السلام يكلم أبا ذر، فقال مروان إيها حسن ألا تعلم أن أمير المؤمنين (عثمان) قد نهى عن كلام هذا الرجل، فان كنت لا تعلم فاعلم ذلك، فحمل على عليه السلام على مروان فضرب بالسوط بين أذني راحلته وقال: تنح لحالك الله إلى النار، فرجع مروان مغضباً إلى عثمان فأخبره الخبر (١).

ص: ٢٥٣

وهنا وقف أبو ذر رحمه الله فودعه القوم، وخطب الإمام عليه السلام بهذه الكلمات التي تتضمن كل واحده منها نقطه مهمه بهدف مواساه أبي ذر وتحمله المصاعب التي ستواجهه في المستقبل، فقد أشار عليه السلام إلى ست نقاط فقال أولاً: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ غَضِبْتَ لِلَّهِ، فَارْجُ مِنْ غَضِبَتْ لَهُ» .

أمّا قوله عليه السلام فارح من غضبت له ولم يقل ارج الله، فالواقع بين الإمام عليه السلام دليل ذلك الأمل، لأن كل شخص يغضب لآخر بالنسبه لشيء يؤذيه، فمن الطبيعي أنّ ذلك الشخص سيقف إلى جانبه.

وقال في الثانيه: «إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَخَفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ، فَمَا تَرُكُ فِي أَيْدِيهِمْ مَيَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَاهْرَبْتَ مِنْهُمْ بِمَا خَفْتَهُمْ عَلَيْهِ» .

إشاره إلى أنهم شعروا بالخطر على حكومتهم ومنافعهم الماديه إثر صراحه كلامك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلم يستطيعوا تحمل وجودك في المدينه، لكنك قاطعتهم ولم تقبل بذلهم، وذلك لأنك شعرت بالخطر على دينك، فلما قمت بوظيفتك واطلعت الناس على أعمال هؤلاء الحكام، فتركهم واهرب بدينك وإيمانك.

ثم قال الإمام عليه السلام: «فَمَا أَحْوَجُهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَعْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ! وَسَيَتَعَلَّمُ مِنَ الرَّابِحِ عَدَاءً، وَالْأَكْثَرُ حُسْداً» ، فهم بحاجة إلى دينك، الدين الذي لم تكن مستعداً للتضحيه به من أجل دنياهم، لكنك لست بحاجة إلى دنياهم وإن منعوها عنك (١)، والعباره «وستعلم. . .» مواساه أخرى لأبي ذر فعمر الدنيا قصير كأنه ويوم وغدا تقوم القيامه، أنذاك سيفتضح الظلمه عبده الدنيا ويغبطون الأتقياء على درجاتهم العاليه، ثم ضاعف من ذلك الرجاء في قلب أبي ذر فقال في الثالثه: «وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَيْنِ كَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتَقًا (٢) ثُمَّ اتَّقَى اللَّهَ لَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجًا!» .

والواقع هو أنّ هذه العبارة إشاره إلى الآيه الشريفه: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» (٣).

ص: ٢٥٤

١- ١) وعليه تفسير «ما» بالموصوله بمعنى الدين لأنهم أرادوا أن يستفيدوا من دين أبي ذر لصالح دنياهم، فحال أبو ذر دون ذلك، كما يحتمل أن يكون الدين بصوره مطلقه، إلّا أنّ هناك تقديراً في العبارة حيث يكون المعنى ما أحوجهم إلى الدين، الدين الذي حذرت عليه من إفسادهم له.

٢- ٢) «رتق»: إلتحام شيء بآخر وتعنى في العبارة إغلاق طرق الخلاص والفرار.

٣- ٣) سورة الطلاق / ٢ - ٣. [١]

ثم قال فى الرابعه والخامسه: «لَا يُؤْنَسَنَّكَ إِلَّا الْحَقُّ، وَلَا يُوحِشَنَّكَ إِلَّا الْبَاطِلُ» .

فليكن أنسك فى الحق ولا- تخشى شيئاً مادمت فى هذا السبيل، ولتكن وحشتك من الباطل وإنك لسعيد مادمت هارباً من الباطل، فلا ضير عليك إنك قمت لله وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فى الله، فلو قبلت دنياهم وعاونتهم فى نيل أطماعهم الماديه لأحبوك، ولو أخذت من ذلك شيئاً وهادنتهم لأمنوك، ولذا قال فى السادسة: «فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لِأَحْبُوكَ، وَلَوْ قَرَضْتَ (١) مِنْهَا لَأَمَّنُوكَ» ، فهم تجار ظلمه ذائبون فى الدنيا وأهل معامله فيها، فمن وافق على مظالمهم وهادنتهم بقبول سهم من أموالهم، أحبوهم وقدسوه ودافعوا عن ماله وعرضه.

فعبارته عليه السلام مواساه لأبى ذر من جانب وصاعقه شديده على الحكام الظلمه من جانب آخر، فالحق أن نفى «أبوذر» ذلك العبد الصالح والزاهد الورع كان نموذجاً للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان وصمه عار فى جبين الحكام الظلمه وأعوانهم، فقد كانوا يعلمون أن لسان ذلك الصحابى الجليل يعدل مئه ألف سيف.

تأملات

١ - من هو أبو ذر رحمه الله

تعتبر حياه أبى ذر مليئه بالأحداث مقارنه بحياه سائر صحابه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والتي يمكنها أن تكون أسوه لكافه المجاهدين فى سبيل الحق طيله التاريخ البشرى، ولا غرو فحياته إقتباس من حياه مولاه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام مع فارق بسيط هو أنه خضع لظروف صعبه جداً، لكنه لم يتوان قط فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الوقوف بوجه الظلمه والفساد، وإليك جانب من سيرته:

اسمه جندب وأبوه جناده (٢) وأسماه رسول الله عبدالله، ينسب إلى طائفه معروفه من طوائف

ص: ٢٥٥

١- ١) «قرضت»: من ماده «قرض» تعنى فى الأصل قطع الشىء ومن هنا يقال المقرض للمقصر، كما يقال القرض لما يعطى من مال، ووردت فى العبارة المذكوره بمعنى قطعت منها جزءاً من المال لنفسك، ومهادنه الظالمين.
٢- ٢) روت أغلب المصادر «جندب وجناده» بضم الجيم، وكنيته أبو ذر، حيث كان له ولد بهذا الاسم.

العرب وهى بنى غفار، كانت له ضيعه أطراف مكه، سمع بيعث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فاتجه إلى مكه، فلما دخل المسجد رأى فيه طائفه من قريش وهى تتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وهى تسبه وتشتمه، فدخل أبو طالب، فقالوا: إسكتوا هذه عمه، عرف أبو ذر، أبا طالب، فلما خرج من المسجد تبعه فالتفت إلى أبو طالب وسأله هل من حاجه؟ قال: أريد الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله، فقال له أبو طالب تعال هنا غداً، فقضى أبو ذر ليلته فى المسجد الحرام، وفى اليوم التالى إلتقى حمزه، ثم تعرف بجعفر وعلى وأخيراً حملة على عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله فأسلم وآمن طواعيه.

ثم أمره رسول الله صلى الله عليه وآله بالرجوع إلى أهله وقال له: فان لك ابن عم قد توفى وليس به وارث غيرك فاستعن بتلك الأموال حتى يؤذن لى بالدعوه العلنيه آنذاك عد إلينا، كان أبو ذر من أوائل من أسلم، وإلتحق بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعد غزوه بدر وأحد والخندق وحين أنفق كل ما لديه فى سبيل الله، وقد وصفه النبي صلى الله عليه وآله بصديق الأئمه وشبيهه عيسى بن مريم.

قال العلّامة المجلسى رحمه الله فى كتاب «عين الحياه» يستفاد من مصادر الفريقين أنه لم يكن من بين صاحبه بعد المعصومين من هو أجل قدراً من سلمان و أبى ذر والمقداد وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَا أَظَلَّتِ الْخَضِرَاءُ وَلَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ عَلَى ذِي لَهَجِهِ أَصْدَقُ مِنْ أَبِي ذَرٍّ يَعِيشُ وَحَدَهُ وَيَمُوتُ وَحَدَهُ وَيُبْعَثُ وَحَدَهُ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَحَدَهُ» (١).

لازم أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وآله فى المدينة، ولما ولى عثمان الخلافه وأعطى مروان من بيت المال، جعل أبو ذر يقول بين الناس وفى الطرقات والشوارع: «وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...» (٢).

فى إشاره إلى عثمان وبطانته الذين أخذوا ينهبون بيت مال المسلمين، كان أبو ذر يردد تلك الآيه ويرفع بها صوته، فرفع ذلك مراراً إلى عثمان وهو ساكت، ولم تمض مدّه حتى صعب على الخليفه وبطانته تحمل كلام أبى ذر، فأرسل إليه عثمان مولى من مواليه أن إتنه عمّا بلغنى عنك،

ص: ٢٥٦

[١-١] بحار الانوار ٢٢/٢٩٨. [١]

[٢-٢] سورة التوبه / ٣٤. [٢]

فقال أبو ذر: أو ينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى؟ فوالله لأن أَرْضَى الله بسخط عثمان أحبَّ إليَّ وخير لي من أن أسخط الله برضا عثمان، فأغضب ذلك عثمان وأحفظه، فتطير وتماسك، إلى أن قال يوماً والناس حوله: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال شيئاً قرضاً، فإذا أيسر قضى؟ وكان في المجلس كعب الأحبار وأبو ذر، فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك، فقال: أبو ذر: يابن اليهوديه أتعلنا ديننا؟ (فمثل هذه الأمور لا تجوز في بيت مال المسلمين) فقال عثمان: قد كثر أذاك وتولعك بأصحابي، إلحق بالشام، فأخرجه إليها.

ولم يسكت أبو ذر في الشام حين شاهد الخضراء التي بناها معاوية في دمشق إلى جانب البيوت المتواضعة للفقراء من الناس والمحرومين، فقال لمعاوية: يا معاوية إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهي الاسراف، والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سننه نبيه، والله إنني لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذباً، وأثره بغير تقى، وصالحاً مستأثراً عليه، فنقل ذلك الكلام على معاوية، فكتب إلى عثمان، فكتب عثمان أن إحمل جندباً إلى على أغلظ مركب وأوعره حتى قدم به المدينة.

فلما دخل أبو ذر رحمه الله على عثمان، سعى عثمان لأن يضطره للقول بخلاف ما يريد فقال له: أنت الذي تزعم أنا نقول: «إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ الْأَغْنِيَاءُ»، فقال أبو ذر: لو كنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مال الله على عباده، ولكنني أشهد أنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إِذَا بَلَغَ بَنُو الْعَاصِ ثَلَاثِينَ رَجُلًا جَعَلُوا مَالَ اللَّهِ دُولًا، وَعِبَادَهُ خَوْلًا، وَدِينَهُ دَخْلًا»، فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالوا: لا؟ قال عثمان: ويلك يا أبا ذر! أتكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: ادعوا لي علياً، فما جاء قال عثمان لأبي ذر: اقصص عليه حديثك في بني العاص، فأعاده، فقال عثمان لعلي أسمع هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: لا؛ وقد صدق أبو ذر، فقال: كيف عرفت صدقه؟ قال: لأنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «مَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ وَلَا أَقَلَّتِ الْعَبْرَاءُ عَلَيَّ ذِي لَهَجِهِ أَصَدَقُ مِنْ أَبِي ذَرٍّ . . .». فقال من حضر: أما هذا فقد سمعناه كلنا من رسول الله صلى الله عليه وآله، فندم عثمان.

وجاء في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ عَثْمَانَ بَعَثَ غَلَامِينَ بِمِثْقَالِ دِينَارٍ إِلَى أَبِي ذَرٍّ وَقَالَ: قَوْلًا لَهُ إِنَّ عَثْمَانَ يَقْرَأُكَ السَّلَامَ وَبَعَثَ بِهَذَا الْمَالِ لِتَسْتَعِنَ بِهِ عَلَى مَعِيشَتِكَ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ:

فهل أعطى سائر المسلمين، قالاً: لا، فقال: لا حاجة لي به، قالاً: إنَّ عثمان يقول إنَّه من خاصه مالى ولم يخالطه الحرام، فلم يقبل أبو ذر وقال: إنَّنى لأغنى الناس بولايه على بن أبى طالب، فعودا بالمبلغ إليه واللَّه يحكم بينى وبينه» (١).

وأخيراً ضاق عثمان ذرعاً بأبى ذر واستشار من حوله، فأشاروا عليه بنفيه من المدينه، فاختر أبو ذر الشام والعراق، فلم يوافقوه حيث كانوا يخشون منه، إلى انتهى بهم الأمر لنفيه إلى الربذه (٢) المعروفه بسوء أحوالها ومناخها حتى توفى فيها، ولم يكن لديه حتى الكفن مرّت جماعه وفيهم مالك الأشر فأخبرتهم بنته فى الطريق، فكفنوه وصلى عليه صحابى رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله عبد اللّٰه بن مسعود، ثم دفنوه (٣).

٢ - أبو ذر رحمه الله والاشتراكيه

لقد سعى البعض من المتعصبين بدافع حبّه لمعاويه وبنى أميه أو لفرط ذوبانه فى عثمان لإثاره بعض الغبار على شخصيه أبى ذر، وذلك لعدم إمكانيه الجمع بين كون أبا ذر من أولياء الله أنه أصدق من على الأرض وأنَّ عثمان خليفه المسلمين ومعاويه من الصحابه، ومن هنا فلم يروا أخف وطأه عليهم من أبى ذر فقالوا: إنَّ أبا ذر لا يؤمن بالملكيه الفرديه وكانت له نزعته اشتراكيه.

وقال الرزكلى فى كتاب «الاعلام فى أبى ذر»: «ولعله أول اشتراكى طادرتة الحكومات» (٤).

وهذا فى الوقت الذى لم يتطرق فيه أبو ذر قط إلى نفى الملكيه الفرديه، بل شدد من حملاته ضد الأثرياء كمعاويه ممن يوزعون الثروه بصوره غير عادله، ولذلك لم يكن يشن مثل هذه

ص: ٢٥٨

١-١) بحار الانوار ٢٢/٣٩٨. [١]

٢-٢) ورد فى معجم البلدان أنَّ الربذه من القرى الواقعه أطراف المدينه حيث تبعد عنها ثلاثه أميال (حدود ١٥٠ كيلومتر).

٣-٣) لخصت هذه المطالب من عدّه كتب معروفه كشرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، وشرح المرحوم التستري، وشرح المرحوم الخوئى، وبحار الانوار.

٤-٤) الأعلام للرزكلى، ذيل كلمه جندب.

الحملايت على عهد الخيفه الأول والثاني، قال البعض وردت عبارته «مال الله» في كلمات أبي ذر، فاستفادوا منها نفيه للملكيه الخاصه، والحال التعبير بمال الله عن بيت المال هو تعبير متداول وسائد، فقد صرح المرحوم العلامة الأميني في المجلد الثامن من الغدير حين نقل نعت أبي ذر بالاشتراكيه أنّ التعبير بمال الله كثير في أقوال الصحابه، ثم نقل عدّه روايات عن عمر عبّر فيها صريحاً بمال الله، كما وردت عدّه روايات عن أمير المؤمنين على عليه السلام عبّر فيها بمال الله (١).

لا شك أنّه يمكن التعبير عن تلك الأموال بمال الله، بل يمكن اطلاق مال الله حتى على الأموال الشخصيه للناس، فقد جاء في القرآن الكريم مثل هذه التعبير: «وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ...» (٢).

والحق إنّ هذه الفئه تسرعت في الحكم على أبي ذر، حيث كان يؤكد مراراً تمسكه بالآيه: «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...» (٣)، ونعلم جميعاً أنّ هذه الآيه وردت بشأن مانعي الزكاه.

والأدهى من كل ذلك لجنه فتوى الأزهر قد أصدرت فتوى عام ١٣٦٧ ق تحت تأثير بعض المتعصبين في نفى الشيوعيه لتنقل عقيدته أخرى لأبي ذر وحكمت ببطانها لتعتبرها معلوله لبعده عن مبادئ الإسلام، وهي أنّه كان يعتقد بوجوب اعطاء المال الزائد عن حاجته إلى أهل الحاجه ولا ينبغي أن يحتفظ بتلك الأموال، قال المرحوم الأميني بعد ذكره لهذه الفتوى لو أوكل شيخ الأزهر مطالعه هذه المسأله لمن هو أعرف بأبي ذر وحكموا فيها بعيداً عن التعصب، لعلم أنّ ليس هناك مثل هذه العقيدته لأبي ذر، والأسوأ من ذلك ما ذكره من عذر لأبي ذر بعدم معرفه بمبادئ الإسلام، وهذا ما يضحك الثكلي ويكي كل مسلم غير، فهل يصح مثل هذا الكلام بشأن صحابي جليل قضى شرطاً من حياته مع رسول الله صلى الله عليه وآله وقد شبّهه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعيسى خلقاً وخلقاً (٤)، والطريف في الأمر أنّ أبا ذر ثقّه عند بعض

ص: ٢٥٩

١-١) الغدير ٨/٣٤٣. [١]

٢-٢) سورة النور / ٣٣. [٢]

٣-٣) سورة التوبه / ٣٤. [٣]

٤-٤) الغدير ٨/٣١٢ و ٣٤٣.

المحدثين كالبخارى ومسلم حيث نقلوا عنه ٨١ حديثاً (١)، وهذا بدوره يكشف عن مدى بعد لجنة فتوى الأزهر عن الحقيقه.

٣ - العاقبه المريه لأبى ذر

إنّ الحديث فى أبى ذر وما لم يقال فيه لكثير ويتطلب كتاباً مستقلاً، ولكن يبدو من الضرورى ذكر هذه النقطه فى أنّ ما منح أبى ذر القوه والصلابه وأرعب خصومه هو زهده الممزوج بصراحه لسانه، فهم لم يستطيعوا الاعتراض عليه لزهده من جانب، ومن جانب آخر لم يطبقوا تحمل صراحته، وإليك نموذج من ذلك.

روى ابن أبى الحديد عن الجاحظ عن جلام بن جندل الغفارى قال: كنت غلاماً لمعاويه على قنسرين والعواصم فى خلافه عثمان، فجئت إليه يوماً أسأله عن حال عملى، إذا سمعت صارخاً على باب داره يقول: أتتكم القطار بحمل النار (إشاره إلى الجمال التى كانت تحمل أموال بين المال)، اللهم إلعن الأمرين بالمعروف التراكين به، اللهم إلعن الناهين عن المنكر المرتكبين له، فازبأر معاويه وتعير لونه وقال: يا جلام أتعرف الصارخ؟ فقلت: اللهم لا. قال: من عذيرى من جندب بن جناده، يأتينا كل يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعت! ثم قال: أدخلوه علىّ، فجيئى بأبى ذر بين قوم يقودونه، حتى وقف بين يديه، فقال له معاويه: يا عدوّ الله وعدوّ رسوله تأتينا كل ويوم فتصنع ما تصنع، أمّا لو أنى كنت قاتل رجلاً من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتك، ولكنى أستاذن فيك. فقال أبو ذر: ما أنا بعدوّ لله ولا لرسوله، بل أنت وأبوك عدوان لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر، ولقد لعنك رسول لله صلى الله عليه وآله ودعا عليك مرات ألا تشبع. فغضب معاويه وأمر بحبسه وكتب إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاويه أن إحمل جندباً على أغلظ مركب وأوعره، فوجه به مع من سار به الليل والنهار، وحمله على شارف ليس عليها إلقاب، حتى قدم به المدينه وقد سقط لحم

ص: ٢٤٠

فخذه من الجهد، ثم نفاه عثمان إلى الربذه (١).

ونختم هذا البحث بحديث نبوى شريف ورد فى كتاب أسد الغابه، فقد أسلم أبو ذر لثلاث سنوات قبل البعثه، وكان يعبد الله: «وَبَايَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَيَّ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً وَعَلَيَّ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مَرًّا» (٢).

٤ - كلمات المؤدعين لأبى ذر

جاء فى الكتب التاريخيه أن عقيلاً وحسنأ وحسينأ عليهم السلام وعمارأ رحمه الله قد ودعوا أبا ذر إلى جانب على عليه السلام وكل قال فى وداعه كلمه، ففقد قال عقيل:

«ما عسى أن نقول يا أبا ذر وأنت تعلم إننا نُحِبُّكَ، وأنت تُحِبُّنا! فاتق الله فان التقوى نجاه واصبر فان الصبر كرم» .

ثم تكلم الحسن عليه السلام فقال:

«يا عمأه، لولا أنه ينبغي للمودع أن يسكت، وللمشيّع أن ينصرف، لقصر الكلام وإن طال الأسف، وقد أتى القوم إليك ما ترى، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها، وشده ما إشتد منها برجاء ما بعدها، واصبر حتى تلقى نبيك صلى الله عليه وآله وهو عنك راض» .

ثم تكلم الحسين عليه السلام فقال:

«يا عمأه، إن الله تعالى قادر أن يغير ما قد ترى، والله كل يوم هو فى شأن، وقد منعك القوم دنياهم، ومنعتهم دينك، فما أغناك عمأ منعوك وأحوجهم إلى منعتهم، فأسأل الله الصبر والنصر، واستعد به من الجشع والجزع، فإن الصبر من الدين والكرم» .

ثم تكلم عمار رحمه الله فقال: «لا آنس الله من أوحشك، ولا آمن من أخافك، أما والله لو أردت دنياهم لأمنوك، ولو رضيت أعمالهم لأحبوك، وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلا الرضا بالدنيا، والجزع من الموت، مالوا إلى ما سلطان جماعتهم عليه، والملك لمن غلب، فوهبوا لهم دينهم، ومنحهم القوم دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين» .

ص: ٢٤١

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٨/٢٥٧. [١]

٢- ٢) أسد الغابه ١/٣٠١. [٢]

فبكى أبو ذر رحمه الله وكان شيخاً كبيراً، وقال: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمه إذا رأيتمكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وآله، ما لى بالمدينه سكن ولا- شجن غيركم، والله ما أريد إلماالله صاحباً، وما أخشى مع الله وحشه، توكلت على الله والصلاه والسلام على رسول الله وآله (١).

ص: ٢٤٢

١-١) الكافي ٨/٢٠٨ [١] بتصرف، شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٨/٢٥٣. [٢]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وفيه يبين سبب طلبه الحكم ويصف الإمام الحقّ

نظره إلى الخطبه

أشار الإمام على عليه السلام في هذا الكلام إلى عدّه مطالب:

- ١ - قبوله الحكومه من أجل رفع رايه الدين والعدل في المجتمع الإسلامي وإصلاح البلاد وأمان العباد واستقرار المظلومين.
- ٢ - أشار عليه السلام في جانب آخر من الخطبه إلى الاختلافات الفكرية لأصحابه فقال: لا- يمكن بسط العدل في ظل هذه الظروف واعطاء الحقوق إلى أصحابها، ويستحيل بلوغ هذه الأهداف ما لم تتحد قلوبكم وتتفق أعمالكم.
- ٣ - خاض عليه السلام في تعريف نفسه فقال: أنى أول من سمع رسول الله صلى الله عليه وآله فأمنت به، ولم يسبقني إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله بالصلاه.
- ٤ - أشار في القسم الأخير من الخطبه إلى صفات الزعيم المقتدر، فعدد أوصافه بكل دقه، وهي الأوصاف التي يؤدى توفرها في الزعيم الإسلامي إلى الديمومه والثبات.

ص: ٢٤٣

١- ١) سند الخطبه: أشار ابن الجوزى في «تذكره الخواص» إلى هذه الخطبه وقال: ابتدأ الإمام هذه الخطبه حين استوى على منبر الكوفه بالقول: الحمد لله وأومن به ثم خطب الخطبه، وأورد القاضى نعمان الفصل الأخير من الخطبه في المجلد الثانى من «دعائم الإسلام»، كما أشار إلى بعضها ابن أثير في «النهايه» فى ماده ظار وماده دعا (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٩٥) [١] وتدلل هذه المصادر على أنّ الخطبه وردت فى عدّه كتب قبل السيد الرضى.

«أَيَّتْهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، أَظَارَكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَغْوَعِهِ الْأَسَدِ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطَّلَعَ بِكُمْ سَرَارَ الْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ اعْجَاجَ الْحَقِّ» .

الشرح والتفسير

من الحوادث الأليمه فى التاريخ الإسلامى أن يبتلى إمام عالم وكفوء مقتدر كعلى عليه السلام بناس جهّال وعبده للأهواء يعيشون الناحر والفرقه، فقد كانوا وسائل سيئه لإقامه حكومه الحق والعدل، وقد رأينا منذ بدايه الكتاب لحدّ الآن فى مختلف خطب نهج البلاغه أنّ الإمام على عليه السلام كان يتألم بشده من هذا الأمر وكان دائم الشكوى، باحثاً عن مختلف الأساليب لعلاج أمراضهم النفسيه والأخلاقية، فقد قال عليه السلام مستهلاً هذه الخطبه: «أَيَّتْهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ» .

فقد ركز الإمام عليه السلام هنا على الجذور الأصلية لداء المجتمعات والأمم، ألا وهو الاختلاف والتشتت والذى يؤدى إلى النزاعات وهدر الطاقات، والعبارة: «الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ. . .» إشاره إلى حضورهم الجسمانى فى المجتمع وغيابهم الفكرى والروحى عن الحوادث الخطيره التى تصيب المجتمع، أمّا أهميه هذا الموضوع فقد دفعت بالإمام إلى ذكر مثل هذه العبارات مع اختلاف طفيف فى الخطب الأخرى، كالذى ورد فى الخطبه ٢٩ و ٩٧ حيث قال فى الأولى: «أَيَّتْهَا النَّاسُ، الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، وَالْمُخْتَلِفَةُ أَمْوَالُهُمْ» .

وقال فى الثانىة: «أَيُّهَا الْقَوْمُ الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ» .

ثم قال عليه السلام: «أَطَارُكُمْ (١) عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى (٢) مِنْ وَغَوَعِهِ (٣) الْأَسَدِ!» ، العبارة «أطاركم» بالنظر إلى أنّ «ظأر» جاءت فى اللغة بمعنى القابله، فهى تشير إلى مراده أنّى كالقابله الشفيقه قد رويتكم على الدوام من عين الحق الجياشه، لكنكم كنتم تفرون من ذلك دائماً، تفرون فراركم من الأسد، وهذه أسوأ حاله يمكن أن تعرض لإنسان فينفر من الحق ويهرب منه بالشكل الذى يفوق التصور، والعبارة «وَعَوَعَهُ الْأَسَدُ!» ، تعبير رائع فلم يقل «من الأسد» بل قال «وَعَوَعَهُ الْأَسَدُ!» يعنى إنّ هذا الحيوان على درجه من الجبن بحيث لا ينظر إلى أطرافه ليرى هل هو أسد أم لا، بل يهرب لمجرد سماعه الصوت، وهذا هو حال بعض الحيوانات التى تهرب إذا سمعت زئير الأسد مهما كانت المسافه بعيدة فى الصحراء.

ثم قال عليه السلام: «هَيْهَاتَ أَنْ أَطَّلَعَ (٤) بِكُمْ سَرَارَ (٥) الْعَدْلِ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ» .

قطعاً ليس للحق من إعوجاج ليراد قيامه، والمراد يخلطونه بالباطل وقد سعى أئمه الهدى عليهم السلام لتخليص الحق من شوائب الباطل، كما ليس فى العدل من ظلمه ليجلوها عنه، فالظلم الذى غالباً ما يخالط العدل ويلبسه على حال لا شك أنّ إزاله الظلمه عن العداله وتمييز الباطل عن الحق، يتطلب أعواناً وأنصاراً من أهل الوعى والتضحيه، ولم يكن للجهاال والغدره المشتتين كأهل الكوفه من قدره للإستعانه بهم فى إزاله الظلمات وتسويه الاعوجاجات، وهذا داء دوى عرض لإمام عادل وشجاع كعلى بن أبى طالب عليه السلام.

ص: ٢٦٦

١- ١) «أطأر»: من ماده «ظأر» على وزن ضرب تعنى فى الأصل المراقبه والمواظبه على الشىء ولما كان عمل القابله الإرضاع ومراقبه الطفل فقد استعملت هذه المفرده لها.

٢- ٢) «المعزى»: بمعنى السخله فى مقابل الضأن بمعنى الخروف.

٣- ٣) «وعوعه»: بمعنى الضراخ والضججه والزئير، وتطلق على الأموات المتداخله.

٤- ٤) «اطلع»: لها معنى اللانزم وهو الطلوع والظهور وكذلك معنى المتعدى، وهنا بالنظر لسرار مفعولها فقد وردت متعديه، والباء فى بكم للاستعانه أو السبب.

٥- ٥) «سرار»: من ماده «سر» تعنى فى الأصل آخر ليله من الشهر «ليه المحاق التام» ويراد بها شدّه الظلمه.

أشرنا سابقاً إلى إبتلاء الإمام عليه السلام بالأصحاب الذين اعتادوا الحياه المرفهه والدعه والراحه، وقد اعتمدوا مختلف الذرائع للهروب من الجهاد ومقاتله العدو، وقد سعى الإمام عليه السلام جاهداً لتطهير روحيتهم من هذه الأدران عن طريق الحث والتشجيع تاره واللوم والعتاب والذم تاره أخرى.

وقد أشار في هذه الخطبه إلى نقاط ضعفهم ليخلصها في ثلاث هي الاختلاف و التشتت وغياب العقل والهروب من الواقع، ثم صرّح إثر ذلك: كيف يمكن تطهير المجتمع من رواسب بنى أميه وعناصرهم المنافقه المتبقيه من عصر الجاهليه وإقامه الحق وتسويه العوج، وأنتم بهذه الأحوال.

وكما أراده الإمام عليه السلام في هذه الخطبه قانون كلى دائم يحكم كل عصر ومصر ويصدق في المشاريع السياسيه والاجتماعيه والعسكريه، وهى الأمه المتحده الواعيه التى تستقبل الحق وتعمل به مهما كان مريراً.

القسم الثاني: الهدف هو إقامة الحق وبسط العدل

«اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافِسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلَمَّا التَمَّاسَ شَيْءٌ مِنْ فُضُولِ الْخَطَامِ، وَلَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعْيَالَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الْأَضْيَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعْطَلَةُ مِنْ حُدُودِكَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنْابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَشِقِّنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالصَّلَاةِ» .

الشرح والتفسير

بين الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة أهداف الحكومه الإسلاميه - ومنها حكومته - بعبارات غايه في الروعه والدقه ليضمنها دروساً خالده لجميع الحكّام المؤمنين والمخلصين فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافِسَةً (1) فِي سُلْطَانٍ، وَلَمَّا التَمَّاسَ شَيْءٌ مِنْ فُضُولِ الْخَطَامِ» .

ربّما كانت هذه العبارة إشاره إلى أصل قبول بيعه الأمه على الخلافه، أو إشاره إلى المعارك التي وقعت بينه وبين الأعداء في صفين وأمثالها، وهي تعكس الأهداف الرئيسيه لحكّام الاستبداد الذين يهدفون إلى أمرين: الحصول على المنصب مهما كان الثمن والاستيلاء على الأموال أينما كانت ومن أى كان، والواقع ليس ذلك سوى حب الجاه وحب المال الذي ساد تاريخ البشر واجتاح حتى الحكومات المستبده، وقد أثبت الإمام عليه السلام عملياً ما قال، فقد

ص: ٢٦٩

١ - ١) «منافسه»: تعنى فى الاصل سعى فردين يريد كل منهما الظفر بشىء نفيس يمتلكه الآخر، فالواقع هى مسابقه شريفه بين فردين من أجل بلوغ كمال من الكمالات، ولكن قد تستعمل هذه المفرده فى الموارد السلبيه، كما تستعمل بشأن الأفراد الذين يتسابقون من أجل نيل المال والمقام، والمراد بها فى الخطبه المعنى الثانى.

اشترط على الإمام عليه السلام من قبل الشورى التي عينها عمر نيل الخلافة شريطه الانحراف عن مسار رسول الله صلى الله عليه و آله فلم يستجب الإمام عليه السلام كما وقف بقوة بوجه طلحه والزبير وما قدماه من اقتراح ليس بصواب، كيف يستجيب لهما الإمام عليه السلام هو يرى الدنيا كعطفه عنز، ثم بين الإمام أهدافه الأربعة من أجل قبول الحكومه وهي: «وَلَكِنْ لِنَرِدَ (١) الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظَهَرَ الْإِضْلَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعْطَلَّةُ مِنْ حُدُودِكَ» .

فالواقع أشار الإمام عليه السلام في العبارات الأربع التي أوردها كدافع أصليه لقبول البيعه، إلى برامج المعنويه في الحكومه ومشاريعه الماديه والظاهرية، فلا بد في الدرجه الأولى من إعادة معالم الدين التي تعين للناس مسيرتها نحو الله سبحانه وقد اندثرت بفعل الحكومات المستبده، ومن ثم الإصلاحات في كافة الشؤون الاجتماعيه والسياسيه والاقتصاديه والأخلاقية، ونصره المظلوم من الظالم وإجراء الحدود الإلهية بحيث يشعر المظلومون بالأمن والاستقرار حقاً، وإن كان هذه الأهداف الأربعة هي مراد الحكومات لعاشت المجتمعات السعاده والماديه والمعنويه، وإن كان هدفهم الحصول على المناصب ونيل الأموال والثروات، فليست هناك من نتيجته سوى الفساد والظلم وتعطيل الحدود الإلهية ومحو الأخلاق والدين، وهذا بحد ذاته درس لجميع المسلمين في كافة الأزمنه والعصور، وهذه هي الأمور التي ذكرها القرآن الكريم كأهداف لبعثه الأنبياء وتشكيل الحكومه الإسلامية، فقد ذكر التعليم والتهديب والنجاه من الظلال المبين كهدف لبعثه فقال: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (٢)، كما ذكر في موضع آخر هذا الهدف المتمثل ببسط العدل والقسط: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ. . .» (٣)، كما قال: «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» (٤).

ص: ٢٧٠

١- ١) يبدو أنّ هذه المفردة «لِنَرِدَ» من ماده وورد قد وردت خطأ في نسخه نهج البلاغه [١] لصبحي والصحيح لئرد بالتشديد من ماده الرد بمعنى الإعادة، كما وردت كذلك في أغلب نسخ نهج البلاغه. [٢]

٢- ٢) سورة الجمعه / ٢. [٣]

٣- ٣) سورة الحديد / ٢٥. [٤]

٤- ٤) سورة الحج / ٤١. [٥]

ثم إختتم الإمام عليه السلام هذا المقطع من الخطبه بذكر شهاده واضحه على صدق قوله بالنسبه لداوفعه فى قبول البيعه فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ، وَسَمِعَ وَأَجَابَ، لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالصَّلَاةِ» .

إشاره إلى أنّ الإسلام كان غريباً آنذاك، والرسول لوحده وليس إلى جانبه سوى خديجه عليها السلام زوجته الوفيه، فكان الجهر بالإسلام إزاء المشركين المتعصبين غايه فى الخطوره، فقد بايع رسول الله صلى الله عليه وآله وإنقاد له، فكان أول من إتحق به، ولم يكن همّه سوى طاعه الله سبحانه وإحياء الحق والتوحيد والعدل، ومازال ذلك الهدف هوالدافع له من أجل قبول البيعه.

ليس هناك من خلاف بين علماء الفريقين بشأن خديجه على أنّها أول إمرأه أمنت بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأنّ علياً عليه السلام أول من آمن به من الرجال، وإن تذرّع البعض من علماء العامه بصغر سن على حين أمن، ليسقطوا عنه تلك الفضيله ويلصقوها بالآخرين، ولكن يتضح خواء هذه الذريعه من خلال قبول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لإسلام على صلى الله عليه وآله وأبعد من ذلك تسميته بوصيه فى يوم الدار (1).

ص: ٢٧١

١-١) ورد شرح إسلام على عليه السلام وأنه أول من أسلم فى أغلب مصادر الفريقين والرد على التخرصات فى المجلد الثالث من هذا الكتاب، والمجلد التاسع، ص ٣٢٦ من نفحات القرآن. [١]

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالِدَمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ، وَإِمَامَهُ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ، وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضَيِّمُهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلَا الْجَانِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلَا الْحَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ، وَلَا الْمُزْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ، وَلَا الْمُعْطَلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام في المقطع الأخير من الخطبه في بيان خصائص ولاء العدل ودعاه الحق حيث أشار إلى ست صفات من صفاتهم، وهكذا يختتم هذه الخطبه التي أوردها بشأن الحكومه الإسلاميه، والحذير بالذكر أنه استهل الكلام بالعباره «وقد علمتم» حيث يرى الالتزام بهذه الصفات من الأمور العقليه الواضحه والمسلمه التي يعرفها كل شخص، أو على الأقل ينبغي معرفتها من كل شخص، فقال: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ وَالِدَمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ، وَإِمَامَهُ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ (١)» .

والواقع هو أن هذه الأمور تشكل أصول الحياه الفرديه والاجتماعيه للناس وهي الفروج، والأرواح، والأموال، والقوانين، وإدارت الدوله التي ينبغي للإمام المدبر والواسع الآفاق والعاقل المنصف أن يؤدي حقوقها جميعاً، فتأمن الأمة على أرواحها وأموالها وأعراضها،

ص: ٢٧٣

١-١) «النهمه»: تعنى فى الأصل الحاجه وشده الحب لشيء والمبالغه فى الحرص عليه.

وتطبق القوانين والأحكام وتوكل زعامه الأمة وإمامتها إلى الصالحين من أفرادها، فان كان إمام الخلق بخيلاً اقتصرت همته وشهوته على جمع الأموال وضحي بكل شيء من أجل بلوغ هذا الهدف، فلا- من أمن واستقرار، ولا- من احترام للقوانين والأحكام.

ثم قال عليه السلام في بيان الصفه الثانيه: «وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِلُّهُمْ بِجَهْلِهِ»، فلا شك أنّ العلم بالأحكام والموضوعات والأساليب الصحيحه تعدّ من أهم دعائم الحكومه وليس للجّهال من الأفراد قدره إداره شؤون الحكومه وإن صفت نيتهم واتصفوا بالورع والتقوى، فهم يقودون الأمة إلى المجهول بجهلهم.

وقال عليه السلام في بيان الصفه الثالثه: «وَلَمَّا الْجَافِي (١) فَيَقْطَعُهُمْ بِجَفَائِهِ»، فمن أبرز صفات والى العدل العطف والمحبه والسماحه والمدارسه، ونعلم بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد استقطب القلوب البعيده عن الحق بهذه الشفقه والمحبه، وهذه رحمته إلهيه كبرى كما وصفها القرآن الكريم بالقول: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأْمَأَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ...» (٢).

ثم قال عليه السلام فى الصفه الرابعه: «وَلَا الْخَائِفُ (٣) لِلدُّوَلِ (٤) فَيَتَّخِذَ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ»، وهذا هو البلاء الذى أصاب عثمان، وقد سدّد الضربات المهلكه للمجتمع الإسلامى بحيث لا يمكن معالجتها، فقد أغدق أموال بيت المال المسلمين على قرابته وبطانته ومتملقيه، مما أدى إلى قيام المظلومين عليه حتى قتلوه فظهرت الخلافات العظيمه بين الناس آنذاك وما زالت آثارها باقيه.

ثم قال عليه السلام فى الصفه الخامسه: «وَلَا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاتِعِ (٥)»، فأهم عامل للحكم بالظلم والجور هو الرشوه التى يقدمها أصحاب الثراء والقدره فيغيرون مسار القضاء ليصدر أحكامه لصالحهم ضد أصحاب الحق فيحولون دون إجراء الحق والعدل.

ص: ٢٧٤

١-١) «الجافى»: من ماده «جفاء» تعنى قى الأصل العنف وأخذ الشيء.

٢-٢) سوره آل عمران / ١٥٩. [١]

٣-٣) «الخائف»: من ماده «خيف» بمعنى الظلم والجور وتعنى فى الأصل الانحراف فى الحكم التمييز.

٤-٤) «دول»: جمع «دوله» بمعنى المال.

٥-٥) «المقاطع»: جمع «مقطع» بمعنى آخر كل شيء، كما تطلق هذه المفرده أحياناً على الحدود الإلهيه التى تنتهى بجرم المجرمين وقد وردت بهذا المعنى فى العباره، وفى إشاره إلى أنّ القاضى إن كان مرتشياً فإنه لا يأذن باجراء حدود الله تعالى.

طبعاً فلسفه القوانين والمحاکم حفظ حقوق الضعفاء، وإلاً فالأقوياء يحفظون حقوقهم، وإن تسللت هذه الرشوه إلى المحكمه ونفذت إلى ذهن القاضى والتي لا يقوى على دفعها سوى الأثرياء والأقوياء، فعندما تسلب قدره الضعفاء على الدفاع فتضيع حقوقهم، وهذا هو الأمر الذى نشهده فى كافه أنحاء عالمنا المعاصر، ومن الضرورى الالتفات إلى هذه النقطه أن الرشوه لا تقتصر على الجانب المالى، فقد تتخذ أشكالاً أخرى كتصفية الحسابات السياسيه والوصول إلى المناصب والمقامات والشهوات الجنسيه والمدح الكاذب وأمثال ذلك، وهكذا تتحرك عجله المحكمه باتجاه الظلم والجور.

وقال عليه السلام فى الصفه السادسه الأخيره: «وَلَا الْمُعْطَلُ لِلسُّنَّةِ فِيهِلِكَ الأُمَّةُ»، طبعاً يمكن أن يكون المراد بالسنة سنه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أو السنن والقوانين التى أمضاها الله فى عالم الخلقه أو السنين الاجتماعيه الحسنه التى أشير إليها فى عهد مالك الأشتر: «وَلَا تَنْقُضُ سُنَّةَ صَالِحَةٍ عَمِلَ بِهَا صُدُورٌ هَذِهِ لَأُمَّةٍ»، أو جميعها وإن بدا المعنى الأول هو الأقرب.

آفه الحكومات

كما ورد فى بدايه هذه الخطبه، فهى تتألف فى الواقع من ثلاثه أقسام مرتبطه مع بعضها تماماً، الأول ذم الإمام عليه السلام القوى الجاهزه التى ينبغى لها أن تنشط فى إقامه الحق والعدل، لكنّها عاشت الضعف والجز بفعل الاختلاف وعدم توظيف العقل والفكر، ثم أشار إلى أهداف ودوافع حكومه العدل الإسلاميه والإنسانيه، بينما ذكر آخر الخطبه الأركان الأصلية لمواصفات حكام العدل، طبعاً إن كانت القوى المؤمنه والمتحدده من جانب، والأهداف والدوافع المقدسه والوالى الذى يتحلى بالصفات الست المذكوره من جانب آخر، فإن ذلك سيؤدى إلى قيام حكومه من شأنها حفظ الأمن والاستقرار وإحياء القيم الإنسانيه، وبالعكس لو:

حل البخل بدل الكرم.

والجهل بدل العلم.

والعنف بدل الرأفة والرحمة.

وخاض الحكّام فى البذخ ونهب الأموال والثروات والتميز والظلم والجور، وتسللت الرشوة إلى الجهاز القضائى، وعطلت السنن الحسنه، فتأسس حكومه فاسده ينعلم فيها الدين كما تزول فيها الدنيا. . . ويا له من درس وعبره لحكّام الحق.

ص: ٢٧٤

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

يَعِظُ فِيهَا وَيَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا

نظره إلى الخطبه

تشمثل هذه الخطبه كما ورد في عنوانها على المواعظ والإرشادات والنصائح والوصيه بالزهد في الدنيا، وتتألف من أربعة أقسام هي:

١ - حمد الله والثناء عليه مع ذكر صفات الله سبحانه الخالصه والشهاده الخالصه للنبي صلى الله عليه وآله بالنبوه.

٢ - إشاره إلى انتهاء الأجل وسلخ الإنسان من كاهه ممتلكاته التي حازها في الحياه الدنيا.

٣ - لزوم الاعتبار بحياه الأمم السالفه، وأولئك الذين جمعوا الأموال والثروات، فكان عاقبه دورهم أن أصبحت قبورهم، كما خلفوا للآخرين أزواجهم وأموالهم.

٤ - ضروره اغتنام فرض الدنيا وإعداد المتاع والزاد للآخره.

ص: ٢٧٧

١-١) سند الخطبه: نقلها بصوره متفرقه الآمدى - من علماء القرن الخامس - في كتاب «الغرر»، ويفهم من اختلافها مع ما ورد في نهج البلاغه أنها كانت في مصدر آخر غير نهج البلاغه، كما أشار ابن الأثير المتوفى عام ٦٠٦ هـ في «النهايه» إلى جوانب من هذه الخطبه (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٩٨).

«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى، وَعَلَى مَا أَبْلَى وَابْتَلَى. الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ، وَالْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ. الْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ الْعُيُونُ. وَتَشْهَدُ أَنَّ لِلَّهِ غَيْرَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيَّهُ وَبَعِيثُهُ شَهَادَةٌ يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِغْيَانُ، وَالْقَلْبُ اللَّسَانُ» .

الشرح والتفسير

استهل الإمام عليه السلام خطبه بحمد الله والثناء عليه وذكر أوصافه الخاصة فقال: «نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَخَذَ وَأَعْطَى، وَعَلَى مَا أَبْلَى وَابْتَلَى» .

والمراد من «أخذ» سلب النعم والآلاء الإلهية، والمراد من «أعطى» وهبها، ومن «أبلى» إعطاء النعمة و «إبتلى» الامتحان بواسه أخذ النعم، ومن هنا ذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أنّ هاتين العبارتين تفسيريتين (أى أن أخذ تعادل أبلى وأعطى تعادل ابتلى)، لكن يحتمل أن تكون الأولى إشاره إلى النعم الماديه والثانيه إشاره إلى النعم المعنويه، لأنّ المفرده «أخذ» كثيراً ما تستعمل فى الأمور الماديه.

على كل حال يستفاد من العبارات المذكوره أنّ سلب النعمه قد يكون نفسه نعمه، لأنّ وفور النعمه سبب الغرور والابتعاد عن الله ومقاطعته الخلق، أضف إلى ذلك فإنّ الحمد تجاه سلب النعم علامه على التسليم المطلق لمشيئه الله.

ثم أشار إلى ذكر ثلاثه أوصاف أخرى من أوصاف الله سبحانه وتعالى والتي تشكل فى

الواقع تحذيراً لكافة الأفراد الذين يراقبون أنفسهم ونياتهم فقال عليه السلام: «الْبَاطِنُ لِكُلِّ خَفِيَّةٍ (١)، وَالْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ. الْعَالَمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ، وَمَا تَخُونُ الْعُيُونُ» .

فهذه الصفات تدلّ بوضوح على أنّ علم الله سبحانه علم حضوري، يعني أنّه حاضر وناظر في كل مكان، فالخفيات والعلنيات لديه على حدّ سواء، والحضور والغياب عنده واحد، فهو يعلم أسرار الصدور وخائنه الأعين، وهو علم بباطن كل شخص وكل شيء.

حقاً إنّ الإنسان لو تأمل حقيقته الحمد والثناء وذكر هذه الصفات وأمن بها إيماناً راسخاً لأدرك أنّ العالم حاضر عند الله تبارك وتعالى، ولله حضور في روحه وفكره، ولما قارف السيئه، بل لما فكر فيها.

ثم إختتم هذا المقطع من الخطبه بالشهاده لله بالوحدانيه وللنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالنبوه، فقال عليه السلام: «وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيُّهُ (٢) نَجِيَّهُ وَبَعِيثُهُ (٣) شَهَادَةٌ يُوَافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِعْلَانُ، وَالْقَلْبُ اللَّسَانَ» .

طبيعي أنّ الشهاده بهذين الركنين الأصليين الذين يشكلان أسس الإيمان تدعو الإنسان إلى نفي معبود آخر وتحذر من عباده الشيطان وهوى النفس الأماره، كما تدعو الشهاده بالنبوه إلى طاعه الإنسان لأوامر النبي صلى الله عليه وآله، ولا سيما الشهاده التي لا تقتصر على اللسان بل تتعزز بالقلب وروح الإنسان.

ص: ٢٨٠

١-١) اللام في «خفيه» بمعنى في أو بمعنى مع وكذلك اللام في «لكل سريره» .

٢-٢) «نجيب»: من ماده «نجاهه» الإنسان أو الشيء المصطفى والنفيس.

٣-٣) «بعيث»: من ماده «بعثه» بمعنى مبعوث.

و منهياً: «فإنه والله الجِدُّ لَمَّا اللَّعِبُ، وَالْحَقُّ لَالْكَذِبُ. وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيَهُ، وَأَعْجَلَ حَادِيَهُ. فَلَا يُعَزِّنُكَ سِوَاكَ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَخَذَرَ الْإِقْلَامَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ - طُولَ أَمَلٍ وَاسْتِتْعَادَ أَجَلٍ - كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مِأَمِنِهِ، مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَائِيَا، يَتَعَاطَى بِهِ الرَّجَالُ الرَّجَالَ، حَمَلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكًا بِالْأَنَامِلِ. أَمَّا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ بَعِيدًا، وَيَبْنُونَ مَشِيدًا، وَيَجْمَعُونَ كَثِيرًا! كَيْفَ أَصْبَحَتْ بِيُوتُهُمْ قُبُورًا، وَمَا جَمَعُوا بُورًا؛ وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ؛ لَأَفَى حَسَنِهِ يَزِيدُونَ، وَلَا مِنْ سَيِّئِهِ يَسْتَعْتِبُونَ!» .

الشرح والتفسير

حذر الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه الجميع في أنّ هذه الحياه الدنيا إلى زوال ولا بدّ من مفارقه هذه الدنيا عاجلاً أم آجلاً والالتحاق بالآخرة وتحمل تبعات الأعمال فقال: «فإنه والله الجِدُّ لَمَّا اللَّعِبُ، وَالْحَقُّ لَالْكَذِبُ. وَمَا هُوَ إِلَّا الْمَوْتُ أَسْمَعَ دَاعِيَهُ (١)، وَأَعْجَلَ حَادِيَهُ (٢) .

ولما كان الموت حقيقه واقعه بالنسبه لجميع الأفراد، وقضيه قطعيه تأبى الاجتناب، فقد

ص: ٢٨١

١- ١) اسمع فعل وداعى فاعل وضميره يعود إلى الموت ومفعوله محذوف وهو جميع الناس، أى إنّ داعى الموت أوصل صوته لیسع الجميع.

٢- ٢) «حادى»: من ماده «حدا» من يسوق الجمال بسرعه والعباره فعل وفاعل ومفعول محذوف كالجمله السابقه.

أَكَّدَ الإمام عليه السلام كلامه بأنواع التأكيدات (١)، والتي بلغت عشره أنواع حسب قول بعض شراح نهج البلاغه، فقال أن صوت داعي الموت يطرق الأذن من كل جانب وقد دوى صوت الرحيل ليملا- كاهه أرجاء العالم، وملك الموت لا يفرق بين كهل وشاب وطفل، فقد كمن للجميع ولا- ينتظر سوى أمر الله، ثم قال عليه السلام: «فَلَا يُعَزِّنُكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ وَحَدَرَ الْأَقْلَالَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ - طُولَ أَمَلٍ وَاسْتَيْعَادَ أَجَلٍ - كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَازْعَجَهُ (٢) عَنْ وَطَنِهِ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ»، يمكن أن يكون للعبارة «فَلَا يُعَزِّنُكَ سَوَادُ النَّاسِ»، معنيان:

الأول: إن رأيت الناس أحياء وسالمين فلا يخذعك ذلك ولا يغفلك من الموت.

والثاني: لا تخذعك جماعات الناس لأن تفكر في الحياه لا الموت، ومفهوم العبارة: «وَحَدَرَ الْأَقْلَالَ»، ابعاد النفس (حسب طنه) عن الفقر بجمع الأموال، والعبارة: «وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ» تعني تصور الشخص أنه بمأمن من عاقبه عمله بسبب الآمال الفارغه بأن الوقت مازال مبكراً على الموت، ولكن رغم كل هذه الآمال والأمانى، فقد فاجأهم الموت وأخرجهم بسرعه وعنف من وطنهم المألوف وطردهم من مكانهم الآمن، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بأن ذلك في الوقت الذي يحملون فيه على الأولاد وقد تناولتهم أيدي الرجال ليمسكهم بالأنامل، وكأنهم متنفرون ومرعبون من حمل توابيتهم بكامل أيديهم: «مَحْمُولًا عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَائِيَا، يَتَعَاطَى بِهِ الرَّجَالُ الرَّجَالَ، حَمَلًا عَلَى الْمَنَاكِبِ وَإِمْسَاكًا بِالْأَنَامِلِ».

فقد رسم الإمام عليه السلام صورته واضحه بهذه العبارات الصريحه والبلغه المؤثره لكيفيه نهايه حياه الأثرياء المرفهين والمغرورين بالجاه والمنصب، ولاسيما حين يدركهم الموت المفاجيء، فهي عبارات تمزق كاهه الحجب التي تسدل على عين الإنسان، كما توظف كل سامع من نوم غفلته.

ثم أضفى عليه السلام صورته أخرى على هذا المعنى مواصله لكلامه فقال: «أَمَّا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَأْمُلُونَ

ص: ٢٨٢

١- ١) هذه الأنواع العشره من التأكيد هي: «ان» وضمير الشأن «إن» اعتبرنا الضمير في «أنه» ضمير الشأن والجمله الاسمييه والقسم بلفظ الجلاله والجد والألف واللام التي دخلت عليه ولا اللعب والحق ولا الكذب والاستفاده من الحصر في العبارة (ما هو إلّا. .).

٢- ٢) «ازعج»: من ماده «ازعاج» بمعنى الاقتلاع والاخراج.

بَعِيداً، وَيَبْنُونَ مَشِيداً (١)، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً! كَيْفَ أَصِيبَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً، وَمَا جَمَعُوا بُوراً؛ وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ؛ لَأَفَى حَسَنِهِ يَزِيدُونَ، وَلَا مِنْ سَيِّئِهِ يَسْتَعْتِبُونَ!

نعم، يفوق الإنسان من نوم الغفلة حين يصفعه الأجل، وفي تلك اللحظة تغلق صحف الأعمال تماماً، فلا من شيء يمكن إضافته إلى الحسنات، ولا يمكن تقليل شيء من السيئات، ولو سلب الإنسان حياته بينما بقيت صحف العمل مفتوحة والسبيل مشرع أمام تداركها فلا عقبه ولا ضير، إلا أن المشكله تكمن في غلق صحيفه الأعمال فلا مجال لتداركها، وهذا ما يجعل الإنسان يعيش الهم والغم.

ص: ٢٨٣

١- ١) «مشد»: من ماده «شيد» على وزن بيد، لها معنيان: الأول بمعنى الارتفاع والآخر بمعنى الجص ومن هنا يطلق على القصور المرتفعه والعاليه التي تعانق السماء باقصور المشيده، كما تطلق على القصور المحكمه لتبقى محصنه من حوادث الدهر (في مقابل مساكن المستضعفين التي تبنى عاده من الطين).

«فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَزَ [بَرَزَ] [مَهْلُهُ، وَفَازَ عَمَلُهُ. فَاهْتَبَلُوا هَبَلَهَا، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا: فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَرْوِدُوا مِنْهَا الْأَعْمَالَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ. فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ. وَقَرَّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ [للزوال]» .

الشرح والتفسير

خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة بعد مقدمات دقيقه أوردتها في بدايه ووسط هذه الخطبه بشأن علم الله بكل شىء سيما بأعمال العباد ونياتهم وكذلك قرب الموت والاعتبار بحياه الماضين فقال: «فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَزَ (١) بَرَزَ مَهْلُهُ (٢)، وَفَازَ عَمَلُهُ». فمن الواضح أن التقوى إذا تجذرت في أعماق قلب الإنسان ظهرت ثمارها على يديه ولسانه وعينه وسمعه، وذلك لأن التقوى ملكه نفسه تتمثل بخشيه الله وهى الدافع القوى للإتيان بالأعمال الصالحه وحاجز عن الذنوب والمعاصى.

ثم واصل الإمام كلامه فقال: «فَاهْتَبَلُوا هَبَلَهَا (٣)، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا»، إشاره إلى أن

ص: ٢٨٥

١-١) «برز»: من ماده «بروز» بمعنى الظهور والسبقه، وتوضيح ذلك أن هذه المفرده تكون أحياناً على هيئه ثلاثى مجرد (على وزن ضرب) بمعنى الظهور، وأحياناً أخرى من باب تفعيل (على وزن صرّف) بمعنى السبقه، وقد استعملت فى العبارة الثانى، وإن وردت بصيغه الثلاثى المجرد فى بعض النسخ.

٢-٢) «مهله»: له معنى الاسم المصدرى وتعنى الوفق والمداراه، كما تستعمل بمعنى الفرصه للقيام بالعمل الصالح.

٣-٣) «هبل»: نعى أحياناً الهلكه وفقدان الشىء أحياناً، وأخرى بمعنى الغنيمه والاهتبال بمعنى الخدعه، كما يعنى الاغتنام والاستيلاء على شىء، والمعنى الثانى هو المراد بالعبارة.

الجَنَّة لا- تعطى لأحد بالمجان، كما لا- تتأتى من خلال الظن والتصور والخيال والزعم الفارغ، فمفتاح الجَنَّة الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة تنبعث من التقوى.

ثم قال عليه السلام فى مواصلة لشرح وضع الدنيا والآخرة ومنزله كل جماعه: «فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِيَتَزَوَّدُوا مِنْهَا الأَعْمَالِ إِلَى دَارِ القَرَارِ»، فالنظره الإسلاميه التى تعرض لها القرآن الكريم ونهج البلاغه مراراً تكمن فى أنَّ الدنيا دار ممر وأنها قنطره وميدان للتدريب وبالتالى فهى متجر ومقدمه للآخرة الموضوع الأصيلى للإنسان، وإن اعتمدنا هذه النظره للدنيا آنذاك سيبدو لنا كل شىء بصيغه أخرى وستحول دون مقارفتنا للذنوب والظلم، وتسوقنا نحو الخير والاحسان.

أمياً أتباع المدارس الماديه التى ترى الدنيا ولذاتها هدفها النهائى، وقد غفلت تماماً عن الآخرة، فليس هناك من حد لتلوئها بالذنوب والنزاعات من أجل الاستحواذ على الأموال والمناصب الظاهريه، وعليه فلا أمل فى إطفاء غائله المعارك والنزاعات بينها، وأخيراً خلص الإمام إلى نتيجة رائعه عميقه المعنى فقال: «فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ (١). وَقَرَّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ (٢)»، فى إشاره إلى أنَّ الوقت ضيق والموانع كثيره وزمان الرحيل مجهول تماماً، ولا ينبغى أن يقتصر التأهب على الكهول، بل لابد أن يعيش ذلك التأهب حتى الشباب على الدوام، فما أكثر من بقى من الآباء الكهول والعجزه، بينما رحل الشباب الأشداء.

نتيجه الخطبه

أشار الإمام فى هذه الخطبه إلى أمور مهمه يمكن إيجازها فى ما يلى:

١ - لفت الأنظار فى بدايه الخطبه إلى حضور الله سبحانه فى كل مكان وعلمه بخفايا الإنسان وباطنه، ليراقب الجميع أعمالهم.

ص: ٢٨٦

١- ١) «أوفاز»: جمع «وفز» على وزن نبض السرعة والعجله والاستعداد للسفر.

٢- ٢) «الزِّيَال»: بمعنى الفراق والعباره «قربوا الظهور للزِّيَال» تعنى أعدوا المراكب للرحيل من الدنيا ولازمه ذلك الإتيان بالأعمال الصالحة والتوبه من الذنوب وأداء حقوق المخلوق والخالق.

٢ - عدّ الشهاده الحقيقه بالوحدانيه للحق والنبوه للنبي صلى الله عليه و آله من العلم الذى ينسجم فيه الظاهر والباطن وينفصل عن كل نفاق.

٣ - إلفات إنتباه الجميع إلى قرب الموت والرحيل عن الدنيا وهو سبب اليقظه والعلم.

٤ - دعى مخاطبيه لمطالعه تاريخ الماضين من خلال الكتب والآثار التى خلفوها فى المدن والمناطق، ليعلموا أنّ ذلك المصير ينتظرهم مهما كانوا ومهما بلغوا.

٥ - دعى الجميع إثر تلك المواعظ والإرشادات إلى الروع والتقوى، التقوى التى تخترق أعماق قلب الإنسان وتظهر آثارها على جميع أفعاله وممارساته.

٦ - يذكر كافه مخاطبيه بهذه النقطه وهى عدم إعطاء الجنّه لأحد دون حساب، بل لها ثمن لا يبلغها العبد إلّابيه.

٧ - يستعرض أخيراً هذا الأمر فى أنّ الدنيا ممر ولا مقر، متجر ينبغى للجميع التزود منه فيستعدوا فى كل آن للرحيل والانطلاق.

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

يُعْظَمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَيَذُكُرُ الْقُرْآنَ وَالنَّبِيَّ وَيَعْظُ النَّاسَ

نظرة إلى الخطبة

يتضح من النظرة الإجمالية إلى الخطبة أنها تتألف من خمسة أقسام مهمّة هي:

القسم الأول: يتحدث عن عظمة الله وقدرته المطلقة وسجود كافة المخلوقات لذاته المقدّسه.

القسم الثاني: إشاره إلى عظمة القرآن الكريم وخلوده.

القسم الثالث: في النبي صلى الله عليه وآله وأنّ الله سبحانه أرسله بعد فتره وختم به النبوه.

القسم الرابع: الحديث عن تفاهه الدنيا ودعوه الجميع لليقظه والتعرف على الدنيا والتزود منها.

القسم الخامس: وعظ المخاطبين والعود على التذكير بالقرآن وعظمته ولزوم التدبر في آياته، وهكذا يعرض اطروحه كامله لأهل الحق لنيل السعاده.

ص: ٢٨٩

١-١) سند الخطبة: لم يجد كاتب مصادر نهج البلاغه سنداً آخر لهذه الخطبة، سوى ما قاله ابن أبي الحديد من أنّ ما ورد في هذه الخطبة جزء اقتطفه السيد الرضى من خطبه طويله، فيراه دليلاً على أنّ أصل الخطبه وإن لم يشر إلى سندها، ولكن يحتمل أن يكون كلام ابن أبي الحديد استنباطاً لهذه الخطبه في نهج البلاغه، لأنّ السيد الرضى بيّن من خلال تعبيره «منها ومنها» والذي كرره في هذه الخطبه أنّه قطعها، كما أنّ عدم إرتباط أجزاءها يفيد أنّ أصل الخطبه طويل جداً، وقد ذكرها الآمدى في «الغرر» ويحتمل أنّه نقلها من مصدر آخر.

«وَأَنْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ بِأَزْمَتَيْهَا، وَقَذَفَتْ إِلَيْهِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُونَ مَقَالِيدَهَا، وَسَيَّجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ الْأَشْجَارُ النَّاضِرَةَ، وَقَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النَّيْرَانَ الْمُضِيئَةَ، وَآتَتْ أَكْلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الثَّمَارُ الْيَانِعَةَ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام فى هذا المقطع فى بيان طائفه من أوصاف الله تبارك وتعالى، وأشار بخمس عبارات إلى أمور دقيقه بهذا الشأن فقال: «وَأَنْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ بِأَزْمَتَيْهَا (١)» .

فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام شبه الدنيا والآخرة بالحيوانات السلسه والمروضه التى أسلمت زمامها فيقودها حيث يشاء، ثم قال عليه السلام فى العبارة الثانية مؤكّداً ذات المعنى السابق بصيغته أخرى: «وَقَذَفَتْ إِلَيْهِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُونَ مَقَالِيدَهَا (٢)» ، فهو يفتح ما يشاء ويغلق ما يشاء ويفعل كل ذلك على أساس الحكمة، وأشار فى العبارة الثالثة إلى سجود الأشجار والناضره لذاته المقدسه وقال عليه السلام: «وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ (٣) الْأَشْجَارُ النَّاضِرَةَ» .

صبغاً التركيز على الأشجار الناضره لا يعنى الحصر، بل نموذج من أجمل الكائنات الحيه

ص: ٢٩١

١-١) «أزمه»: جمع زمام اللجام.

٢-٢) «مقاليد»: قال أغلب أرباب اللغة مقلد وقال البعض الآخر جمع مقلاد بمعنى مفتاح، وقال صاحب «لسان العرب» أنّ أصلها فارسى كليلد الذى يعنى المفتاح، كما قال صاحب «لسان العرب» تأتى أحياناً بمعنى الخزائن إلّا أنّ المعنى الأول أنسب وأكثر إنسجاماً مع العبارة أزمه فى الجملة السابقه وقذفت فى هذه الجملة.

٣-٣) «غدو»: جمع «غدوه» بمعنى الصباح، و «الأصال» جمع أصل على وزن رسل وهى جمع من ماده أصل بمعنى العصر وآخر النهار واعتبر بعض أرباب اللغة الأصال والأصل جمع أصيل.

لعالم الخليقه، كما يشير الغدو والآصال إلى جميع الأوقات، كقولنا إنا فى خدمه نشر المبادئ الإسلاميه ليل ونهار، أى فى جميع الأحوال والأوقات، ومن هنا أطلق القرآن الكريم القول: «وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ» (١)، كما يحتمل أن تكون آثار الله وعظمته أوضح فى الأشجار حين شروق الشمس وغروبها أكثر من أى زمان، ويمكن أن يكون هذا السجود بلسان الحال، لأن نظامها الدقيق يعكس علم خالقها وقدرته المطلقه، كما يمكن أن يكون بلسان القول، وبناءً على تمتع كافه ذرات كائنات العالم بالعلم والشعور وتسييحها لله سبحانه عن علم وسجودها له.

وقال عليه السلام فى العبارة الرابعه: «وَقَدَحْتُ (٢) لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا (٣) النَّيِّرَانَ الْمُضِيئَةَ» .

وهذا من عجائب القدره الإلهيه بأن يخلق ماده بين الماء والتراب تكون مركزاً للنور والضوء، وذلك الضوء الذى تحل من خلاله أغلب مشاكل الإنسان.

ثم قال عليه السلام: «وَأَتَتْهُ أَكْلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الثَّمَارُ الْيَانِعَةُ (٤)» .

اسجام الآيات والروايات

تتفق عبارات الخطبه التى تضمنت آثار التوحيد الله وعظمته وما ورد فى الآيات والقرآنيه، فقد ورد فى موضع من القرآن الكريم: «لَهُ الْحَمِيدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (٥)، وفى موضع آخر: «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» (٦)، وكذلك: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ . . .» (٧)، وورد أيضاً: «الَّذِي

ص: ٢٩٢

١-١) سورة الرحمن / ٦. [١]

٢-٢) «قدحت»: من ماده «قدح» على وزن مدح بمعنى ضرب الحجر بالسندان لتوليد شعله النار التى كانت شائده سابقاً، ثم وردت بمعنى اشتعلت.

٣-٣) «قضبان»: جمع قضيب بمعنى عضن الشجره وقضب على وزن نبط بمعنى الفاكهه.

٤-٤) «يانعه»: من ماده «ينع» على وزن منع بمعنى نضج الفاكهه.

٥-٥) سورة القصص / ٧٠. [٢]

٦-٦) سورة الزمر / ٦٣. [٣]

٧-٧) سورة الحج / ١٨. [٤]

جَعِيلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ» (١)، وقال: «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ. . .» (٢).

على كل حال كلما تأملنا آيات القرآن الكريم وخطب نهج البلاغه كهذه الخطبه اتضح لنا عظمه الحق تبارك وتعالى وقدرته ونعمته فتشير الدنيا حس الشكر له لنتوى من العين الصافيه لفرات معرفته وتعرفنا على صفات جماله وجلاله.

ص: ٢٩٣

١-١) سورة يس / ٨٠. [١]

٢-٢) سورة الانعام / ١٤١. [٢]

منها: «وَكِتَابُ اللَّهِ بَيِّنٌ أَظْهَرَ كُمْ نَاطِقٌ لَأَيِّعِيَا لِسَانُهُ، وَبَيَّتْ لَاتُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعَزَّ لَاتُهْزَمُ أَعْوَانُهُ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع القصير من كلامه بالحديث عن أهميته كتاب الله القرآن الكريم، وقد أدى حق المطلب بثلاث عبارات قصيرة وبلغه: «وَكِتَابُ اللَّهِ بَيِّنٌ أَظْهَرَ كُمْ (١) نَاطِقٌ لَأَيِّعِيَا (٢) لِسَانُهُ، وَبَيَّتْ لَاتُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَعَزَّ لَاتُهْزَمُ أَعْوَانُهُ» .

فقد أشار في العبارة الأولى إلى هدايه القرآن في كل زمان ومكان وتحت أي ظروف، وإن بدا صامتاً، لكنّه تحدث بمئه لسان، وقد سمعه كل من جلس إليه ومنحه آذاناً صاغية، فهو لا ينفك يلقي الإنسان دورس الحياه السعيده، والعبارة: «لَأَيِّعِيَا لِسَانُهُ» ، يمكن أن تكون إشاره إلى أنّ تقادم الزمان لا يؤثر مطلقاً على حقائق القرآن الكريم، وهو غض طرى على الدوام كما صورته الأخبار والروايات (٣).

وأشار في العبارة الثانية إلى نقطه أخرى حفظ القرآن الكريم، فكما يحفظ البيت المستحکم

ص: ٢٩٥

١-١) «أظهر»: جمع «ظهر» كل شيء، والتعبير بين أظهركم تعني في أغلب الموارد الدفاع عن الشيء، وذلك لأنّ الأفراد إن أرادوا الدفاع عن منطقهم ولوا إليها ظهورهم وإلتفوا حولها واستقبلوا العدو، ثم استعملت هذه المفرده حين يكون الشخص وسط جماعه سواء دافعوا عنه أم لم يدافعوا، وهذا هو المعنى المراد بها في العبارة.

٢-٢) «يعيى»: من ماده «عى» على وزن حى بمعنى التعب والعجز، وقال الراغب في المفردات تعني في الأصل العجز الذى يعرض لجسم الإنسان إثر كثره المشى، ثم اطلقت على كل تعب وعجز.

٣-٣) ورد هذا الكلام في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «هو في كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم

القيامة» (بحار الانوار ٢/٢٨٠). [١]

ذا الأعمده القويه أصحابه من مخاطر الحوادث والحراره والبروده والحيوانات الوحشيه والأعداء واللصوص، فإنّ القرآن الكريم يتكفل بحفظ أتباعه من الانحراف والضلال ووسوسه الخناسين وإلقاءات الشياطين.

وأشار فى العبارة الثالثه إلى هذه الحقيقه وهى أنّ قدره الإنسان لا تقهر إن لاذ بالقرآن وهبّ لنصرته، وذلك لأنّ قدره هدايه القرآن تستند إلى قدره الله سبحانه وقدره الله قاهره لا تغلب، وبفعل مصداق الآيه الشريفه: «إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ. . .» (١)، فمن تأيد بنصر القرآن لن يهزمه عدو.

القرآن الناطق

لعل العبارة التى وردت فى هذا المقطع من الخطبه والتى عبرت عن القرآن الكريم بأنّ «نَاطِقٌ لَيَعْيَا لِسَانُهُ» تشير هذا السؤال: كيف التوفيق بين هذه العبارة وما ورد عن الإمام فى الخطبه ١٥٨ بشأن القرآن إذ قال عليه السلام: «ذَلِكَ الْقُرْآنُ، فَاشْتَتِطُّوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرْكُمْ عَنْهُ» .

وكذلك العبارة التى وردت فى الخطبه ١٨٣ إذ قال عليه السلام: «فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ»، أو ليس هناك من تضاد بين هذه العبارات؟

تتضح الإجابة على هذا السؤال من أدنى دقه وتأمل، بعبارة أخرى فإنّ العبارات المذكوره تفسر بعضها البعض الآخر، لأنّ القرآن حين يعبر عن القرآن بالصامت والناطق فمفهوم ذلك أنّ كل تعبير ناظر لشيء، مثلاً- يمكن القول: القرآن صامت من حيث الظاهر، لكنّه فى الواقع تحدث بصوت جلى بليغ، أو أنّه صامت إزاء الأفراد السطحيين بينما ناطق هو تجاه العلماء المفكرين، أو أنّه ناطق فى مواصلة الطرق العمليه الأصوليه، أمّا بالنسبه لتطبيقها على مصاديقها استنباط الأحكام الفرعيه (كقضيه التحكيم فى حادثه معركة صفين)، فيجب على المجتهدين أن ينطقوا عنه، ويمكن جمعها معاً فى مفهوم جامع لكلام على عليه السلام وسيأتى مزيد من التوضيح فى ذلك هذه الخطبه.

ص: ٢٩٦

القسم الثالث: رساله خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله

منهياً: «أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ، وَتَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ، فَقَفَى بِهِ الرُّسُلَ، وَخَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ، فَجَاهَدَ فِي اللَّهِ الْمُدْبِرِينَ عَنْهُ، وَالْعَادِلِينَ بِهِ» .

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام في المقطع الأول والثاني عن صفات الله سبحانه والقرآن الكريم، ثم أشار هنا بعبارات قصيره عميقه المعنى إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في أن الله تعالى أرسله بالإسلام بعد مدّه وفتره من الرسل السابقين حين كان النزاع قائماً على قدم وساق بين الأفراد في دفاع كل عن معتقده فقال: «أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرِهِ (١) مِنَ الرُّسُلِ، وَتَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ» .

فالعباره: «تَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ» ، إشاره إلى أن الحوادث التي تدور بين أتباع المذهب المختلفه بما فيهم عبده الأوثان وأهل الكتاب ومن ليس له دين وعقيده، لم تكن حوارات منطقيه ذات محتوى فكري وعقلي، بل كان كل يسطر بعض الألفاظ بدافع التعصب لإثبات أحقيته، بل كان هذا النزاع والاختلاف اللفظي أحياناً مصدر معارك طاحنه وسفك دماء غزيره.

ثم قال عليه السلام: «فَقَفَى (٢) بِهِ الرُّسُلَ، وَخَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ» ، فقد أشار الإمام إلى نقطتين: الأولى أن رسول الله صلى الله عليه وآله و آله واصل مسيره الأنبياء الماضين، وذلك لأنّ مسرتهم بصوره كليه واحده، والثانيه أنه بلغ بتعاليمهم الكمال وختم بهم النبوه، ثم إختتم كلامه عليه السلام بالقول: «فَجَاهَدَ فِي اللَّهِ الْمُدْبِرِينَ عَنْهُ، وَالْعَادِلِينَ (٣) بِهِ» .

ص: ٢٩٧

١- (١) «فتره»: وفتور تعني في الأصل الهدوء والاستقرار وتأتي أحياناً بمعنى الضعف والفتور، وتطلق على الفاصله بين حركتين أو حادثتين أو انقلابين، ومن هنا عبروا بالفتره عن الفاصله بين ظهور الانبياء.

٢- (٢) «قفى»: من ماده «قفا» بمعنى ظهر، كما ورد بمعنى خلف الشئ في المجييء.

٣- (٣) «العادلين»: جمع «عادل» من ماده عدل على وزن فكر بمعنى المعادل والشبيه والمثيل وإن وردت من ماده عدل على وزن نظم عنت العداله، ومن ماده العدول بمعنى الانحراف والرجوع عن الشئ، وعليه فالعادل على ثلاثه معاني، وأريد بها المعنى الأول في الخطبه (لابد من الالتفات إلى أن المعنى الأول يتعدى عادة بالباء والمعنى الثالث بواسطه عن) .

فالواقع هو أنّ الكفّار فريقان: فريق نسي الله تعالى بالمرّه ولا يعتقد بالحق، وفريق آخر مشرك جعل لله سبحانه شريكاً، وقد جاهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كلا الفريقين، جهاد ثقافى وإعلامى وخاضه لمدّه ثلاث عشره سنه وقد أسلم العديد منهم، وعندما شاهد الفريق المعاند الذى حال دون إقبال الناس على الدين الله خاض الجهاد المسلح ليقضى على تلك الموانع دون أن يجبر أحداً على قبول دينه ذلك لأنّه: «لَمَّا كَرَاهَ فِي الدِّينِ . . .» (١)، وزبده الكلام فقد أوجز الإمام عليه السلام جميع أنشطه نبي الإسلام صلى الله عليه وآله في الجهاد، وهو الجهاد ذو المفهوم الواسع والذى يشمل كل سعى وجهد من أجل نشر دين الحق، والعبارة جاهد في لله إشاره لطيفه في أنّه لم يكن أسيراً للمال أو المقام والجاه والجلال، بل جاهد من أجل الله سبحانه وسعى لنجاه العباد.

ص: ٢٩٨

منها: «وَأَيْنَمَا الدُّنْيَا مُتَّهَى بَصِيرِ الْأَعْمَى، لَأَيُّبَصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئًا، وَالْبَصِيرُ يُنْفِذُهَا بِصِيرُهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا. فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاحِصٌ، وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاحِصٌ. وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ» .

الشرح والتفسير

أورد الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه كما ذكر ذلك الشارح البحرانى عدّه نقاط لطيفه ورائعه رغم اقتضاها، وقد لفت الأنظار إلى الأصول التى تعد معالم حياه الأفراد فقال: «وَأَيْنَمَا الدُّنْيَا مُتَّهَى بَصِيرِ الْأَعْمَى» . ثم أكمل ذلك بقوله: «لَا يُبَصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئًا، وَالْبَصِيرُ يُنْفِذُهَا بِصِيرُهُ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا» .

نعم، فعباد الدنيا وبسبب حبهم وشغفهم بزخارف الدنيا وزبرجها كالمحبوس فى سجن لا يرى سوى ما فى داخل السجن، فأما نظرهم ضعيف، أو هناك حجب تحيط بأطرافهم، أو كلاهما، وأما دعاه الحق فنظرهم ثابت ولا حجاب لهم، ومن هنا فهم يرون ببصيرتهم الشاقبه الدار الآخره منزلهم الأبدى الخالد بكل وضوح فليس لهم من هم سواها والحق إننا عرفنا الدنيا كما هى تبع ذلك الإيمان بالآخره، وذلك لتعذر فهم الدنيا دون الآخره، فهل خلق الخالق الحكيم كل ما فى هذا العالم الواسع ليعيش الإنسان هذه المدّه المعينه فى أكل ويشرب وينام ويصحو بالتالى يموت ويوارى جثمانه الثرى ويدع النسيان؟ والحال بدايه عمره كنهايته ممزوجه بالضعف والعجز، ووسطه الذى يمكن الاستفاده منه مشوب بأنواعه المشاكل المصائب والآلام والمعاناه؟ هل هناك حكيم يقوم بمثل هذا العمل الطائش؟ ولذلك صرح

القرآن الكريم: «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» (١).

وقال فى النقطة الثانيه التى تمثل فى الواقع نتيجه بالنسبه للنقطه الأول: «فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاحِصٌ، وَالْأَعْمَى إِلَيْهَا شَاحِصٌ» .

وبناءً على هذا فقد استعمل الشاخص بمعنيين وما يصطلح عليه بالجنس التام، المعنى الأول من ماده شخوص بمعنى الرحيل والمفارقة، والمعنى الثانى التطلع وتصويب العين نحو موضع والتخلف عن الحركة، وكأن العين تريد مغادره الحدقه، وللعباره تفسير آخر اقتصر على ذكره شرّاح نهج البلاغه وهو أنّ الشاخص هنا يعنى الراحل غايه ما فى الأمر تطلق حين يقال «منها شاخص» ، كما يقال «إليها شاخص» وهذا هو الفارق بين من كانت له بصيره والأعمى، وقال فى النقطة الثالثه والأخيره: «وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، وَالْأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ» .

فهل البصيره يتزودون من الدنيا للآخره كما صرّح بذلك القرآن الكريم: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٢)، بينما يتزود عمى القلوب من أجل العيش فى الدنيا، فهناك اختلاف تام بين المسيرين بتعين فقط بكلمه «منها» و «لها» .

التعامل مع الدنيا

هناك على الدوام نظرتان يمتلكها الإنسان تجاه الدنيا، فأتباع الأديان السماويه يرون الدنيا بصفتهها منزلاً لا بدّ من التزود فيها إلى الآخره، يبلغون مرادهم بواسطه هذا الزاد والمتاع وليس لهم من مراد سوى السعاده الأبدية والفوز برضوان الله سبحانه وتعالى، أمّا أتباع المدرسه الماديه (والمدارس التى تتفق معها) فهم ينظرون إلى الدنيا على أنّها الهدف النهائى والغايه فيوظفون كافه طاقاتهم ويجندون قواهم من أجل الظفر بها، وأحياناً يتفق أصحاب النظره الأولى فى العمل مع أتباع النظره الثانيه، يعنى رغم اعتقادهم بأنّ الدنيا وسيله لنيل الآخره، إلّا أنّ عملهم يشير إلى نسيان ذلك الاعتقاد وتعاملهم مع الدنيا كههدف نهائى ومن هنا وردت

ص: ٣٠٠

[١-١] سورة الروم / ٧. [١]

[٢-٢] سورة البقره / ١٩٧. [٢]

تحذيرات أئمة الدين التي تهدف إيقاظهم من الغفلة، فيقولون أحياناً: «تَجَهَّزُوا، رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ» (١).

وأخرى يقولون: «النَّاسُ عَيْبِدُ الدُّنْيَا وَالدِّينُ لَعْرَقٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ» (٢)، كما يقولون: «الدنيا: تَعْرُ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ» (٣).

وأخيراً يقولون: إنّما الدنيا منتهى بصر الأعمى، ولا يبصر ما وراءها شيئاً والبصير ينفذها بصره، ويعلم أنّ الدار وراءها.

وأعظم مانع من الافراد، وأهم وظائف أئمة الدين إيقاظ هؤلاء الأفراد ولفت إنتباههم إلى أنّ الدنيا ممر لا مقر.

ص: ٣٠١

١-١) نهج البلاغه، الخطبه ٢٠٤.

٢-٢) بحار الانوار ٤٤/٣٨٣. [١]

٣-٣) نهج البلاغه، قصار الكلمات ٤١٥. [٢]

القسم الخامس: أهميه القرآن و دور عباده الدنيا في الصراعات

منها: «وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا- وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمْلُهُ إِلَّا- الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً. وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنْزِلِهِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصِيرَةٌ لِلْعَيْنِ الْعَمِيَاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَاءِ، وَرِيٌّ لِلظَّمآنِ، وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلَامَةُ. كِتَابُ اللَّهِ تُبَصِّرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلَمَّا يَخْتَلِفُ فِي اللَّهِ، وَلَمَّا يُخَالَفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللَّهِ. قَدْ أَضَى طَلْحَتُمْ عَلَى الْغُلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ، وَنَبَتَ الْمَرْعَى عَلَى دِمْنِكُمْ. وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ الْأَمَالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ. لَقَدْ اسْتَهَامَ بِكُمْ الْخَبِيثُ، وَتَاهَ بِكُمْ الْغُرُورُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع إلى مسائل مهمه وقضايا مختلفه لا يبدو أنها مرتبطه مع بضعها، ومن هنا يعتقد بعض شراح نهج البلاغه أن هذه العبارات قطوف اختارها المرحوم السيد الرضى من خطبه طويله مرتبطه، وذلك لأنه رآها أعظم فصاحه وبلاغه، وإلى هذا يعود سبب عدم رؤيتنا لإرتباط واضح بينها، ومع ذلك فهناك حكمه بالغه تختزنها هذه العبارات، فقد ساق في البدايه تشبيها من أجل لفت الأنظار إلى أهميه العلم الذى يمثل حياه قلب الإنسان فقال: «وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ يَشْبَعُ مِنْهُ وَيَمْلُهُ إِلَّا الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً» .

وقد صرح أغلب شراح نهج البلاغه هنا سؤالاً وهو: لا ينسجم هذا التعبير مع ما ورد فى

بعض الآيات والروايات التي تصور راحة أولياء الله سبحانه في الموت، ومن ذلك ما ورد في سورة الجمعة: «قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنَّ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (١). وما ورد في سورة الواقعة: «فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ» (٢).

فمن الطبيعي ألا يكره الموت من يرى نفسه على أعتاب الروح والريحان والجنَّة المليئة بالنعم، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف: «لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ رَاحَةٌ دُونَ لِقَاءِ اللَّهِ» (٣)، كما ورد هذا المعنى بعبارته أخرى عن الإمام الصادق أنه قال: «لَا رَاحَةَ لِلْمُؤْمِنِ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا عِنْدَ لِقَاءِ اللَّهِ» (٤).

وجاء في الدعاء المعروف للإمام علي بن الحسين عليهما السلام في يوم الثلاثاء: «وَأَجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ وَالْوَفَاةَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ». وقد ذكرت عدّه أجوبه على هذا السؤال أوضحتها جميعاً أنّ هذه العبارة إشارة إلى الناس الذين يهربون عادة من الموت، بينما ليس لأمر كذا لك بالنسبة لخواص الله سبحانه، كما يحتمل أن يكون المراد كراهه حتى أولياء الله تعالى للموت بفضله نهاية التزود ومواصلة مسيرتهم التكاملية، على كل حال فقد أراد الإمام علي عليه السلام هذه المقدمه على أنّها نتيجة وتشبيه للعلم والمعرفة التي يرتوي منها الإنسان مطلقاً فقال: «وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعُمَيَّاءِ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَاءِ، وَرِيٌّ (٥) لِلظَّمْآنِ (٦)، وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلَامَةُ».

فالواقع أراد الإمام عليه السلام أن هناك نوعين من الحياه حياه ماديه وجسمانيه والتي لا يشبع منها الناس غالباً، والحياه المعنويه والروحانيه والأفضل منها العلم والمعرفة التي لا يرتوي منها العقلاء والعلماء قط، وبناءً على هذا فإنّ المشار إليه «ذلك» بالضبط هو ذلك الشيء الذي ورد

ص: ٣٠٤

١-١ (١) سورة الجمعة / ٦. [١]

٢-٢ (٢) سورة الواقعة / ٨٨ - ٨٩. [٢]

٣-٣ (٣) شرح نهج البلاغه، لابن ميثم ٣/١٥٧. [٣]

٤-٤ (٤) بحار الانوار ٦٩/٦٩. [٤]

٥-٥ (٥) «رى»: له معنى مصدرى هو الارتواء.

٦-٦ (٦) «الظمان»: من ماده «ظماً» على وزن طمع بمعنى العطش.

قبل ذلك وهو الحياه الماديه التي لا يشع منها الناس، والغريب هنا كما أورده شراح نهج البلاغه حيث ذكر كل واحد منهم احتمالاً للعبارة المذكوره، الحال تفسيرها واضح وهو يشبه ما ورد في إحدى قصار الكلمات لأميرالمؤمنين على عليه السلام إذ قال: «مَنْهُمَا نِ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا» (١).

على كل حال فالمراد بالحكمه فى العبارة المذكوره هو العلم والمعرفه التى تقرب الإنسان من الله وتنظم أموره الماديه والمعنويه وتحول دون أعماله العبيثه، وبعبارة قصيره كما وردت فى القرآن الكريم فإنّ الخير الكثير يعود إلى صاحبه: «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا. . .» (٢).

وقد بيّن الإمام عليه السلام فى عبارته المذكوره العميقه المعنى الأوصاف الخمسه للحكمه وكشف عن منزلتها فى حياه الإنسان الماديه والمعنويه، فقال أولاً إنّ الحكمه حياه القلب الميت، يعنى أنّ الأرواح والأفكار التى تصبح بفعل الجهل كالأموات خاليه من أية حركه إيجابيه، إنّما تعود إلى الحياه فى ظلّ العلم والحكمه فتحيًا وتمارس الحركه.

وثانياً وثالثاً أنّ الحكمه تبصر الأعمى وتسمع الأصم وتوضح الحقائق لمن غطت الحجب بصره وأثقل الوقر أذنه، بحيث يرى الحق فى كافه أنحاء الخلق ويسمع نداء تسييح الكائنات ويدرك رسالته أولياء الله سبحانه، وقال فى الوصف الرابع والخامس أنّ عطشى الحق لا يرتوون من منابع الحكمه ويجدون فيها أسباب عافيتهم وسلامتهم، وعليه فلن يبقى من الخير والبركه والسعاده شيئاً إلّا وقد اخترنته الحكمه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالحديث عن القرآن الكريم والذى يراه بعض شراح نهج البلاغه أنّه جمل استثنافيه قطع إرتباطها بالعبارات السابقه بسبب ما اعتمده السيد الرضى فى الانتخاب (٣)، ولكن كما أورد المرحوم البحرانى فإنه لا يمكن القول أنّ ليس هناك إرتباط بين هذه العبارات وسابقتها حيث بينت أحد منافع الحكمه المهمه وهى القرآن الكريم، أو بعبارة

ص: ٣٠٥

١-١ (١) نهج البلاغه، قصار الكلمات ٤٦٦. [١]

٢-٢ (٢) سورة البقره / ٢٦٩. [٢]

٣-٣ (٣) هذا الاحتمال مختار ابن أبى الحديد والمرحوم الشارح الخوئى ومحمد عبده.

أخرى قد ركزت على المصداق التام للحكمه، والجدير بالذكر أن الأوصاف التي بينتها للقرآن تشبه الأوصاف التي بينتها العبارات المذكوره للحكمه، على كل حال فقد قال كتاب الله الذى تبصرون به الحقائق وتحدثون به، وتسمعون به ينطق بعضه البعض الآخر (وتفسر فيه المتشابهات على ضوء المحكمات) ويشهد بضعه على البعض الآخر (ويؤيد بعضه الآخر) ولا يختلف ما يقوله فى الله، ومن يصحبه لا يخلاف الله: «كَتَابَ اللَّهِ تُبْصِرُونَ بِهِ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِي اللَّهِ» .

والأوصاف السبعه التى بينها الإمام عليه السلام بشأن القرآن تشبه من جهات الأوصاف الخمسه التى بينها بصوره كليه بخصوص الحكمه.

والجدير بالذكر أن الحكمه اقترنت بالكتاب فى غلب الآيات القرآنيه (١)والذى يدل على العلاقه الوثيقه بينهما وأن رسل الله سبحانه كانوا يمضون قدماً فى ظلّهما (الكتاب والحكمه) .

من جانب آخر فإن الأوصاف التى تضمنتها عبارته بشأن القرآن الكريم فى أنه أساس البصر والسمع والنطق، وقد وردت الإشاره إليها فى بعض الآيات القرآنيه ومن ذلك الآيه: «قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ...» (٢).

ومما لا شك فيه أن الآيات الإلهيه ودلائل الحق قد وردت بكثره فى القرآن الكريم بحيث يسع الإنسان بواسطتها رؤيه جمال الحق ويسمع نداء الله تبارك وتعالى، وهناك فارق واضح بين العباره: «يَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ» والعباره: «يَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ»، لأن الحديث فى العباره الأولى عن آيات القرآن التى يفسر بعضها البعض، وتتضح المتشابهات فى ظل المحكمات، وأما العباره الثانيه فتتحدث عن إنسجام آيات القرآن وكل منها يعاضد الأخرى وتشهد على صدقها، وبالعباره: «وَلَا يَخْتَلِفُ فِي اللَّهِ»، إشاره إلى عدم اختلاف القرآن الكريم فى بيان صفات الجمال والجلال والتى تعدّ من أهم مباحث القرآن الكريم، ويتحدث بجميع آياته عن تلك الذات المقدسه الجامعه لكافه الكمالات اللامتناهيه، والعباره: «وَلَا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ اللَّهِ». إشاره إلى أن أى من آيات القرآن لا تبعد الإنسان عن مسار الحق، بل

ص: ٣٠٦

١-١) سورة البقره / ١٢٩، ١٥١؛ [١] وآل عمران / ٤٨، ٨١... [٢]

٢-٢) سورة الانعام / ١٠٤. [٣]

تأخذ بيده إليه، فمن تمسك بالقرآن لن يضل أبداً، ومن رجاه لا يخيب، فالقرآن يعرّف نفسه: «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» (١).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه كطييب حاذق وحكيم ماهر فخاض في بيان معاناه مخاطبيه المعنويه وقد ذكرهم بنقطه مهمه، كيف ولم عجزتم عن مواصلة سبيل الحق وعندكم هذا القرآن - وعليه لا- يبدو صواباً ما أورده شراح نهج البلاغه من عدم إرتباط العبارات اللاحقه بالعبارات السابقه، فقال باديء الأمر كأنتي بكم قد إتفقتم على الخيانه والحسد والحقد: «قَدِ اضْيَطَلَّخْتُمْ عَلَى الْعِلِّ (٢) فِيمَا بَيْنَكُمْ». ثم قال: «وَوَبَّتِ الْمَرْعَى عَلَى دِمْنِكُمْ (٣)»، إشاره إلى أن أعمالكم الخاطئه إنما تفرزها أفكاركم الملوته، وأضاف في بيانه لنقطه ضعفهم الرابعه والخامسه فقال: «وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ الْأَمْالِ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ»، فنقطه اشتراككم تكمن في تعلقكم بالآمال والأمانى الفارغه، ونقطه اختلافكم في كسب المال، حيث يريد كل منك أن يختطف المال الذى فى يد غيره.

والواقع يمكن خلاصه نقاط ضعفهم فى أربع كلمات هى الحقد والحسد والرياء وطول الأمل والنزاع من أجل كسب المال، والحق أن المجتمع لن يرى الأمن والاستقرار إن سادته هذه الرذائل، ولا يسوده سوى النزاع والقتال وأنواع التوتر، كما لا يعيش سوى الضعف والوهن تجاه العدو الخارجى، وإن طالعتنا بعض مظاهر الجمال فى هذا المجتمع فهى بمثابة الزهور الجميله التى تنبت فى المزابل وجذورها عفنه، وكأن الإمام عليه السلام أراد أن يفهمهم هذه القضية وهى أن المبادئ التى سادت المجتمع الجاهلى قبل الإسلام والنسب والى وردت الإشاره إليها فى صدر هذه الخطبه قد إنتعشت اليوم مره أخرى فى وسطكم، ثم أشار الإمام عليه السلام فى آخر الخطبه إلى أحد الأركان المهمه لانحرافهم والذى يتمثل بوساوس الشياطين والتى جعلتهم يضلون سبيل

ص: ٣٠٧

(١- ١) سورة النساء / ٨٢. [١]

(٢- ٢) «غل»: من ماده «غلول» أو غلل على وزن أفول وأجل تعنى فى الأصل النفوذ التدريجى والخفى للماء فى جذور الأشجار، ثم اطلق الغل الذى له معنى (الاسم المصدرى) على الخيانه لأنها تحصل بصوره تدريجيه وخفيه.

(٣- ٣) «دمن»: جمع «دمنه» على وزن فتنه بمعنى السارقين، كما يطلق على الحقد القديم.

السعادة والنجاه: «لَقَدْ اسْتَهَمَ بِكُمْ الْخَيْثُ، وَتَاهَ (١) بِكُمْ الْغُرُورُ (٢)، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ». قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا. . .» (٣)، كما قال: «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» (٤)، استهام من ماله هيام على وزن قيام خرج لا يدرى أين يذهب، فهو يمشى دون هدف حيران فلا يبلغ الهدف، ولما كان العاشق حيران في حياته فقد اطلقت هذه المفردة على العشق الشديد.

على كل حال فإن الشيطان يحث الإنسان على العبث والعشوائيه ولا يقود ذلك سوى للحيه والاضطراب، وهذا بدوره يلقي بالإنسان في وادى الهلكه، وبالنتيجه فإن صفاتهم الباطنيه القبيحه من جانب، والانقياد لوساوس الشياطين من جانب آخر قد مهدت السبيل لبؤسهم وشقائهم وسلبتهم بصيرتهم وسمعهم ونطقهم وفهم الصحيح، وهكذا يستعرض هذا الطبيب الرباني بهذه الخطبه الغراء جذور الأمراض وطرق مكافحتها وعلاجها.

أشار الإمام في هذا المقطع الأخير من الخطبه إلى عدّه أمور مهمّه منها:

١ - أنّ القرآن الكريم مصدر البصر السمع والنطق، مع ذلك هناك من لم يستثمر ذلك، لأنهم محجوبون وحجابهم فسادهم والباطني وتلوّثهم وطول أملمهم وغرقهم في حبّ الدنيا، ونعلم أنّ هذه الأمور أهم حجب المعرفة، نعم فالكتب السماويه مهما ملئت الحكمة، ومهما تحلى الأئمّه بالعلم والبلاغه فلا جدوى من ذلك ما لم تكن هناك قابليه في القابل، فالشمس ترسل أشعتها

ص: ٣٠٨

١ - ١) «تاه»: من ماله «تياه» بمعنى الحيره ومن ماله «توه» على وزن لوح بمعنى الهلكه، ويبدو المعنى الثاني في العبارة هو الأنسب.

٢ - ٢) «غرور»: إن قرأ بالضم فهو الخداع والمكر، وإن قرأ بالفتح أفاد الوصف وعنى الشخص الخادع وقد أطلقه القرآن على الشيطان، وقد ورد بالصيغه الأولى في النسخه المعروفه لصبحى الصالح، بينما ورد بالصيغه الثانيه في أغلب النسخ، وتبدو الصيغه الثانيه أنسب على ضوء تناسق العبارات.

٣-٣) سورة النور / ٢١. [١]

٤-٤) سورة النساء / ٨٣ [٢]

على الدوام ولكن ما جدوى هذا الشعاع بالنسبة للأعمى، وكذلك هي الأمطار فى لطافه طبعها لكنه لا ينبت الأزهار فى كل مكان.

٢ - إنَّ حبَّ المال والثراء أساس الحروب والمعارك النزاعات ولا يقتصر هذا الأمر على الزمان والماضى، بل تلمسه بوضوح فى كل مكان فى الوقت الحاضر، فالدول الغاشمه تصرّح دون خشيته إننا دخلنا تلك الحرب من أجل حفظ مصالحنا، أو لدينا بعض المصالح فى البلد الفلانى (طبعاً مصالح غير مشروعته) وعليه فلا بدّ أن يكون لنا تواجد عسكري فيه لنعرض تلك المصالح، والمؤسف أن وجه الدنيا أخذ يتكدر يوماً بعد آخر والحياه أصبحت فيها عديمه الأمن، وليس ذلك سوى ما أورده الإمام عليه السلام إذا قال: «وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ» .

ص: ٣٠٩

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وقد شاوره عمرُ بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم

نظره إلى الخطبه

قال بعض شراح نهج البلاغه أنّ الإمام عليه السلام خطب بهذا الكلام حين أتجه قيصر بجيشه نحو ثغور الإسلام عندما عزل خالد بن الوليد عن إمره جيش المسلمين وقد تولى الإمره أبو عبيده الجراح وشرحبيل وقد ضاق عليهما الأمر، لذلك عزم عمر أن يحضر بنفسه وأستشار أمير المؤمنين على عليه السلام (٢)، ويفهم من كلام ابن أبي الحديد أنّ عمر خالف ما أشار عليه على عليه السلام، فلتياً علم الروم مقدم عمر بنفسه خافوا وسألوا الصلح على أن يؤدّوا الجزية إلى المسلمين، ثم روى قصه أشبه بالخرافه (٣).

قال المرحوم العلامة التستري أولاً: ما وراه ابن أبي الحديد عن سيف وروايات سيف لا تخلو من الوضع والتحريف.

ثانياً: لا دليل لدينا أنّ هذا الكلام قاله على عليه السلام حين استشاره عمر في الخروج بنفسه

ص: ٣١١

١ - ١) سند الخطبه: نقل هذا الكلام عن الإمام عليه السلام باختلاف طفيف ابن الأثير في النهايه في ماده كنف وأبو عبيد في

كتاب الأموال (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٠٢) [١]

٢ - ٢) شرح نهج البلاغه لابن ميثم البحراني ٣/١٦٢.

٣ - ٣) شرح نهج البلاغه، لابن أبي الحديد ٨/٢٩٨. [٢]

لقتال الروم، بل ظاهر بعض كلمات الشيخ المفيد رحمه الله أنّ الكلام فى معركة القادسيه أو نهاوند (١).

والجدير بالذكر هنا أنّ عمر كان يقبل عادة ما يشير عليه على عليه السلام وكان يرى نجاته فى ذلك القبول، وهذا بدوره يؤيد ما أورده المرحوم العلامة التستري.

على كل حال تتألف هذه الخطبه من قسمين: الأول وعد الله سبحانه لهذه الأمة بالنصر والغلبه والامل بهذا الوعد، والثانى الذى قال فيه على عليه السلام لعمر: لا- تشخص بنفسك فأنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتتكب لا يكن للمسلمين كهف دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه.

ص: ٣١٢

١- ١) شرح نهج البلاغه، للتستري ٧/٤٢١ - ٤٢٣، بتصرف.

«وَقَدْ تَوَكَّلَ اللَّهُ لِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ، وَسِتْرِ الْعَوْرَةِ. وَالَّذِي نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَتَنَصَّرُونَ، وَمَنْعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَمْنَعُونَ، حَتَّى لَا يَمُوتَ.»

إِنَّكَ مَتَى تَسِرَ إِلَى هَذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتُنَكِّبَ، لَا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانِفَهُ دُونَ أَقْصَى بِلَادِهِمْ. لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ. فَابْعَثْ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مَحْرَبًا، وَاحْفَظْ مَعَهُ أَهْلَ الْبَلَاءِ وَالنِّصَةِ يَحِهِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللَّهُ فَذَلِكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى، كُنْتَ رِذَاءً لِلنَّاسِ وَمَتَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ» .

الشرح والتفسير

الحضور الخطير

استهل الإمام عليه السلام كلامه للخليفة بهدف تقوية معنوياته حذراً من خوف لقاء العدو الغاشم كالروم بقوله: وَقَدْ تَوَكَّلَ اللَّهُ لِأَهْلِ هَذَا الدِّينِ بِإِعْزَازِ الْحَوْزَةِ (١)، وَسِتْرِ الْعَوْرَةِ» ، والعبارة توكل تشير إلى أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ تَكْفُلُ بِحِمَايَتِهِمُ وَالِدِفَاعِ عَنْهُمْ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» (٢).

وهذا الوعد الإلهي - طبق كلام الإمام عليه السلام - لم يكن مقتصرًا على زمان النبي صلى الله عليه وآله، بل يجرى في كل عصر ومصر، والعبارة: «وَسِتْرِ الْعَوْرَةِ» ، بالنظر إلى أَنَّ الْعَوْرَةَ تعني في الأصل النقاط الحدودية الهشة وما يخشاها الإنسان ويخافه، فهي تشير إلى أَنَّ الْحَقَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وإضافه إلى

ص: ٣١٣

١-١) «حوزه»: من ماده «حوز» على وزن موز تعنى الجمع والاتصال والإمتلاك وعاده ما تطلق الحوزه على كل مجموعه.

٢-٢) سورة التوبة / ٣٣. [١]

تعهد به بعزّه المسلمين ورفعتهم فأنه يمنع العدو من الالتفات إلى نقاط ضعفهم أسرارهم حتى لا يتمكن من تسديد ضرباته للمسلمين.

ثم شد من العزائم أكثر فأتى بشاهد حتى فقال عليه السلام: «وَالَّذِي نَصَرَهُمْ، وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَنْتَصِرُونَ، وَمَنْعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لَا يَمْنَعُونَ، حَتَّى لَا يَمُوتَ (١)» .

فقد نصر الله تعالى أولئك المسلمين الذين كانوا يبدون في الظاهر ضعفاء ومن حيث العده قلائل، واليوم وقد اتسعت حوزة الإسلام والحمد لله وقد انضوت عدّه أفواج تحت رايته، فهم مشمولون قطعاً بنصره الحق والغلبه لهم والهزيمة لأعدائهم، فناصرهم هو الله تعالى الحى القيوم الذى لا يموت، طبعاً إن أى موجود تثق به وتعتمد عليه فإن مرور الزمان يصيبه بالضعف والهين والفتور وبالتالى الزوال والفاء، والذات الإلهية المقدسه الوحيدة التى لا تعرف للضعف الفتور من معنى والتى لا ينبغى الاعتماد سوى عليها.

ثم ورد الإمام عليه السلام ذى مقدمه بعد هذه المقدمه فيخلص إلى نتيجة ليؤكد على عمر عدم حضور ميدان القتال بنفسه بعد أن ذكر دليلاً واضحاً لذلك والذى يقبل بصوره تامه فى الموارد المشابهه فقال: «إِنَّكَ مَتَى تَسِرْ إِلَى هَذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ، فَتَلْقَهُمْ فَتَنْكَبَ (٢)، لَا تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانْفَهُ (٣) دُونَ أَقْصَى بِلَادِهِمْ، لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ» .

إشاره إلى هذا الأمر إن حضرت ميدان القتال بنفسك وقتلت فإن أرادت الأمه مبايعه شخص آخر فإن المجتمع الإسلامى سيفقد مركزيته وتنهار المناطق النائية التى تكون عرضه للخرق أكثر من غيرها وهذا ما سيسرى إلى سائر أنحاء البلاد، ولما كان السلب فى القضايا الاجتماعيه يقترن دائماً بالايجاب بغيه سد الفراغ الاجتماعى، فبعد أن أشار عليه الإمام بعدم الذهاب بنفسه، طرح عليه البديل ببعث رجل مجرب فى الحرب وطائفه ممن أبلت فى القتال، من أهل النصيح والخير فإن أتاهم النصر فذلك ما يبغي ويحب، وإن حدث شىء آخر (إشاره

ص: ٣١٤

١-١) العبارة «والذى نصرهم...» مبتدأ وخبرها «حتى لا يموت» .

٢-٢) «تنكب»: من ماده «نكب» على وزن نخل بمعنى الانحراف عن المسير، وفى هذه العبارة بمعنى الهزيمة والقتل.

٣-٣) «كانفه»: من ماده «كف» على وزن ظرف بمعنى الحفظ، وعليه كانفه تقال للشخص أو الشىء العاصم الذى يحفظ الأفراد.

إلى الهزيمة المسلمين) فسيكون هو ملاذ المسلمين وكهفهم (فيستطيع ومن خلال بعث القوى السيطره على الأوضاع وتحيق النصر على العدو): «فَابَعَثَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا مَحْرَبًا (١)، وَاخْفِزُ (٢) مَعَهُ أَهْلَ الْبَلَاءِ (٣) وَالنَّصِيحَةَ يَحِيهِ، فَإِنْ أَظْهَرَ اللَّهُ فَذَاكَ مَا تُحِبُّ، وَإِنْ تَكُنَّ الْأُخْرَى، كُنْتَ رِذَاءً (٤) لِلنَّاسِ وَمَثَابَةً (٥) لِلْمُسْلِمِينَ» .

فقد بين الإمام عليه السلام جوابه للخليفة حين المشوره بدليل منطقي وواضح وهو أنّ حضور زعيم جماعه فى ميدان القتال أمر خطير سوى فى الموارد الاستثنائية، لأنّ من الاحتمالات الوارده قتله فى المعركه ونتيجه ذلك إنيهار الجيش من جانب وتصدع كيان البلاد من جانب آخر، بينما لو بقى مكانه كان له أن يبعث بجيوش بدل جيش واحد ويحتفظ بقدرته وسيطرته على جميع البلاد.

تأملات

١ - الردّ على سؤال

طرح بعض شرّاح نهج البلاغه هذا السؤال أشار على عليه السلام على عمر ألا يشخص بنفسه، فما بال رسول الله صلى الله عليه و آله كان يشاهد الحروب بنفسه، ويباشرهم بشخصه، وما بال أمير المؤمنين على عليه السلام شهد حرب الجمل وصفين والنهروان بنفسه؟

وقد أجاب بعض الشرّاح بالقول أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه و آله كان عالماً عن طريق الوحي بأنّه لا يقتل فى الحرب، كما كان على عليه السلام عالماً من جهه النبي صلى الله عليه و آله أنه لا يقتل فى هذه الحروب، ويشهد لذلك الخبر المتفق عليه بين الناس يقاتل بعدى الناكثين، والقاسطين، والمارقين، وعليه

ص: ٣١٥

١-١) «محرّب»: من ماده «حرب» بمعنى المقاتل والشجاع.

٢-٢) «احفز»: من ماده «حفز» على وزن نبض الدافع والسوق الشديد.

٣-٣) «بلاء»: بمعنى الاختبار وأهل البلاء أهل المهارة فى الحرب.

٤-٤) «ردء»: بالكسر من ماده «ردء» على وزن عبد بمعنى المساعدة وعليه فردء بمعنى النصير والعضيد والسند.

٥-٥) «مثابه»: من ماده «ثوب» على وزن قوم بمعنى رجوع الشيء إلى حالته الأولى ومثابه بمعنى المرجع ومن يعاد إليه.

فليست هنالك من خطوره في حضورهما، وقال البعض الآخر، أنهما كانا يحضران المعارك التي لم تكن تدور بعيداً عن مركز البلاد، بينما اقتصر حضور النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في المعارك الخارجيه على تبوك فقط، وبعد أن استخلف علياً عليه السلام في المدينة.

وبعبارة أخرى يمكن القول: الموارد مختلفه تماماً ولكل ميدان من ميادين القتال وشرائطه ووضع العدو حكمه الخاص، ولكن غالباً إن كان الميدان بعيداً عن مركز الحكومه واشترك رئيس الحكومه فيه وقتل أدى إلى عدّه مشاكل، ومن هنا نهى الإمام عليه السلام الخليفه عن حضور ميدان القتال بنفسه.

٢ - شبهة أخرى

لعل هناك من يشكّل: كيف قدم الإمام عليه السلام هذه النصيحة الودّيه والمشفقه للخليفه مع أنه يرى الحكومه من حقوقه المسلمه وقد صرّح النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والآيات القرآنيه بهذا المعنى في أنّ الولاية لعلّيه السلام؟

الجواب على هذا السؤال واضح وهو أنّ الإمام عليه السلام إنّما يفكر في المصير النهائي للإسلام والمسلمين لا في شخصه، وهو يعلم أنّ الخليفه الثاني قد تربع على مسند الحكومه وتسلم زمام الأمور وقد وقف إلى جانبه عوام الناس وطائفه من الخواص، فإنّ تعرض في ظل هذه الظروف إلى أزمة عظيمه وقتال خطير ساد الهرج والمرج البلاد وعمتها الفوضى وتعرض كيان الإسلام للخطر، فروح على عليه السلام العظيمه تقتضى نسيانه لكل شيء وإيثاره لخير المسلمين على كل شيء.

٣ - الأمانه في الاستشاره

الكلام المذكور درس لجميع المسلمين بتقديم الخير والصالح حين المشوره دون الأخذ بنظر الاعتبار قضيه المستشار وكيفيه العلاقه به.

بعبارة أخرى: إما يرفض المشوره وإما أن يقبلها ويؤدى حقها، فقد ورد فى الحديث أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «اعلم أن ضارب علي بالسيف وقاتله لو إتمنى واستنصحنى واستشارنى ثم قبلت ذلك منه لأدبت الأمانة» (١).

٤ - إستنتاج خاطيء

أراد بعض المخالفين التشبث بكلام الإمام عليه السلام ليقوموا الدليل على أحقيته الخليفة الثانى بالخلافه وعلى لسان على عليه السلام، ولكن من الواضح أن هذا الاستنباط خاطيء، لأن الوظيفة الشرعية والعقلية وحفظاً لمصالح المسلمين تتطلب من كل شخص فى مثل ظروف على عليه السلام أن يقدم النصح لمن كان يمر بظروف عمر، فينطق لسانه بخير المسلمين وصلاحهم، وإن جرت الأمور على خلاف مصالحه الشخصية، بل إن كانت بضروره، والعبارة: «ليس بعيدك مرجع يرجعون إليه»، لا تعنى قط أنك أصلح الأمة، بل معناها أن الناس عرفوك فى ظل الظروف الفعلية - حقاً أم بغير حق - بهذه الصفة فان قتلت تطلبت البيعه لآخر زماناً طويلاً وهنا تنهار الأمة.

ص: ٣١٧

ومِن كَلامٍ لَهُ عليه السلام

وقد وقعت مشاجره بينه وبين عثمان

فقال المغيره بن الأخنس لعثمان: أنا أكفيكه، فقال على عليه السلام للمغيره:

نظره إلى الخطبه

صرّح ابن أبي الحديد وآخرون أنّ هذا الكلام لم يكن بحضره عثمان، وإن أفادت عبارات الخطبه أنّ هذه المشاجره كانت بحضره عثمان، فقد جاء في الخبر أنّ عماراً لما سمع بخبر وفاه أبي ذر ترحم عليه بحضور عثمان، فغضب عثمان وقال: انفوه إلى الربذه، فقال عمّار: مجالسه الكلاب والخنازير أحبّ إليّ من مجالستك قال ذلك وخرج، فعزم عثمان على نفيه، فذهب بنو مخزوم إلى على عليه السلام وشكوا له ضرب عثمان لعمار وهو عازم الآن على إبعاده فسألوه أن يكلم عثمان وإلاً وقعت فتنه عظيمه، فذهب الإمام على عليه السلام إلى عثمان وقال له: نفيت أبي ذر إلى الربذه حتى مات غريباً وهو من صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله وقد نقم عليك الناس ذلك، وتريد الآن نفي عمار.

فغضب عثمان وقال: لا بدّ من نفيك أولاً لكي لا يجرأ عمار، ففسادهم منك، فقال على عليه السلام: لا تقدر على ذلك وفساد أمثال عمار بسبب أعمالك، فأنت تعمل خلاف دين الله تعالى فنقم

ص: ٣١٩

١ - ١) سند الخطبه: لم ينقل صاحب كتاب مصادر نهج البلاغه من نقل هذه الخطبه سوى أحمد بن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح، لكنّه أورد بعض التوضيحات بشأن وورد الخطبه عن كتاب شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد.

الناس عليك، قال ذلك ثم خرج من عند عثمان، وقد أحاط الناس به وقالوا فليبعدنا عثمان جميعاً لنموت بعيداً عن أهلنا، فقال الإمام عليه السلام قولوا لعمار يلازم بيته ولا يخرج.

فقال بنو مخزوم: إن كنت معنا فليس لعثمان أن يفعل شيئاً، فلما بلغ ذلك عثمان شكى علياً عليه السلام إلى الناس، فقال له زيد بن ثابت وكان من شيعته وخاصته: أفلا أمشى إليه فأخبره بموجدتك فيما يأتي إليك، قال: بلى، فأتاه زيد معه المغيرة بن الأحنس (١) وعداده بنى زهره وأمه عمه عثمان، فحمد زيد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن الله قدم لك سلفاً صالحاً في الإسلام، وجعلك من الرسول بالمكان الذي أنت به، فأنت للخير كل الخير أهل، وأمير المؤمنين عثمان ابن عمك ووالى هذه الأمة، فله عليك حقان، حق الولاية وحق القرابة، وقد شكنا إينا أن علياً يعرض لى، ويرد أمرى على، وقد مشينا إليك نصيحة لك، وكراهيه أن يقع بينك وبين ابن عمك أمر نكرهه لكما، فحمد على عليه السلام الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال: أما بعد، فوالله ما أحب الاعتراض ولا الرد عليه، إلا أن يأبى حقاً لله لا يسعنى أن أقول فيه إلا بالحق، ووالله لأكفّن عنه ما وسعنى الكف.

فقال المغيرة بن الأحنس وكان رجلاً وقاحاً، وكان من شيعه عثمان وخلصائه: إنك والله لتكفن عنه أو لتكفن، فإنه أقدر عليك منك عليه.

فقال له عليه السلام: يابن اللعين الأبتى، والشجره التى لا أصل لها ولا فرع... (٢).

بناءً على هذا فخلاصه الكلام أنه اعتراض شديد على المغيرة بن الأحنس الذى نطق بكلام أكبر منه واعتقد أن له منزله أعظم مما فى نفسه.

ص: ٣٢٠

١- ١) المغيرة بن الأحنس وأبوه أحد المنافقين وهو غير المغيرة بن شعبه المعروف بنفاقه وعداوته لأهل البيت عليهم السلام.
٢- ٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٨/٣٠١ - ٣٠٢؛ [١] والفتوح لابن أعثم الكوفى ١/١٦ طبقاً لنقل شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري ٩/٢٦١.

«يَا بَنَ اللَّعِينِ الْأَبْتَرِ، وَالشَّجَرَةِ الَّتِي لَمَّا أَضِلَّ لَهَا وَلَا فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِينِي؟ فَوَاللَّهِ مَا أَعَزَّ اللَّهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلَا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهَضُهُ. أُخْرِجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللَّهِ نَوَاكٍ، ثُمَّ ابْلُغْ جَهْدَكَ، فَلَا أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ!» .

الشرح والتفسير

أنت عاجز

كان على عليه السلام الكهف الحصين للمظلومين والمحرومين على عهد الخلفاء الثلاث سيما على عهد الخليفة الثالث عثمان الذي تجاوزت بطانته الحد في الظلم والجور، فلم ترحم صغيراً ولم توقر كبيراً، فكان عليه السلام من يوصل نداء المظلوميه للخليفة، فمن الطبيعي أن يسب له هذا الأمر بعض المشاكل حيث كان يجند الأمة ضد الخلافة الحاكمه.

فقد عرض الإمام عليه السلام بهذا الرد على تهديد المغيرة بن الأخنس بالذم له والاستخفاف به، فأشار بادية الأمر إلى جذور فساد ونقاط ضعفه ليخلص إلى نتيجة تفيد عجزه عن القيام بأى عمل ضد الإمام عليه السلام فقال: «يَا بَنَ اللَّعِينِ الْأَبْتَرِ، وَالشَّجَرَةِ الَّتِي لَمَّا أَضِلَّ لَهَا وَلَا فَرْعَ، أَنْتَ تَكْفِينِي؟» ، والتعبير عن المغيرة بن الأخنس باللعين كونه من رؤوس النفاق حيث أظهر الإسلام في فتح مكة وأبطن الكفر، وقد حاول رسول الله صلى الله عليه وآله إستماله قلبه فأعطاه سهماً كبيراً من غنائم حنين، وأخوه أبو الحكم الذي قتله على عليه السلام يوم أحد، ومن هنا حقد المغيرة على على عليه السلام (1).

وأما وصف الإمام لأبيه بالأبتر لا أنه لم يكن له عقب، بل الأبتر هنا تعنى انقطاعه عن الخير والسعادة، أو أبتر من حيث النسب حيث كان أولاده ممن لا خير فيهم فكانوا كالعدم،

ص: ٣٢١

١ - ١) يقال إنَّ عداء آل المغيرة استمر ضد على عليه السلام حتى شهد ولده عبد الله المعركة الجمل فقتل فيها (شرح نهج البلاغه للمرحوم التستري ٩/٢٦٦) .

وأما قوله والشجره التي لا- أصل لها ولا فرع فهو كناية عن وضاعه هذه الأسره وبعدها عن القيم والمثل، فالواقع أن قول الإمام عليه السلام إقتباس من الآيه الشريفه: «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ» (١).

ثم قال الإمام عليه السلام: «فَوَاللَّهِ مَا أَعَزَّ اللَّهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ، وَلَا قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهَضُهُ» (٢)، العزه والقدره بيد الله سبحانه ذلك طبقاً للآيه الكريمه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» (٣).

وقوله تعالى: «إِنَّا لَنَنْصِرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» (٤)، فالعزه لله لا- للمنافقين، ثم إختتم الخطبه باستخفافه الشديد بالمغيره فقال: «أُخْرِجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللَّهُ نَوَاكٍ» (٥)، ثم ابلغ جهدك، فَمَا أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ (٦) إِنْ أَبْقَيْتَ!». .

إشاره إلى أنك لأصغر من أن تهدد علياً عليه السلام، فافعل ما بوسعك لترى إنك لا تقوى على شىء، وبئس هو الفرد الذى أنت ناصره.

سلوك الإمام عليه السلام تجاه الفرد العديم المنطق

لو أنعمنا النظر فى شأن وورد هذا الكلام للإمام عليه السلام وتتبعنا بدقه مساره التاريخى لرأينا كيف اصطدم الإمام عليه السلام بصوره منطقيه بالانحرافات فى عصر الخلفاء ولا سيما على عهد عثمان، فلم يتوان فى تقديم الوعظ والنصح من أجل منع أى توتر واضطراب حيث كان يكتفى بالحد الأدنى من التذكير، أما حين كان يصطدم بالمنافقين والجهال عديمى المنطق، فقد كان يقف بوجههم بكل شدّه وصلابه حتى لا يقتدح فى أذهانهم التفكير بالأعمال الطائشه والخطيره، وصدر وذيل الكلام المذكور خير شاهد على السلوكين.

ص: ٣٢٢

١-١) سورة ابراهيم / ٢٦. [١]

٢-٢) «منهض»: من ماده «نهض» القيام من المكان ومنهض من باب إفعال الشخص الذى يساعد غيره لينهض.

٣-٣) سورة محمّد / ٧. [٢]

٤-٤) سورة غافر / ٥١. [٣]

٥-٥) «نواك»: من ماده «نوا» والكاف ضمير متصل تعنى فى الأصل غايه المسافر بعيده كانت أم قريبه.

٦-٦) فالعباره لا أبقي الله عليك تطلق حين اللعن ليعبد عن رحمه الله، والعباره إن بقيت تعنى لا رحمك الله إن رحمتى، فهى فى الواقع استخفاف بالمخاطب، فافعل ما شئت إنك لا تقدر على شىء.

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي أَمْرِ الْبَيْعَةِ

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى أمور:

الأول: أن بيعتي لم تكن صدفة بعيدة عن تفكير الناس وتخطيطهم، وعليه فلا يحق لأحد نقضها لأنها بيعه عامه.

الثاني: أنني أريدكم جنوداً لتبلور الأهداف الربانيه، لكنكم تريدونني من أجل ضمان منافعكم الدنيويه.

الثالث: أبغى من كل الافراد النصره لاستنقاذ حق المظلوم من الظالم، وبيّن الإمام عليه السلام عزمه القاطع بهذا الشأن

ص: ٣٢٣

١- ١) سند الخطبه: قال المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله في كتاب «الإرشاد» أن الإمام على عليه السلام أورد هذا الكلام إمتنع البعض عن بيعه الإمام عليه السلام - حسب روايه الشعبي - ومنهم عبدالله بن عمر وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمه وحسان بن ثابت واسامه بن زيد، فخطب الإمام عليه السلام لبيان أحقيته بيعته (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٠٦) وهكذا نقل هذه الخطبه الشيخ المفيد في إرشاده وقد عاش قبل السيد الرضى، وكذلك أشار إليها ابن الأثير في كتاب «النهايه» في ماده (فلت).

«لَمْ تَكُنْ بِيَعْتِكُمْ إِيَّايَ فَلْتَهُ، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِدًا. إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ.

أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَأَنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتَّى أُوْرِدَهُ مِنْهُلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهًا» .

الشرح والتفسير

أنصف المظلوم من الظالم

كما ورد سابقاً فإن الإمام أورد هذا الكلام - بعبارة أخرى هذا المقطع من الخطبه - حين إمتنع بعض صحابه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله عن بيعته، فأتى الإمام عليه السلام الحجة عليهم بهذا الكلام فقال: «لَمْ تَكُنْ بِيَعْتِكُمْ إِيَّايَ فَلْتَهُ» ، بل حين رأيتم المشاكل الناشئه من بيعه الخلفاء السابقين ولاسيما بيعه الخليفه الثالث وما ترتب عليها من آثار فقد عزمتم على الإقبال عليّ فأبيتم أمراً جديداً في مسأله البيعه، وبناءً على ما تقدم فإن الأقلية لا تمتلك الحق في نقض البيعه التي سارعت إليها الأكثرية من الأمه.

وبالنظر إلى أن الفلته تعنى العمل الذي يقع بغته دون رويه وتدبر فقد أراد الإمام:

أولاً: يوضح أن بيعته كانت دقيقه جداً وقد حصلت بعد مشوره الأمه وزعماء القبائل مع بعضهم.

ثانياً: التلميح إلى بيعه أبي بكر التي حصلت في أجواء متوتره مغلقه من قبل قلّه قليله حتى قال عمر بهذا المضمون: «إِنَّ بَيْعَهُ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَهُ، وَقَى اللَّهُ شَرَّهَا» (١)، كما ورد في بعض الروايات في ذيل هذا الحديث «فَمَنْ عَادَ إِلَى مِثْلِهَا فَاقْتُلُوهُ» (٢)، وسنقدم شرحاً وافياً لهذا الموضوع في البحث اقادم.

ثم قال الإمام عليه السلام في مواصله كلامه: «وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِدًا، إِنِّي أُرِيدُكُمْ لِلَّهِ،

ص: ٣٢٥

١-١) صحيح البخارى ٦/٢٥٠٥ طبعه دارالنشر بيروت وصحيح ابن جبان ٢/١٤٨، طبع مؤسسها لرساله.

٢-٢) بحار الانوار ١٠/٢٤٨ ([١] نقلًا عن مناقب ابن شهر آشوب). [٢]

وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ» ، فلست من قبيل طلاب الدنيا من الحكّام الذين ينشدون من وراءها تأمين جلالهم وأبهرتهم ومصالحهم الشخصية، فما أريده هو إقامة الدين بواسطتكم وأن أؤدّي حقوق الناس وأفوز برضى الله سبحانه، ولكنكم تريدوننى لمصالحكم الشخصية كالحصول على سهم كبير من بيت المال أو نيل المناصب والمقامات والرفاه فى الحياه، وبالإلتفات إلى الاختلاف بين هاتين النظرتين فمن الطبيعي ألا تتساوى المسارات تبعاً لوسائل العمل، ثم دعاهم لإصلاح أنفسهم بعد أن وبّخهم وأيقظهم فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ» ، فى إشاره إلى أنّ مدرستى التربويه معده لإصلاحكم، فما أريده منكم وبقبول نصائحي - التى تستند إلى مصدر الوحي والقرآن الكريم وتعاليم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله - الإلتحاق بها والتعاون معي، فإن لم يكن لديكم الإندفاع فلا جدوى من أى برنامج، ثم أشار فى الختام إلى نقطه مهمه ووضح عزمه الراسخ فيها وهى مسأله بسط العدالة فى كافه أرجاء البلد الإسلامى مقاتله الظلمه فقال: «وَإِنَّمِ اللَّهُ لَأَنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ (١) حَتَّى أُورِدَهُ مِنْهَلٍ (٢) الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهًا» ، فهذا التشبيه الرائع للظلمه بالبعير الجامح الذى يمتنع حتى من شرب الماء ويريد صاحبه أن يورده مشربه كرهاً ويرويه، يفيد أنّ الهدف من مقارعه الظلمه لا يقتصر على استرداد حقوق المظلومين فحسب، بل أنّ هذا العمل بنفعهم أيضاً، لأنّ الظالم إن جاوز الحدّ فإنّ التمرد والعصيان العام سيكون كألسنه اللهب التى تحرق الأخضر واليابس وأنّ الظلمه أول من تحرقهم تلك النار، الأمر الذى وقع فى عصر عثمان قبيل حكمه الإمام عليه السلام كما يفيد من جانب آخر أنّ أهم هدف اجتماعى للإمام عليه السلام بسط العدل وأخذ حق المظلومين، وهذا هو الدواء الشافى المرير على ألسنه أغلب الأفراد الجهّال، وهذا أهم هدف لبعثه الأنبياء والذى صوره القرآن الكريم بالقول: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...» (٣).

ص: ٣٢٤

١- ١) «خزامة»: بالكسر حلقه من شعر تجعل فى وتره أنف البعير ليشد فيها الزمام ويشهل قياده، وقال البعض إن كان جنس الحلقه من النحاس قيل لها البره وإن كانت من الشعر فهى الخزامة.

٢- ٢) «منهل»: من ماده «نهل» على وزن جهل بمعنى الشربه الأولى ويطلق المنهل على الموضوع الذى يمكن الاستفاده منه من ماء النهر (لابدّ من الإلتفات إلى أنّ سطح ماء أغلب الأنهار أكثر انخفاضاً من الساحل وعاده ما يشقون بعض الأماكن لوصول الماء ليبلغه الناس والحيوانات بسهولة ويقال لمسير هذه الأماكن الشريعه وأخرها المنهل.

٣- ٣) سورة الحديد / ٢٥. [١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي شَأْنِ طَلْحَةَ وَالزَّبِيرِ وَفِي الْبَيْعَةِ لَهُ

نظره إلى الخطبه

المحاور الأصلية للخطبه هي:

١ - نقض طلحه والزبير للبيعه لحجّه اشتراك على عليه السلام في قتل عثمان، والحال هم كانوا يحرضون الناس للقيام على عثمان.

٢ - النصيحة المشوبه بالتهديد لطلحه والزبير ليكفوا عن الفتنة، ويلتحقا بصفوف عامّة المسلمين.

٣ - الإشارة إلى مسأله البيعه وأنّ الإمام عليه السلام لم يكن طالباً للحكومته، بل هم الذين أصرّوا عليه بقبول البيعه.

٤ - لعن الإمام عليه السلام في ختام الخطبه طلحه والزبير وهو الأمر الذي جرى عليهما عملياً فسأت عاقبتهما.

ص: ٣٢٧

١ - ١) سند الخطبه: رواها ابن عبد البر من علماء العائمه للقرن الخامس في كتاب «الاستيعاب» في شرح سيره طلحه، كما رواها ابن الأثير من علماء القرن السابع في «اسد الغابه»، ونقلها المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله في كتاب «الجمال» عن الواقدي، كما فسّر بعض أجزاءها ابن أبي الحديد عن أبي مخنف وكذلك ابن الأثير في كتاب «العود» (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٠٩).

«وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَرًا، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفًا. وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكَوهُ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكُهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيْبَهُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلَوْهُ [وُلُوهُ] [دُونِي فَمَا الطَّلِيْبَةُ إِلَّا- قَبْلَهُمْ. وَإِنْ أَوَّلَ عَيْدِهِمْ لِلْحُكْمِ عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ. إِنْ مَعِيَ لَبِصَةٌ يَرْتِي؛ مَا لَبِسْتُ وَلَا لَبِسَ عَلَيَّ. وَإِنَّهَا لِلْفِتْنَةِ الْبَاغِيَّةِ؛ فِيهَا الْحَمَأُ وَالْحَمَةُ، وَالشُّبْهَةُ الْمُعْدِفَةُ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ؛ وَقَدْ زَاخَ الْبَاطِلُ عَن نِّصَابِهِ، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَن شَعْبِهِ. وَإِنَّمَا لِلَّهِ لَأَفْرَطَنَّ لَهُمْ حَوْضًا أَنَا مَا تَحُهُ، لَا يَصْدُرُونَ عَنْهُ بَرِيٌّ، وَلَا يَعْبُونَ بَعْدَهُ فِي حَسْبِي!». .

الشرح والتفسير

لا شبهه ولا شك أن طلحه والزبير كانا من بين أولئك الذين أثاروا الناس ضد عثمان ويجمع العدو والصديق على اشتراكهما في قتل عثمان، كما أعلنت عائشه صراحه اعتراضها على عثمان، إلا أن العجيب ما إن هبت الأمه لمبايعه على عليه السلام فتسلم زمام الأمور حتى وقف بوجهه طلحه والزبير وكذلك عائشه، والأعجب من ذلك أن حجبتهم لذلك الوقوف هو الطلب بدم عثمان، ولا زال التاريخ يحفل بالكثير من هذه العجائب والأفراد الذين يحرصون على الدنيا وزخارفها، على كل حال فإن الإمام عليه السلام أشار في هذه الخطبه إلى هذا المطلب فقال: «وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَرًا، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفًا (١)»، ثم أضاف قائلاً: «وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكَوهُ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ» .

ص: ٣٢٩

ثم استدللّ بدليل واضح على ذلك فقال: «فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكُهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيْبَهُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلَوْهُ» [وَلَوْهُ] [دُونِي فَمَا الطَّلِبَةُ إِلَّا قِبَلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لِلْحُكْمِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ]، قطعاً ليس الإمام عليه السلام من يد في قتل عثمان، وإن اعتبر أغلب الصحابه أنّ عثمان يستحق القتل، إلّا أنّ الإمام عليه السلام ليس فقط لن يشترك في هذا العمل فحسب، بل بعث بولديه الحسن والحسين عليهما السلام للدفاع عنه، مع ذلك صرّح تجاه ذرائع طلحه والزيبر وبغيه سلبهم حق المطالبه فقد قال لم يقل أحد بأنّي كنت الوحيد في قتل عثمان على فرض أنّي اشتركت في قتله، فقد شركتموني فيه، وعليه فأى منطق يستول لكم مطالبه الآخرين بأمر اشركتم فيه معهم، وإن كنتم لوحدكما من فعل ذلك، فالعقاب يقتصر عليكم، وعليكم أن تدينوا أنفسكم قبل أى شخص، فالمتعارف بين الساسه الشياطين أنّهم يسعون لخلق بعض الذرائع التي يستحسنها العوام بغيه التشنيع على منافعهم، فهم يبذلون قصارى جهدهم لإتهام منافسهم بما يشوه سمعتهم لدى الرأى العام، وفي ظلّ هذه الأجواء تغيب معانى المنطق والعداله والوجدان والشرف، فالهدف إقصاء المنافس الخصم مهما كان الثمن، وهذا بالضبط هو المنهج الذي مارسه طلحه الزبير وعائشه بعد بيعه الأمه لعلّى عليه السلام فألبوا الكثير من الناس لقتاله عليه السلام حتى احترقوا بنيران تلك المعارك، على كل حال فإنّ الإمام عليه السلام سلب من خصومه الحجّه وأفشل خططهم ليعلم الناس أنّهم قتله عثمان وقد تذرّعوا بالمطالبه بدمه وهدفهم ضمان مصالحهم الشخصيه، فهم لا يفكرون في الناس ولا يهتمون بدم الخليفه المظلوم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشاره إلى حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن أصحاب الجمل الذين ينقضون البيعه: «إِنَّ مَعِيَ لَبِصِيرَتِي (١)؛ مَا لَبَسْتُ وَلَا لُبِسَ عَلَيَّ. وَإِنَّهَا لِلْفِتْنَةِ الْبَاغِيَةِ؛ فِيهَا الْحَمَاءُ وَالْحَمَمَةُ، وَالشُّبُهَةُ الْمُعْدِفَةُ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ لَوَاضِحٌ؛ وَقَدْ زَاخَ الْبَاطِلُ عَن نِّصَابِهِ، وَأَنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَن شَعْبِهِ (٢)».

فهذا الكلام إشاره للحديث المعروف عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «لا تذهب الليالي والأيام حتى تتنابح كلاب ماءٍ بالعراق يُقال لها الحوآبُ إمْرأةٌ من نِسائِي فِي فِتْنَةٍ بَاغِيَةٍ» (٣).

ص: ٣٣٠

١- ١) أوردنا شرحاً تاماً للعبارة «إِنَّ مَعِيَ لَبِصِيرَتِي» في هذا الكتاب ١/٤٨١.

٢- ٢) «شغب»: مصدر وبمعنى تهيج الشر والفساد.

٣- ٣) منهاج البراعه ٨/٣٣٨؛ الاحتجاج ١/١٦٥. [١]

فالحديث يشير إلى الحادثه المعروفه لأصحاب الجمل حين قدموا من المدينه إلى البصره، فلمّا بلغوا الحوآب نبحت عائشه كلابها، فتذكرت حديث النبي صلى الله عليه و آله فقالت: إرجعوني إلى المدينه، لكن الساسه المحترفين جنّدوا أهل تلك المنطقه ليشهدوا بأنّ تلك المنطقه ليست الحوآب (١).

وروى ابن عساكر فى «تاريخ دمشق» ومتقى الهندى فى كثر العمال أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام: «يا علىّ ستقاتل الفئه الياغيه وأنّ علىّ الحيق فمّن لم ينصيرك يومئذ فليس منى» (٢)، ومن هنا قال الإمام عليه السلام إنّ معى لبصيرتى ما لبست ولا لبس علىّ، فالعباره: «فيها الحما والحمة»، بالنظر إلى أنّ الحما بمعنى المستنقع والماده الغامقه فى جرف الأحواض والجداول، والحمة بضم ففتح بمعنى الإبره اللاسعه للعقرب والحيه، فهى كنايه عن الأفراد الأرجاس والخطيرين الذين كانوا من مثيرى فتنه الجمل.

وهنا تفسير آخر لهاتين المفردتين فى أنّ الحما بمعنى القرابه الحميمه والحمة بمعنى الزوج وهى كنايه عن الزبير بن العوام ابن عمه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله، وعائشه إحدى أزواج النبي صلى الله عليه و آله، والعباره الشبهه المغدقه بالنظر إلى أنّ المغدقه من ماده أغداق تعنى فى الأصل التغطيه إشاره إلى الضجه التى أقامها أصحاب الجمل بعنوان المطالبه بدم عثمان والحال أيديهم ملطخه بدم عثمان، بينما صوروا أنفسهم من حماته، وهذه العبارة لا تنافى العبارة اللاحقه التى قالت بوضوح المطلب، لأنّ المراد هو عدم خفاء الأمر على الأفراد من ذوى العقول والإدراك، لأنّهم كانوا على علم بمؤامرات أصحاب الجمل ودعاياتهم المغرضه الكاذبه.

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بتوجيه تهديد شديد استهله بالقسم فقال عليه السلام: «وأيّم الله

ص: ٣٣١

١- ١) أورد ابن الأثير فى المجلد الثانى، ص ٣١٥ عن الكامل شرحاً مفصلاً لقضيه نباح كلاب الحوآب وصراخ عائشه وعزمها على الرجوع وشهاده البعض على كذب من قال تلك المنطقه هى الحوآب.

٢- ٢) تاريخ دمشق ٣٢/١٧١، طبعه بيروت؛ كثر العمال ١٢/٢١١ طبعه حيدر آباد (مطابق نقل أحقاق الحق ١٧/١٦٦). [١]

لَأَفْرَطَنَّ (١) لَهُمْ حَوْضاً أَنَا مَا تَحُهُ (٢)، لَأَيْضُدُّرُونَ عَنْهُ بَرِيٌّ (٣)، وَلَا يَعْجُونَ (٤) بَعْدَهُ فِي حَسِيٍّ! (٥) .

كما أوردنا في الخطبة العاشرة التي تشبه إلى حد بعيد هذه الخطبة، مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة أنني سأجعل من ميدان معركة الجمل مستنقعا خطيرا مملوءا بالماء بحيث لا يسعهم الهروب منه وأحمد الفتنة في مهدها حتى لا يفكروا قط في العوده إلى مثل ذلك الميدان، وكما ورد في التواريخ فإن الإمام عليه السلام حقق عمليا ما قاله، فقد قتل زعماء الجمل وعادت عائشه مخذوله إلى المدينة وافتضح أصحاب الفتنة وتشتتوا في البلاد.

ص: ٣٣٢

١- ١) «افرطن»: من ماده «افراط» تعنى فى الأصل تجاوز الحد، لكنّها وردت أحيانا بمعنى القيام بالحدّ الأكثر من العمل وقد جاءت بهذا المعنى فى العبارة، يعنى سأملاً حوض المعركة للخصوم (طبعاً المراد حوض المنيه) بحيث لا يبقى أمامهم من سبيل للنجاه، وبناءً على هذا فلا مجال لطرح مثل هذا السؤال أو يمكن للإمام عليه السلام أن يفرض فى شيء.

٢- ٢) «ماتح»: من ماده «متح» على وزن مدح بمعنى سحب الماء من الأعلى كسحب الماء من البئر بواسطة الدلو، وعليه فالماتح تطلق على من يطرح الدلو بواسطة الحبل فى البئر ويسحب منه الماء.

٣- ٣) «رى»: اسم مصدرى ومصدره «رى» على وزن حى والباء للمعیه.

٤- ٤) «يعبون»: من ماده «عب» بمعنى شرب الماء أو مانع آخر دون تنفس.

٥- ٥) «حسى»: السهل من الأرض الذى يتجمع فيه الماء.

و منه: «فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ! قَبِضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُ مَوْهَا، وَنَازَعْتُكُمْ يَدِي فَجَادَبْتُمُوهَا. اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَا نِي وَظَلَمَا نِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلْبَا النَّاسَ عَلَيَّ؛ فَاخْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلَا تُحْكَمْ لَهُمَا مَا أُبْرَمَا، وَأَرِهَمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَلَا وَعَمِلَا. وَلَقَدْ اسْتَبْتُهُمَا قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوَقَاعِ، فَعَمَطَا النَّعْمَةَ، وَرَدَا الْعَافِيَةَ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى مسأله البيعه فقال: «فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُوذِ (١) الْمَطَافِيلِ (٢) عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ! قَبِضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُ مَوْهَا، وَنَازَعْتُكُمْ يَدِي فَجَادَبْتُمُوهَا» .

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى هذه الحقيقه وهى أنّ عليكم أن تقارنوا بى الزاعمين الطالبه بدم عثمان ليجعلوا ذلك ذريعه للوصول إلى الخلافه والحكومه وهم طلحه والزبير، فهما لا يتورعان عن أيه حيله وخذعه من أجل تحقيق أهدافهما، أما أنا فقد أريتكم منذ البدايه أنّى لا- أطلب المقام، وأنتم الذين أصررتم على البيعه، ولأن قبلت ببيعتكم فإنما ذلك بسبب القيام بالمسؤوليه التى تتمثل باجراء الحق وبسط العدل والقسط وإحياء الإسلام فعبارات الإمام عليه السلام

ص: ٣٣٣

١- ١) «العوذ»: بضم العين جمع «عائذ» الإنسان أو الحيوان الذى يلد حديثاً.

٢- ٢) «المطافيل»: جمع «مطفل» على وزن مسلم ذات الطفل من الإنسان والوحش، وعليه فالعوذ والمطافيل قريبه المعنى وهما هنا للتأكيد.

تكشف مدى شوق الناس للبيعه، وفي ذات الوقت مدى زهد الإمام عليه السلام بها.

ثم إتجه إلى الحق تبارك وتعالى فشكى إلى الله الظلمه الذين نقضوا العهد وجعلوا من إراقه دماء الأبرياء وسيله لتحقيق أطماعهم وأغراضهم، ثم أخذ بالدعاء عليهم ولعنهم: «اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَتَا بَيْنَعِي، وَأَلْبَا (١) النَّاسَ عَلَيَّ» .

ثم قال: «فَاخْلُصْ لِي عَقْدًا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أُبْرِمَا، وَأَرِهْمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَلَا وَعَمَلَا» ، والتفت إلى الناس قائلاً: «وَلَقَدْ اسْتَبْتُهُمَا (٢) قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ (٣) بِهِمَا أَمَامَ الْوُقَاعِ (٤)، فَغَمَطًا (٥) النَّعْمَةَ، وَرَدًّا الْعَافِيَةَ» ، لعل العبارة الأخيره مواصله شكوى الإمام عليه السلام لله سبحانه، ويمكن أن تكون خطاباً للناس، ، يبدو المعنى الثانى أنسب، على كل حال فإن هذه العبارات تبين مدى سعى الإمام عليه السلام لاجتناب الحرب وسفك الدماء وقد بذل قصارى جهده لوعظ أصحاب الجمل ومثيرى الفتن عليهم يعودون إلى رشدهم وتثار حميتهم الدينيه، فيعودوا عن سبيل الغي، إلّا أنّ حبّ الخلافه والجاه والمقام قد أعمى أبصارهم وأصم أسماعهم بحيث لم يعد لنصائح الإمام عليه السلام ومواعظه من تأثير عليهم، بالتالى حلت عليهم لعنه الإمام عليه السلام ففشلوا فى تحقيق أهدافهم، فانهزموا شرّ هزيمة وقتلوا بذله وهوان.

القاتل يطالب بالثأر

لا شك أنّ طلحه والزبير كانا ممن أثارا الناس ضد عثمان، فقد أورد ابن قتيبه فى كتابه «السياسه والإمامه» أنّ أهل الكوفه ومصر حين قاما ضد عثمان وحاصروه فى داره كان

ص: ٣٣٤

١- (١) «ألبا» : من ماده «تأليب» بمعنى الافساد وإثاره الناس.

٢- (٢) «استبنت» : من ماده «ثوب» على وزن صوم بمعنى رجوع الرميض إلى العافيه ومفهوم العبارة أنى أردت من طلحه والزبير الرجوع عن انحرافهما.

٣- (٣) «استأنيت» : من ماده «أناه» على وزن قناه بمعنى الصبر والانتظار ومفهوم الجمله أنى كنت أنتظر تأثير اقتراحى عليهما فيعودوا إلى رشدهما ويسلكا سبيل العافيه والسلامه، لكن من المؤسف...

٤- (٤) «وقاع» : بمعنى الحرب وتستعمل هذه المفردة أحياناً بمعنى المصدر وأخرى الجمع «وقيعه» .

٥- (٥) «غمطاً» : من ماده «غمط» على وزن غصب بمعنى استصغار الشىء وكفران النعمه والعبارة المذكوره إشاره إلى أنّ طلحه والزبير استخفا بما منحتهم من فرصه وكفرا بالنعمه.

طلحه ممن أثار الفريقين ضد عثمان ويقول: أن عثمان لا يهتم لمحاصرته طالما يحمل إليه الماء والغذاء فاقطعوا عنه الماء (١)، كما ورد عن ابن أبي الحديد بشأن الزبير أنه كان يقول: اقتلوا عثمان فقد أحدث في دينكم، فقالوا له: ابنك على باب دار عثمان يدافع عنه، قال: إن قتل عثمان فليقتل ابني قبله (٢)، فقد كان تصور طلحه العكس حين قتل عثمان وبايع الناس علياً عليه السلام فتغيرت الأوضاع تماماً، ولم تكن الأمة مستعدة لبيعتهما على حد قول الكاتب المصرى المعروف العقاد، حيث لم يكن أمرهما يختلف عن عثمان (٣)، وكانت عائشه من الناقمين على عثمان (٤)، إلا أن هؤلاء الأفراد الثلاث انقلبوا على عقبتهم بعد بيعه الأمة للأمير المؤمنين على عليه السلام فاصبحوا من أنصار عثمان وهبوا للمطالبة بدمه، وكثيره هي هذه الانقلابات التي تسود حركة الساسة المحترفين، وبالتالي ذاق الثلاث العاقبة المريرة لإثارتهم الفتن، فقد هزم طلحه والزبير وقتلا في المعركة، وعادت عائشه تجر أذيال الخيبة إلى المدينة، وقد تناولنا بالتفصيل موقعه الجمل وطيش عائشه ودور طلحه والزبير في المجلدات السابقة من هذا الشرح (٥).

ولكن ما ينبغي إضافته هنا أن أتباعهم ممن حاول توجيه أعمالهم قد خسروا أنفسهم في زوايه حرجه، فمن جانب اعتبروا طلحه والزبير من الصحابه، كما يجرون عليهم نظريه عداله الصحابه (طهاره و قدسيه جميع صحابه النبي صلى الله عليه و آله) ، ومن جانب آخر يعتبرونهما من ضمن العشره المبشره، تاره يزعمون أنهم كانوا مجتهدين وإن أخطأوا في اجتهادهم، وعليه فهم معذورون ومأجورون، والحال لو وجهنا أعمالهم تحت هذا الغطاء لأمكن تبرير كل جريمه ومن كل فرد، ذلك لأن الاجتهاد لا يقتصر على هؤلاء الأفراد، وهذا بدوره يؤدى إلى تجاوز البديهيّات العقليه والنصوص القرآنيه، وتاره أخرى يزعمون أنهم تابوا، وتوبتهم مقبوله عند الله، ولكن هل يمكن اشعال فتيل حرب تؤدى بسبعه عشر ألف شخص ثم تنسلخ مسؤوليه هذه الدماء بمجرد لقلقه اللسان بالقول استغفر الله؟! فهل أدوا حق تلك الدماء لأصحابها؟ أم

ص: ٣٣٥

١- ١) السياسه والإمامه ١/٣٨.

٢- ٢) شرح نهج البلاغه ابن أبي الحديد ٩/٣٦.

٣- ٣) فى ظلال نهج البلاغه ٢/٢٩٤.

٤- ٤) الكامل لابن الأثير ٣/٢٠٦؛ تاريخ الطبرى ٣/٤٧٧.

٥- ٥) ج ١ شرح الخطبه الثالثه عشره، ج ٢ شرح الخطبه الثلاثون والحاديه والثلاثون ج ٣، ص ٢٠٩ - ٣٠١.

هل عوضوا تلك الأموال التي ذهبت هدراً بهذا الخصوص؟ وهل اعترف طلحه والزبير وعائشه بخطأهم أمام الملاء العام؟

إنّ مثل هذا الدفاع العاثر هو نتيجة للأغماض عن الحقائق والتعصب الأعمى، أو ليس من الأجدر بنا تقسيم صحابه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى طائفتين، طائفه كانت صالحه على عهده وأخرى منافقه وطالحه، كما تقسم الطائفة الصالحه إلى فئتين، فئه واصلت صلاحها، وأخرى انقلبت على عقبها فجانبت الحق والعدل والإيمان والسلاح، كما علينا أن نعلم بأنّ المراد من بشاره القرآن الكريم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بنجاه شخص أو أشخاص في ذلك الزمان هو شمولها بهذا الحكم، على أنّهم ربّما غيروا مسيرتهم، فممكّن أن يقوم الإنسان بعمل بحيث تجب له الجنّه، ثم يفعل بعد ذلك ما يوجب دخوله النار.

ص: ٣٣٦

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

يَوْمِي فِيهَا إِلَى ذِكْرِ الْمَلَّاحِم

نظره إلى الخطبه

تتألف هذه الخطبه فى الواقع من ثلاثه أقسام مرتبطه مع بعضها:

القسم الأول: إشاره إلى ولى من أولياء الله سبحانه ينطلق فى عمله على أساس هدايه القرآن، ويرى أغلب شراح نهج البلاغه أن ذلك الولى واستناداً إلى صفاته هو الإمام المهدي «عجل الله تعالى فرجه الشريف» .

والقسم الثانى: إشاره إلى الأحداث الداميه التى يفرزها قيام ذلك الولى من أجل بسط العدل فى ظلّ الحكومه الإلهيه حيث يملأ الأرض بالقسط والعدل.

القسم الثالث: إشاره إلى الحوادث داميه أخرى تظهر من الشام، ولعل ذلك إشاره إلى حكومه البعض من بنى مروان، أو ظهور بعض الأفراد كالسفيانى الذى يسبق ظهور الإمام المهدي عليه السلام.

ص: ٣٣٧

١- ١) سند الخطبه: ورد فى مصادر نهج البلاغه أنه نقل جانباً من هذه الخطبه عن الآمدى فى «غرر الحكم» وقال بالنظر إلى أن بعض شراح نهج البلاغه اعتبروا القسم الأول إشاره إلى قيام الإمام المهدي عليه السلام فإن ذلك يدل على أنهم نقلوا الخطبه من مصدر آخر أشار إلى هذه القيام (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٠٢) لكننا لا نعتقد بتوجيه هذا الاستنتاج، ولعلمهم استنبطوا ذلك من خلال بعض القرائن الوارده فى الخطبه.

«يُعْطِفُ الْهَوَى عَلَى الْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى، وَيُعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ» .

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً فإن هذه الخطبه تشير إلى الحوادث المستقبله حيث تطرقت إلى ثلاث حوادث، الأولى عدّها أغلب شراح نهج البلاغه في الإمام المهدي عليه السلام، لأنّه قال يجعل رغبات النفس وهواجس القلب تابعه للهدى حين يسود العكس باتباع الهدى للهوى، ويجعل الرأي والفكر منقاداً للقرآن في الوقت الذي يجعلون القرآن فيه تابعاً للرأي: «يُعْطِفُ (١) الْهَوَى عَلَى الْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى، وَيُعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ» .

والسؤال هل للعبارتان مفهوم واحد ويؤكد كل منهما الآخر؟ أم أنّ العبارة الأولى إشاره إلى الهدايه العقليه والعبارة الثانيه إلى الهدايه القرآنيه؟ يبدو المعنى الثاني أنسب، يعني في ذلك اليوم الذي يغيب فيه الناس منطق العقل والهدايه بسبب عباده الهوى فأنّه يزيل حجب الهوى، ويجعل السيادة لهدايه العقل، كما يجعل القرآن هو ميزان التقييم بعد أن يقصى التفسير بالرأي حين يحاول ذوى الاطماع تطبيق النصوص القرآنيه على ضوء تفسيرهم إياه حسب آرائهم

ص: ٣٣٩

١ - ١) يعطف من ماده عطف على وزن فتح بمعنى الميل والرغبه أو الترغيب بشيء، وقد تستعمل أحياناً بصيغها المتعدى فتعنى الترغيب، كما تتعدى أحياناً بحرف إلى فتعنى الرغبه فى شيء، وتتعدى أيضاً بحرف على فتعنى الرجوع إلى الشيء وأخيراً تتعدى بحرف عن فتعنى الانصراف عن الشيء.

من أجل تحقيق أطماعهم للامشروع، ولو تأملنا أسباب البؤس والشقاء لرأيناها تتمثل بهذين الدائنين، تحكيم هو النفس على العقل وتطبيق الرغبات الخفيه على آيات القرآن من التفسير بالرأى، وإن زال هذان السيلان تمهد السبيل من أجل بلوغ حكومه العدل الإلهى، ولعل جميع القضايا التي أصابت المسلمين منذ البدايه لحدّ الآن إنما تعود إلى هذين الانحرافين كما يعود سبيل الصلاح إلى إصلاحهما.

ذكر العلماء فى بحث المعرفة أنّ الهوى من بين حجب المعرفة، حيث قال القرآن الكريم: «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً. . .» (١).

وما أروع ما قال أمير المؤمنين على عليه السلام فى الخطبه ١٠٩: «وَمَنْ عَشِقَ شَيْئًا أَغَشَىٰ بَصَرَهُ»، والتفسير بالرأى وحمل الآيات القرآنيه عليه إحدى مكائد الشيطان الكبرى فى تحريف العبارات عن معناها الواقعى وإسقاط الوحى عن قيمته، ومن هنا فقد عدت الأحاديث الإسلاميه هذا العمل بمنزله الكفر حيث قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ آيَةَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» (٢)، ولما كان الوقوف بوجه هذين الانحرافين من خصائص الإمام المهدي (أرواحنا فداه) فإنّ الضمير فى هذه العبارات يعود كما يعتقد شراح نهج البلاغه إلى الإمام المهدي عليه السلام.

ص: ٣٤٠

١-١) سورة الجاثيه / ٢٣. [١]

٢-٢) بحار الانوار ١/١٩. [٢]

القسم الثاني: جانب من الحوادث المرعبه آخر الزمان

و منها: «حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سِيَاقٍ، بَادِيًا نَوَاجِدُهَا، مَمْلُوءَةً أَخْلَافَهَا، حُلُوءًا رِضَاعُهَا، عَلَقَمًا عَاقِبَتُهَا. أَلَا وَفِي غَدٍ - وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لَمَّا تَعْرِفُونَ - يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عَمَالَهَا عَلَى مَسَاوِي أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيدَ كِبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سَلْمًا مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدَلُ السَّيْرِ، وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

الشرح والتفسير

يمثل هذا القسم من الخطبه فى الواقع استمراراً للقسم السابق وهو إشارة إلى حوادث آخر الزمان يتعرض بادية الأمر فيها إلى المعارك الدمويه المدمره التى تنقل كاهل المجتمعات البشريه ويعم الظلم والجور كاهه الأماكن، ثم يظهر رمز العدل الإلهي فينهى النزاعات والافتتال ويملا الأرض قسطاً وعدلاً، ويوفر كاهه مستلزمات الراحة والرفاه، فقال عليه السلام بأن هذا الوضع سيتواصل: «حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سِيَاقٍ، بَادِيًا نَوَاجِدُهَا (١)»، ثم أشار إلى الانتصارات التى تتحقق فى بدايه الحرب والمراره التى تختتم بها فقال: «مَمْلُوءَةً أَخْلَافَهَا (٢)، حُلُوءًا رِضَاعُهَا، عَلَقَمًا (٣) عَاقِبَتُهَا»، وكان الحرب تنطوى على لبن حلو وفى نفس الوقت مسموم

ص: ٣٤١

- ١-١) «نواجذ»: جمع «ناجذ» أقصى الأضراس أو الأنياب، كما فسّر بجميع الأسنان وهذا هو المعنى المراد منها فى العبارة.
- ٢-٢) «أخلاف»: جمع «خلف» بالكسر بمعنى حلمه ضرع الناقه، كما وردت بمعنى حلمه ضرع سائر الحيوانات كالبقرة والشاه.
- ٣-٣) «علقم»: برعم شديد المراره يطلق عليه الحنظل، وتطلق هذه الكلمه على كل شىء مرّ.

بحيث يجذب الأفراد المهوسين ليأملوا بتحقيق نصر خاطف سريع، بينما يصرعون ويهلكون في نهايه الأمر، ثم أشار الإمام إلى ظهور حكمومه العدل الإلهي: «أَلَا وَفِي غَدٍ - وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ - يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عَمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِي أَعْمَالِهَا» .

ثم تطرق إلى ذكر الأوضاع المطلوبة المفعمه بالخير والبركه والتي تحصل بعد قيامه فقال: «وَتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيدَ (١) كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سَلْمًا مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السَّيْرِ، وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ» ، فمن جانب: يتم اكتشاف المعادن النفيسه باطن الأرض بسهولة.

ومن جانب ثان: بيده مقاليد تلك الكنوز أو مقاليد حكمومه أرجاء الأرض.

ومن جانب ثالث: يبسط العدل والقسط بالاستناد إلى التمتع بتلك المصادر الغنيه وهذه الحكمومه الشامله.

ومن جانب رابع: يحيى التعاليم المندرسه والقيم المغيبه للقرآن والكريم والسنة الشريفه، وهكذا تسيير البشريه باتجاه التكامل على المستوى المادى والمعنوى، فالعقول تتم فى ظل حكمومه الإمام المهدي عليه السلام، وتحىي القيم الإنسانيه وتفيض النعم بأنواعها على الناس ويطاح بصنم الظلم والجور.

وقد وردت مثل هذه العبارات فى الروايات المتعلقة بقيام الإمام المهدي عليه السلام فقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: « وَتَظْهَرُ لَهُ الْكُنُوزُ وَيَبْلُغُ سُلْطَانُهُ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ، وَيُظْهِرُهُ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ فَلَا يَفْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ خَرَابٌ إِلَّا عُمَّرَ » (٢).

وقا فى موضع آخر: «يَمَلَأُ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مَلَأَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا، فَيَفْتَحُ اللَّهُ لَهُ شَرْقَ الْأَرْضِ وَغَرْبَهَا» (٣).

ص: ٣٤٢

١-١) «أفاليذ»: جمع «أفلاذ» وهذا جمع «فلذ» على وزن فكر بمعنى كبد الناقه، أو كبد كل إنسان أو حيوان، : وفلذتهعنى قطعه من الكبد، والمراد بها فى هذه العبارة الأشياء النفيسه والكنوز والمعادن الثمينه فى جوف الأرض.

٢-٢) شرح نهج البلاغه لعلامة الخوئى ٨/٣٥٣.

٣-٣) بحار الأنوار ٥٢/٣٩٠. [١]

القسم الثالث: خصائص ذلك الحاكم الدموي

منهياً: «كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانٍ، فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ، وَفَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَغَرْتُ فَاغْرَتُهُ، وَثَقُلْتُ فِي الْمَأْرُضِ وَطَمَأْتُهُ، بَعِيدَ الْجَوْلِ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ. وَاللَّهِ لَيْشَرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْرَافِ الْمَأْرُضِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ، فَلَا تَزَالُونَ كَذَلِكَ، حَتَّى تَتُوبَ إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلَامِهَا! فَالزُّمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ، وَالْأَثَارَ الْبَيِّنَةَ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي التُّبُّوهِ. وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسْنِي لَكُمْ طُرُقَهُ لَتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه إلى حاكم دموي وغاشم ومقتدر يظهر مستقبلاً بالشام فيشهر سيفه ويستولى على جميع البلاد الإسلاميه، ثم ذكر له تسع صفات، فقال: «كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ (١) بِالشَّامِ، وَفَحَصَ (٢) بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي (٣) كُوفَانٍ (٤)» .

ص: ٣٤٣

١- ١) «نَعَقَ»: من ماده «نَعَقَ» على وزن كعب تعنى فى الأصل صوت الغراب أو الصوت الذى يخرج من الشاه حين يذودها الراعى وتشير هنا إلى زعيق الظالم فى الشام.

٢- ٢) «فَحَصَ»: من ماده «فَحَصَ» على وزن بحث تعنى فى الأصل البحث، كما وردت بمعنى البسط وهذا هو المعنى المراد بها فى الخطبه.

٣- ٣) «ضَوَاحِي»: جمع «ضاحيه» من ماده «ضحو» على وزن سهو بمعنى التعرض للشمس كما تطلق الضواحي على المناطق أطراف المدن.

٤- ٤) «كُوفَانٍ»: اسم آخر للكوفه وتعنى فى الأصل تلال الرمل الحمراء الدائريه.

ثم قال: «فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ (١)، وَفَرَشَ الْأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ. قَدْ فَعَرَتْ (٢) فَاعْرَتْهُ، وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطَأَتْهُ، بَعِيدَ الْجَوْلِ (٣)، عَظِيمَ الصَّوْلِهِ (٤)». ثم أقسم قائلاً: «وَاللَّهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ (٥) فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ».

فهذه الصفات التسع لذلك الحاكم الدموي المقتدر والتي تكشف عن شخصه بصورة تامه تشير إلى أنه يدك أهل الإيمان دكاً بحيث لا يبقى منهم إلّا القليل، فهو يكتم الأنفاس في الصدور ويخنق كل حركة ونشاط، ويستولى على البلاد بعد سفكه للدماء وانطلاقه من الشام إلى الكوفة ثم سائر المناطق، أمّا من هو هذا الشخص الذي يتصف بهذه الصفات؟ هناك رأيان لشراح نهج البلاغه، رأى يراه عبدالملك بن مروان خامس خلفاء بني أميه، كان جباراً طاغياً ودموياً، فقد تحرك بجيش عظيم من الشام ليقضى على مصعب بن الزبير الذي كان يحكم الكوفة، فاستولى على العراق والكوفة، ثم وجه جيشاً بقياده الحجاج إلى الحجاز فقتل عبد الله بن الزبير فسيطر على مكة والمدينه، كما هدم جانباً من الكعبه بعد أن لاذ بها جمع من جيش عبدالله بن الزبير.

والرأى الآخر أنّ ذلك الشخص هو السفينانى الذى يسبق ظهور الإمام المهدي عليه السلام حيث يظهر فى الشام ويسفك الدماء ويدعو الناس إلى نفسه، وبالنظر إلى أنّ الأقسام السابقه من الخطبه بشأن ظهور الإمام المهدي عليه السلام لذلك يبدو أنّ هذا القسم فى الظهور أيضاً، والعبارات المذكوره إشاره إلى ظهور السفينانى.

وقد ورد فى الخبر عن حذيفه بن اليمان أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أشار إلى فتنه بين أهل الشرق والغرب فيخرج السفينانى حتى يرد دمشق فيبعث بجيش إلى الشرق وآخر إلى المدينه حتى

ص: ٣٤٤

١-١) «ضروس»: من ماده «ضرس» بمعنى عض الشىء والضغط عليه، وتطلق الضروس على الناقه السيئهالخلق التى تعض حالبها.
٢-٢) «فغرت»: من ماده «فغر» على وزن ففر بمعنى فتح الفم، وهى هنا كناية عن الحرص فى الاستيلاء على كل شىء، وافغر اسم فاعل من هذه الماده.

٣-٣) «جوله»: من ماده «جول» على وزن قول بمعنى الحركة والدوران حول مكان، وهى كناية عن السعى والجهد المتواصل.

٤-٤) «الصوله»: من ماده «صول» على وزن قول بمعنى الحمله فى الحرب أو القفز على شىء.

٥-٥) «ليشردنكم»: من ماده «تشريد» بمعنى النفى والطرده والتفريق.

يصل بابل وبغداد، فيقتل أكثر من ثلاثة الاف وينتهك عرض أكثر من مئة إمراه، ثم يتجهون إلى الكوفه فيخربون أطرافها، ثم يعودن إلى الشام، فتظهر رايه هدى فى الكوفه وينطلق جيشها إلى جيش السفينانى فيقتله ولا ينجو منه إلاواحد يخبر عن الحادثه (وهكذا تخمد الفتنة) .

قال المرحوم العلامة المجلسى نقل أصحابنا هذا الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام ضمن أحاديث المهدي عليه السلام (١).

ولكن القسم الأخير من هذه الخطبه لا ينسجم مع هذا التفسير، ثم قال الإمام عليه السلام: بأن هذا الوضع من الاضطراب وسفك الماء والابعاد والتشتت يستمر حتى يعود إلى العرب رشداه وعقلها فتتخلص بهذا العقل من فرقتها واختلافها وتتحد كلمتها: «فَلَا تَزَالُونَ كَذَلِكَ، حَتَّى تَوُوبَ (٢) إِلَى الْعَرَبِ عَوَازِبُ (٣) أَخْلَامِهَا! (٤)» .

ثم أمر الناس بأربع من شأنها نصرهم على حكام الظلم والجور، وإعاده الأمن والسلام إليهم فقال عليه السلام: «فَالزُّمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ، وَالْأَثَارَ الْبَيِّنَةَ، وَالْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي النَّبُوَّةِ. وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسْنِي (٥) لَكُمْ طُرُقَهُ لِيَتَّبِعُوا عَقْبَهُ» .

والمراد بالسنة القائمه ضروريات الإسلام وتعاليمه التي ينبغي أن تكون محور الأنشطة السياسي والاجتماعيه والفرديه فى كل زمان، والمراد بالآثار البيئنه هى الأخبار والروايات التي ثبتت من الطرق المعتمره والتي تختزن أغلب التعاليم والوصايا الإسلاميه، والمراد بالعهد القريب وصيه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بولايه على عليه السلام، والمراد بالعباره «واعلموا...» مراقبه الشيطان والحذر منه فى الإتيان بالأمر المذكوره، وذلك لأن الشيطان يسهل طرقه ليصد الناس عن طاعه الله والأئمه المعصومين عليه السلام والذي لا يخلو عاده من المصاعب، أما الأفراد الذين اعتبروا

ص: ٣٤٥

١-١) بحار الانوار ٥٢/١٨٦ - ١٨٧ [١] بتصرف.

٢-٢) «يؤوب»: من ماده «أوب» الرجوع من السفر أو مطلق الرجوع.

٣-٣) «عوازب»: جمع «عازبه» فى الأصل من ماده «عزبه» من لا زوجه له، لكنها وردت أحياناً بمعنى الخفاء والابتعاد، وهذا هو المراد بها فى العباره.

٤-٤) «أحلام»: جمع حلم بمعنى العقل.

٥-٥) «يسنى»: من ماده «سنو» تعنى فى لأصل رى الأرض من الغيوم، ثم استعملت بمعنى مطلق التسهيل من أجل القيام بعمل.

القسم الأخير من الخطبه بشأن حكومه عبدالملك بن مروان فيرد عليهم إشكالات:

الأول: مفهوم العبارة هو أنّ اسقاط حكومه بنى أميه ومجبيء حكومه بنى العباس قد تمّ فى ظلّ عقل العرب ودرايتها والعوده إلى الطريق الصحيح، والحال نعلم أنّ بنى العباس قد واصلوا جنایات بنى أميه ولم تكن حكومتهم أقلّ استبداداً من حكومه بنى أميه، إلّا أن يقال بعقلانيه سقوط بنى أميه وشروع حركه بنى العباس وإن انحرفوا فى مواصله الطريق.

الثانى: لم يكن ظهور بنى العباس مباشره بعد موت عبدالملك، بل استغرق عشرات السنين حيث حكم ولد عبدالملك ثم أعقب ذلك سقوط بنى أميه، إلّا أن يقال فى جواب هذا الإشكال أنّ حكومه ولد عبدالملك كان امتداداً لحكومته، ولكن من اعتبر القسم الأخير من الخطبه إشاره إلى خروج السفينانى قبل قيام الإمام المهدي عليه السلام قد فسّر العبارات المذكوره على أنّها بعد سفك الدماء الطائش فى آخر الزمان والفساد الذى يحصل الناس مع خروج السفينانى، حيث يطرح حجب الغفله وتتم العقول وتستعد الناس لقبول حكومه المهدي عليه السلام لابدّ فى تلك الشرائط ومن أجل مزيداً من الاستعداد من حفظ السنن الإسلاميه والولاء للولايه، وقد مرّ علينا فى الخطبه ١٠١ العبارات المشابهه لما ورد فى هذه الخطبه، وقد وردت الابحاث بشأن تطبيقها على حكومه عبدالملك.

(١)

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي وَقْتِ الشُّورَى

نظره إلى الخطبه

نعلم أنّ عمر حين أشرف على الموت عهد بتشكيل الشورى المؤلفه من ستة أفراد لتعيين الخليفه، كان أحدهم علياً عليه السلام وعثمان، وكان إختيار الأفراد قد جرى وفق تخطيط وسياسه، وكان الهدف واضحاً منذ البدايه فى إقصاء على عليه السلام وتسلم عثمان لزام الأمور بصفته الخليفه السابق، بل بصفته منتخب شورى كبار المسلمين وقد مضى شرح ذلك فى الخطبه الشقشقيه (٢).

أمّا الإمام على عليه السلام الذى كان ينظر لما هو أبعد من الشورى فقد خطب هذه الخطبه ليحذر أصحاب الشورى، وقد ذكر المرحوم السيد الرضى جانب منها.

ص: ٣٤٧

١ - ١) سند الخطبه: نقل هذه الخطبه الطبرى فى تاريخه فى شرح حوادث عام ٢٣ هـ (عام قتل عمر) وقال ابن أبى الحديد هذا جزء من خطبه خطبها على عليه السلام فى أصحاب الشورى بعد وفاه عمر، وقد ورد فى الكلمات القصار رقم ٢٢ «لنا حق . . .» وهو جزء من هذه الخطبه (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٠٢).

٢ - ٢) نفحات الولاية ١/٢٤٤. [١]

«لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوِهِ حَقًّا، وَصَلِّهِ رَحِمًا، وَعَائِدِهِ كَرَمًا. فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي؛ عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ تُتَنَزَّى فِيهِ الشُّيُوفُ، وَتُخَانَ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَيْمَةً لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ».

الشرح والتفسير

تحذير من الحوادث المستقبلية

يتألف هذا الكلام فى الواقع من ثلاثة أقسام:

الأول: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى جانب من فضائله، ولم يكن ذلك بدافع الفخر ومدح النفس، بل ليمهد السبيل أمام الآخرين للقبول.

الثانى: طلب فيه من مخاطبيه سماع ما يقول وقبول نصائحه التى تستبغ خيرهم ومصالحهم وسعادتهم.

والقسم الثالث: تطرق فيه إلى الحوادث الأليمه التى يشهدها المجتمع الإسلامى فى حاله عدم قبول مواعظه وإشراسته.

فقد قال فى القسم الأول: «لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوِهِ حَقًّا، وَصَلِّهِ رَحِمًا، وَعَائِدِهِ كَرَمًا».

فقد أشار فى هذه الفضائل الكبرى الثلاث إلى قبول الإسلام فقال إنَّ علياً عليه السلام هو أول من أسلم ومن الطبيعى أن مثل هذا الفرد يكون أكثر وعياً به من غيره وأحرص، والآخري إلى سبقه فى صلته الرحم، لأنه وقف إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله منذ إنبثاق الدعوه الإسلاميه حتى وفاه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، وقد فدى رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه فى المواطن الصعبه من قبيل مبيته على فراش النبى صلى الله عليه وآله واقعه أحد وأمثال ذلك، كما كان الأبرز فى البر والخير والإحسان حتى نزلت

ص: ٣٤٩

آيات من القرآن الكريم بشأن تصدّقه بالخاتم حين الركوع فى الصلاه (١)، و تصدّقه بالطعام على المسكين واليتيم والأسير (٢)، و تصدّقه بدرهم فى السر و آخر فى العلانيه، و درهم فى الليل و آخر فى النهار (٣).

ثم قال بالاستناد إلى إذعان الجميع بالفضل فيما ذكر: «فاسْمِعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي»، لا تتعجلوا الأمور بانتخاب عثمان، فهذا عمل خطير له عواقب وخيمه على المسلمين، و تطرق عليه السلام إلى المصير الصعب الذى سيفرزّه هذا الانتخاب فقال: «عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَى (٤) فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ لِأَهْلِ الضَّلَالَةِ، وَشِيعَةِ لِأَهْلِ الْجَهَالَةِ» .

هناك خلاف بين شراح نهج البلاغه فى أنّ هذا الإخبار إشاره لحادثه قتل عثمان وشهر السيوف ونقض البيعه من قبل بعض الأفراد كطلحه والزبير وأمثالهما أم إشاره إلى تمرد الناكثين والقاسطين والمارقين (أصحاب الجمل وصفين والنهروان)، ولكن بالنظر إلى الظروف التى وردت فيها هذه الخطبه (حين تشكيل الشورى لانتخاب الخليفه الثالث)، يبدو المعنى الأول أقوى، وكما تكهن الإمام عليه السلام فبمجرّد تسلم عثمان زمام الأمور حتى بدأ التبذير والبذخ فى بيت مال المسلمين وحصل أقرباؤه و بطانته على المراكز الحساسه فى البلد الإسلامى فتهافتوا على بيت المال ليفعلوا فيه ما شاؤوا، وهو الأمر الذى أثار غضب المسلمين فناروا عليه وكان فى مقدمه من ثار عليه طلحه والزبير، وقد تبعهم طائفه من الناس فحصل ما لم ينبغى أن يحصل، والحال لو لم تسود الشورى تلك العصبية والملاحظات الشخصيه وفوضت الخلافه لأهلها، لما وقعت تلك الحوادث المريره ولا ما تبعها من نتائج، وذلك لأنّ جذور فتنه الناكثين والقاسطين والمارقين إنّما ترعرعت فى ظلّ حوادث عصر عثمان.

ص: ٣٥٠

١-١ (١) سورة المائده / ٥٥.

٢-٢ (٢) سورة الدهر / ٨.

٣-٣ (٣) سورة البقره / ٢٧٤.

٤-٤ (٤) «تنتضى»: من ماده «نضو» و «نضى» على وزن نظم بمعنى سل السيف، أو الخروج من البيت وشحوب اللون وما شابه ذلك، والمراد بها فى العبارة المعنى الأول.

ذكرنا فى المجلد الأول من هذا الكتاب فى شرحنا لخطبه الثالثه المعروفه بالخطبه الشقشقيه قصه الشورى المؤلفه من سته أفراد والتى شكّلها عمر وأدّت إلى انتخاب عثمان كخليفه والتى تمثل فى الواقع مؤامره ضد خلافه على عليه السلام، وقد أوردنا جانباً من الأقوال بهذا الشأن استناداً إلى التواريخ المعتمره والذى نود إضافته هنا إلى ما ذكرناه هو أننا لو أنعمنا النظر فى تركيب هذه الشورى وحوادثها السلبيه وسنرى أنّ أغلب مشاكل المسلمين قد أفرزتها تلك الشورى، ومن ذلك أيضاً حكومه عثمان واستيلاء بنى أميه وبنى مروان على المناصب الحساسه للبلاد الإسلاميه وبيت المال المسلمين وحكومه معاويه ومعارك الجمل وصفين والنهروان ومن ثم حكومه يزيد وأمثال عبدالملك.

والجدير بالذكر هنا ما أورده شارح نهج البلاغه ابن أبى الحديد حيث قال بخصوص الشورى: «إنّ ذلك كان سبب كل فتنه وقعت وتقع إلى تنقضى الدنيا» (١).

فهذه الشورى هى التى أدّت بالتالى إلى تغييب القيم الإسلاميه وأحيت السنن الجاهليه والمعايير الماديه والدينيه وشادت المجتمع الإسلامى وقطعت ألسن دعاه الحق ونفت وشردت أبى ذر وأثارات النقمه ضد عمّار بن ياسر حين اعترض على نتيجة الشورى فلم يكثر أحد لما كان يقول: فقد استوى أوثك العتاه على عرش الغرور والحميه فعاثوا الفساد فى أوساط المجتمعات الإسلاميه، الفساد فى الحكومه والفساد فى الإيمان والأخلاق، ولو سمحت النعرات الطائفيه بالتعامل الدقيق مع هذه الأحداث لاتضح فداحه الخساره التى منى بها المسلمون من جراء الشورى.

ص: ٣٥١

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي النَّهْيِ عَنِ غَيْبِهِ النَّاسِ

نظرة إلى الخطبة

نهى الإمام عليه السلام الناس في هذه الخطبة عن اغتياب بعضهم البعض الآخر وقد عزز ذلك بعدّه أدله، فقد ذكر باديء الأمر وجوب الشكر على من تطهر من العيوب والذنوب، ويتمثل شكرها بتجنب الغيبة واقتفاء عيوب الآخرين، الأمر الآخر لو تأمل صاحب الغيبة نفسه لاكتشف فيها العيوب التي يحاول العثور عليها في الآخرين، فكيف والحال كذلك يسعى لدم الآخرين على عيوبهم وهم يحملونها، وأخيراً لعل الإنسان يقارن الصغيره وهو يظن بأنه لم يرتكب الكبيره من الذنوب فيخوض في غيبه الآخرين، وتقصى معائبهم وهذا بحد ذاته من الكبائر، أضف إلى ذلك فما يدري من يغتاب الآخرين أنّ الله قد غفر لهم بينما لم يغفر لمن فتش عن عيوب الآخرين، وزبده الكلام فإنّ الله قد أغلق الطريق على أصحاب الغيبة والباحثين عن عيوب الناس ليظهر المجتمع الإسلامي من هذه الفاحشه.

ص: ٣٥٣

١-١) سند الخطبة: ذكر الأمدى في كتاب «غرر الحكم» مع فارق وما ورد في نهج البلاغه وهذا يدل على أنّ مصدره غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه ٢/٣١٤)، كما وردت هذه الخطبة في بعض المصادر كجزء من خطبه تعرف بالديباج (كتاب تمام نهج البلاغه).

«وَأَيْتِمًا يَتَّبِعِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمُضَيَّنُّوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلَامَةِ أَنْ يَزْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ، وَعَيْرَهُ بِبُلُوَاهُ. أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سِتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ! وَكَيْفَ يَذُمَّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَإَيْمُ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجَرَّاتُهُ [لَجَرَّاتُهُ] عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ!». .

الشرح والتفسير

إهتم الإسلام بقضيه الغيبة وإقتفاء عيوب الآخرين على أنها من المشاكل الاجتماعية الكبرى التي تشيع روح التشاؤم والنفاق وتفكك عرى الثقفه وتقضى على روح الاتحاد والأخوه، ومن هنا عدّها الإسلام من الذنوب الكبيره، وقد قسم الإمام عليه السلام الناس إلى خمس طوائف، الطائفة الأولى التي شملتها عنايه الله سبحانه فلم تتلوث بالذنوب المعاصي، فقال بشأن هذه الطائفة: «وَأَيْتِمًا يَتَّبِعِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمُضَيَّنُّوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلَامَةِ أَنْ يَزْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ، وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ»، فأى نعمه أعظم من أن يتلطف الله تعالى على إنسان ويصونه من مقارفة الذنب، وأى شكر أعظم من شكر هذه النعمة الإلهية الكبرى بأن يحفظ لسانه من إغتياب الآخرين واقتفاء عيوبهم.

الطائفة الثانية التي تحمل العيوب وتذم الآخرين على مثلها، أى إن حب الذات لا يدعهم

يرون عيوبهم بينما دقيق هو في متابعه عيوب الآخرين، وقد قال فيها على عليه السلام: «فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ، وَعَيَّرَهُ يَبْلُوَاهُ. أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ!». .

إشاره إلى أنّ الإنسان المؤمن يجب أن يتحلى بقبسات من صفات الله سبحانه، فالله ستار العيوب، فينبغي عليه أن يستر عيوب الآخرين.

الطائفة الثالثة التي ترتكب الذنوب وتذم الآخرين على مثلها، والحال من الطبيعي أن يكون الإنسان أحرص على نفسه من الآخرين، فكيف لهذا الإنسان بالتفكير في عيوب الآخرين دون أن يهتم بإصلاح نفسه وعيوبه، أى عقل يسؤل للإنسان نسيانه لذاته بصوره كليه ويلقى بها في مستنقع البؤس والشقاء فيخوض في ذنوب الآخرين، ناهيك عن أنّ الدافع من ذلك هو الفساد لا الإصلاح، فقد قال الإمام عليه السلام: «وَكَيْفَ يَذُمَّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ!». .

الطائفة الرابعة من تذم الآخرين على ذنوب لم ترتكبها، لكنّها ارتكبت ما هو أفضع منها، وهو غافل عن هذه الذنوب غير مكترث لها، فقال الإمام عليه السلام بشأنها: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ». .

الطائفة الخامسة التي ربّما لم ترتكب تلك الذنوب التي تذم الآخرين على ارتكابها، حيث لم تصدر منها سوى بعض الصغائر من الذنوب فقال قال الإمام عليه السلام بشأنها: «وَإِنَّمِ اللَّهُ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجَرَاتُهُ [لَجْرَاتُهُ] عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ!». .

وهكذا أغلق الإمام عليه السلام جميع الطرق على أولئك الذين يقتفون عيوب الآخرين ويسلبهم أیه ذريعه بعد أن يذكّرهم بكافه العواقب الوخيمه التي تترتب على شنائع أعمالهم، ليتعدوا عن وساوس الشياطين ويطلعهم على أهوائهم وقبح أفعالهم ليجسدها أمام أنظارهم.

«يَا عِبْدَ اللَّهِ، لَا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صِغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ. فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ» .

الشرح والتفسير

أكد الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه تلك المبادئ التي أوردتها في القسم السابق وقد حذر كافة العباد من تتبع عيوب الآخرين وغيباتهم، ثم تابع هذا الأمر من خلال الأدله المنطقيه فقال عليه السلام: «يَا عِبْدَ اللَّهِ، لَا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صِغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ» .

في إشاره إلى أنّ ذنب الآخرين قد يغفر بسبب التوبه أو شفاعه المعصومين عليه السلام أو على أساس القيام بأعمال الخير بينما يؤاخذ هذا الإنسان بذنبه مهما كان صغيراً بفعل الغرور والغفله، وعليه كيف يسمح العاصي لنفسه بدم الآخرين على معايهم ومثالبهم فيغتابهم؟

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال: «فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ» ، فالله هو المنزه من العيوب والطاهر من الذنب هو المعصوم، وعليه فلا يجوز لنا العقل بأن نضوب سهام غيبتنا وذمنا للآخرين ونحن غارقون في العيوب والذنوب.

ثم إختتم الخطبه بالإشاره إلى المطلب الذي ذكره في القسم الأول من الخطبه ولكن بعبارة أخرى فقال عليه السلام: «وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ» .

فو فرضنا تنزه شخص عن كل عيب أو عيوب معينه، فذلك نعمه كبيره تستحق شكر الله والشعور بلطف الله تعالى وعنايته، والحق إن مثل هذا الشكر يشغل الإنسان بنفسه إلى الحد الذى يسلبه فرصه البحث عن عيوب الآخرين.

نعم، فهذا المعلم الربانى يعتمد مختلف الأدله المنطقيه بغيه القضاء على هذه الرذيله القبيحه المتمثله بالغيبه وتحرى عيوب الآخرين، كما يغلق جميع الطرق على أصحاب الحجج والذرائع.

الغيبه والبحث عن العيوب آفه المجتمعات الإنسانيه

الغيبه تعنى إفشاء عيوب الأفراد ومثالبهم، والمؤسف له هو أن هذه الظاهره شائعه فى أغلب المجتمعات البشريه، وبما لا شك فيه أنها تخترن مختلف الآثار السلبيه على المستوى الأخلاقى وكذلك الاجتماعى، وذلك لأنّ السند الرصين لكل مواطن فى المجتمع هو ماء وجهه، والغيبه تزيل ماء الوجه وتظعن فى شخصيه الفرد وتقضى على روح الثقه وبين أفراد المجتمع والتالى تلعب دوراً سلبياً فى إضعاف التعاون الاجتماعى، ومن هنا عدّها الشارع وحده من أقبح وأشنع الذنوب حتى شبهها القرآن الكريم يأكل لحم الأخ الميت، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله فى خطبه حجّه الوداع وهى خطبه حساسه: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْغَيْبَةَ كَمَا حَرَّمَ الْمَالَ وَالْدَّمَ» (١).

وكفى بقباحه الغيبه ما ورد فى الحديث القدسى أنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى بن عمران: «مَنْ مَاتَ تَائِبًا مِنْ الْغَيْبَةِ فَهُوَ آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَمَنْ مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ» (٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا الشأن: «مَنْ مَشَى فِي غَيْبِهِ أَخِيهِ وَكَشَفَ عَوْرَتَهُ كَمَا كَانَ أَوَّلُ خُطْوِهِ خَطَايَاهَا وَضَعَهَا فِي جَهَنَّمَ» (٣).

ص: ٣٥٨

١- ١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد ٩/١٦٢. [١]

٢- ٢) جامع السعادات ٣/٣٠٢؛ [٢] بحار الانوار ٧٢/٢٥٧. [٣]

٣- ٣) جامع السعادات / ٣٠٣. [٤]

كما قال صلى الله عليه وآله: «مَا عَمَرَ مَجْلِسٌ بِالْغَيْبِ إِلَّا خَرِبَ بِالَّذِينَ» (١).

وكثيره هي الأحاديث التي وردت بهذا الخصوص والتي لا يسع المجال ذكرها، ونكتفى هنا بذكر حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: ونحيل من أراد المزيد إلى المجلد الثالث من كتاب الأخلاق في القرآن في مبحث الغيبة وكتاب جامع السعادات المجلد الثاني والمجلد الثامن من وسائل الشيعة، حيث قال: «الغيبه حرام على كل مسلمٍ وأنها تأكل الحسنات كما تأكل الثأر الحطب» (٢).

والحقيقه هي أنّ الإسلام يرى حرمه ماء وجه المسلم والتي تعدل حرمه دمه، وقد اقترن العرض بالدم في الروايات والأخبار الإسلاميه وبناءً على ما تقدم فإنّ من إغتاب شخصاً آخر وانتهك حرمة الاجتماعيه وأراق ماء وجهه فكأنه قتله، ومن هنا تواترت الروايات التي أكّدت الثمن الباهض الذي سيدفعه صاحب الغيبه يوم القيامة وما سيؤخذ منه حسنات بسبب ما اقترف من غيبه فتضاف إلى حسنات من إغتابه، فإنّ لم يكن له من حسنات، أخذت من سيئات من إغتابه وأضيفت إلى سيئات صاحب الغيبه.

نعم، الغيبه حق الناس على غرار قتل النفس وجرح الأفراد، ولهذا فلو إلتفت المؤمنون إلى تبعات السيئه لهذه الذنوب والتي صورتها الروايات الإسلاميه لما سعى لمقارفه هذه السيئه، وهذا ما دفع بالإمام عليه السلام للإتيان بعده أدله منطقيه لبيان الآثار السيئه لهذه السيئه وقد حذر الجميع من مقارفتها، ويبدو بحث موضوع الغيبه من الأبحاث الواسعه كما صورها علماء الأخلاق ونكتفى هنا بذكر بعض الأمور بهذا الشأن:

١ - لا بدّ أن نتّجه قبل كل شيء نحو دوافع الغيبه وذلك لأنّه يمكن الاستدلال على قبح النتائج من خلال قبح الدوافع، فدافع الغيبه غالباً هو الحسد وحبّ الذات والغرور والتكبر والحقد والرياء وحبّ الدنيا والثأر والسخرية والاستهزاء بالآخرين وما شاكل ذلك، حيث يحاول الأفراد الملوثون بهذه الأمراض بلوغ أهدافهم السيئه عن طريق الغيبه وبالنظر إلى أنّ الدوافع المذكوره جميعاً من الكبائر فإنّه يمكن الوقوف على قباحه الغيبه.

ص: ٣٥٩

١-١) بحار الانوار ٧٥/٢٥٩.

٢-٢) جامع السعادات ٣/٣٠٥. [١]

٢ - إنَّ أهمَّ أُرصدَه المَجمَع وسنَدَه الأَصَل والذِي مِن شَأْنِه توحيد الأَفراد ويدفعهم بِأَتجاه الأَهْداف النَّبيلَه هو الثَّقَه المُتبادلَه ومَمَّا لا- يَشكُ فيَه أنَّ أولَى النَّتائِج السيئَه للغيبَه تَمثل بالقضاء على هَذا السند، وذلك لأنَّ كلَّ فردٍ في الغالب يَنتَوى على عيب أو عيوب فإنَّ بَقيت خفيَه لَن تَنعكس سلباً على الآخَرين ويَبقى التَّفْاؤُل ثقَه الأَفراد بَعْضهم بالبعض الآخَر قائمَه، أمَّا كَشَف هَذه العيوب عن طَريق تحريها والبَحث عنها وممارسَه الغيبَه وذم كلِّ فردٍ آخَر إنَّما يَحيل المَجمَع إلى جَهَنم محرقَه بِحيث يسيء كلُّ فرد الظن بالآخَر وينفر مِنه، بِالنَّتيجَه تزعزع النَظام العام للمَجمَع وتعرَّضَه للقلق والاضطراب.

وبعبارَه أُخَرى كما يَتهدد الأمن العام للمَجمَع بفعل نهب الأَموال وسفك دماء الأبرياء، فإنَّ سلب ماء الوجهِ وسرقته مِن الآخَرين عن طَريق الغيبَه إنَّما يَشيع تلك الفوضى ويقضى على الأمن، وذلك لأنَّه كما ورد في الروايَه المذكورَه عن رسول اللّهِ صلَّى اللهُ عليه وآله فإنَّ التَّعرض لحيثيات الآخَرين بِمُتابَه التَّعرض لأنفسهم وأموالهم، لا يَمكُن كتمان الغيبَه عادَه وتَفْشي على صاحبها فتشْتعل فيهم نيران الحقد والكراهيَه، الحقد الذي يمهّد السبيل أمام سفك الدماء وعظام المشاكل، والغيبَه أحد أسباب إشاعه الفحشاء وعامل مَهم مِن عوامل سوء الظن، إلى جانب كونها تَجعل الآثم جَريئاً في ذنوبه، لأنَّ المذنب الآثم يراعى عادَه جانب الاحتياط إنَّ بَقيت معصيته خفيَه مستورَه، فإن هتكت زال حجاب الحياء والخجل.

٣ - الغيبَه حق الناس، والمسألَه المَهمَّه بِشأن الغيبَه أنَّها ليست معصيه بين الإنسان وربِّه تبارك وتعالى يَمكُن غسلها بِماء الندم فتَحصَل التوبَه، بل كما لا- يَمكُن تلافى الخسائر الناجمَه عن سفك الماء وغصب الأَموال دون القصاص أو الدية ودفع التعويضات الماليَه، فإنَّه لا- يَمكُن غفران إزاله ماء وجهِ الآخَرين دون تعويض، سَيمًا إنَّ توفى مِن أغتیب ولم يَكُن هناك مِن سبيل لمن إغتابه للوصول إليه ولم يبق أمامه سوى الحساب والقيامَه، يعنى حين لا يَكُون هنالك مِن سبيل للتعويض سوى إضافَه حسناته إلى ذلك الفرد أو تقبل سيئاته، وهذَه بِحدِّ ذاتَه مصيبه كبرى.

٤ - إنَّ أفضل علاجٍ للغيبه يتمثل بما ذكره مولى الموحيد أمير المؤمنين على عليه السلام في الكلام المذكور وقد لفت انتباه الإنسان إلى هذه الحقيقه وهى إن رأى الإنسان عيباً ومنقصه فى شخص آخر وليس فيه مثلها، فقد وجب عليه شكر الله، الشكر الذى يصدّه عن تحرى عيوب الآخرين، وإن قارف معصيه وقد إرتكبها مثله، فلا- ينبغى له أن يتجاهل عيبه وينشغل بعيوب الآخرين، وإن إرتكب الصغيره وجب عليه أن يفكر فى أنّ كبيره غيره ربّما غفرت ولم يغفر له، بل جرّأته على تقصى عيوب الآخرين لأكبر من ذنوبهم مهما كبرت.

أضف إلى ذلك فكما أنّ الأمراض البدنيه لن تعالج بصوره تامه ما لم تزول جذورها فإنّ الأمراض الروحيه كالغيبه لا بدّ من إقتلاع جذورها حتى تزول الرغبه فى مقارفتها.

٥ - استماع الغيبه أحد الذنوب - كما سيأتى شرح ذلك فى الخطبه القادمه - ذلك لأنّ السامع شارك فى إراقه ماء وجه مسلم فهو شريك فى الجرم، سيّما إن إستمع مختاراً بما يجعله سبباً لتشجيع صاحبه الغيبه.

٦ - لا يقتصر سبيل التوبه عن الغيبه على الاستغفار، بل لا بدّ من محاوله تعويض من أعتيب وأريق من ماء وجهه إلى جانبى الندم والتوسل إلى الله تعالى فى طلب العفو الرحمه، فإن أمكن مناشدته إبراء الذمّه، وأما إن تعذّر ذلك بسبب ترتب مفسده، أو توفى الشخص، فلا بدّ من القيام بأعمال الخير من أجله حتى يرضى، وكل هذه الأمور تشير إلى مدى فضاعه الغيبه وصعوبه التخلص من تبعاتها، ومن أراد المزيد بشأن المسائل المتعلقة بالغيبه ومن ذلك موارد الاستثناء عليه مراجعه الجلد الثالث من كتاب الأخلاق فى القرآن (١).

ص: ٣٤١

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي النَّهْيِ عَنِ سَمَاعِ الْغَيْبِ وَفِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ

نظره إلى الخطبه

يبدو أنّ هذا الكلام مواصله للخطبه السابقه، فقد ورد الحديث في الخطبه السابقه عن نهى الناس عن الغيبه، وجرى الكلام هنا في النهى عن سماع الغيبه، كما أكد عليه السلام عدم تصديق كل ما يصدر من الشخص بهدف حفظ شخصيه الآخرين، فالخطأ جائز حتى على الصادقين.

وإختتم عليه السلام الخطبه بوصيّه الجميع بعدم تصديق الشئ ما لم يره، فما أكثر الخطأ واللبس في السماع.

ص: ٣٦٣

١ - ١) سند الخطبه: نقلها القاضي القضاى فى كتاب «دستور معالم الحكم»، كما نقل جزءاً منها على بن هذيل فى كتاب «عين الأدب والسياسه»، وكذلك المرحوم الصدوق فى «الخصال» وابن عبد ربه فى «العقد الفريد»، (مصادر نهج البلاغه ٢/٣١٥) [١]

«أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَهُ دِينَ وَسَدَادَ طَرِيقٍ، فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرَّجَالِ. أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِيَ، وَتُخَطِّئُ السَّهَامَ، وَيُحِيلُ [يُحِيكُ] [الْكَلَامَ، وَبَاطِلَ ذَلِكَ يَبُورُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ.

فَسَيْئِلُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنِ مَعْنَى قَوْلِهِ هَذَا، فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ وَوَضَعَهَا بَيْنَ أُذُنِهِ وَعَيْنِهِ ثُمَّ قَالَ: الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ!». .

الشرح والتفسير

المسافة بين الحق والباطل

كما ورد سابقاً، يبدو أن هذا الكلام جزء من الخطبة السابقة فصلها عن بعضها المرحوم السيد الرضى، وذكرها بصورة مستقلة، والواقع أن الهدف من الخطبتين واحد هو حفظ ماء الوجه وإشاعه أجواء الثقة بين أفراد المجتمع والابتعاد عن الآثار السيئة للغيبة وتحري العيوب.

فقد بين الإمام عليه السلام في الخطبة السابقة طرق معالجة الغيبة، وسعى هنا للحد من الآثار الهدامة للغيبة أو القضاء عليها تماماً.

فقال بادئ ذي بدء: «أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَهُ دِينَ وَسَدَادَ (1) طَرِيقٍ، فَلَا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرَّجَالِ» .

فالواقع هو أن الإمام عليه السلام قد أبطل بهذه العبارة القصيره ومن خلال عدّه طرق الآثار السيئه للغيبة في المستمع، وأول تلك الطرق ما ورد في العبارة المذكوره، لأنّ الإنسان إن عرف

ص: ٣٦٥

١ - ١) «سداد»: بمعنى الصحيح من الكلام والعمل وتستعمل هذه المفردة كمصدر واسم مصدر، ويبدو أنها قريبهمن ماده سد بمعنى الجدار المحكم الذى يقام ضد السيول وما شابه ذلك، لأنّ للكلام الحق استحكام خاص.

أحداً بحسن السيره والورع والتقوى كان عليه أن يوقن بخطأ ما يقال فيه من أمور مخالفه، لأن الموارد المشكوكه غالباً ما تحمل على الموارد المعلومه وعلى حدّ التعبير المشهور: «الظنُّ يلحقُ الشَّيءَ بالأعمِّ الأغلبِ»، وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا يعنى قبولنا لغيبه الأفراد وتتبعهم لعورات الآخرين الذين ليس لهم من سابقه، بل الهدف مضاعفه التأكيد بالنسبه للأفراد من ذوى السوابق الحسنه، بحيث لا ينبغى التصديق مطلقاً بما يقال بشأن أولئك.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه أخرى وهى لو فرضنا أنّ المتكلم كان صادقاً، ولكن من الموقن به أنّه ليس بمعصوم، وعليه فالخطأ محتمل من جميع الناس سوى المعصومين، وعليه فلا- ينبغى تصديق المقابل بكل سهوله فى ما ينسبه إلى الآخرين، ناهيك عن عدم مطابقه الظن والحدس إلى الواقع على الدوام، فقال: «أما إنّه قد يزعم الرّامى، وتخطئ السّهام»، أضف إلى ذلك وعلى ضوء كلام الإمام عليه السلام: «ويُحِيلُ (١) [يُحِيكُ] [الكَلَامُ، وَبَاطِلُ ذَلِكَ يُبَوِّرُ (٢)، وَاللَّهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ»، فى إشاره إلى أنّ أغلب الناس لا- يلتزمون بكلام الحق ويتفوهون بكل ما يرد على ألسنتهم، ومن هنا لا ينبغى قبول ما ينسبونه إلى الآخرين من عيوب، فقد يكون ذلك من الأقوال الباطله التى تنسب إلى الأفراد دون تريث.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه مهمه أخريس فقال: «أما إنّه ليس بين الحقِّ والباطلِ إلّا أربَعُ أصابعٍ» .

وفى هذه الأثناء سأله أحد الحاضرين: «عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ هَذَا، فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ وَوَضَعَهَا بَيْنَ أُذُنِهِ وَعَيْنِهِ ثُمَّ قَالَ: الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ!» .

فالعباره فى الواقع إشاره إلى الشائعات التى تتناقها الألسن فيطالعك هذا وذاك وهم يرددون يقال كذا ويقال كيت وليس الأمر سوى شائعات لا- أساس لها، وقد قال عليه السلام لا تلتفتوا إلى الشائعات ولا تنسبوا إلى الآخرين ما لا ترون، ومن هنا تتضح الإجابة على السؤال الذى أورده أغلب شراح نهج البلاغه ومفاده: إنّ الآيات القرآنيه والوحى السماوى وسنّه النبى

ص: ٣٤٤

١-١) «يحيل»: من ماده «إحاله» كل تغير أو حركه تخرج عن الحق والاستقامه وتحيل إلى الانحراف و الاعوجاج.

٢-٢) «يبور»: من ماده «بور» تعنى فى الأصل شدّه كساد الشىء وحيث يبعث ذلك على الفساد حسبما ورد فى المثل كسد حيا فسد فقد اطلقت هذه المفرده على الفساد ومن ثم الهلكه.

الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام كلها عن طريق السمع فكيف يحكم بطلانها؟

فليس مراد الإمام عليه السلام بطلان أخبار الثقات والأحاديث المتواتره والمستفيضه التي وصلتنا عن طريق السمع، بل مراده ذلك المعنى العرفى والمتداول بشأن الشائعات، والشاهد على ذلك ما روى عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام لما سئل: كم بين الحق والباطل؟ فقال عليه السلام: «أربع أصابع فما رأيت به عينك فهو الحق وقد تسمع بأذنيك باطلاً كثيراً» (1).

وزبيده الكلام ليس كل ما يراه الإنسان حق، وذلك لأن العين قد تخطف أحياناً، وليس كل ما يسمعه باطل، وذلك لأن المتكلم قد يكون فرداً عادلاً وثقة، لكن قليل هو الخطأ على مستوى العين، أما الكلام الباطل عن طريق السمع فهو كثير، وهذا ما أشارت إليه العبارة الواردة عن الإمام عليه السلام.

ولعل هذا هو أنسب التفاسير للعبارة المذكوره، بينما أورد البعض من شراح نهج البلاغه تفسيراً آخر خلاصته أن العبارة: «ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع» إشاره إلى العيوب التي تقال في حق الأفراد، أغلب هذه العيوب ناشىء من سوء الظن وعدم التحقيق والحسد، والحقد والكراهيه وما شاكل ذلك، وعليه فهناك الكثير من الكذب والباطل في هذه الأقوال، ولكن يمكن للإنسان القول بأن العيوب الفلانيه في الشخص الفلاني إن رآها بعينه.

درس أخلاقى رفيع

لو وضع الناس نصب أعينهم واستحضروا على الدوام وفي كل مكان عبارة الإمام عليه السلام ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع وعملوا بها في حياتهم، قطعاً كل التفاؤل محل التشاؤم وحسن الظن بدل سوء الظن والثقه والاعتماد بدل عدمهما والمحبته بدل البغض والكراهيه، وسوف تبته الإشاعات ولا يكون لها ذلك الصدى والتأثير وبالتالي سوف لن يبلغ أصحابها ما يرومونه من أهداف فلا يسود المجتمع سوى الحب والأخاء، والمؤسف له أن الشائعات في

ص: ٣٦٧

الوقت الحاضر قد جاوزت الأفراد لتطيل فئات البلاد وتجمعاته بحيث ألفت بظلالها الوخيمه على جميع أرجاء العالم وما ذلك إلى للغفله عن الفارق بين الحق والباطل التي أشير إليها في كلام الإمام عليه السلام، وإنما لنلمس الثمن الباهظ الذي يدفعه العالم بسبب عدم التزامه بهذا الأمر.

ص: ٣٤٨

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

المعروف في غير أهله

نظره إلى الخطبه

تدور هذه الخطبه حول محورين:

المحور الأول: يشرح النتائج السلبيه للمعروف والإحسان إلى غير أهله.

والمحور الثاني: الموارد المؤهله لأن يصنع الإنسان إليها المعروف لينال من خلالها شرف الدنيا والفوز بفضائل الآخره.

ص: ٣٦٩

١ - ١) سند الخطبه: ذكرها المرحوم الكليني في كتاب «الكافي» (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٠٢)، [١] والمرحوم الشيخ المفيد والشيخ الطوسي في الآمالى وابن قتيبه في كتاب «الإمامه والسياسه»، والجدير بالذكر أنه يستفاد من بعض المصادر المذكوره مثل كتب الكافي أن هذه الخطبه هي استمرار للخطبه ١٢٦ (مصادر نهج البلاغه ٢/٢٨٢ [٢] بتصرف).

«وَلَيْسَ لَوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحِطِّ فِيمَا أَتَى إِلَّا مَحْمَدَهُ اللَّئَامَ، وَتَنَاءُ الْأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ، مَا دَامَ مُنْعِمًا عَلَيْهِمْ: مَا أَجُودَ يَدُهُ! وَهُوَ عَنِ ذَاتِ اللَّهِ بِخَيْلٍ!»

مواضع المعروف

فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيُفَكِّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِيَّ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْعَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ائْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزًا بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفٌ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرْكٌ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً هذه الخطبة حسب بعض الروايات المعتبرة جزء من الخطبة رقم ١٢٦، والتي اعترض فيها بعض الجهال على الإمام عليه السلام بسبب تسويته بين الناس في العطاء من بيت المال المسلمين، فكلموه لم لا تزيد في عطاء أشرف القبائل ليطروه ويثنوا عليه ويقفوا إلى جانبه عند الشدائد، أما الإمام عليه السلام فقد وبّخهم في هذه الخطبة في أنّ البذل والعطاء في غير موضعه لا يوجب غضب الله وسخطه فحسب، بل به آثاره السلبية حتى في الدنيا أهونها ثناء الأشرار وإنسحاب الأخيار، فقال عليه السلام: «وَلَيْسَ لَوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، مِنَ الْحِطِّ فِيمَا أَتَى إِلَّا مَحْمَدَهُ [\(١\)](#) اللَّئَامَ، وَتَنَاءُ الْأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ».

ص: ٣٧١

أضف إلى ذلك فإن هذا المدح والثناء قائم مادام البذل والعطاء ومد يد الجود والسخاء، ولكن بمجرد أن يقطع هذا البذل لا يبقى من أثر لذلك المدح ولا ثناء، هذا في الوقت الذي يكون فيه بخيلاً عن البذل في سبيل الله تعالى: «مَا دَامَ مُنْعَمًا عَلَيْهِمْ: مَا أَجُودَ يَدُهُ! وَهُوَ عَن ذَاتِ اللَّهِ بِخَيْلٍ!». .

وقد جربنا كلام الإمام عليه السلام مراراً في حياتنا والذاكره البشريه تحتفظ بالكثير من ذلك طيله التاريخ، فقد حفلت الدنيا بالأفراد المتكالبين على الدنيا ممن تحكموا بثروات المجتمع وقد أعدقوها على المتملقين من الأشرار ممن حولهم وبطانتهم وقد ولو ظهورهم بالمزّه عن معاناه المحرومين وآلام المساكين، فان دارت عليهم الدوائر وتنكرت لهم الدنيا، هب المحرومون للوقوف بوجههم ولم يكتف الأمر عند هذا الحد، بل تنكر لهم حتى أنصارهم من المتملقين وعرضوا لهم بالذم والتوبيخ، فلم يتركوهم وشأنهم فحسب، بل سارعوا للتمرد عليهم وأعدوا أنفسهم للإنسجام مع من يخلفونهم من الحكام، وهذه هي عاقبه من ولى ظهره للحق تبارك وتعالى والخلق والتحق بركب النفعيين.

ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ طَلَبَ مَحَامِدَ النَّاسِ بِمَعَاصِيِ اللَّهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنْهُمْ دَائِمًا» (١)، وعن المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ إِلَى خَيْرٍ يَصِيْرُ الرَّجُلُ أَمْ إِلَى شَرٍّ؟ أَنْظِرْ إِلَى أَيْنَ يَضَعُ مَعْرُوفُهُ؟ فَإِنْ كَانَ يَضَعُ مَعْرُوفَهُ عِنْدَ أَهْلِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَصْتَبِرُ إِلَى خَيْرٍ وَإِنْ كَانَ يَضَعُ مَعْرُوفَهُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ» (٢).

ص: ٣٧٢

١-١ (١) بحار الانوار ٧٤/١٧٨. [١]

٢-٢ (٢) منهاج البراعه ٧/٤٣٩.

«فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيُفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِيَّ، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَابِغِ، ائْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزًا بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفٌ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرَكٌ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» .

الشرح والتفسير

عرض الإمام عليه السلام بالذم الشديد لصانع المعروف في غير أهله كما ورد ذلك في المقطع الأول من الخطبه والذي كان يمثل الجانب السلبي من القضية، أما في هذا القسم فقد تعرض إلى جانبها الإيجابي فبين الموارد الطبيعه التي تستحق الانفاق والبذل والعطاء، حذراً من استغلال البعض لما مرّ معنا سابقاً في العبارات، فيعتمد البخل وعدم الانفاق فقال: «فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيُفُكَّ بِهِ الْأَسِيرَ وَالْعَانِيَّ (١)، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ (٢)» .

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى سته موارد للانفاق والبذل وفي مقدمتها القرابه من ذوى الحاجه، فمما لا شك فيه أنّ هؤلاء مقدمون على غيرهم، وهذا ما ورد في الخبر المروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: عَلَى ذِي الرَّجْمِ الْكَاشِحِ» (٣)، ثم ركز الإمام على قضية الضيافه وهى الأمر الذى يؤدّى إلى إشاعه أجواء المودّه

ص: ٣٧٣

١ - ١) «العانى»: من ماد «عنى» بمعنى الشدّه والتعب، وعدّها البعض من شراح نهج البلاغه [١] مرادفه لأسير، ويبدو أنّ معناها واسع يشمل كل إنسان يعيش التعب والإرهاق.

٢ - ٢) «الغارم»: من ماده «غرامه» من عليه الديون.

٣ - ٣) الكافي ١٠/٤. [٢]

والمحبه بين الأصدقاء ويزيل الأحقاد، كما يوطد العلاقات العاطفيه والاجتماعيه وقد أولى الإسلام هذه المسأله الإنسانيه والأخلاقية أهميه قصوى حتى ورد في الخبر أن الإمام الصادق عليه السلام سأل أحد أصحابه: «أَتَجِبُ إِخْوَانَكَ يَا حُسَيْنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: تَنْفَعُ فَقَرَائِهِمْ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّهُ يَحِقُّ عَلَيْكَ أَنْ تُجِبَّ مَنْ يُحِبُّ اللَّهَ، أَمَا وَاللَّهِ لَا تَنْفَعُ مِنْهُمْ حَتَّى تُجِبَّهُ، أَتَدْعُوهُمْ إِلَى مَنَزِلِكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا أَكُلُ إِلَّا وَمَعِيَ مِنْهُمْ الرَّجُلَانِ وَالثَّلَاثَةُ وَالْأَقْلُ وَالْأَكْثَرُ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمْ إِنَّ فَضْلَهُمْ عَلَيْكَ أَعْظَمُ مِنْ فَضْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَقُلْتُ: فَمَا أَطْعَمُهُمْ طَعَامِي وَأَوْطَيْتُهُمْ رَحْلِي وَيَكُونُ عَلَيَّ فَضْلُهُمْ عَلَيَّ أَعْظَمُ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّهُمْ إِذَا دَخَلُوا مَنَزِلَكَ دَخَلُوا بِمَغْفِرَتِكَ وَمَغْفِرَةِ عِيَالِكَ، وَإِذَا خَرَجُوا مِنْ مَنَزِلِكَ خَرَجُوا بِذُنُوبِكَ وَذُنُوبِ عِيَالِكَ» (١).

ولمّا كان دفع الحقوق الواجبه والمستحبه وتعويض الخسائر شاقاً على النفس فقد أكد الإمام عليه السلام على الصبر والتحمل فقال: «وَلْيَصْبِرْ نَفْسُهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَابِ (٢)، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ» .

وبناءً على هذا فالتعبير بالحقوق يشمل الواجبه والمستحبه، والنواب جمع نائبه والحادثة الأليمه، وتشير هنا إلى جميع الأمور التي تتضمن الخساره الماليه، سواء كان من جانب ظلم الظلمه وحكام الجور، أو الحوادث غير المتوقعه التي تصيب الإنسان طيله حياته.

والعبارة «ابتغاء الثواب» إشاره إلى أن الصبر تجاه كل هذا البذل وصرفه في الموارد المذكوره لابد أن يكون لله تعالى ليحصل الأجر والثواب.

وإختتم كلامه بالإشاره إلى الآثار العظيمه لهذا البذل فقال عليه السلام: «فَإِنَّ فَوْزاً بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفٌ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، وَدَرَكٌ فَضَائِلِ الْآخِرَةِ؛ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ»، فالحق أن البذل في الموارد الستة المذكوره يؤدي إلى حسن سمعه الإنسان في المجتمع، كما يوجب فوزه في الحياه الآخره، وأفضل شاهد على ذلك ما روى عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال: «مَنْ جَادَ سَادَ» (٣)، وقد أصبحت هذه

ص: ٣٧٤

١-١) المصدر السابق ٢/٤٠١، ح ٨. [١]

٢-٢) «النواب»: جمع «النائبه» تعنى الحوادث الأليمه التي تصيب الإنسان، ولكن فسرها بعض أرباب اللغهمطلق الحوادث سواء المطلوبه منها أو غير مطلوبه.

٣-٣) كشف الغمه ٢/٢٤٢. [٢]

العباره مثل يضرب لتأكيد المعنى المذكور، وكذلك ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «وأحسن إلى مَنْ شئتَ تَكُنْ أميرَه» (١)، بل يؤيد ذلك ما نلمسه في حياتنا اليوميه، وهذا على مستوى الدنيا.

أمّا من حيث الآخره فإنّ البذل من أهم أسباب النجاه ولاسيما إعانه المحتاجين، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «أولُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْمَعْرُوفُ» (٢).

والتعبير بـ «فوزاً» بصيغه النكره يفيد حقيقه في أنّ هذا البذل وإن كان قليلاً فإنه يوجب عزّه الدنيا ورفعه الآخره.

ص: ٣٧٥

١- (١) الإرشاد ١/٣٠٣؛ [١] وبحار الانوار ٧٤/٤٣٣.

٢- (٢) ميزان الحكمه، ١٢٦١١.

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

فِي الاسْتِسْقَاءِ

وفيه تنبيه العباد على وجوب استغاثه رحمه الله إذا حبس عنهم رحمه المطر

نظره إلى الخطبه

الخطبه كما ورد في عنوانها بشأن الاستسقاء والتضرع إلى الله سبحانه في طلب نزول الأمطار، وهي الخطبه الثانيه من خطب نهج البلاغه في باب الاستسقاء (الخطبه الأولى رقم ١٥٥)، وتتألف هذه الخطبه في الواقع من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: يشير إلى هذه الحقيقه في أنّ السماء والأرض مطيعه لأمر الله فان شاء أخرج بركاتهما إلى الناس، وبناءً على هذا فإنّ الذي ينبغي التوجه إلى قبل عالم الأسباب هو ذات مسبب الأسباب.

القسم الثاني: ناظر إلى هذا المطلب وهو أنّ أعمال السوء والذنوب والمعاصي تؤدى إلى إغلاق أبواب الخير والبركه بأمر الله تبارك وتعالى، ومفاتها الاستغفار من الذنوب والإنايه إلى الله تعالى.

ص: ٣٧٧

١ - ١) سند الخطبه: وردت هذه الخطبه حسب تصريح صاحب مصادر نهج البلاغه في كتاب «أعلام النبوه» للديلمى عن الإمام الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين على عليه السلام، وفي «النهايه» لابن الأثير في ماده بطن بمناسبه المفرده بطنان التي وردت في آخر الخطبه، (مصادر نهج البلاغه ٢/٣١٩) كما وردت في بحار الانوار، ج ٨٨ عن «أعلام» النبوه للديلمى، لكن لم يتضح على وجه الدقه في أى قرن عاش الديلمى مؤلف الكتاب.

القسم الثالث: يعرض إلى رفع الإمام عليه السلام يده بالتوسل إلى الله سبحانه في مراسم صلاه الاستسقاء حيث يطلب نزول المطر بعبارات دقيقه رائعه عميقه المعنى، والأمطار المفعمه بالبركه والتي تروى الأرض وتسقى الأشجار والثمار وتسّر الناس.

ص: ٣٧٨

«أَلَا وَإِنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تُقْلِكُمْ تَحْمِلُكُمْ، وَالسَّمَاءَ الَّتِي تُظَلُّكُمْ مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ، وَمَا أَصْدَبِحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِيَرَكَتَيْهِمَا تَوْجِعًا لَكُمْ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَلَا لِحَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ أُمْرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَطَاعَتَا، وَأَقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا» .

الشرح والتفسير

من الوصايا الإسلامية التى وردت بصورة موسعة فى الكتب الفقهية الوصية بصلاة الاستسقاء، حيث يقبل فيها الناس على الله تبارك وتعالى ويتوبون إليه من ذنوبهم معاصيهم ويسألونه نزول المطر، وقد حدث هذا الأمر كراراً ومراراً فى الإتيان بهذه الصلاة ونزول الرحمة الإلهية، ويبدو أن الإمام عليه السلام قد دعى الناس حين الاستسقاء، ومن هنا فقد خطب بهذه الخطبة المليئة بدروس التوحيد والتهذيب والترية، فقد قال عليه السلام بادية الأمر بهدف إعداد الناس وإحياء روح التوحيد فيهم والتوجه إلى الله تعالى الذى يمثل مصدر الخير والبركة والعطاء: «أَلَا وَإِنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تُقْلِكُمْ (١) تَحْمِلُكُمْ، وَالسَّمَاءَ الَّتِي تُظَلُّكُمْ مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ» .

ثم قال عليه السلام: «وَمَا أَصْدَبِحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِيَرَكَتَيْهِمَا تَوْجِعًا لَكُمْ، وَلَا زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَلَا لِحَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ أُمْرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَطَاعَتَا، وَأَقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامَتَا» ، والتعبير بالسماء إشاره إلى الغيوم المحلية، لأن العرب تستعمل السماء بمعنى الجانب العلوى،

ص: ٣٧٩

١- ١) «تقلكم»: من ماده «اقلال» بمعنى حمل الشىء وأخذه، ولما كان الإنسان يعيش على الأرض فكأنها تحمله على أكتافها، وقد وردت تحملكم بدلاً من تقلكم فى أغلب شروح نهج البلاغه التى تفيد نفس المعنى.

فتطلقه أحياناً على موضع النجوم فتقول نجوم السماء، وتطلقه أحياناً أخرى على موضع الشمس والقمر، وأخيراً على موضع السحب والغيوم وحتى الموضع الذى يضم الغصون المرتفعه للأشجار، ومن ذلك الآيه القرآنيه: «أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ» (١).

هذا الكلام يشتمل على درس مهم فى التوحيد والأخلاق، فقد قال الإمام عليه السلام من جانب أن الله أمر السماء والأرض بمنافعكم، وكأنّ السماء أشبه بالأب والأرض بالأم اللذان يتحدان لتزويد الإنسان بما يحتاجه من غذاء وشراب ولباس ودواء ومركب دون التمييز بين المطيع والعاصى والمؤمن والكافر، لأنهما مظهر رحمانيه الحق.

الطريف فى الأمر أن المائده الإلهيه لا تنضب فالأجيال متعاقبه فى الذهاب والإياب وهما قائمان على خدمتهم، ومن جانب آخر فإنّ السماء والأرض ورغم تقديمها لكل هذه الخدمات فهما لا يرحوان أى عوض من الإنسان، بل يخدمان بكل إخلاص، وهذا درس مهم للإنسان يشدّه إلى خدمه الآخرين بعيداً عن الأجر والثواب.

ص: ٣٨٠

«إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ، وَإِعْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ، لِيُتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلَعَ مُقْلَعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، وَيَزْدَجَرَ مُزْدَجِرٌ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْإِسْتِغْفَارَ سَبَبًا لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةً الْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ، وَبَادَرَ مَبِيئَتَهُ!» .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى نقطه مهمه من أجل إعداد الناس لصلاه الاستسقاء فقال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ عِنْدَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ، وَإِعْلَاقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ، لِيُتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلَعَ مُقْلَعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ، وَيَزْدَجَرَ مُزْدَجِرٌ» .

ثم إعتمد الإمام عليه السلام بعد ذلك أسلوب الطبيب الماهر الذي يصف العلاج بعد تشخيص المرض فقال: «وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْإِسْتِغْفَارَ سَبَبًا لِدُرُورِ (1) الرِّزْقِ وَرَحْمَةً الْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ

ص: ٣٨١

١ - ١) «درور»: من ماده «در» على وزن جرّ بمعنى تقاطر الحليب من الثدي، ثم استعملت فى المطر وأمثاله، و «درور الرزق» بمعنى نزول الرزق من الله تعالى.

بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَنَّ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا» .

وأخيراً يخلص إلى نتيجته: «فَرِحِمَ اللَّهُ امْرَأً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقَالَ (1) خَطِيئَتَهُ، وَبَادَرَ مَبِيئَتَهُ!». نعم، حين تغلق أبواب الرحمة الإلهية بفعل كثرة الذنوب فليس هنالك من سبيل لفتحها سوى الاستغفار والتوبة والنصوح.

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام وبهدف إثبات هذا الأمر قد استدللّ بأنسب آية قرآنية، وهي الآية التي وردت على لسان نبي الله نوح عليه السلام حين خاطب قومه باستغفار الله والتوبة إليه والذي يؤدّي إلى نزول البركات والخيرات ومضاعفه الأرصده الماديه والمعنويه وتقويه الوجود الإنساني وتحسين الأوضاع الاقتصاديه والزراعيه.

والعبارة وَبَادَرَ مَبِيئَتَهُ، إشارة إلى أنّ التوبة لا تقتصر على بلوغ الرفاه المادى فى الحياه الدنيا، بل الهدف الأهم من ذلك النجاه فى الآخرة، وذلك لأنّ الموت إن سبق التوبة فلا سبيل للتدارك، وإن كان العكس وسبقت التوبة والأعمال الصالحه الموت، كان مفتاح النجاه بيده فى الدار الآخرة.

جانب من فلسفه البلاء

لقد قيل الكثير فى فلسفه البلاء، والذي يستفاد من أغلب الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه هو أنّ الذنوب والمعاصى تشكل أحد علل الآفات والحوادث الصعبه فى الحياه البشرى، حيث تحدث عدّه آيات عن التلازم بين هذين الأمرين، بل يستفاد من بعض الروايات والأخبار الترابط الوثيق بين نوع الذنب والبلاء الذى يترتب عليه، على سبيل المثال فإنّ الزنا وعدم العفه وشرب الخمر والتطيف والربا وقطع الرحم كل ذلك يؤدّي إلى سلب نعمه معينه كما أشار إلى ذلك الحديث النبوى الشريف، من ذلك روى أبى حمزه عن الإمام الباقر أنّه قال: «وَجِدْنَا فِي كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِذَا ظَهَرَ الزُّنَا مِنْ بَعْدِي كَثُرَ مَوْتُ»

ص: ٣٨٢

١ - ١) «استقال»: من ماده «إستقاله» بمعنى معونه من وقع على الأرض للقيام، ثم اطلقت على فسخ المعامله أو طلب العفو على الذنب.

الْفُجَاءَ، وَإِذَا طَفَفَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالسِّنِينَ وَالنَّقْصِ إِذَا مَنَعُوا الزَّكَاةَ مَنَعَتْ الْأَيْضُ بَرَكَتَهَا مِنَ الزَّرْعِ وَالثَّمَارِ
وَالْمَعَادِنِ كُلُّهَا، إِذَا جَارُوا فِي الْأَحْكَامِ تَعَاوَنُوا عَلَى الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، إِذَا نَقَضُوا الْعَهْدَ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، إِذَا قَطَعُوا الْأَرْحَامَ
جُعِلَتْ الْأَمْوَالُ فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ إِذَا لَمْ يَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَلَمْ يَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْأَخْيَارَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
شِرَارَهُمْ فَيَدْعُو خِيَارَهُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ» (١)

والدليل العقلي يؤكد هذا الأمر على أنّ هناك إرتباط بين الذنب وقطع النعم، فالفيض الله يتوقف على الاستعداد والاستحقاق،
فان قارف الإنسان الذنب وأفضح عن عدم استعداده كان من الطبيعي أن يقطع عن نفسه الفيض الإلهي.

أضف إلى ذلك فالذي يستفاد من الآيات القرآنية أنّ هناك هدفاً مهماً آخر يتمثل بايقاظ الغافلين وإعادة تهم إلى الله تبارك
وتعالى، حتى صرّحت بعض الآيات بأنّ البلاء يعمّ الأقوام المشركه حين بعث الأنبياء والرسل لهدايتها من أجل تمهيد السبيل
أمامهم لقبول الدعوه ومن ذلك الآية ٩٤ من سوره الأعراف التي قالت: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ» .

وهكذا فإنّ القضييه التربويه تشكل أحد الأهداف المهمه للبلاء والحوادث الأليمه، على كل حال فإنّ مفتاح الأبواب الموصده
وإخماد جذوه أمواج البلاء إنّما يكمن في العوده إلى الله سبحانه كما صرّح بذلك القرآن الكريم إذ قال: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى
آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (٢).

وهكذا سائر الآيات، وورد في الخبر أنّ شخصاً قال لأمير المؤمنين على عليه السلام لقد أسرفت في المعاصي فادعوا الله أن يغفر
لي، قال على عليه السلام: عليك بالاستغفار، وقال الآخر: مزارعنا تشكو من قلّه الماء، فادعوا الله أن يرسل علينا المطر، فقال عليه
السلام: عليك بالاستغفار، وشكى الثالث من الفقر فأشار عليه الإمام عليه السلام بالاستغفار، وشكى الرابع العقم وكان له مال
كثير فأشار عليه الإمام بالاستغفار، وشكى له الخامس من قلّه ثمار البستان فنصحه عليه السلام بالاستغفار، وشكى

ص: ٣٨٣

١-١ (١) الكافي ٢/٣٧٤، ح ٢. [١]

١-٢ (٢) سوره الأعراف / ٩٦. [٢]

السادس من جفاف الآبار وعيون الماء فقال له عليه السلام عليك بالاستغفار، فتعجب ابن عباس من إشارته على الجميع بالاستغفار وقد كان لكل مشكلته التي تختلف عن غيره، فقال عليه السلام أولم تسمع إلى القرآن والآيات ١٠، ١١، ١٢ من سورة نوح إذ قال: «وَلَوْ أَنِ تَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُزِيلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا» (١).

ص: ٣٨٤

١ - ١) تفسير نهج الصادقين ١٠/١٩ (بتصرف، وقد ورد هذا الحديث بصوره مختصره عن الإمام المجتبي عليه السلام) (مجمع البيان ١٠/٣٦١).

«اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الْأَشْيَارِ وَالْأَكْنَانِ، وَبَعِيدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ وَالْوَالِدَانِ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ. اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ، وَلَا تُؤَاخِذْنَا (بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا) يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، حِينَ أَلْجَأْنَا الْمَضَائِقَ الْوَعْرَةَ، وَأَجَاءْنَا الْمَقَاحِطُ الْمُجْدِبَةَ، وَأَغْيَيْتِنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةَ، وَتَلَمَّاحَمْتُ عَلَيْنَا الْفِتْنُ الْمُحَنِّ الْمُسْتَضِيْعِبَهُ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْإِلَهَ تَرَدُّدًا خَائِبِينَ، وَلَمَّا تَقَلَّبْنَا وَاجِمِينَ، وَلَا تُخَاطِبْنَا بِدُنُوبِنَا، وَلَا تُقَايِسِنَا تَنَاقِشِنَا بِأَعْمَالِنَا. اللَّهُمَّ أَنْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ، وَرَزَقَكَ وَرَحْمَتَكَ؛ وَاسْقِنَا سُقْيَا نَافِعَهُ نَافِعَهُ مُرْوِيَهُ مُعْشِبَهُ، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدَّمَ فَاتَ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدَّمَ مَاتَ. نَافِعَهُ الْحَيَا، كَثِيرَهُ الْمُجْتَنِّي، تُرْوِي بِهَا الْفَيْعَانَ، وَتُسَيِّلُ الْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوْرِقُ الْأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ الْأَسْعَارَ؛ «إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ» .

الشرح والتفسير

بعد أن مهد الإمام عليه السلام قلوب الناس ودعاهم إلى التوبة من الذنوب والإنايه إلى الله سبحانه في هذه الخطبه التي خطبها بمناسبة صلاه الاستسقاء، إلتفت إلى الحق تبارك وتعالى فتوسل إليه بعبارات وهو يسأله اللطف والرحمه، كما فرض عدّه مطالب من خلال خمس عبارات يستهلها بالقول اللهم، فقد قال باديء ذي بدء: «اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الْأَشْيَارِ

وَالْأَكْنَانِ (١)، وَيَعْدُ عَجِيجَ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانَ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ» .

إشاره إلى أنّ خروجنا من المنازل وقدمنا إلى الصحراء من أجل أداء صلاه الاستسقاء دليل على إسرافنا على أنفسنا، فإن كنا من عبادك الخاطئين فما ذنب هذه الماشيه والأطفال العطاشى، وليس لنا من دافع فى هذا الخروج سوى طلب رحمتك وفضلك وكرمك وقد أقبلنا عليك وأتينا إليك واستجرنا بك من عذابك وعقوبتك، وقد صرّحت الروايات الإسلاميه الوارده فى باب آداب صلاه الاستسقاء بحمل حتى الرضع من الأطفال والهيم العطاشى إلى الصحراء، بل وردت الوصيه بتفريق الأطفال عن أمهاتهم لترق القلوب لبكاء الأطفال ويزداد الإقبال على الله تبارك وتعالى (٢).

ولا يخفى ما لهذا المنظر من عظيم الأثر فى إثارة عواطف الناس وحضور قلوبهم وجريان دموعهم والذى يؤدى إلى استجابته الدعاء، إلى جانب كونه سبب المزيد من لطف الله ورحمته.

ثم طرح طلبه الرئيسى فقال عليه السلام: «اللَّهُمَّ فَاسِدِينَ غَيْثِكَ، وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ (٣)، وَلَا تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا» يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أى وإن فعل فريق من الجهال ما يوجب قطع الفيض الإلهى عنهم، ولكن عاملنا بكرمك وفضلك ولا تعاملنا بعدلك، فلا طاقه لنا بعدلك وليس لنا سوى عفوك ورحمتك، ولما كان شرط استجابته الدعاء فى إذعان الفرد بعجزه وأن الله على كل شىء قدير فقد قال عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ، حِينَ أَلْجَأْنَا الْمَضَائِقَ الْوَعْرَةَ (٤)، وَأَجَاءْنَا (٥) الْمَقَاحُطُ (٦) الْمَجْدِبَةُ (٧)، وَأَعْيَيْنَا الْمَطَالِبَ الْمُتَعَسِّرَةَ، وَتَلَاَحَمْتُ (٨) عَلَيْنَا الْفِتْنُ الْمُحْنُ الْمُشْتَصِّعِبَةُ» .

ص: ٣٨٦

١-١) «الأكنان»: جمع «كن» على وزن «جن» بمعنى واسطه الحفظ والصون ومن هنا تطلق الأكنان على الغيران.

٢-٢) راجع الخطبه ١٥٥ بشأن آداب صلاه الاستسقاء.

٣-٣) «السنيين»: جمع «سنه» وإن استعملت مع مفرد الهلكه أو الأخذ عنت الجذب والقحط.

٤-٤) «الوعره»: بالتسكين كناية عن صعوبه الحياه.

٥-٥) «أجاءت»: من ماده «مجيء» من باب إفعال بمعنى أَلْجَأَتْه.

٦-٦) «مقاحط»: جمع «مقحطه» من ماده «قحط» بمعنى سنين الجذب.

٧-٧) «مجديه»: من ماده «جذب» على وزن جعل قلّه النعمه، وعليه المجدبه تطلق على السنيين التى يعانى فيهاالناس من الشده فى غ أرزاقهم.

٨-٨) «تلاحمت»: من ماده «تلاحم» بمعنى الاتصال.

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى مسأله وهى إننا إن عددنا حاجاتنا ومشاكلنا الواحد بعد الأخرى لا على أساس إنك لا تعلمها، بل لأنك تحب أن يطرح العباد مشاكلهم بالسنتهم ويقرون بعجزهم وسعه حاجاتهم، ثم أشار إلى أربع مشاكل تشترك مع بعضها من جهات وتشترك فى أخرى وهى: صعوبات الحياه والجذب والقحط و الرغبات التى يتعذر نيلها فى الشرائط العاديه، وأخيراً الفتن الصعبه والمزعجه، وهى المشاكل التى لا يرجى حلها إلا من الله تبارك وتعالى، ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ حَاجَتَكَ وَمَا تُرِيدُ وَلَكِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ تَبْتَئَ إِلَيْهِ الْحَوَائِجَ» (١).

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْإِلَهَ تَرُدُّنَا خَائِبِينَ، وَلَا تَقْلِبْنَا وَاجِمِينَ» (٢)، وَلَا تُخَاطِبْنَا بِعُدُوبِنَا، وَلَا تُقَايِسَنَا تَنَاقِشَنَا بِأَعْمَالِنَا» .

فليس هنالك من سبيل للنجاه إن عاملتنا على أساس أعمالنا، فنسألك أن بحملنا على لطفك وكرمك وألا نرجع خائبين من بابك، والطبع فإن هذه الأدعيه وإن اشتملت على الطلبات المؤكده من الله تبارك وتعالى، فهى تنطوى على الدروس العميقه المعنى للسامعين ليقضوا على آثار ذنوبهم وشناعه أعمالهم فيسارعوا لإصلاح أنفسهم، وتشتمل أغلب الأدعيه التى تردنا عن المعصومين عليه السلام على هذه الأمور التربويه.

وأخيراً طرح طلبه النهائى قائلاً: «اللَّهُمَّ انشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ، وَرَزُقْكَ وَرَحْمَتَكَ؛ وَاسْقِنَا سُقْيَا نَافِعَةٍ نَافِعَهُ مُزْوِيَهُ مُعْشِبَهُ» (٣)، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ. نَافِعَةَ الْحَيَا (٤)، كَثِيرَةَ الْمُجْتَنِي، تُرْوِي بِهَا الْقِيَعَانَ (٥)، وَتُسَيِّلُ الْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوِرُقُ الْأَشْجَارَ، وَتُرَخِّصُ الْأَشْعَارَ؛ «إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ» (٦).

ص: ٣٨٧

١- ١) فى ظلال نهج البلاغه ٢/٣١٩. [١]

٢- ٢) «واجم»: من ماده «وجم» على وزن نجم من اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام.

٣- ٣) «معشبه»: من ماده «عشب» على وزن شرف نمو النبات.

٤- ٤) «الحيا»: بمعنى المطر ووفره النعمه.

٥- ٥) «القيعان»: جمع «قاع وقاعه» الأرض السهله الواسعه كما تطلق أحياناً على الأرض التى تتجمع فيها المياه.

٦- ٦) والجدير بالذكر قد نزلت الآن (حين كتابتى لهذه السطور فى العاشر من رمضان عام ١٤٢٣ هـ) أمطار مفعمه بالبركه والخير بعد جفاف طويل، ويبدو أنّ هذا المطر ينطوى إن شاء الله تعالى على جميع الصفات التى ذكرها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه.

تحدثنا باسهاب في ذيل الخطبه ١٥٥ عن صلاه الاستسقاء وآدابها، ونخوض هنا في الإجابة عن سؤال وهو لم شرح الإمام عليه السلام الصفات المذكوره في المطر حين استغاثته بالله سبحانه في نزوله (حيث ذكر في هذه الخطبه تسع صفات وفي الخطبه السابقه عشرين صفه) والحال الله عليهم بكل هذه الصفات ولا داعي من شرحها؟

وللإجابة عن هذا السؤال لابد من الالتفات إلى أنّ شرح الطلبات بجميع جزئياتها وبالنظر إلى طلب الحاجات من الله تعالى، تفيد هذا المعنى وهو ضروره سؤال الناس من الله عزّ اسمه عن جميع وحاجاتهم وطلباتهم، وذلك لأنّ هذه الأدعيه تفيد مدى حاجه الناس، وهذا بدوره يضاعف من عشق الناس لله سبحانه، ومن جانب آخر لابد أن يعلموا كم هو حيوى المطر النافع وأى بركات وخيرات فيه.

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

مبعث الرسل

نظره إلى الخطبه

تحدث الإمام عليه السلام في هذه الخطبه عن ثلاثه محاور هي:

المحور الأول: الذي يبين فيه بعض الأمور المهمه بشأن مبعث الأنبياء ورسالاتهم.

المحور الثاني: الذي تطرق فيه إلى فضائل أهل البيت عليه السلام وأفضليتهم على من سواهم.

المحور الثالث: الذي يتضمن إشارات عميقه المعنى إلى نهج الضالين وعاقبه أمرهم

ص: ٣٨٩

١ - ١) سند الخطبه: أورد الآمدى جانباً من هذه الخطبه في كتابه «غرر الحكم» وفيها إضافات لما في نهج البلاغه مما يدل على أنه استقاها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٢٢).

«بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِمَا خَصَّصَهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِنَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَزَكِّيِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاَهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ. أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَهُ؛ لِأَنَّهُ جَهْلَ مَا أَخْفَوَهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ؛ وَلَكِنْ «لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» فَيَكُونُ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالْعِقَابُ بَوَاءً» .

الشرح والتفسير

يعتقد جمع من شراح نهج البلاغه أن دافع الإمام عليه السلام من هذه الخطبه بيان الرد القاطع على المغرضين الذين ينكرون فضائل الإمام عليه السلام، والطبع فإن جانباً من الخطبه قد عالج هذا الأمر، وإن إشملت سائر الأقسام على إبعاد كليه.

وعلى كل حال فقد أشار الإمام عليه السلام فى المقطع الأول من هذه الخطبه إلى أمرين: هما فلسفه بعثه الأنبياء وفلسفه الامتحان الإلهى، فقال عليه السلام: «بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِمَا خَصَّصَهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِنَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَزَكِّيِ الْإِعْذَارِ (١) إِلَيْهِمْ، فَدَعَاَهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ» .

فهذه العبارة تشير إلى نقطه مهمه وردت كراراً فى الآيات القرآنيه وهى عدم مؤاخذه الله سبحانه العباد دون بعث الرسل وإبلاغهم أوامره ونواهيه سبحانه عن طريق الوحي، فقد جاء

ص: ٣٩١

(١-١) «الاعذار»: مصدر باب إفعال من ماده «عذر» بمعنى إتمام الحججه.

فى الآيه ١٥ و١٦ من سورة الاسراء: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا * وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا»، هنا يطرح هذا السؤال وهو عدم انسجام ما ورد فى هذه الخطبه والآيات القرآنيه الوارده بهذا الشأن ومبدأ استقلال حكم القتل، فالحجه تتم على الإنسان من خلال العقل الذى يحكم بحسن وقبح الأشياء (كإدراكه لحسن العدل وقبح الظلم) وعليه فهو يستحق العقاب أو الثواب حتى دون بعث الأنبياء والرسل، ونقول فى الإجابة عن هذا السؤال صحيح أن هناك استحقاقاً للثواب والعقاب وإرادته الحق تبارك وتعالى ومن باب اللطف بالعباد واقتضت عدم مؤاخذه العباد وعقابهم ما لم تويد المستقلات العقلية بواجبات الشرع ومحرماته التى تعين عن طريق الوحى.

ومن هنا تتضح عدم الحاجه للإجابة التى ذكرها بعض شراح نهج البلاغه حيث صرّحوا بأن هذه الآيه فى حكم العموم الذى يخص فى المستقلات العقلية.

وبعبارة أخرى: إن الله تعالى لا يعاقب شخصاً دون بعث الأنبياء ونزول الوحى سوى فى المستقلات العقلية من قبيل قبح الظلم والجور والسرقة وقتل النفس، ثم خاض الإمام عليه السلام فى مطلب آخر فى إطار مواصلة لكلامه والذى يتمثل بفلسفه الإمتحان الإلهى فقال: «أَلَمْ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ الْخُلُقَ كَشْفَهُ؛ لِمَا أَنَّهُ جَهْلٌ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونٍ أَسِيرَارِهِمْ وَمَكْنُونٍ ضَمَائِرِهِمْ؛ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» فَيَكُونُ الثَّوَابُ جَزَاءً، وَالْعِقَابُ بَوَاءً (١).

فقد كشف الإمام عليه السلام بهذه العبارة اللثام عن مسأله مهمه حيث لا معنى لمفهوم الامتحان بالنسبه لله بالشكل الذى تعارف على العباد، فالهدف من اختبار العباد لرفع الجهل والإيهام، لمعرفة الأشياء والتعرف على الأشخاص، وليس لمثل هذه الأمور من مفهوم لمن كان الغيب والشهاده والظاهر والباطن عنده سواء، بل هدف البلاء الإلهى هو أن يظهر الإنسان ما يبطنه لتتحقق مسأله استحقاق الثواب والعقاب.

وبعبارة أوضح: لا يمكن إثابه الفرد أو معاقبته على ما يضمرة من نيات حسنه أو سيئه، بل يترتب الثواب والعقاب على ما يصدر منه من أعمال وأفعال تفرزها النيات، وهذا ما بينه

ص: ٣٩٢

١ - ١) «بواء»: تعنى فى الأصل العوده والنزول ثم أطلقت على العقوبه المستمره والمتواصله وهذا هو المعنى المراد بها فى الخطبه.

الإمام عليه السلام فى إحدى قصار كلمات فى تفسيره للآيه القرآنيه: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ. . .» (١)، معنى أن يختبرهم بالأموال والأولاد. . . «وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنْ لِنُظْهِرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ» (٢).

فلم يرد فى الفقه ولا فى دستور أى بلد التصريح بعقاب شخص بسبب نيه القتل أو السرقة، وكما لا يثاب بسبب نيته الحسنه فى الخدمه، وإن شمل مثل هؤلاء الأفراد بنوع من التكريم تفضلاً بسبب تلك النيات وقد تضافرت الروايات التى صرحت بجزاء الخير تفضلاً منه سبحانه كونه أرحم الجميع، لكنه لا يعاقب على نيه الشر كما ورد فى الحديث: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ. . . وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تَكْتُبْ عَلَيْهِ» (٣).

ص: ٣٩٣

١-١ (١) سورة الانفال / ٢٨. [١]

٢-٢ (٢) نهج البلاغه، قصار الكلمات ٩٣. [٢]

٣-٣ (٣) وسائل الشيعه ١/٣٦، من أبواب مقدمه العبادات، الباب ٦، ح ٦. [٣]

«أَيُّنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِبًا وَبَغْيًا عَلَيْنَا، أَنْ رَفَعْنَا اللَّهَ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلْنَا وَأَخْرَجَهُمْ. بِنَا يُسِي تَغَطَى الْهُدَى، وَيُسِي تَجَلَى الْعَمَى. إِنَّ الْأَيْمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبُطْنِ مِنْ هَاشِمٍ؛ لَاتَصْلُحَ عَلَي سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحَ الْوَلَاءُ مِنْ غَيْرِهِمْ» .

الشرح والتفسير

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه في الرد على التخرصات في مجال العلم والمعرفه الإسلاميه تجاه أهل البيت عليهم السلام ويقدمهم على أنهم أعلم من غيرهم بكذبهم، وأن الساسه المحترفين آنذاك كانوا يثيرون تلك التخرصات بهدف النيل من مسأله خلافه وإمامه أهل البيت عليهم السلام فقال: «أَيُّنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِبًا وَبَغْيًا عَلَيْنَا» .

وأضاف عليه السلام أيّهم أولئك ليروا كيف رفعا الله تعالى وفضلنا وأعطانا ووضعهم وحرّمهم وأدخلنا في سعه رحمته وأخرجهم منها: «أَنْ رَفَعْنَا اللَّهَ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلْنَا وَأَخْرَجَهُمْ» .

في إشاره إلى أنّ إتباع أهل البيت عليهم السلام في معارفهم والإسلاميه ووقوفهم على القرآن والوحى والسنة النبويه الشريفه ليس بالشىء الخفى على أحد، فهم كهف الأمه الذى كان يلوذ به حتى الخلفاء فى ما يعترضهم من مشاكل وصعوبات، وهذا من البديهيات التى لا يختلف عليها إثنان، وأما أولئك الذين تدفعهم القضايا السياسيه والحب والبغض الناشء من العلاقات الماديه بانكار هذه الحقيقه فإنّما يفضحون أنفسهم.

ثم قال عليه السلام: «بِنَا يُسْتَعَطَى الْهُدَى، وَيُسْتَجَلَى الْعَمَى»، والشواهد التاريخية المستفيضة والأحاديث النبوية القطعية إنما تؤيد هذا الكلام، وهذا ما سنتعرض له في البحث القادم.

وأخيراً إختتم الإمام عليه السلام هذا المقطع من الخطبه بالإشاره إلى الحديث النبوى الشريف بشأن اقتصار الإمام على قريش وبنى هاشم فقال: «إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ؛ لَاتَصْلُحَ عَلَي سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحَ الْوُلَاهُ مِنْ غَيْرِهِمْ» .

فالإمام بإشارته إلى الحديث النبوى المعروف: «إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ»، ومن ثم حصرها فى بنى هاشم أوضح بأن أدياء الخلافه من غير بنى هاشم لا يستحقون هذا المقام ولا بد من التحرى عن بنى هاشم فى كل زمان للعثور على الإمام الحق.

قبسات من علم على عليه السلام

لقد عمد تجار السياسة بهدف نيل أهدافهم وتحقيق مآربهم إلى إنكار أو ضح المسائل أحياناً أو المرور عليها من خلال التوجيهات الجوفاء وأحد مصاديق ذلك منح بعض الصحابه الأفضليه على على عليه السلام حتى قدموا عليه تلميذه فى التفسير والذى كان يفخر بذلك هو ابن عباس (1)، وزيد بن ثابت فى العلم بأحكام الميراث وأبى بن كعب فى القراءه، ولم ينسبوا للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله حديثاً بهذا الشأن، فى حين تظافرت مصادر الفريقين (الشيعة والسنة) التى تؤكد أعلميه على عليه السلام على سائر الصحابه قاطبه بما لا يمكن إنكارها ومن ذلك:

١ - حديث الثقلين وهو من أشهر الأحاديث التى روتها مصادر العامه - وقد استشهدنا به سابقاً (٢) - بالكتاب وأهل البيت عليهم السلام الذين لا يفترقون عنه والكل يعلم بأن القرآن هو مصدر جميع العلوم المعارف.

ص: ٣٩٦

١ - ١) نقل الدكتور الذهبي فى كتابه «التفسير والمفسرون» عن ابن عباس: «مَا أَخَذْتُ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ إِلَّا مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» ج ١، ص ٨٩، كما روى عن ابن عباس أنه قال: «وَمَا عَلِمِي وَعَلِمَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ فِي عِلْمِ عَلِيٍّ إِلَّا كَقَطْرَةٍ فِي سَبْعَةِ أَبْحُرٍ» (الغدیر ٢/٤٥ [١] فى شرح ديوان حسان) .

٢ - ٢) ذكرنا أسناد حديث ثقلين فى نفحات القرآن ٩/٦٢ - ٧١. [٢]

٢ - الحديث المعروف «أقضاكم علياً» (١)، هو الشاهد الآخر على هذا الأمر، وذلك لأن القضاء واصدار الأحكام الإسلامية يتطلب إحاطة علميه بأصول الإسلام وفروعه، ومن كان الأعم كان هو الأفضى.

٣ - الحديث المروى عن علي عليه السلام أنه قال: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ أَلْفَ بَابٍ كُلُّ بَابٍ يَفْتَحُ (منه) أَلْفَ بَابٍ» (٢)، وهو دليل آخر يكشف بوضوح أن ليس بين الأمة من يماثله في العلم والمعرفة وذلك لأن هذا الحديث لم يرد في شخص سواه.

٤ - قال رسول الله صلى الله عليه وآله في تفسير الآية: «وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ الْكِتَابِ» (٣) إنما هو علي» (٤).

لابد من الالتفات هنا إلى أنه طبق الآية ٤٠ من سورة النمل فقد تمكن آصف بن برخيا: «الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ. . .»، من الإتيان بعرش بلقيس من اليمن إلى الشام، فما بالك بقدره من لديه علم بكل الكتاب.

٥ - الكلام المشهور لعلي عليه السلام حين قال: «سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي» والذي صرح كبار علماء العامة أن شخصاً غير علي عليه السلام لم يقل ذلك إلا افتضح (٥).

٦ - العارفون بتاريخ الإسلام في عصر الخلفاء يعلمون أن علياً عليه السلام كان الكهف العلمي الحصين للأمة حتى قال الخليفة الثاني كراماً ومراراً: «لولا - على لهلك عمر»، وقال في عبارته أخرى: «اللَّهُمَّ لَا تُبْقِنِي لِمَعْضَلِهِ لَيْسَ لَهَا ابْنُ أَبِي طَالِبٍ»، وقال: «لَا أَبْقَانِي اللَّهُ بِأَرْضٍ لَسْتَ فِيهَا (يا) أبا الحسن» (٦).

ص: ٣٩٧

١-١) روى هذا الحديث جمع من حفاظ العامة كابن عبد البر في «الاستيعاب»، والقاضى في «الموقف»، وابن أبي الحديد في «شرح نهج البلاغة»، وابن طلحة الشافعى في «مطالب السؤل»، (الغدیر ٣/٦٩)، وابن عساكر في (التاريخ المختصر لدمشق ١٧/٣٠١).

٢-٢) ورد هذا الحديث في كنز العمال ١٣/١١٤، ح ٣٦٣٧٢.

٣-٣) سورة الرعد / ٤٣. [١]

٤-٤) انظرو مصادر هذا الحديث في كتب العامة في إحقاق الحق ٣/٢٨٠، [٢] كما وردت روايات بهذا الخصوص في شواهد التنزيل للحسكاني ١/٣٠٧ - ٣١٠.

٥-٥) ذكرنا شرح هذا الموضوع في المجلد الرابع من هذا الكتاب ذيل الخطبه ٩٣.

٦-٦) المرحوم العلامة الأمينى أورد هذه العبارات بمصادر دقيقه من كتب العامة (الغدیر ٣/٩٧) [٣] تحت عنوان آراء الصحابه بعلى عليه السلام.

وهذا المطلب على درجه من الوضوح حتى أصبح المثل يضرب به بين الناس، فكلمنا عصيت قضيه على أحد ولم يكن هنالك من يحلها قالوا: «قَضِيَهُ وَلَا أَبَا حَسَنِ لَهَا» (١).

روايه أَنَّ الْأُئَمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ

نشير في الخطبه إلى هذه النقطه وهى أَنَّ الْأُئَمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَمِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَلَيْسَ لِلْآخِرِينَ صِلَاحِيهِ الْخِلَافَةِ وَالْإِمَامَةِ وَيَنْسَجِمُ هَذَا الْكَلَامُ مَعَ عَدَّةِ رَوَايَاتٍ الَّتِي وَرَدَتْ فِي أَشْهُرِ مَصَادِرِ الْعَامَّةِ وَمِنْهَا:

١ - روى عن جابر بن سمره فى صحيح مسلم أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا إِلَى إِثْنَى عَشَرَ خَلِيفَةً - ثُمَّ قَالَ كَلِمَةً لَمْ أَفْهَمَهَا - فَقُلْتُ لِأَبِي مَا قَالَ؟ قَالَ: فَقَالَ: كَلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ» (٢)، وقد وردت هذه الروايات بعبارات مختلفه.

والجدير بالذكر إننا نقرأ فى أحد طرق هذا الحديث فى صحيح مسلم أَنَّ جَابِرًا قَالَ فى ذيل الحديث «فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَكَلِمَةً أَصَبَ مِنْهَا النَّاسُ فَقُلْتُ لِأَبِي مَا قَالَ؟ قَالَ: كَلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»، كما ورد عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «لَا يَزَالُ الدِّينُ قَائِمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ يَكُونَ عَلَيْكُمْ إِثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً كَلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ».

٢ - جاء فى صحيح البخارى عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يَكُونُ إِثْنَى عَشَرَ أَمِيرًا فَقَالَ كَلِمَةً لَمْ أَسْمَعَهَا فَقَالَ: أَبِي أَنَّهُ قَالَ: كَلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ» (٣).

٣ - وورد مثل هذا المضمون فى صحيح الترمذى مع اختلاف طفيف وقال فيه: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ» (٤).

٤ - كما ورد نفس هذا المضمون فى صحيح أبى داود ويفيد تعبير الحديث أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ فى جماعه، حيث جاء فى الخبر أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حِينَ قَالَ: «لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا إِلَى إِثْنَى عَشَرَ خَلِيفَةً كَبَّرَ النَّاسُ بِأَعْلَى أَصْوَاتِهِمْ» (٥).

ص: ٣٩٨

١ - ١) التفسير والمفسرون ١/٨٩. [١]

٢ - ٢) صحيح مسلم ٣/١٤٥٣؛ طبع بيروت دار التراث العربى.

٣ - ٣) صحيح البخارى ٣/١٠١، جزء ٩، طبع دار الجيل بيروت.

٤ - ٤) صحيح الترمذى ٤/٥٠١ طبع دار [٢] التراث الاحياء العربى بيروت.

٥ - ٥) صحيح أبى داود ٤/١٠٦ (كتاب المهدي).

٤ - كما ورد الحديث في عدّه موارد في مسند أحمد بن حنبل (١).

وقد ذهب بعض المحققين إلى أنّ عدد طرقه في مسند أحمد ٣٤ طريق (٢).

لقد أسهب علماء العاقمه بشأن تفسير الأحاديث المذكوره والتي وردت في أشهر مصادرهم، إلّا أنّهم لم يقدموا تفسيراً قانعاً حول الإثنى عشر خليفه أو أمير، وذلك لأنّهم يعتقدون بعدم انطباق هذا العدد والخلفاء، ولا يمكن تفسيره إلّا على ضوء اعتقاد أتباع أهل البيت عليهم السلام.

منزله بنى هاشم في الإسلام

أشير في الخطبه إلى منزله بنى هاشم في قريش، والذي أقتبس في الواقع من كلمات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ومن ذلك ما روى عن عائشه في كتاب «فضائل الصحابه» لأحمد بن حنبل قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال لي جبرائيل يا مُحَمَّدُ قَلْبُ الْأَرْضِ مَشَارِقُهَا وَمَغَارِبُهَا فَلَمْ أَجِدْ وَوَلَدَ أَبِ خَيْرًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» (٣).

ومن الواضح أنّ المقصود ليس جميع بنى هاشم، والحديث يبدو ناظرًا إلى الأئمه المعصومين عليهم السلام.

ص: ٣٩٩

١-١) مسند أحمد ٥/٨٩ - ٩٠ - ١٠١.

٢-٢) انظر كتاب منتخب الأثر ١٢/؛ إحقاق الحق ١٣/.

٣-٣) فضائل الصحابه ٢/٦٢٨، ح ١٠٧٣. [١]

منها: «آثَرُوا عَاجِلًا وَأَخْرُوا آجِلًا، وَتَرَكُوا صَافِيًا وَشَرِبُوا آجِنًا؛ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلْفَهُ، وَبَسِيَ بِهِ وَوَافَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصُبِعَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُزِيدًا كَالْتِّيَارِ لِأَيُّبَالِي مَا غَرَّقَ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ لَأَيْحِفَلُ مَا حَرَّقَ!». .

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى الأفراد الذين وقفوا بوجه أئمة الحق وقد لخوا ظهورهم للحق من أجل الحكومه لبضعه أيام فقال: «آثَرُوا عَاجِلًا وَأَخْرُوا آجِلًا، وَتَرَكُوا صَافِيًا وَشَرِبُوا آجِنًا (١)؛ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلْفَهُ، وَبَسِيَ بِهِ (٢) وَوَافَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصُبِعَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ (٣)». .

ثم قال مواصلة لكلامه عليه السلام: «ثُمَّ أَقْبَلَ مُزِيدًا (٤) كَالْتِّيَارِ (٥) لِأَيُّبَالِي مَا غَرَّقَ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ (٦) لَأَيْحِفَلُ (٧) مَا حَرَّقَ!». .

ص: ٤٠١

١- ١) «آجن»: من ماده «اجن» على وزن فجر الماء المتغير اللون والطعم والرائحة.

٢- ٢) «بسىء به» من ماده بسوء ألفه وإستانس به.

٣- ٣) «خلائق»: أحياناً جمع «خلق» بمعنى المخلوق وأخرى جمع «خليقه» بمعنى الخلق والملكه وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة.

٤- ٤) «مزيد»: من ماده «زبد» رغوہ الماء وما شابه ذلك ومزيد اسم فاعل.

٥- ٥) «تيار»: يعنى فى الأصل الموج الشديد الذى يقذف الماء خارج البحر، ويطلق أحياناً على مطلق الموج.

٦- ٦) «الهشيم»: من ماده «هشم» تطلق على النباتات الجفاه المتكسره.

٧- ٧) «يحفل»: من ماده «حفل» بمعنى الاعتناء بالشىء وعليه فلا يحفل تعنى لا يهتم.

هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغه بشأن الضمير وعودته في هذه العبارات، فقد ذهب البعض إلى أنّ المراد بالخلفاء الأوائل، وذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بعض الصحابه الذين انحرفوا، وقال البعض يراد بها مفهوماً عاماً وأخيراً رآه البعض إشاره إلى بنى أميه، ويبدو الاحتمال الأخير أنسبها جميعاً، لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة جهره وقد تنكروا للحق وسقطوا في مستنقع الدنيا العفن، وبناءً على هذا فالمراد بالعبارة «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِيهِمْ»، هو عبدالملك بن مروان حيث كان من أقدر عناصر بنى أميه، وقد إرتكب الكثير من الجرائم وباشرها بنفسه، وما أشع الجنایات التي إرتكبها واليه الغاشم الحجاج، فقد كان كالنار الملتهبه التي تحرق الأخضر واليابس ولا يقف أمامها شيء، والعبارة كأني انظروا إلى فاسقهم إشاره إلى فرد يظهر في المستقبل، فلا يمكن تطبيقها على الماضين أو المعاصرين له عليه السلام إلّامع تكلف.

«أَيْنَ الْعُقُولِ الْمُسْتَضِيحَةِ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالْأَبْصَارِ اللَّامِحَةِ إِلَى مَنَارِ التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبِ الَّتِي وَهَبَتْ لِلَّهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعِهِ
اللَّهِ! ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ، وَتَشَاخَوْا عَلَى الْحَرَامِ، وَرُفِعَ لَهُمْ عِلْمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَصَيَّرُوا عَنِ الْجَنَّةِ وَجُوهَهُمْ، وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ
بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَفَنَفَرُوا وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا!» .

الشرح والتفسير

تحدث الإمام عليه السلام في المقطع الأخير من هذه الخطبة عن فئتين: فئة عاقلة ومتقيه ومطيعه للحق وأخرى تكالبت على حطام الدنيا وتسابقت مع بعضها من أجل نيل الأموال الحرام فقال: «أَيْنَ الْعُقُولِ الْمُسْتَضِيحَةِ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالْأَبْصَارِ اللَّامِحَةِ (١) إِلَى مَنَارِ التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبِ الَّتِي وَهَبَتْ لِلَّهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعِهِ اللَّهُ!»، إشارته إلى أن جماعه عظيمه من الناس سلكت سبيل المخالفة، وقد قل الصالحون وكان الإمام عليه السلام يبحث عنهم ليجدهم.

ثم تطرق عليه السلام إلى الفئة الثانية التي تهافتت على الدنيا فقال: «ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ (٢)، وَتَشَاخَوْا (٣) عَلَى الْحَرَامِ، وَرُفِعَ لَهُمْ عِلْمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَصَيَّرُوا عَنِ الْجَنَّةِ وَجُوهَهُمْ،

ص: ٤٠٣

١ - ١) «لامحه»: من ماده «لمح» على وزن لمس تعنى فى الأصل لمعان البرق، ثم جاءت بمعنى النظره الخاطفه، كما وردت بمعنى النظر إلى الشئ وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة.

٢ - ٢) «حطام»: الشئ المكسور الفانى الذى لا قيمه له ويقال حطام الدنيا لأموالها بسبب فنائها وزوالها سريعاً.

٣ - ٣) «تشاحوا»: من ماده تشاح واصلها الشح بمعنى البخل المقرون بالحرص ويقال تشاح حيث يتنازع فردان أو طائفتان من أجل الحصول على الشئ.

وَأَقْبِلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَانْفَرُوا (١) وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبِلُوا! .

يبدو أن الفئتين اللتان أشار إليهما الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه، هما تلك الفئتان اللتان ذكرتاً سابقاً، فنه سلمت لأئمه الهدى وانقادت لهم، وأخرى تمردت ووقفت بوجههم سعت لإطفاء نورهم، فهى فئه أدخلت إلى الدنيا ولم تهتم بالحلال والحرام وتتسابق فيما بينها من أجل تبعيه الشيطان وطاعته.

ص: ٤٠٤

١-١) «نفروا»: من ماده «نفر» و «نفور» بمعنى الابتعاد عن الشىء والفرار منه.

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

فناء الدنيا و ذم البدع

نظره إلى الخطبه

الخطبه ناظره إلى موضوعين:

الموضوع الأول: إشاره إلى تقلب الدنيا ووزال نعمها، حيث يتعرف الإنسان أكثر فأكثر على حقيقه هذا العالم المتغير حين يتأمل هذه العبارات التي تضمنت مواعظ توقظ السامع من غفلته.

الموضوع الثاني: حول ذم البدع حيث تتغيب سنه كلما شاعت بدعه بين الناس.

ص: ٤٠٥

١-١) سند الخطبه: أورد ابن شعبه الحراني في كتابه «تحف العقول» جانباً من هذه الخطبه ضمن خطبه تعرف باسم الوسيله، كما ذكرها المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله في كتاب «الإرشاد» مع اختلاف طفيف، كما نقلها المرحوم الشيخ الطوسي في الأمالي وأشار أبو العتاهيه في أشعاره إلى مضمون بعض عبارات هذه الخطبه ويحتمل أنه أخذها من كلام الإمام عليه السلام، ووردت أجزاء من هذه الخطبه في الكلمات القصار في كلمه رقم ١٩١. (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٢٣)

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُّ فِيهِ الْمَنَائَا، مَعَ كُلِّ جَزَعِهِ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلِهِ غَصِصٌ! لَاتَتَّالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى، وَلَمَّا يُعَمَّرْ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ، يَوْمًا مِنْ عُمُرِهِ، إِلَّا يَهْدِمُ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلَمَّا تَجِدْ لَهُ زِيَادَةً فِي أَكْلِهِ، إِلَّا بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ. وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ. وَلَا يَتَجِدْ لَهُ جَدِيدًا إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلُقَ لَهُ جَدِيدًا. وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ. وَقَدْ مَضَتْ أَصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!».

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه إلى أفات الدنيا التي تهدد الإنسان من كل ناحية وقد عكس هذه الآفات بثلاث عبارات عميقه المعنى فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ (١) تَنْتَضِلُّ فِيهِ الْمَنَائَا، مَعَ كُلِّ جَزَعِهِ شَرَقٌ (٢)، وَفِي كُلِّ أَكْلِهِ غَصِصٌ! (٣) لَاتَتَّالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى»، فهي تشير من جانب إلى الآفات المميتة التي تشمل الفرديه من قبيل أنواع الأمراض وحملات الحيوانات ومنازعه الأشرار والسقوط من الشاهق وإلى ذلك، وكذلك الآفات الجماعية كالزلازل والسيول والقحط والحروب، ومن جانب آخر ذكر اقتران كل نعمه بنقمه وكل نصر ونجاح بهزيمة وفشل، أھونها ما ورد في عبارہ الإمام عليه السلام حين قال:

ص: ٤٠٧

١- ١) «غرض»: الهدف الذي يرمى بالسهم.

٢- ٢) «شرق»: له معنى مصدرى يعنى الاحتناق بالماء.

٣- ٣) «غصص»: له معنى مصدرى ويعنى الاحتناق بالطعام.

«مَعَ كُلِّ جَزَعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلِهِ غَصِيصٌ! لَأَتَّالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى» ، فلعله يغص بالطعام ويموت رغم لذته وشوقه إليه، وأخيراً أشار إلى تنافر النعم الدنيوية المادية فصرّح بتعذر جمعها، فما إن ينال واحده حتى تفارقه أخرى، مثلاً يحرم من نعمه الولد فيهبه الله الولد لكنه يسلبه الهدوء والراحة، أو أنه فقير لا مال لديه ويعيش ظروفاً صعبة فيهبه الله المال، ولكن الحرص على هذا المال وكيفيه التصرف به لا تدع له مجالاً للراحة، ليس لديه وسيله نقلية فهو يعانى من المصاعب وما إن يحصل عليها حتى يعانى من مشاكل جديده من قبيل إنفاق المال عليها وكيفيه المحافظه عليها، وهكذا فهو لا يحصل على نعمه إلى بفراق أخرى.

والعبارة تنتضل بالنظر إلى أنها تستعمل بشأن الأفراد الذين يشتركون في مسابقات الرمي فهي تشير إلى آفات الدنيا وكأنها تتسابق لاستهداف حياه الإنسان، والعبارة منيا جمع منيه بمعنى الموت إشاره إلى اختلاف أنواع الوفيات سواء الفرديه أو الجماعيه والتي أشير إليها في الخطبه، قد يتصور أحياناً أنّ العبارة «لَمَا تَتَّالُونَ مِنْهَا. . .» ، تعبير آخر عن الجمله «مَعَ كُلِّ جَزَعَةٍ شَرَقٌ. . .» ، والحال العبارتان مختلفتان، فالعبارة مع كل جرعه شرق إشاره إلى أنّ بانتظار كل نعمه آفه كامنه، وأما العبارة لا تناولوا منها. . . فهي تشير إلى أنه لو لم يكن هنالك من آفه فإنّ النعم لا تجتمع، فلا تنال واحده إلا بمفارقة أخرى.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بشرح رائع للعبارة السابقه حين قال لا تناولون نعمه إلا بفراق أخرى، فبين خمس نماذج واضحه في خمس عبارات فقال: «وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ، يَوْمًا مِنْ عُمُرِهِ، إِلَّا بِهَيْدَمٍ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلَا تُجَدِّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ، إِلَّا بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ. وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ. وَلَا يَتَّجِدُّ لَهُ جَدِيدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلُقَ (١) لَهُ جَدِيدٌ. وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَخْصُودَةٌ (٢)» .

نعم، للإنسان حيويه خاصه حين الطفوله فان انتقل إلى مرحله الشباب ودبّ فيه نشاطه تزوال عنه حيويه الطفوله، فان اتجه نحو مرحله الشيخوخه وأصبح وجوده مجموعه من

ص: ٤٠٨

١-١) «يخلق»: من ماده «خلق» بمعنى يبلى ويخلق من ماده خلق المراد المعنى الأول في الخطبه.

٢-٢) «محصوده»: من ماده «حصد و حصاد» على وزن غصب بمعنى حصاد الشىء.

التجارب والخيرات فقد نشاط الشباب، وهكذا يمنح الله الإنسان نعمه الولد ولا تمضى مده حتى يفقد أباه ويتعرف على أصدقاء جدد، فى حين يسلب القدماء من أصدقائه، وهكذا يحصل على نعمه ويفقد أخرى، وهذه هى طبيعه الحياه الدنيا والنعم الماديه، فهى لا- تجتمع لأحد فى أى زمان ومكان فلا تنال نعمه إلى بفرار نعمه أخرى، وهذا بحد ذاته إنذار لكافه الناس بعدم التعلق بنعم الدنيا وربط القلب بها، والعبارة «وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ. . .»، إشاره إلى أن الإنسان إن خلف بعض الآثار - سواء كانت هذه الآثار علميه أم خيريه ذات النفع العام - فإنه يفقد قطعاً من أجلها طاقه من حيث الفكر والبدن، والعبارة «وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ. . .»، يمكن أن تكون إشاره إلى نعمه الولد والحفيد حيث كلما كبر هؤلاء فقدوا بالتدرج قرابتهم الأكبر، كما يمكن أن تكون إشاره إلى كل نمو وتقدم، مثلاً- يفرس الإنسان بذور جديده فى جانب من بستانه فى حين يعانى جانب آخر من ذبول الأشجار وموتها الواحد بعد الأخرى.

ثم إختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول: «وَقَدْ مَضَتْ أَصُولُ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ!»، فقد ذهب أبوانا وأسلافنا وصاروا إلى الزوال فلا ينبغى لنا إنتظار البقاء، لأن الفرع الزائد على الأصل ليس بممكن، وبناءً على هذا سنلحق بهم عاجلاً أم آجلاً.

لقد رسم الإمام عليه السلام صورته واضحه ودقيقه فى هذا القسم من الخطبه عن الدنيا، نعم، فلهذه الدنيا نعيش فيها آفاق تختلف تماماً عن واقعها، آفاق القصور والثروات والنعم والجمال والنشاط ولكن ما إن تقترب منها حين نصطدم بصورتها القبيحه، فالإنسان من جانب - كما أشار الإمام عليه السلام - هو هدف دائم لسهام الآفات والبلاء، بحيث لا يسعه التهكن بمستقبله لما بعد ساعه، ومن جانب آخر فى جانب كل نعمه مصيبه وإلى جانب كل ورده شوكة وأخيراً لا ننال نعمه حتى نفقد أخرى، نعيش حياه متواضعه، لكنّها مفعمه بالاستقرار، نتمنى سعه هذه المعيشه، إلّا أننا إن نلنا منيتنا طالعنا العديد من المشاكل، حفظ المال والثروه بحد ذاته مشكله كبيره، إلى جانب عين الحساد التى تصوب نحوه وأمانى الأشرار بزواله واللصوص الذين يتربصون به، وأحياناً خيانه الزملاء والأصدقاء وهكذا سائر المشاكل التى تصب على رأسه من كل حذب وصوب والتى تقضى على استقراره بصوره تامه، ناهيك عن مختلف الأمراض

التي تعرض للإنسان بفعل الجهاد، إننا خام ما دمنا شباباً فان نضجنا وعجزنا، وآنداك يسعنا الاستفاده الصحيحه من الأموال بينما أيدينا خاليه، فان أصبحنا نملك شيئاً لم يسعنا الاستفاده منه، فهل يمكن التعلق بمثل هذه الدنيا والثوق بها؟ يقال إن أحدهم طلب من ملك أن يجلس على عرشه ساعه ويسلمه مقاليد الحكم ويأتمر بأمره الحرس والغلمان، فأجابه الملك لكنه أمر أن يعلق فوق رأسه شعره، فلما جلس على العرش شعر بالفرح الشديد، فوقعت عينه على الخنجر وأنه معلق بشعره فارتعش، لأنه ظن سيقع عليه في كل لحظه، فلما همّ بالهروب قيل له لم تنتهي ساعتك، فجلس خائفاً ينتظر انتهاء المدّه وهو يدعو إلى إنتهائها، ففهم إن كان السلطه من جمال فهي تشتمل على آلاف الأخطار، ولعل هناك من يهم بقتله من أقرب مقربيه كما يفيد التاريخ ذلك، ورغم كل هذه المشاكل فليس هناك من بقاء وخلود في الحياه الدنيا ليسعى إليها الإنسان ويجهد نفسه من أجلها، وما عليه إلّا السير نحو الآخره، وكما قال آخر خلفاء بني أميه «لَمَّا حَلَا لَنَا الدَّهْرُ خَلَا مِنَّا» (١).

ص: ٤١٠

١- ١) في ظلال نهج البلاغه ٤/٣٨٩. [١]

منها: «وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعُهُ إِلَّا تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ. فَاتَّقُوا الْبِدْعَ وَالزَّمُوا الْمَهْيَعَ. إِنَّ عَوَازِمَ الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَإِنَّ مُحَدَّثَاتِهَا شِرَارُهَا» .

الشرح والتفسير

يعالج هذا الكلام من الخطبه قضيه مهمه وهى قبح البدع، وعلى ضوء عدم الارتباط الواضح بين هذا القسم والذى سبقه فالذى يبدو أن بين هذين القسمين أقسام حذفها المرحوم السيد الرضى رضى الله عنه، ولا بد من تغيير مفرده البدعه على أساس اللغة والشرع ليتضح لدينا مضمون هذا القسم من الخطبه: فالبدعه لغوياً تعنى كل تجدد والذى يمكنه أن يكون حسناً أو سيئاً، حسب ما صرح به أرباب اللغة: «البدعه إنشاء أمر على غير مثال سابق» .

أما المعنى السائد بين الفقهاء العلماء - كما ذكرنا ذلك فى شرح الخطبه السابعه عشره - إدخال شىء فى الدين أو إخراجة دون قيام دليل معتبر على ذلك، ولما كانت تعاليم الإسلام وأحكامه خالده ونازله عن طريق الوحي فكل بدعه كبيره، وإليها تعود كل فرقه واختلاف أصاب الأمة الإسلاميه، نعود الآن إلى شرح كلام الإمام عليه السلام فقد قال: «وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعُهُ إِلَّا تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ» .

ثم نصح باجتنب البدع وضروره السير على النهج المستقيم فقال عليه السلام: «فَاتَّقُوا الْبِدْعَ

وَالزُّمُو المَهْيَع (١). إِنَّ عَوَازِمَ (٢) الْأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَإِنَّ مُحَدَّثَاتِهَا (٣) شِرَارُهَا» .

فقد اتضحت حقيقته ما قيل في هذه العبارة في كيفية ترك سنّه حين ظهور بدعه، وكيف تكون البدعه شرّ الأمور، لأنّه لو سمح للأفراد أن ينقصوا من الدين شيئاً أو يضيفوا له شيئاً على ضوء ذوقهم وفكرهم القاصر، لما بقى من أحكام الدين وتعاليمه شيئاً خلال مدّه وجيزه ولإنقلب كل شيء رأساً على عقب، وفقد اعتباره وأصالته، ولإستبدلت التعاليم الأصلية للدين بسلسله من الأفكار المنحرفة والواهيه ولحل السراب محل العين الزلال، طبعاً إن كان التجدد وليد البحث والتحقيق والدقيق في أدله أحكام الشرع وكشف حقائق حديثه من خلال الكتاب والسّنّه والدليل القاطع للعقل، فليس هذا من البدعه في شيء فحسب، بل سيكون سبب رفعه الدين وإزدهاره.

وبعبارة أخرى: فإنّ الكشف شيء جديد، أمّا المكشوف فهو موجود سابقاً في الدين، أمّا إن كان الذوق الشخصى والاستحسان الظنى هو دعامة وأساس التجدد فليس له من نتائج سوى الظلال ومسوخ الصوره الحقيقيه الناصعه للدين ويتضح ممّا مرّ معنا عدم صواب ما أورده شراح نهج البلاغه للعبارة المذكوره من أن كلّ بدعه خلاف لسّنّه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله الذى حرم البدعه، وعليه فالسنّه تترك بظهور البدعه، بل المراد أنّ لكل موضوعه فى الإسلام حكم، وكل بدعه تعارض ذلك الحكم، إذن فبظهور البدع تترك الأحكام الأصلية للدين - كما تبين جسامه خطأ ما أورده بعض شراح نهج البلاغه مثل ابن أبى الحديد الذى قسم البدع إلى حسنه وسيئه، فاعتبر مثلاً صلاه التراويح (تلك الصلاه المتسحبه التى كان يصلها الناس فراداً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فى ليالى رمضان وقد ابتدع عمر أن تصلى جماعه) من البدع الحسنه،

ص: ٤١٢

-
- ١-١) «المهيع»: من ماده «هيع» على وزن رأى بمعنى الطريق الواسع والواضح.
٢-٢) «عوازم»: جمع «عازمه أو عوزم» على وزن جوهر تعنى فى الأصل المسن من الإنسان أو الحيوان وتطلق على كل شيء قديم، وتعنى هنا الأمور التى كانت موجوده منذ زمان النبى وأصالتها ثابتة فى الدين.
٣-٣) وردت حدثات بكسر الدال فى النسخه المعروفه لصبحى الصالح فلها معنى اسم الفاعل، وردت مفتوحه فى أغلب النسخ بمعنى الحدوث وهذا هو الصحيح.

وذلك لأنه بهذه البدعه ترك سنّه، وترك سنّه استحباب الأفراد في الصلاه المستحبه، وعليه فليس لدينا بدعه حسنه، وإن أقرنا البدعه الحسنه كان ذلك الإقرار بأن السنّه قد تكون حسنه وقد تكون سيئه، كما اتضح المعنى الذى أراد به بعض العلماء للبدعه حين أجروا عليها الأحكام الخمسه من أن بعض البدع واجبه وبعضها محرمة، فأنما أرادوا المعنى اللغوى لا الشرعى بإضافه أو طرح أشياء من الدين وأحكامه ومن هنا ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَلَا وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ، أَلَا وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ» (١).

ومن أراد الوقوف على المزيد بشأن البدعه فليراجع المجلد الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبه السابعه عشره.

ص: ٤١٣

١ - ١) ورد مثل هذا المعنى فى الأمالى للشيخ المفيد رحمه الله، ص ١٨٨ مع اختلاف طفيف كما ورد فى مصادر العامه (الموسوعه الفقيهه الكويتيه ٨/٢٤).

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وقد استشاره عمر بن الخطاب فى الشخوص لقتال الفرس بنفسه

نظره إلى الخطبه

هناك خلاف بين المؤرخين فى أن هذه الاستشاره بخصوص الحضور فى معركه نهاوند أو القادسيه، ويرى الطبرى حسب قول ابن أبى الحديد أنها فى معركه نهاوند، بينما يراها المدائنى فى كتاب «الفتوح» بشأن معركه القادسيه (٢)، وخلاصه ما ورد فى تاريخ الطبرى أن عمر حين عزم على الشخوص بنفسه لقتال العجم طلب مشوره الصحابه فتقدم طلحه والزبير وقالا رأيهما، إلا أن عمر استشار علياً عليه السلام فأشار عليه السلام بعدم الشخوص بنفسه كما فى الخطبه، قال المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله فى «الإرشاد»، ورد عن أبى بكر الهذلى أن من بين الأمور التى نقلت عن أمير المؤمنين على عليه السلام فى إرشاد الناس لما فيه مصلحتهم ولولا- إرشاده لكان فسادهم أن فريقاً من أهل همدان والرى وإصفهان ودامغان ونهاوند تكاتبوا بينهم وبعثوا الرسل فرأوا أن الإسلام قد فقد زعيمه (النبي الأكرم صلى الله عليه وآله) وخلفه من لم يستمر، ثم خلفه من طال عمره وقد

ص: ٤١٥

١-١) سند الخطبه: روى جانباً من هذه الخطبه أبو حنيفه الدينورى فى كتاب «الأخبار الطوال» وأحمد بن أعثم الكوفى فى كتاب «الفتوح» والطبرى فى تاريخه والمعروف فى حوادث عام ٢٧ هـ (الصحيح عام ٢١ هـ كما ورد فى تاريخ الطبرى) وذكرها الشيخ المفيد رحمه الله فى «الإرشاد» (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٢٥). [١]

٢-٢) شرح ابن أبى الحديد ٩/٩٧. [٢]

هجم على مدنا وإنه لن يتركنا ما لم نخرجه، فلما بلغ عمر الخبر فقدم إلى المسجد وأطلع الصحابه بالخبر، فقال كل رأي، فأشار على عليه السلام (كما ورد في هذه الخطبه) بما فيه صلاح الإسلام والمسلمين، قال الشيخ المفيد: انظر كيف بين الإمام عليه السلام رأيه الصائب في تلك الظروف الحساسه وأنقذ المسلمين (1)، على كل حال فإن هذه الخطبه تعالج بمجموعها موضوعاً واحداً، وهو أنّ حضور رئيس الدوله في الحرب في بعض الظروف أمر خطير جداً من شأنه أن يؤدى إلى مشكلتين، أحدهما إتحاد أفراد العدو فيما بينهم وبذل قصارى جهدهم من أجل قتله، فيضطرب الجيش ويختل نظمه، والأخرى على فرض عدم حدوث مثل هذا الخطر فلعل إخلاء الجبهه الداخليه يشجع العدو على الهجوم على المراكز الأصليه للبلاد من كافه الجهات فتنجم من جراء ذلك الأخطار الشديده التي تهدد كيان الإسلام والمسلمين، وتشير هذه الخطبه بوضوح إلى أنّ علياً عليه السلام أنّه كان يقف حتى إلى جانب أعدائه إذا اقتضت ذلك مصالح الإسلام والمسلمين حرصاً على الدين وكيانه.

طبعاً هذا الكلام لا يعنى أنّ رئيس الدوله لا ينبغى أن يشخص بنفسه قط في ميدان القتال فقد شخص أمير المؤمنين على عليه السلام بنفسه في معارك الجمل وصفين والنهروان، وأعظم من ذلك حضور النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الغزوات، فالشرايط متفاوتة تماماً بحيث كانت تتطلب عدم حضور الخليفه الثانى في الميدان.

والجدير بالذكر أنّ المعارك قد تقع أحياناً بالقرب من البلاد الإسلاميه وفي المناطق القريبه منه فإنّ حضور المعركه من قبل رئيس الدوله لا يترتب عليه أيه مخاطر في مثل هذه الظروف، في حين تبرز مثل هذه المخاطر في المناطق البعيده وتجاه عدو قوى يمتلك جيشاً كبيراً، وقد تحدثنا في مثل هذا الأمر في شرحنا للخطبه ١٣٤.

ص: ٤١٤

«إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرِهِ وَلَا بِقَلِّهِ. وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ؛ وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعَيْدُهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدُهُ. وَمَكَانُ الْقِيَمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النُّظَامِ مِنَ الْخَرْزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنْ انْقَطَعَ النُّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرْزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِخِذْفِيرِهِ أَبَدًا. وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالْاجْتِمَاعِ! فَكُنْ قُطْبًا، وَاسْتَيْدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصِيلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَصَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدْعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ».

الشرح والتفسير

صرح الإمام عليه السلام في البدايه بهدف عدم رعب المسلمين بفعل كثره جيوش العدو في تلك المعركه القاسيه، سيما ما ذكرته بعض التواريخ من أن رأى عثمان حين أشار عليه الخليفه الثانى كان مقبولاً، فقال: «إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرِهِ وَلَا بِقَلِّهِ. وَهُوَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ»، في إشاره إلى أننا كنا دائماً قلّه مقابل العدو في الحروب التي خضناها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، مع ذلك فقد انتصرنا وشملنا الله برحمته وعنايته، وقد لمسنا هذا الفضل دائماً، وعليه فلا تخشوا من كثره العدو وامتصوا بعد التوكل على الله تعالى.

والعبارة هذه تذكّر بنصر المسلمين في بدر والأحزاب وأمثالهما.

ولعل الفارق بين العبارتين بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع أنّ العبارة الثانية تخبر عن انتشار الإسلام والأولى عن منتهى منطقته نفوذ الإسلام، كما يحتمل أن تكون العبارة الأولى إشاره إلى المناطق التي نفذ إليها الإسلام، والعبارة الثانية إلى المناطق التي ذاع فيها صوت الإسلام وشع عليها بما يمهّد السبيل أمامه وإن لم ينفذ إليها بعد، أو أنّ العبارة الأولى إشاره إلى قوّة الإسلام وقدرته، والثانية إلى سعه الإسلام وانتشاره.

ثم قال عليه السلام مؤكداً ذلك الكلام: «وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ مُنْجِزٌ وَعَدَّهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ»، إشاره إلى الآية الشريفة: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» (١). والآية: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» (٢).

نعم، فقد وعدنا في ظل الإيمان بالنصر في الدنيا والآخرة وتشهد سائر الآيات القرآنية على هذا المعنى، وما إن فرغ الإمام عليه السلام من بيان هذه المقدمة بهدف الاستقرار الروحي للخليفة والحاضرين حتى تطرق إلى الموضوع الأصلي للمشورة في حضور عمر بنفسه في المعركة فقال: «وَمَكَانُ الْقَيْمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النَّظَامِ (٣) مِنَ الْخَرْزِ (٤) يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ: فَإِنْ انْقَطَعَ النَّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرْزُ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحِذَافِيرِهِ (٥) أَيَدًا»، يا له من تعبير رائع وتشبيه جميل فالقائد والزعيم لبلد بمنزله خيط المسبحة أو القلادة بفضلها رمز الوحدة وإنسجام والأمة، كما تحمل الزعيم قضية في أن يتحلى بسعه الصدر ووسع الفكر بحيث يستطيع استقطاب كافة الأفراد وصهرهم في كتله متحدة.

ثم خاض الإمام ثانية في رفع معنوياتهم على أنّ العرب اليوم هم الكثرة رغم قلتهم وما

ص: ٤١٨

١-١ (١) سورة التوبة / ٣٣. [١]

٢-٢ (٢) سورة غافر / ٥١. [٢]

٣-٣ (٣) وإن كان لهذه المفردة مفهوم كلي لكنّها تعنى هنا السلك ينظم فيه الخرز.

٤-٤ (٤) «خرز»: بمعنى حبات المسبحة وتكون نفيسه، كما تكون عادية ويصنع منها المسبحة وأصلها «الخرز» على وزن الفرض بمعنى ثقب الجلد أو شيء آخر.

٥-٥ (٥) «حذافير»: جمع «حذفور و حذفار» على وزن مضمار بمعنى جانب الشيء وناحيته وحذافير بمعنى جميع الجوانب.

ذلك إلابالإسلام ففهم عزيزون ومقتدرون فى ظل اجتماعهم واتفاقهم فى ظل هذا الدين: «وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلًا، فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالْإِسْلَامِ، عَزِيزُونَ بِالْإِجْتِمَاعِ!». .

فخلص من ذلك إلى نتيجة أصلية: «فَكُنْ قُطْبًا، وَاشْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ (١) دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ» .

ثم ذكر دليل ذلك فقال عليه السلام: «فَإِنَّكَ إِنْ شَخَّصْتَ (٢) مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مِمَّا تَدْعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعُورَاتِ (٣) أَهَمُّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ»، إشارة إلى أن الإسلام فى بداياته لحدّ الآن، وما زال المنافقون وسلبوا عصر الجاهلية فى صفوف العرب وهم يتربصون الفرصه لطعن المسلمين من الخلف، فلو انطلق القائد وصحبه الأوفياء إلى نقطه بعيده يكون الميدان قد خلى للمفسدين والمنافقين، ولعلمهم يسببون بعض الأخطار التى تفوق أخطار العدو الخارجى، أضف إلى لذلك فلو اصطدم الجيش بمشكله فى الجبهات، كان بإمكان القائد إن استقر فى المركز أن يعبىء جيشاً جديداً ويبعث به إلى ميدان القتال، بينما ينهار سند الجيش إن حضر بنفسه الميدان.

والجدير بالذكر أن العرب فى العبارة «وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ. . .» تختلف عن العرب فى العبارة «انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ. . .» فالمراد بالأولى المخلصون من المؤمنين، والثانيه المنافقون الذين يظهرون الإيمان، أو المسلمون الضعاف.

ص: ٤١٩

١- ١) «اصل»: من ماده «صلى» على وزن سعى بمعنى دخول النار أو الاحتراق فيها، وإن استعملت فى باب الأفعال عن القذف فى النار، والعبارة إشارة إلى أن الجيش حين ينشغل بالحرب عليك بالابتعاد عنهم حتى لا يتمكن العدو من إصابتك.

٢- ٢) «شخصت»: من ماده «شخوص» على وزن خلوص تعنى فى الأصل الخروج من المنزل أو المدينة، ولما كان الإنسان يظهر حين الخروج فقد أطلقت على قامه الإنسان والمرتفعات التى تلوح من بعيد، ويقال للمسافر شاخص حيث يبين حين دخوله المدينة، وتطلق هذه المفراده على كل شىء مرتفع.

٣- ٣) «عورات»: جمع «عوره» تعنى فى الأصل العيب والعار ولما كان إظهار الآله الجنسيه مدعاه للعيب والعار فقد اطلقت عليها العرب العوره، ولكن لهذه المفرده معنى أوسع وأشمل وهى النقطه التى يمكن اختراقها وما يخشاه الإنسان ويقلق منه، وحيث كانت حدود كل بلد من المناطق التى يمكن إلحاق الصدر بها والمقلقه فقد استعملت بهذا المجال، إلّا أنها لا تعنى الحدود خلافاً لما أورده أغلب شراح نهج البلاغه، [١] والمراد بها النقاط المضطربه داخل البلد الإسلامى والتى يمكن هجوم المنافقين عليها، والشاهد على ذلك العبارة ما تدع وراءك، لأنّ الجيش حين يتحرك نحو عدو خارجى لا يبقى خلفه سوى الجبهه الداخليه للبلاد.

ما يستفاد من هذه العبارات دورس مهمه فى مجال الإدارة والقيادة وتصريف شؤون البلاد:

أولاً: حفظ القائد والزعيم للأمة لا من منظار شخصى بل كونها قضيه اجتماعيه تعدّ من أهم الواجبات، وذلك لأنه رمز وحده الأمة وتماسكها، ومن هنا لابدّ من الأخذ بنظر الاعتبار جميع التدابير للازمه من أجل حفظه ودفع أى احتمال يمكنه أن يشكل خطراً عليه، سيّما أنّ العدو ومن خلال الاطلاع على هذا الموضوع يسعى لاستهداف شخص القائد قبل كل شىء، وقد دلت تجربه التاريخيه أنّ أقصر طريق لهزم جماعه يتمثل بدك موقع القيادة واستهداف القائد، ولعلنا نلمس هذا الأمر فى قضيه بنى اسرائيل وقتالهم لجالوت التى عرضها القرآن الكريم حيث استهدف داود شخص جالوت فقتله فانهمز الجيش إثر ذلك.

ثانياً: على القائد أن ينظر باحدى عينيه إلى العدو الخارجى وبالأخرى إلى الاعداء فى داخل البلاد، حتى ورد فى هذه الخطبه وكما دلت التجارب التاريخيه الكثيره على خطر العدو الداخلى الذى يفوق الخطر الخارجى، وذلك لأنّ الذى يأتى من الخارج معروف، بينما يتمثل العدو الداخلى عاده بالمنافقين الذين يتخفون بين أبناء المجتمع، فإنّ سنحت لهم أدنى فرصه سددوا سهام حقدهم وضربوا ضربتيم، إضافة إلى أنّهم على علم تام بمواقع الخلل فى الداخل وكيفيه التسلل إلى المناطق، ومن هنا عبّر الإمام عليه السلام عنهم وعن أخطارهم المتوقعه بالعورات وعد أخطارهم من أهم الأخطار.

«إِنَّ الْأَعْيَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَدًا يَقُولُوا: هَذَا أَضِلُّ الْعَرَبِ، فَمَاذَا اقْتطعتموه [قَطَعْتُمُوهُ] اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلْبِهِمْ عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ. فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ. وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدْدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ!» .

الشرح والتفسير

هذا المقطع من الخطبه فى الواقع تأييد وتأكيد للقسم الأول، وقد أشار إلى ثلاث نقاط، الأولى: الدليل الذى أقامه الإمام عليه السلام على عدم حضور الخليفه فى ميدان الحرب فقال: «إِنَّ الْأَعْيَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَدًا يَقُولُوا: هَذَا أَضِلُّ الْعَرَبِ، فَمَاذَا اقْتطعتموه [قَطَعْتُمُوهُ] اسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلْبِهِمْ (١) عَلَيْكَ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ» .

الثانيه: «فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ»، وتشير العبارة إلى أن عمر قال سابقاً بأن الأعاجم قد زحفوا نحونا وبنوون قتالنا وهذا يدل على ما يروونه فى أنفسهم من قوه، ولعل الأمر كان كذلك حسب الظاهر وما تفيده الشواهد التاريخيه، إلا أن الإمام عليه السلام ذكر بقدره الله الخاصه من أجل رفع معنوياته وهو الأمر الذى لمسّه المسلمون كراراً فى غزواتهم، ومن

ص: ٤٢١

الطبيعى أن يتعقد الأمر لو بقى المسلمون فى ديارهم وهجم عليهم العدو فما أمراهم لو توكلوا على الله وتصدوا للعدو خارج بلادهم.

الثالثه: أنّ الخليفه الثانى كان يخشى عدم التكافىء وموازنه القوى بين المسلمين والأعداء، فرد عليه الإمام عليه السلام بالقول: «وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَيْدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيهَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصِيرِ وَالْمُعُونَةِ!»، فقد كان عمر يرى قوه العدو واقتداره فى أمرين، أحدهما كثرتهم وزياده عددهم، والآخر حركتهم وهجومهم على بلاد الإسلام.

وقد صرح الإمام عليه السلام إننا لم نقاتل العدو ومنتصر عليهم بهذه القوه الظاهريه، وقد أيدنا الله بنصره ومدده العينى فى جميع مواقف القتال، وقد انتصرنا رغم قلّه العدد وكثره العدو وهجومه علينا، وهكذا شجعه الإمام عليه السلام على مواجهه العدو، وأكد وأيضاً عدم حضوره شخصاً فى الحرب، واستجاب له عمر وكان النصر حليف المسلمين.

معركه القادسيه ونهاوند

وقعت معركة مهمتان بين المسلمين والساسانيين على عهد عمر القادسيه (1) فى عام ١٤ هـ ومعركه نهاوند عام ٢١ هـ، وقد استشار عمر بشأن حضوره القتال، وقد مرّ علينا فى الخطبه أنّ الإمام عليه السلام منعه من ذلك بعد ذكره للأدله المحكمه، بينما أشار عليه الآخرون بالحضور، فقبل من الإمام عليه السلام وبقى فى المدينه، وذهب بعض المؤرخين إلى أنّ هذه المشوره كانت فى معركه نهاوند، على كل حال حين عزم عمر على عدم الحضور فى القادسيه ولى سعد بن أبى وقاص إمره الجيش، بينما نصب يزيدجرد الساسانى رستم فرخزاد، فبعث سعد رسوله النعمان بن المقرن إلى يزيدجرد، فعنفه حيث لم يتوقع ذلك من العرب آنذاك وقال له لولا- أنّك رسول لقتلتك، ثم أمر بذر التراب على رأسه وطرده من المدائن، وقال له أنّ رستم سيدفن قائد عسكركم فى خندق القادسيه، فلما عاد النعمان إلى سعد، فقال سعد، ابشر أن وضعوا التراب على رأسك فاننا سنملك بلادهم، والعجيب أنّ رستم كان يخشى قتال المسلمين رغم تعداد جيشه الذى بلغ

ص: ٤٢٢

١-١) القادسيه كانت من المدن الإيرانيه الغربيه ولم تكن تبعد كثيراً عن الكوفه (ذكر البعض أنّها تبعد تسعين كيلومتراً) وهى الآن من مدن العراق.

١٢٠ ألف بينما كان عدد جيش المسلمين بضع وثلاثين ألف.

وأخيراً تقاتل الجيشان، وفي اليوم الأول هجم الساسانيون بفيلهم على المسلمين، ولكن المسلمين تمكنوا من قطع خراطيمها وقد قتل من العدو في ذلك اليوم ٢٠٠٠ ومن المسلمين ٥٠٠، وفي اليوم الثاني تقدم أبو عبيده الجراح بجيش من الشام لنصره سعد بن أبي وقاص فقتل من الساسانيين عشرة آلاف بينما قتل ألفان من المسلمين، وفي اليوم الثالث اشتد القتال واستمر القتال حتى اليوم الرابع فبان الضعف على العدو، فهبت ريح شديده فهجم المسلمون على خيمه رستم، فحاول الهرب لكنه صرع تحت حوافر الخيل، فانهمز الجيش الساساني فلما بلغ الخبر عمر أمر بعدم تعقيب العدو وأن تستقر الجيش هناك فبقى سعد هناك في الكوفه فعلاً فبنى مسجداً وباشر بناء الكوفه، أما معركة نهاوند (١)، فقد ذكر الطبري أنّ عمر أراد أنّ يشخص لقتال الجيش الساساني في نهاوند فأشار عليه الصحابه حتى خطب الإمام عليه السلام فوافقه عمر وقال هذا هو الصواب.

ثم أمر النعمان الذي كان والي البصره، فواجهه لقتال الفيروزان قائد جيش كسرى في نهاوند، فان قتل خلفه حذيفه ومن بعده نعيم، كما وجه معه طلحه بن خويلد وعمرو بن معدى كرب العارفين بالقتال ثم أمره بمشورتها، وقد قتل النعمان في المعركه، فحمل الرايه حذيفه حتى قتل الفيروزان ودخل المسلمون نهاوند وحصلوا عن غنائم كثيره فبعثوا بها إلى عمر، فلما رأى عمر الغنائم بكى فسأله عن ذلك، قال: أخشى خداع الناس من هذا الثراء.

قال بعض المؤرخين: أنّ هذه المعركه حدثت عام ٢١ هـ لسبع سنوات بعد القادسيه وقد انهمز الساسانيون ودخل المسلمون ايران، فما كان من الايرانيين المعروفين بالفطنه إلا أنّ تعرفوا على الإسلام واعتنقوه فأصبحوا من رواد العلوم الإسلاميه.

والجدير بالذكر أنّ مقاومه الايرانيين تركزت في القادسيه ونهاوند، بينما كانوا يستقبلون المسلمين حين دخلوا من سائر المدن، ولم يبدو أيه مقاومه، فقد كانوا يعانون من الساسانيين من جانب، ومن جانب آخر رأوا نجاتهم في الإسلام (٢).

ص: ٤٢٣

١-١) نهاوند مدينه معروفه غرب ايران وهي الآن تابعه لمحافظة همدان ولا تبعد عنها كثيراً.

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٩/٩٦ - ١٠٢؛ وتاريخ الطبري ٣/٢٠٢.

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

فى الغايه عن بعثه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وأهميته القرآن، والإخبار عن المستقبل

نظره إلى الخطبه

تألف هذه الخطبه من عدّه أقسام:

القسم الأول: إشاره إلى أهداف بعثه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ودور القرآن فى هدايه الناس.

القسم الثانى: يخبر فيه الإمام عليه السلام عن الفتن القادمه ويتحدث عن وقت يغرق الناس فيه بالذنوب والمعاصى وينسون القرآن.

القسم الثالث: إنذار الناس والتذكير بعاقبه الأقسام السابقه التى صب عليها البلاء.

القسم الرابع: بين فيه الإمام عليه السلام بعض المواعظ الموثره والمفيده وقد دعى الناس إلى إتباع القرآن وأهل البيت عليهم السلام من أجل النجاه من الفساد.

ص: ٤٢٥

١ - ١) سند الخطبه: نقلها قبل السيد الرضى باختلاف طفيف المرحوم الكلينى فى كتاب روضه الكافى، وقد أشير فى الخطبه ٢٣٧ إلى جزء من هذه الخطبه كما وردت إشاره إلى جانب منها فى قصار الكلمات، الكلمه ٩٨ (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٣١).

«فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنَ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَّهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيُعَلِّمَ الْعِبَادَ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوا، وَلِيُقَرِّبُوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوا، وَلِيُشَبِّهُهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ. فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ، بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَخَوْفَهُمْ مِنْ سَيْطُونِهِ، وَكَيْفَ مَحَقَّ مَنْ مَحَقَّ بِالْمَثَلَاتِ، وَاحْتَصَدَ مَنْ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ!»

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام فى هذا القسم من الخطبه - كما ذكر ذلك الشارح البحرانى - إلى بعثه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ثم شرح أهداف البعثه، ثم أشار إلى الوسيله التى اعتمدها لتحقيق ذلك الهدف وهى القرآن الكريم فقال: «فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنَ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ»، يالها من عباره بليغه رائعه وقصيره بشأن الهدف من بعثه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله والتى تستند إلى ركنين:

الأول: ترك عبوديه الأصنام والتمسك بالتوحيد فى العباده، أى عباده الله.

الثانى: التحرر من طاعه الشيطان والاقبال على طاعه الله سبحانه وتعالى.

لا- شك أن طاعه الشيطان نوع من الوثنيه، وعليه فهى داخله فى مفهوم العبارة الأولى يعنى عباده الأوثان، إلا أن تقابل هاتين العبارتين يفيد أن العباده قد استعملت فى معناها الخاص، والمراد طاعه الشيطان، إتباع أوامره لا عبادته، على كل حال فإن للأوثان والشيطان فى هاتين

العبارتين مفهوم واسع يشمل كل معبود غير الله سبحانه وتعالى ويضم شياطين الانس والجن، وبناءً على هذا يدخل في مفهوم هذه الجمل التسليم لحكام الظلم والجور وطاعه أوامرهم والاستسلام للاستعمار والاستغلال والانصياع للقوانين غير الشرعيه، وهذا هو هدف البعثه والذي يتمثل بالتححرر من كل هذه الأمور.

نقل المرحوم الكليني في الكافي العبارات المذكوره بهذه الصيغه: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ مَنْ عِبَادَتِهِ وَمِنْ عُهُودِ عِبَادِهِ إِلَى عُهُودِهِ وَمِنْ طَاعَةِ عِبَادِهِ إِلَى طَاعَتِهِ وَمِنْ وِلَايَةِ عِبَادِهِ إِلَى وِلَايَتِهِ» (١).

وهكذا بين الإمام الهدف الأصلي لبعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والذي تعود إلى سائر الأهداف بهذه العبارات المختصره وقد أَمَاط كل إبهام.

ثم أشار عليه السلام إلى الوسيله اللازمه لتحقيق هذا الهدف السامى فقال: «بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَّهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيَقْرُوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ» .

لا- شك أن مشركى العرب كانوا يؤمنون بالله ويعترفون بوجوده وأنه خالق السماوات والأرض ويرون الأوثان شفعاثهم إليه، ولكن ليس لهذا الاعتقاد الممزوج بالشرك أيه قيمه، وقد بعث الله نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله ليطهر أرواحهم وأفكارهم من أدران الشرك والوثنيه ويشدهم نحو التوحيد والعبوديه الخالصه، وهذا فى الواقع وظيفه كافه الأنبياء والمرسلين فى تطهير التوحيد من رواسب الشرك.

وقال عليه السلام فى تعريفه للقرآن وآثاره البناءه فى الفكر والعمل: «فَتَجَلَّى (٢) لَهُمْ شَيْبْحَانُهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ، بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ» .

والعباره إشاره إلى آيات التوحيد وبيان أسماء الله وصفاته والتى تفعل مثل هذا الفعل فى الإنسان حين يتأملها وكأنه يرى الله سبحانه وتعالى جهره، نعم يراه ولكن بالبصيره لا

ص: ٤٢٨

[١- ١] الكافي ٨/٣٨٦ [١]

[٢- ٢] «تجلى»: من ماده «تجلى» وأصل جلو على وزن دلو بمعنى الظهور والبروز، وتجلى الله بمعنى أن آياته على درجه من الوضوح وكأنه يمكن رؤيته من خلالها.

بالبصر، احتمال البعض أنّ المراد بالكتاب هنا كتاب عالم التكوين المملوء بآيات الله سبحانه بحيث نشاهدها أينما نظرنا (١)، ولكن يبدو هذا المعنى مستبعداً بالاستناد إلى العبارة السابقة التي أشير فيها إلى القرآن في العبارة اللاحقة إلى الإنذار الإلهي، والمراد بالكتاب القرآن الكريم، ولما كان تجلي الله بواسطة الآيات القرآنية قد يوهم إمكانية رؤيه الله بالعين، فقد صرح عقيب ذلك مباشرة بأنّ هذا التجلي يحصل دون رؤيه بالبصر.

وأشار في العبارة القادمة إلى جانب آخر من آيات القرآن الكريم وهي آيات الإنذار والتخويف، فقال عليه السلام: «وَحَوَّفَهُمْ مِنْ سَطَوَاتِهِ»، ثم تطرق بعد ذلك إلى القصص الأليمه للأقوام السابقة وما تنطوى عليه من دروس وعبر فقال: «وَكَيْفَ مَحَقَّ (٢) مَنْ مَحَقَّ بِالْمَثَلَاتِ (٣)، وَاحْتَصَدَ (٤) مَنْ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ!». .

وأخيراً ما زال هناك احتمال في تفسير العبارات المذكوره في أنّ الله تعالى قد تجلى في كتابه بجميع هذه الموارد (آيات القدره والتخويف من السطوه والقصص الأليمه للأقوام العاصيه) .

كيفيه تجلي الله في القرآن

كما شحن كتاب عالم التكوين بآثار عظمه الله وقدرته في آيات الآفاق والأنفس وفي السماوات والأرض وفي أكثر المنظومات والكرات السماويه وفي أصغر ذرات وجودنا، وكما صور ذلك الشاعر بأنّ كل نبات يخرج من الأرض يهتف وحده لا شريك له، وكذلك الذات الإلهيّه متجليه في القرآن الكريم، حين يتحدث عن آياته في السماوات والأرض وحين يستعرض نعم الجنان ونقم النيران وحين يتحدث عن قدرته الباهره في الخلق وحين يكشف اللثام عن صفات جلاله وجماله ورحمانيته، فذاته ظاهره متجليه في كل هذه الآيات وقد قال

ص: ٤٢٩

١-١) قال الشاعر: وله في كل شيء آيه تدلّ على أنّه واحد

٢-٢) «محق»: من ماده «محق» على وزن خلق بمعنى المحو الكامل أو إزاله بركه الشيء.

٣-٣) «المثلات»: جمع «مثله» على وزن عضله بمعنى العقوبه.

٤-٤) «احتصد»: من ماده «حصد» بمعنى القطف.

بعض الأعلام أنّ أغلب المكاشفات تتم حين تلاوه القرآن الكريم والتدبير في مفاهيمه، أجل لا يمكن رؤيه الله سبحانه بهذه العين، بينما يمكن رؤيته بعين القلب ومن خلال آياته القرآنيه، فما أحرانا بالنظر إلى عالم التكوين والتفكير وفي أسرار الوجود ومن ثم نفتح القرآن الكريم ونطالع آيات التكوين في الكتاب التدوين، حقاً لو كان لنا مئه ألف عين لشاهدنا مئه ألف تجلى من تجليات الحق تبارك وتعالى.

ص: ٤٣٠

«وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَحْفَى مِنَ الْحَقِّ، وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِئْلَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقٌّ تَلَاوَيْتَهُ، وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ وَلَا فِي الْبِلَادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ! فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلْتُهُ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظْتُهُ؛ فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَاهِلٌ طَرِيدَانِ مَنْفِيَانِ، وَصَاحِبَانِ مُضَيَّعَانِ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَا يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ. فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ! لِأَنَّ الضَّلْمَالَ لَمَاتُوا فِي الْهُدَى، وَإِنْ اجْتَمَعَا. فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ، وَافْتَرَقُوا عَلَى الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أُمَّةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا حَطَّهُ وَزَبْرَهُ. وَمَنْ قَبْلَ مَا مَثَلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلِّ مَثَلِهِ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللَّهِ فَرِيَةً، وَجَعَلُوا فِي الْحَسَنِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ» .

الشرح والتفسير

تحدّث الإمام عليه السلام في القسم المذكور عن ظهور الإسلام والهدف من بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والآثار العظيمة للقرآن في الهدايه، ثم واصل عليه السلام كلامه في هذا القسم بالحديث عن زمان لا يبدو بعيداً وسيشهد تغيراً تاماً في الأوضاع بما يهدد بالخطر جهود النبي صلى الله عليه وآله فينذر كافة المؤمنين بالالتفات إلى الأخطار التي تترصد بهم، فاستهل عليه السلام كلامه ببيان الوضع في ذلك الزمان بسبع عبارات قصيره بليغه فقال: «وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ

شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ، وَلَمَّا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ»، كما ليست لدى الناس من سلعه أبور من القرآن الكريم آنذاك إن فسّر وتلى حق تلاوته، بينما يزداد الإقبال عليه إن حرّف عن معناه الحقيقي: «وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِلْعُهُ (١) أَبُورٌ (٢) مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا أَنْفَقَ (٣) مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ وَلَمَّا فِي الْبِلَادِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَلَا أَعْرَفَ مِنَ الْمُنْكَرِ! فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلْتَهُ، وَتَنَاسَاهُ (٤) حَفِظْتَهُ» .

نعم، ستظهر غيوم الجاهلية ثانية في سماء الإسلام فتحجب شعاع شمس النبوة والقرآن فيتغير كل شيء وتنطمس حقائق الإسلام ويستولى سليلوا أئمة الكفر والشرك والوثنية على الحكومه الإسلاميه فتعاني الأمة من ظلمات الجهل والجور، والسؤال المطروح أى زمان هذا الذى أشار إليه الإمام عليه السلام؟ هل المراد زمان معين؟ أم الحكومه مفهوم عام ويشمل مختلف الأزمنه حتى زماننا الحاضر؟ هناك خلاف بهذا الشأن بين شراح نهج البلاغه، ولكن بالنظر إلى العبارة «سيأتى» التى تفيد عادة الإخبار عن المستقبل القريب والتعبير بـ «عليكم» ومن بعدى التى تشير إلى درك مخاطبيه له، يبدو أنه إشاره إلى زمان سيطره بنى أميه ومعاويه ويزيد وسائر حكاهم الذين تنطبق عليهم هذه الصفات، نعم، فهؤلاء الذين كتموا الحق وقطعوا رقبه كل من تعصب له، إلى جانب ذلك فقد إتسق سوق الكذابين والوضاعين والمتملقين لبنى أميه ممن اندفع فى مدحهم والثناء عليهم، فقد ظهرت المنكرات فى كل مكان وضاع المعروف.

طبعاً لا ننكر أنّ هذا الأمر حدث ويحدث فى سائر الأزمنه وحتى فى عصرنا، مع ذلك فمراد الإمام عليه السلام من هذه العبارات العصر المظلم لبنى أميه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى وضع القرآن وأصحابه فى ذلك الزمان المظلم وشرح علّه بؤس الناس آنذاك والتى تتمثل بابتعادهم عن القرآن: «فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ (٥) مَنْفِيَانِ (٦)،

ص: ٤٣٢

١- (١) «سلعه»: المتاع والبضاعه.

٢- (٢) «أبور»: من ماده «بور» شدّه كساد الشىء والأرض البائر والبوار الميته الخاليه من النبات.

٣- (٣) «أنفق»: فعل تفضيل من ماده «نفاق» لها معانى مختلفه وأريد بها هنا غلاء السلعه ورواجها.

٤- (٤) «تناساه»: من ماده نسيان.

٥- (٥) «طريدان»: مثنى «طريد» من ماده طرد ومعناها معروف.

٦- (٦) «منفيان»: من ماده «نفى» بمعنى الابعاد.

وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لَأَيُّوِيهِمَا (١) مُؤَوٍ .

ثم أكد عليه السلام قائلاً: «فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ!» ، فهم يتلون القرآن في دورهم وعلى منابرهم، ويقبلونه ويتبركون به، بينما ليس هنالك أدنى أثر لتعاليمه ومفاهيمه في حياتهم الفرديه والاجتماعيه، فقد اكتفوا من القرآن بغلافه وتركوا مضمونه، إنهمكوا بالألفاظ وأهملوا المعاني.

ثم خاض عليه السلام في الدليل قائلاً: «لَأَنَّ الضَّلَالَةَ لَأَتَوَافِقُ الْهُدَى، وَإِنْ اجْتَمَعَا» . نعم، فالضالون في وادي والهدى وأتباعه في وادي آخر، وإن كانوا معاً في الظاهر، والدليل الآخر المهم لشقائهم: «فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ، وَأَفْتَرَقُوا عَلَى الْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُمْ أَيْمَةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ» ، بعبارة أخرى فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا، وقد أدت هذه الفرقة إلى أن يفسر كل القرآن حسب رغبته، أو بعبارة أخرى فقد أسسوا بنيانهم على التفسير بالرأى، يأخذون ما ينسجم مع رغباتهم من آيات بينما يسعون لتوجيه البعض الآخر من الآيات التي تتعارض وأهوائهم بما يتفق ورغباتهم، فهم يجعلون أنفسهم أئمة القرآن بدلاً من أن يكون القرآن الكريم إمامهم، ولذلك فهم لا ينتفعون بالقرآن، بل يجعلونه الموجّه لضلالهم، فيزدادوا ضلالاً وبعداً عن القرآن الكريم.

ثم رسم صورته واضحه عن مصير القرآن في ذلك العصر والزمان بعبارة رائعة لا تماثلها عبارته فقال عليه السلام: «فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا خَطَّهُ وَزَبْرَهُ (٢)» ، فقد يسطر القرآن بخطوط غايه في الجمال وتذهب صفحاته وغلافه ويتدعوا روائع الفن بهذا الخصوص وتتداول الأيدي القرآن ويتلى في المساجد بمختلف الأصوات بصوره فرديه وجماعيه، ولكن دون أن يكون هناك أدنى خبر عن مضمونه ومحتواه، بالضبط كالدواء الشافي الذي يوضع في زجاجه جميله تترك على الرف دون أن يتناول المرضى منها شيئاً، وهنا يبرز هذا السؤال: هل الصالحون والمؤمنون وأصحاب القرآن صامتون في ذلك الزمان؟ كأن الإمام عليه السلام أجاب في

ص: ٤٣٣

١-١) «يؤوى»: من ماده «ايواء» بمعنى الملاذ والملجأ.

٢-٢) «زبر»: بالفتح الكتابه (وقد جاء بالمعنى المصدرى واسم المصدر).

العبارة الأخيره على هذا السؤال فقال: «وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا (١) بِالصَّالِحِينَ كُلِّ مَثَلِهِ، وَسَيَمُّوا صِدْقَهُمْ عَلَى اللَّهِ فَرِيَةً (٢)، وَجَعَلُوا فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ» .

فالعبارة إشاره إلى التاريخ الأسود لبنى أميه الذين مثلوا بالصالحين من العباد لما رأوهم يشكلون خطراً عليهم، حتى قيل بلغ تعداد من قتلهم معاويه ما يزيد على الأربعين ألف من المهاجرين والأنصار.

ولا نرى من حاجه لاستعراض تلك الفاجعه التي إرتكبها ولده يزيد بحق الحسين عليه السلام وأنصاره فى كربلاء، كما لا يمكن إحصاء من قتلهم عبدالملك بن مروان وعامله الحجاج من أهل العراق والحجاز (٣)، وهكذا أخدموا كل دعوه حق وقطعوا كل لسان صدق ومهدوا السبيل لإملاء أفكارهم ورغباتهم.

تأملان

١- أبشع عصور الإسلام

لا- شك إنَّ عصر حكومه بنى أميه من أبشع العصور التي شهدتها الأممه الإسلاميه، ويشترك حكام بنى أميه من معاويه حتى آخرهم الذى يعرف بمروان الحمار فى ثلاث خصال هى: الجلافة والقسوه المتناهيه وحبّ الحكومه والذوبان فيها مهما كان الثمن لبلوغها وحسن الثأر والانتقام، ومن هنا فقد ضحوا بكل معانى الحق والعدل والشرف والإنسانيه من أجل حكومتهم المقيته فارتكبوا من الظلم والجور ما لم يرد مثيله فى التاريخ، وقد أذاقوا دعاه الحق

ص: ٤٣٤

١- ١) «مثلوا»: من ماده «تمثيل» وأصلها «المثله» بمعنى التنكيل والتشنيع.

٢- ٢) «فريه»: من ماده «فري» على وزن فرد تعنى فى الأصل القطع، ولما كان قطع الشىء يؤدى إلى فساده غالباً، فهى تطلق على كل خلاف ومنه الكذب والتهمه.

٣- ٣) روى ذلك المرحوم العلامه الحلى فى كتاب «كشف الحق» عن كتاب «الهاويه» (شرح نهج البلاغه للعلامة الخوئى ٩/٧٠).

وصحابه رسول الله صلى الله عليه وآله الأُمَرَاء بين قتل وتشريد وقطع الرأس ونفى وصلب وحصار فى البيت من أجل تلك الحكومة، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام فى عباراته الأخيره من هذا القسم من الخطبه، إلّا أنّ أهم كهف كانت تلوذ به الأمة الإسلاميه والذى يشكل أكبر عقبه تعترض طريقهم إنّما هو القرآن، القرآن الذى أعلن الحرب ضد الظلمه، والظغاه وهدد دائماً عروش الغاشمين، وكان المعيار لتميز الحكومه الإسلاميه من الحكومات الغاصبه والظالمه والكافره، فما كان من أولئك الظغاه إلّا أن وظفوا أشباه العلماء ووعاظ السلاطين ويهدف إزاله تلك العقبه عن طريقهم بتفسير القرآن حسب أهوائهم، فى أنّ آياته تشهد بحقانيه أولئك الغرباء على القرآن والبعيدى عن الحق تبارك وتعالى، كما منعوا من يرون تلاوه القرآن حق تلاوته، وهكذا لم يبق من القرآن سوى اسمه ورسمه فحكم عليه بأن يصح كالسجين الذى أودع زنانه إنفراديه مخيفه ليبعد عن أفكار الناس، وهو الأمر الذى أشار إليه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه.

فقد جاء فى الخبر أنّ معاويه حين قدم المدينه مرّ بمجلس من كبار قريش، فلما رأوا قاموا له خوفاً سوى ابن عباس، فقال له مالك لا تقوم يابن عباس أهي صفين، فقد قتل عثمان مظلوماً (وهذا ما دفعنا للقتال).

فقال ابن عباس: فقد قتل عمر بن الخطاب مظلوماً (لماذا لم تقم لنصرته)، فقال معاويه: إنّ كافراً قتل عمر. قال ابن عباس: فمن هم قتله عثمان، قال معاويه: المسلمون. قال ابن عباس: فهذه عليك لا لك.

قال معاويه: لقد أمرنا بعدم ذكر فضائل على وأهل بيته فاحفظ لسانك. قال ابن عباس:، أتمنعنا من قراءه القرآن؟ قال: لا. قال ابن عباس: تمنعنا من تأويله؟ قال معاويه: بلى، لك القراءه دون التأويل، وإن كان ولا بدّ فلا تحدث بفضائل أهل البيت.

ثم أمر لابن عباس بمئه ألف درهم (ليمزج الترهيب والترغيب ليتمكن بكل الوسائل من إسكات ابن عباس) (1)، ومن أراد المزيد بشأن جنایات بنى أميه والتعرف عليهم بدقه على ضوء القرآن وأخبار العامه والأعمال التى قاموا بها من أجل مسخ المعارف الإسلاميه وتحريفها فليراجع المجلد الثالث من هذا الكتاب.

ص: ٤٣٥

ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبه بشأن العصر المظلم للحكومة الأمويه بأن لا يبقى من القرآن إلا اسمه لا يقتصر على ذلك الزمان، والمؤسف له أن ذلك الأمر قد تكرر في مختلف النقاط وإن لم يبلغ ما بلغه أبان الحكومة بنى أميه، وما زلنا نلمس نماذج ذلك حتى في عصرنا.

وقد وردت للإمام عليه السلام عبارته أشمل في قصار كلماته بهذا الخصوص إذ قال: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا إِسْمُهُ وَمِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا إِسْمُهُ وَمَسَاجِدُهُمْ يَوْمئِذٍ عَامِرَةٌ مِنَ الْبِنَاءِ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، شَيْكَا نَهَا وَعُمَارُهَا شِئْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ تَجْرُجُ الْفِتْنَةُ وَإِلَيْهِمْ تَأْوِي الْخَطِيئَةُ». (١)

ص: ٤٣٦

«وَإِنَّمَا هَلَكُوكَ مِنْ كَدِّ قَبْلِكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَعْتَبِ آخِرَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعِيدِرُهُ، وَتُزْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنَّقْمَةُ» .

الشرح والتفسير

أنذر الإمام عليه السلام الجميع في هذا المقطع من الخطبه ودعاهم لتأمل تاريخ الأمم السابقه ويفكروا في أسباب بؤسهم وشقائهم فيعتبروا بذلك حيث قال: «وَإِنَّمَا هَلَكُوكَ مِنْ كَدِّ قَبْلِكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ وَتَعْتَبِ آخِرَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ» ، المراد بالهلك في قوله إنما هلكك حسب ما ذهب إلى جمع من شرّاح نهج البلاغه الهلاك المعنوي يعنى الضلاله التي ينتج عنها العذاب الأخرى، ولكن لا يبعد أن تشمل الهلاك المعنوي والأخرى وكذلك المادى والدينى، أى أنّ طول الأمل ونشيان أجل الحياه والغرق في الشهوات، إنّما يفسد الآخره ويحط من قدر وعظمه الإنسان في الدنيا، وبالتالي تعرضهم لأنواع العذاب الدينى من قبيل طوفان قوم نوح وزلزله قوم لوط والصواعق السماويه التي أصابت الأقوام الأخرى.

نعم، فتغيب الآجال أحد آثار طول الأمل والذي يعد من أعدى أعداء سعادته الإنسان، لأنه يلقى بحجاب ضخّم على بصيره العقل ويجعل الهوى حاكماً عليه ويقذف بالإنسان في مستنقع الذنوب والمعاصى، وهذا ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين على عليه السلام: «وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْأَخْرَةَ» (١)، ويفهم من العبارة: «حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ» ، أنّ أولئك

ص: ٤٣٧

الأفراد يفيقون فى تلك اللحظه، أجل يفيقون، ولكن حيث لا- ينفعم ذلك، ولذلك قال الإمام عليه السلام: «الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ
الْمُعَذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ (١) وَالنَّقْمَةُ (٢)». .

نعم، فمصدر كل تلك الجنايات والمخالفات التى ورد الكلام عنها فى القسم السابق من الخطبه إنما يكمن فى حبّ الدنيا وطول
الأمل ونسيان الأجل، الأجل الذى لا رجعه فيه ولا يمكن تدارك ما فرط من الإنسان فيه.

ص: ٤٣٨

١- ١) «قارعه»: من ماده «قرع» على وزن فرع بمعنى ضرب شىء بآخر وتطلق القارعه على كل حادثه مهمه ومهلكه.
٢- ٢) «النقمه»: تعنى فى الأصل استقباح الشىء بحيث تحصل أحياناً باللسان وأخرى بصوره عقوبه علميه، ومن هنا غالباً ما
تستعمل هذه المفرده بمعنى العقوبه.

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَنْ اسْتَنْصَحَ اللَّهَ وَفَّقَ، وَمَنْ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلًا هُدِيَ (لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)؛ فَإِنَّ جَارَ اللَّهِ آمِنٌ، وَعِدْوُهُ خَائِفٌ؛ وَإِنَّهُ لَمَّا يَتَّبِعِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَهُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمْتَهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسِلَامَهُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ. فَلَمَّا تَنَفَّرُوا مِنَ الْحَقِّ نَفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْزَبِ، وَالْبَارِي مِنْ ذِي السَّقَمِ. وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسُّكُوا بِهِ، حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ. فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. هُمْ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصِدْقُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَيَاطِنِهِمْ؛ لِأَيِّخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ؛ فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ» .

الشرح والتفسير

تحدّث الإمام عليه السلام في هذا القسم السابق عن فنه ضاله ومستبده غيرت جميع الحقائق وإرتكبت أفضع الجرائم، ثم حل أجلها ولم تتب إلى ربّها فسارعت إلى عالم آخر ليصب عليها العذاب، فأبان الإمام عليه السلام في هذا المقطع سبيل النجاه حتى لا يبتلى الآخرون بذلك المصير الأسود فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ مَنْ اسْتَنْصَحَ اللَّهَ وَفَّقَ، وَمَنْ اتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلًا هُدِيَ (لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)» ، نعم، هذه هي الخطوه الأولى من أجل الإهتداء إلى الحق والصراط المستقيم ثم استدلل على ذلك بقوله: «فَإِنَّ جَارَ اللَّهِ آمِنٌ، وَعِدْوُهُ خَائِفٌ» .

وأضاف بعد ذلك بهدف استماع الناس للمواعظ الإلهية ويبعدوا عنهم الكبر والغرور ويسلموا لأوامر الله: «وَإِنَّهُ لَآيْتَبِغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللَّهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَهُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمْتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَيَلَامَهُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ»، في إشارته إلى أن أولئك الذين يعيشون الغرور والتكبر غافلون عن عظمة الله سبحانه، والذين يغترون بقدرتهم جاهلون بقدره الله تعالى، أما من عرف الله وقدرته فهو يدرك أنه لا شيء تجاهه، عليه فلا داعي لهذا الكبر والغرور الفارغ.

ثم قال على سبيل الاستنتاج: «فَلَا تَتَفَرُّوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الْأَجْرَبِ، وَالْبَارِي (١) مِنْ ذِي السَّقَمِ»، إشارته إلى أن سعادتكم وفلاحكم وسلامتكم في إتباع الحق، وأن النزوع نحو الباطل نوع من أنواع المرض والسقم، لكن من المؤسف هناك من يهرب من الحق وكأنه يفر من مرض معدى، أو حسب تعبير القرآن الكريم: «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَوَّتَّ مِنْ قَسْوَرَةٍ» (٢).

ثم عرض الإمام عليه السلام في الخطوه التاليه سبيلاً واضحاً بهدف هدايه مخاطبيه إلى الحق وإبعادهم عن الباطل فقال: «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَفَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ، حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ»، والواقع هذا هو أحد طرق معرفه الحق والباطل والذي ينطوي تحت القاعده المعروفه: «تَعْرِفُ الْأَشْيَاءَ بِأَصْدَادِهَا»، فالإنسان يجهل معنى العافيه ما لم يمرض ولا يدرك مفهوم الضياء ما لم يرى الظلمه، فقد اعتبر الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من الخطبه كما ورد في عبارته المذكوره - التعرف على تاركى الحق ومخالفه كطريق بلوغ الحق، فأشار إلى ثلاث طوائف: طائفه تركت الحق، وطائفه نقضت ميثاق القرآن، والطائفه الثالثه التى نبذته وراء ظهرها، والفارق بين هذه الطوائف الثلاث واضح، فالبعض يترك الحق دون أن يحضره والبعض الآخر يحقره علاوه على تركه، وأخيراً هناك من ينقض عهود الله وموآثيقه، والذي وردت الإشارة

ص: ٤٤٠

١- (١) «البارىء»: من ماده برء على وزن قفل لها معنيان: الأول: بمعنى الخالق والايجاد ومن هنا يقال لله البارىء، والآخر: بمعنى الابتعاد عن الشيء ولذلك تستخدم بمعنى العافيه والبعد عن المرض وهذا هو المعنى المراد بها فى عبارته الخطبه.

٢- (٢) سورة المدثر / ٥٠ - ٥١. [١]

إليه فى الآيه القرآنيه الشريفه: «أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ. . .» (١)، والآيه صادقته على الآخرين وإن كانت فى الظاهر فى بنى اسرائيل.

نعم، يمكن الظفر بسبيل الحق من خلال معرفه هؤلاء التاركين للحق والناقضين لمواثيق الله والمحقرين لكتاب الله، ومعرفه المبادئ التى تسود حياتهم.

ثم عرض الإمام عليه السلام طريقاً آخر فى آخر قسم من هذه الخطبه من زياده الاطمئنان بهدف الظفر بالحق وإدراك مفاهيم القرآن الكريم وهو التمسك بأهل البيت من عتره النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بفضلهم أحد الثقلين الذين خلفهما النبى فى الأمه، فقال عليه السلام: «فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ؛ لَا يُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ؛ فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ» .

فقد وصف الإمام عليه السلام أهل البيت عليهم السلام فى هذه العبارات القصيره والعميقه المعنى بأوصاف منها: «فَإِنَّهُمْ عَيْشُ الْعِلْمِ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ. . .» ، حيث عندهم علم الله تعالى وسنّه النبى صلى الله عليه وآله، فأينما يحلّون يكشفون الظلام بنورهم، وحكمهم (سواء كان الحكم بمعنى القضاء أو الحكم بمعنى كفه وصاياهم وبيانهم للحلول) ينطق عن علمهم، وصمتهم العميق المعنى يفيد منطقتهم ومقاصدهم (لأنّ السكوت أبلغ من الكلام فى أغلب الموارد) ، وظاهر على قدر من الرزانه والإخلاص والطهر بحيث يعكس طهاره ونقاء باطنهم، من خصائصهم الأخرى أن علمهم لا يختلف مع الدين قط ولا يختلفون فى تفسيرهم لحقائق الدين، ولا غرو فعلومهم تنبع من ذات المصدر، ومن هنا لديهم حقيقه الدين والقرآن وروحهما، فى حديث الثقلين: «. . . إِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا (العتره والقرآن) مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا فَلَنْ تَضِلُّوا. . .» .

ص: ٤٤١

كثيره هي طرق معرفة الحق والباطل والمهم أن يعزم الإنسان على معرفه الحق ويتجه قدماً بشجاعه - وإحدى هذه الطرق ما أشار إليه الإمام عليه السلام في هذه الخطبه والذي يتمثل بمطالعه الأضداد.

فإن رأى الإنسان المصير الأسود لجماعه تسبح في بحر من الأخطاء والزلات، أدرك ببساط أن الطريق الصحيح عكس ذلك، وإن أراد السير على الحق وجب عليه التخلي عن الاصول التي اعتمدها تلك الجماعه، فيتعلم الأدب من عديميه والعدل الظالمين والطهر من المدنيين.

لعل هناك من يتصور تضارب هذه العبارة مع ما ورد في عبارة أخرى للإمام عليه السلام قالها للبحارث الهمداني: «إِنَّ دِينَ اللَّهِ لَا يُعْرَفُ بِالرِّجَالِ بَلْ بِآيَةِ الْحَقِّ فَاعْرِفْ الْحَقَّ تَعْرِفْ أَهْلَهُ» (1)، لكن الطريقتان صحيحان، كل في محله، فان عرف الحق بوضوح في موضع كان لابد من معرفه شخصيه الأفراد على أساس معياره، فمن كان مع الحق فهو الحسن الصالح ومن كان ضده فهو السيئ الطالح، فهنا نعرف الاشخاص بمعيار الحق. وان كان الأفراد معروفين والحق خفى كان لابد من التعرف على الحق والباطل بواسطتهم، على سبيل المثال لو تنازع عمار بن ياسر مع أبي جهل، فاننا ندرك بسهولة أن عمّاراً على الحق وأبي جهل على الباطل، وقد يتعذر أحياناً معرفه الأشخاص ومعرفه الحق، فهنا ننظر إلى حاشيه وأصدقاء أولئك الأشخاص، فرضاً شككنا في شخص معاويه ورأينا بطانته وحاشيته جماعه من المنافقين وأصحاب الدنيا كعمرو بن العاص وممن طردهم رسول الله صلى الله عليه وآله ومن تبقى من أقطاب الجاهليه آنذاك يمكننا التعرف عليه.

وزيده الكلام هناك عدّه طرق لمعرفة الحق والباطل ولا بدّ من استفاده ما يناسب كل مورد من طريق.

ص: ٤٤٢

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

فِي ذِكْرِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ

نظره إلى الخطبه

تحدّث الإمام عليه السلام في المقطع الأول من هذه الخطبه عن طلحه والزبير واللذان قد إتحددا في الظاهر واتفقا على قتال على عليه السلام في الجمل، فقد كشف الإمام عليه السلام اللثام عن جانب من أسرارها فقا إنهما وإن اتحددا ظاهرياً، إلّا أنّ ذلك الاتحاد مرحلي ومؤقت، فان تسلّط أحدهما أسقط الآخر، وأشار عليه السلام في المقطع الثاني إلى فتنه البصره وأصحاب الجمل، وقد دعى الناس للعمل على إخماد نار هذه الفتنة، كما حذر في الختام من ضروره مراقبه التحركات المشبوهه لناقضى الموائيق (طلحه والزبير وأعاونهما).

ص: ٤٤٣

١ - ١) سند الخطبه: قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغه روى هذه الخطبه قبل السيد الرضى أبو مخنف في كتاب «الجمل»، كما رواها باختلاف «لابدّ من الالتفات إلى أنّ هذا الاختلاف ليس بقليل) المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله في كتاب «الإرشاد» (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٣٢)

«كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ، دُونَ صَاحِبِهِ، لَا يَمْتَنَانِ إِلَى اللَّهِ بِحَبْلِ، وَلَا يَمِيدَانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلٌ ضَبٌّ لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ! وَاللَّهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَرِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا. قَدْ قَامَتِ الْفِتْنَةُ الْبَاطِنِيَّةُ، فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ! فَقَدْ سِنَّتْ لَهُمُ الشَّنُّ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبْرُ. وَلِكُلِّ ضَلَّهِ عَلَيْهِ، وَلِكُلِّ نَاكَثٍ شُبْهَةٌ. وَاللَّهِ لَا أَكُونُ كَمَا سَمِعَ اللَّدْمُ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ وَيَحْضُرُ الْبَاكِيَ، ثُمَّ لَا يَعْتَبِرُ!» .

الشرح والتفسير

الإِتِّحَادُ الظَّاهِرِيُّ وَالْعِدَاءُ الْبَاطِنِيُّ

كشف الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبة النقاب عن حقيقته في عدم وجود دافع شرعي لطلحه والزبير - اللذان أثارا معركة الجمل - وليس لهما من هم سوى الدنيا والاستيلاء على الحكومة، ومن هنا فإنَّ تحقق لهما ما يريدان سعى كل منهما لإزالته الآخر لينفرد بالحكومة فقال: «كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ، دُونَ صَاحِبِهِ» .

ثم استدلل عليه السلام على ذلك بالقول: «لَمَّا يَمْتَنَانِ (١) إِلَى اللَّهِ بِحَبْلِ، وَلَا يَمِيدَانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ. كُفُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلٌ ضَبٌّ (٢) لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ!» ، والضَّبُّ هو الحيوان المعروف، وتعتقد العرب بأنه خال من العاطفه إلى جانب حماقته حتى أنه ليأكل فراخه ومن هنا ضرب به المثل في العقوق، وقد استشهد الإمام عليه السلام بذلك المثل في قوله: «حَامِلٌ ضَبٌّ لِصَاحِبِهِ» ، فهي عبارة غايه في الروعه لمدى العداوه والبغضاء التي يخفيها كل منهما لصاحبه.

ص: ٤٤٥

- ١- ١) «يمتان»: من ماده «مت» على وزن خط تعنى فى الأصل سحب الحب وحيث يسبب هذا العمل إقتراب الدلو فقد وردت هذه المفردة بمعنى الإقتراب والتقرب وهذا هو المعنى المراد بها فى الخطبه.
- ٢- ٢) «ضبٌّ»: لها عده معانٍ ومنها سحب الماء والحقد والحيوان المعروف.

ثم قال عليه السلام: «وَاللَّهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيُنْتَزِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا»، والطريف أن ما أورده الإمام عليه السلام في عبارته السابقة بشأن طلحه والزيبر يصدق على جميع الأفراد الذين يتحدون من أجل نيل السلطه دون أن يكون لهم أى دافع إلهي، فهم متحدون ومتفقون مادامهم لم ينتصروا، فبمجرد الانتصار يسعى كل واحد منهم للقضاء على الآخر والتفرد بالسلطه، وشواهد ذلك كثيره على مرّ العصور وفي كل زمان ومكان، والحال لو كانت الدوافع إلهيه لدام الإتحاد وربّما اقترح كل السلطه على غيره، وقد إنضحت حقيقه كلام الإمام عليه السلام بشأن طلحه والزيبر حتى قبل شروع معركة الجمل وتنازعهما على الزعامه، وهذا ما سنتناوله إن شاء الله في البحث القادم، ولما كانت هذه الخطبه قبل معركة الجمل فقد دعى الإمام الناس إلى الوقوف بوجه ناقضى العهد الذين حملوا رايات معركة الجمل فقال: «قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ، فَأَيُّنَ الْمُحْتَسِبِينَ (١)!» فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْحَبْرُ» .

والعباره الفئه الباغيه إشاره إلى كل جماعه تقوم بوجه الحق وحكومه العدل، كما يصدق هذا الكلام على أصحاب الجمل، وعلى أعوان معاويه أيضاً، لأنهم وقفوا جميعاً ضد الحق، ومن هنا جاء فى الحديث النبى الأكرم صلى الله عليه وآله لعَمَّارِ الَّذِي اسْتَشْهَدَ فِي صَفِينٍ وَقَتْلَهُ أَعْوَانَ مَعَاوِيَةَ: «يَا عَمَّارُ تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ» (٢).

والمفرده «المحتسبون» إشاره إلى الأفراد الذين يجاهدون حسبه لله ولا ينتظرون سوى ثوابه وأجره.

والعباره «فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ...» ، إشاره إلى أن سنن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قد عرضت السبل اللزومه للقيام ضد البغاه والعصاه.

العباره: «وَقُدِّمَ لَهُمُ الْحَبْرُ» ، إشاره إلى حديث النبى الأكرم صلى الله عليه وآله لصحبه: «تُقَاتِلُونَ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِيَةَ طِينَ وَالْمَارِقِينَ» (٣)، بناءً على هذا وبالنظر إلى اتضاح الضلال بالنسبه لتلك

ص: ٤٤٦

١-١) «المحتسب»: من ماده «حسبه» بمعنى الإتيان بالعمل حسبه لله وإرادته الثواب منه سبحانه، ووردت مفرده المحتسب بمعنى الأمور الذى يكلف من الحكومه للإشراف على إجراء أحكام الدين ولعل ذلك لأنه يقوم بالعمل لله، أو أن هدفه حساب عمل الناس.

٢-٢) وردت هذه الروايه فى أغلب مصادر العامه ومنها مسند أحمد بن حنبل وصحيح مسلم وطبقات ابن سعد [١] ومصادر أخرى (انظر إحقاق الحق ٨/٤٢٢). [٢]

٣-٣) تاريخ بغداد ١٣/١٨٧ طبع دار الفكر.

الفئة واتضح سنن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله تجاه مثل هؤلاء الأفراد والنبوءه السريعه التي طرحها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فلم يبق هنالك من مجال للإيهام ولا بد لكل مؤمن مخلص أن يقف في وجه الباطل.

ثم قال الإمام عليه السلام: «وَلِكُلِّ ضَلَّهِ عَلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ»، قطعاً لم يرد الإمام عليه السلام بها الكلام توجيه الأعمال القبيحه والطائشه لطلحه والزبير، بل يريد الإشاره إلى هذه الحقيقه إلى أن الضلال ليس عبثياً، وعاده ما تكون علته اختياريه، فالعله الأصلية لأغلب الضلال تتمثل في هوى النفس وحب الدنيا والجاه والاستبداد والكبر والغرور والحسد، وهذا المعنى واضح تماماً بالنسبه لطلحه والزبير.

والعباره: «وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ»، إشاره إلى أن كل ناكث لعهد عاده ما يخلق لنفسه ذريعه ليخدع العوام ويجرهم إليه، كما تذرعه طلحه والزبير بدم عثمان على أنه الخليقه الذي قتل مظلوماً، فيثيروا طائفه من العوام ضد على عليه السلام فيتمكنا من تحقيق أهدافهما المغرضه، بينما كانا من العناصر التي قتلت عثمان، كما مرّ معنا في الخطبه ١٣٧ حيث قال الإمام بشأن طلحه والزبير ومعاويه: «وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكَوهُ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ».

والعباره «ناكث» إشاره إلى طلحه والزبير حيث بايعا علياً عليه السلام في البدايه ثم نقضوا البيعه.

ثم إختتم الإمام الخطبه بالإشاره إلى نقطه مهمه وهى المراقبه وعدم الغفله عن العدو فقال: «وَاللَّهِ لَأَكُونُ كَمُشْرِ تَمِيعِ اللَّدْمِ (١)، يَسِيْمُ مَعَ النَّاعِي وَيَخْضُرُ الْبَاكِي، ثُمَّ لَا يَعْتَبِرُ!»، إشاره إلى أن الزعيم اليقظ لا يسمع أنين المظلومين وتعبئه قوى الشياطين، وقد مضى شبيهه هذا المعنى فى الخطبه السادسة: «وَاللَّهِ لَا أَكُونُ كَالضَّبِّعِ: تَنَامُ عَلَى طُولِ اللَّدْمِ، حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَيَخْتَلِهَا رَاصِدُهَا، وَلَكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرِ عَنْهُ».

ص: ٤٤٧

(١-١) «اللدّم»: تعنى فى الأصل ضرب الشىء بأخر دون شدّه الصوت.

العبارة أعلاه تبين حقيقته وهي أنّ أصحاب الباطل وإن إتحدوا في بادية الأمر من أجل تحقيق أهدافهم، إلّا أنّهم ما إن ينتصروا ويتمكنوا حتى يسعى كل منهم لإزاله الآخر والتفرد بتناول ثمره شجره النجاح والنموذج البارز لذلك الإتحاد طلحه والزبير في معركة الجمل والذي يشكل الموضوع الرئيسي لهذه الخطبه، والطريف في الأمر أنّ بوادر هذه المنافسه الهدامه قد لاحت حتى قبل شروع المعركه.

فقد نقل ابن أبي الحديد عن المؤرخين أنّ خلافاً وقع بينهما قبل الجمل بشأن إمامه العسكر، ولما اشتد النزاع بينهما تدخلت عائشه فأمرت أن تصلى يوماً محمد بن طلحه وآخر عبدالله بن الزبير حتى تنتهي المعركه (١).

من جانب آخر سأل طلحه عائشه أن يسلم عليه الناس بصفته أمير المؤمنين، كما سألها الزبير ذلك، فسلمت عائشه عليهما بأمر المؤمنين، كما اختلفا في إمره الجيش فقد أراد طلحه الإمره، بينما رأى الزبير نفسه الأجدر بها (٢)، وكل هذه الأمور شواهد حيّه على ما أخبر به الإمام عليه السلام في هذه الخطبه حين قال كل واحد منها يرجو الأمر له ويفكر في القضاء على صاحبه، فليس هناك من دافع إلهي، ولا تؤدّي الدوافع النفسانيه سوى إلى الاحتكار دائماً.

ص: ٤٤٨

١ - ١) ورد هذا المعنى في مروج الذهب في شرح معركة الجمل وأضاف المسعودي ولم يتم تقسيم صلاه الجماعه بهذه البساطه، بل حدث ذلك بعد حوار طويل ونزاع طلحه والزبير (مروج الذهب ٢/٣٦٧ طبعه دار المعرفه بيروت).

٢ - ٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٩/١١٠ [١]

وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

قبل شهادته عليه السلام

نظره إلى الخطبه

كما ورد في أسناد الخطبه فإن الإمام عليه السلام خطبها حين كان على أعتاب الشهاده، فقد أوردها على سبيل الوصيه إلى جانب النصيح والمواعظ، والواقع أن الخطبه تتألف من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: بشأن الموت الذي لا يستطيع أحد الفرار منه ولا يعلم أين ومتى يدركه.

القسم الثاني: وصيّه قصيره وبلغه عظيمه المضمون تجذب القلوب وتوضح معالم الطريق في المستقبل.

القسم الثالث: الدروس التي ينبغي للناس تعلمها من شهاده الإمام عليه السلام كما يشير عليه السلام إلى هذه الحقيقه وهي إنني إن رحلت عنكم وخلفني غيري آنذاك ستعرفون، من كنت؟ وماذا أردت؟ وما كانت سرائري؟

ص: ٤٤٩

١-١) سند الخطبه: رواها المرحوم الكليني في الكافي ١/٢٩٩؛ والمسعودي في مروج الذهب بصوره مختصره، وابن عساكر في كتاب مقتل أمير المؤمنين، ويتفق الجميع على أن الخطبه بعد ضربه ابن ملجم وقبل شهاده الإمام عليه السلام، وقد ذكر صاحب مصادر نهج البلاغه أسناد الخطبه في قسم الرسائل حيث جاء جانب مهم من هذه الخطبه في رساله رقم ٣٣ (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٤٧).

القسم الأول: إستحاله الهروب من الموت

«أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ أَمْرٍ لَاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. وَ الْأَجْلُ مَسَاقُ النَّفْسِ؛ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ. كَمْ أَطْرَدْتُ الْأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هَذَا الْأَمْرِ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا إِخْفَاءَهُ. هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ!». .

الشرح والتفسير

أكد الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه أن الفرار من الموت مستحيل، وأبعد من ذلك فإنّ الإنسان يستقبل الموت حين فراره، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ أَمْرٍ لَاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. وَ الْأَجْلُ مَسَاقُ النَّفْسِ؛ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ». .

هناك عدّه تفاسير لشراح نهج البلاغه للعباره الهرب من الموت موافاته، فقد قال البعض: المراد من هذه العبارة أنّ الأجل إذا حلّ وجاء أمر الله سبحانه برحيل من الدنيا فحتى الدواء يعطى نتيجة معكوسه، فما كان مشفياً في الأحوال العاديه يصبح سبباً للموت، وقيل في تفسير العبارة أنّ الزمان الذي يصرفه الإنسان من أجل العلاج في مثل هذه الحالات إنّما يقربه من آجله (٢).

وبعبارة أخرى، فقد شوهد كثيراً وقوع الإنسان في ما يخافه ويحذره، ويدركه ما هرب منه، وعلى ضوء هذا التفسير فإنّ الحكم المذكور حكم غالبى وليس كلى.

ص: ٤٥١

١-١) «مساق»: مصدر ميمي أو اسم مكان من ماده «سوق» بمعنى الغايه التى يصلها الإنسان، أو بعبارة أخرى آخر الطريق.

٢-٢) شرح نهج البلاغه لابن ميثم البحرانى، ومنهاج البراعه للخوئى.

ثم قال عليه السلام: «كَمْ أُطْرِدْتُ (١) الْأَيَّامَ أُبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هَذَا الْأَمْرِ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا إِخْفَاءَهُ. هَيْهَاتَ! عَلِمَ مَخْزُونٌ!». .

سؤال

هنا يبرز هذا السؤال وهو: كيف قال الإمام بأنَّ الله وحده العالم بالآجل ولا يعلمه أحد (٢)، بينما تظافرت الأخبار التي وردت عن أميرالمؤمنين على عليه السلام أنه كان يعلم بزمان وفاته، وكان يعرف قاتله، كما يخبر ولده على الدوام في ليله شهادته، بل أشار بعبارات مختلفة إلى زمان شهادته حتى خلال شهر رمضان الذي استشهد فيه، وقد ورد في الكافي أنَّ الطيور في بيت الإمام عليه السلام كانت على علم بشهادته؟

جواب

يعتقد البعض بالاستناد إلى بعض الروايات (٣)، أنَّ حالات المعصومين عليهم السلام وأولياء الله تعالى مختلفة، فأحياناً يعلمون كل شيء بإرادة الله تعالى، وأحياناً أخرى تخفى عليهم بعض المسائل بإرادة الله تعالى حتى اللحظات يمكن أن تكون متفاوتة، فقد شم نبي الله يعقوب رائحة قميص يوسف من مساحه بعيده (مصر) بينما لم يراه في بئر كنعان، وهناك احتمال آخر ما ذكره الإمام عليه السلام قانوناً كلياً حول الأجل وخاتمه حياه جميع الأفراد، إلّا أنَّ هذا القانون الكلي كسائر القوانين الكليه له استثناءات، فما المانع أن يعلم أولياء الله وبإذن الله وتعليمه بلحظه موتهم.

وهناك نقطة أخرى هي: إنَّ علوم المعصومين عليهم السلام بالنسبه لمسائل المستقبل على أساس لوح المحو والإثبات وهو قابل للتغيير، أو ما يصلح عليه بالعلم بالمقتضيات، لا العلم بالعله التامه التي تأبى التغيير، لأنَّ ذلك القسم الذي يسمى باللوح المحفوظ مختص بالله تبارك وتعالى، مثلاً جاء في قصه السيد المسيح عليه السلام أنه أخبر عن موت عروس في ليله زفافها، بينما لم يقع ذلك، وذلك لأنَّها تصدقت وحالت الصدقه دون وقوع تلك المصيبه.

وستناول شرح هذا الموضوع في محله إن شاء الله.

ص: ٤٥٢

١- ١) «اطردت»: من ماده «طرد» بمعنى الاخراج، واطردت الأيام طويتها واحداً بعد الآخر.

٢- ٢) اصول الكافي، ج ١ باب «أنَّ الأئمه يعلمون متى يموتون» الحديث ٤.

٣- ٣) المصدر السابق.

«أَمَّا وَصِيَّتِي: فَاللَّهُ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَمُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَمَّا تَضَيَّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هَدْيِي الْعُمُودِينَ، وَأَوْقِدُوا هَدْيِي الْمِصْبَاحِينَ، وَخَلَاكُمْ ذَمًّا مَا لَمْ تَشْرُدُوا. حُمِّلْ كُلُّ امْرِيٍّ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفْ عَنِ الْجَهْلِهِ. رَبُّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ. أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا الْيَوْمَ عَيْبَرَةٌ لَكُمْ، وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ!» .

الشرح والتفسير

يُتَبَيَّنُ الإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْقِسْمِ مِنَ الْخُطْبَةِ وَصِيَّتَهُ وَقَدْ صَبَّ الإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا عَصَارَةَ رُوحِهِ وَفِكْرَهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ الْحَسَّاسَةِ وَالصَّعْبَةِ الَّتِي يُوْشِكُ فِيهَا عَلَى الرَّحِيلِ فَقَالَ: «أَمَّا وَصِيَّتِي: فَاللَّهُ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَمُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هَدْيِي الْعُمُودِينَ، وَأَوْقِدُوا هَدْيِي الْمِصْبَاحِينَ، وَخَلَاكُمْ ذَمًّا (١) مَا لَمْ تَشْرُدُوا» .

والمراد بالشرك هنا المعنى الواسع للكلمة والذي يشمل الشرك في الذات والصفات وكذلك الشرك في الأفعال، وبعبارة أخرى، كل ميل لما سوى الله سبحانه سواء في العقيدة أو العمل، وكذلك أريد بالسنة معناها الواسع الذي يشمل جميع البرامج العبادية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية، والواقع هو أنّ العبارتين قد تضمنتا جميع أسباب سعادة الإنسان،

ص: ٤٥٣

١ - ١) «خلاكم الذم»: مثل بين العرب مفهومه ليس هناك من ذم لكم لأنكم تقومون بوظيفتكم، وقيل أنّ أول من قال هذه العبارة (قصير بن سعد) غلام (خزيمه) (أحد ملوك العرب) والذي قتل على يد الزباء، فقال قصير لابن شقشقه الملك خذ بثأر خزيمه، فقال: أتى لى به وإنه لأسرع من العقاب، فقال له قصير: (اطلب وخلصك ذم)، (شرح نهج البلاغه للبيهقي من علماء القرن السادس، ص ٢٣٩ ذيل الخطبة التي نبحتها) .

فالإنسان لم يتعلق بما سوى الله ولا يطلب غير رضاه ولم يحكم هو نفسه وطبق كافة تعاليم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على كافة الأصعدة والمجالات فهو الإنسان سعيد وموفق، ومن هنا شبه الإمام هذين الاثنين بعمودي الخيمة إن أقيما فإن الخيمة ملاذ آمن من الحرارة والبرودة وواقية من أغلب المخاطر، كما شبهها بمصباحين على جانبي الإنسان وهما يضيئان الفضاء والطريق، ومن البديهي ألا يبقى مجالاً للظلاله مع وجود هذين المصباحين المضيئين.

ولذلك قال الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه، إعملوا بهذه الوصايا وخلاكم ذم، وسوف لن يكون هناك من خلل ونقص في دينكم وإيمانكم وحياتكم، ولكنه يشترط ذلك بمواصله الطريق دون الانحراف، والالتزام بمسار التوحيد والعمل بالسنة، والواقع هو أن جميع أصول الإسلام وفروعه قد جمعت في هذه العبارة: فالتوحيد يشمل كافة الأصول العقائديه وحفظ سنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يشمل جميع التعاليم العلميه والأخلاقية، وإن قال عليه السلام أقيموا هذين العمودين وخلاكم ذم، للدليل السابق، ولما كان إقامه التوحيد وسنة النبي صلى الله عليه وآله في جميع الأبعاد ليس ميسراً للجميع وذلك لعدم تساوى القدرات الفكرية والجسميه، فقد قال عليه السلام: «حُمِّلَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهْلَةِ»، وهو ذات الأمر الذي أُشير إليه كراراً في الآيات الروايات.

فقد قال القرآن الكريم: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا. . .» (١)، وقال في موضع آخر: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا. . .» (٢).

وجاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعُونَ ذَنْبًا قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لِلْعَالِمِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ» (٣). كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّمَا يُدَاقُ الْعِبَادُ فِي الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدَرِ مَا آتَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ فِي الدُّنْيَا» (٤)، والواقع أن هذا هو مقتضى العدالة في أن تؤخذ القدرات الفكرية والجسميه للأفراد بنظر الاعتبار في تفويض المسؤوليات والحساب على المخالفات، ومن هنا قال الإمام عليه السلام: «رَبُّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ» .

ص: ٤٥٤

١-١) سورة البقره / ٢٨٦. [١]

٢-٢) سورة الطلاق / ٧. [٢]

٣-٣) اصول الكافي ١/٤٧، ح ١. [٣]

٤-٤) المصدر السابق / ١١. [٤]

والواقع هو أنّ كفاه أسباب السعادة في ظل هذه الثلاث، فالله سبحانه رحيم قد فتح كفاه أبواب السعادة بوجه الإنسان والدين الذى أتى به نبي الإسلام صلى الله عليه وآله يتمتع برسوخ لا- مثيل له، والإمام عليه السلام الذى نصب لإجراء أحكام الدين عادل من جميع الجوانب يمكن أن تكون كلمه الإمام هنا إلى شخص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو على عليه السلام أو جميع أئمه الإسلام من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى آخر الأئمة الإمام المهدي (سلام الله عليهم أجمعين) ، ومن الطبيعي أنّ مثل هذا الرب والدين والإمام لا يكلف الإنسان سوى على قدر وسعه.

ثم أشار الإمام عليه السلام فى الختام إلى نقطه مهمه ليكمل بها القسم الأول والثانى فقال: «أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ!» ، إشاره إلى أنّكم إن جعلتم هذه الأيام الثلاث مع بعضها لعلمتكم مطالب كثيره، فبالأمس كنت مثلكم، بل زعيمكم وقائدكم حيث صرعت الكثير من على شاكلة عمرو بن عبد ود، لقد فتحت خبير وقلعت بابها، ودافعت عن رسول لله صلى الله عليه وآله فى ميادين القتال حين تضافرت علينا الأعداء، وكنت أجنّدل الأبطال فى الجمل وصفين والنهروان، لكننى اليوم لكم عبره بعد أن رقدت على فراش الموت، وغداً أنا مفارقكم، سوف ترون مكانى خالياً، أو ليست هذه الأيام الثلاث تكفيكم عبره لتكشف عن وضع الدنيا وتفاهتها؟ حقاً لم يسمع كلام أبلغ من هذا الكلام وبهذا الاختصار والعمق فى المعنى.

أمّا بشأن المراد من العبارة «وَعَدًا مُفَارِقُكُمْ. . .» ، هل هو الإخبار عن شهادته فى ذلك الوقت أم الإخبار عن مستقبل بعيد والذى ورد التعبير عنه فى العبارات المتداوله بقولهم غداً؟ يبدو هنالك خلافاً بين شراح نهج البلاغه، ولكن ما يفهم من القرآن المختلفه وسائر كلمات الإمام عليه السلام فى تلك الحادته الأليمه وقبلها أنّ المراد الخبرالقطعى عن المستقبل القريب، ولا يتنافى ذلك مع العبارة: «إِن تَبَيَّتِ الْوَطْأَةُ. . .» ، لأنّ مثل هذه التعبيرات تهدف إلى بيان مقاصد خاصه واعتياديه، كما ورد فى القرآن الكريم: «أَفَمَإِذَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ. . . (١)». والحال يعلم الله سبحانه أنّ نبيّه صلى الله عليه وآله لا يقتل، فهدف الإمام عليه السلام هنا بيان هذا المطلوب، أنّى لو بقيت لعفوت عن ضاربي.

ص: ٤٥٥

«إِنْ تَثَبَّتِ الْوُطَاهُ فِي هَذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَاكَ. وَإِنْ تَدَحَّضَ الْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَعْصَانٍ، وَمَهَابِّ رِيَّاحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفِّقُهَا، وَعَفَا فِي الْأَرْضِ مَخْطُهَا. وَإِنَّمَا كُنْتُ جَارًا جَاوَرَكُمْ بِيَدِنِي أَيَّامًا، وَسَيَتُعَقَّبُونَ مِنِّي جُنَّتَهُ خَلَاءً. سَاكِنَهُ بَعِيدَ حَرَائِكِ، وَصِيَامَتَهُ بَعِيدَ نَطْقٍ لِيُعِظْكُمْ هَيْدُؤِي، وَخُفُوتِ إِطْرَاقِي، وَسَيَكُونُ أَطْرَاقِي، فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ. وَدَاعَى لَكُمْ وَدَاعَى أَمْرِي مُرَصَّدٌ لِلتَّلَاقِي! عَمْدًا تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعِيدَ خُلُوقِي مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي» .

الشرح والتفسير

شرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه مصيره على فراش الشهاده كما بين وضع المسلمين بعده فقال: «إِنْ تَثَبَّتِ الْوُطَاهُ (١) فِي هَذِهِ الْمَزَلَّةِ (٢) فَذَاكَ. (٣) وَإِنْ تَدَحَّضَ الْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ (٤) أَعْصَانٍ، وَمَهَابِّ (٥) رِيَّاحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفِّقُهَا (٦)، وَعَفَا (٧) فِي

ص: ٤٥٧

١-١) «وطأه»: بمعنى محل القدم وتأتي بصيغه كناية بمعنى الضغط الشديد.

٢-٢) «مزله»: من ماده «زلل» على وزن ضرر بمعنى محل الزلل.

٣-٣) «تدحض»: من ماده «دحض» على وزن محض بمعنى الزلل أيضاً.

٤-٤) «أفياء»: جمع «فيء» على وزن شيء بمعنى الظل.

٥-٥) «مهاب»: من ماده هبوب بمعنى حركة الرياح ومهب جمع مهب محل هبوب الرياح.

٦-٦) «متلفق»: بمعنى القطع المتصله من ماده لفق على وزن لفظ الجمع.

٧-٧) «عفا»: من ماده «عفو» بمعنى ترك، ولكن ما كان ترك الشيء يؤدي إلى ذهابه وإندراسه، فقد وردت في هذه العبارة

وأمثالها بمعنى الإندراس.

الأَرْضِ مَخْطَهَا (١)». فتاريخ البشر وتجاربنا اليومية تكشف هذه الحقيقة في أن الحياة كظلال الأشجار والقدرات كظلال الغيوم تمرّ بشرعه وتزول آثارها إلى الأبد، لكن العجيب عدم التفات الإنسان رغم رؤيته لكل هذه الأمور وكأنه غير مشمول بهذا القانون.

ثم بين هذا المعلم الرباني أثر ذلك وبالنظر إلى علمه بمفارقة الدنيا عاجلاً بعض الدروس والعبر التي يمكن للآخرين الاستفادة منها والتي من شأنها إيقاظهم من غفلتهم فقال: «وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُم يَدْنِي أَيَّاماً، وَسَيَتَعَقَّبُونَ مِنِّي جُثَّةَ خَلَاءٍ (٢) سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَكَ (٣)، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ».

ثم استنتج مباشرة: «لِيَعِظْكُمْ هُدُوءِي (٤)، وَخُفُوتِي (٥) إِطْرَاقِي (٦)، وَسُكُونُ أَطْرَافِي، فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمُنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمَشْمُوعِ».

حقاً أن الأمر كذلك فالمتحكمون مهما كانوا فصحاء وبلغاء، والسامعون مهما كانوا صاغين ولكن هناك فارق كبير بين النظر والسماع، فإياها من عبره أن ترى ذلك الرجل الشجاع الذي ذاع صيته في الأرجاء وهو الآن طريح الفراش جثته هامده لا يقوى حتى على تحريك جفن عينيه، كما لا تقوى شفتاه على الحركة وهذا ما ينطوي على أعظم درس وعبره حيث يشاهد الإنسان بعينه أقول القوه والقدرة فيغرق في هاله من التفكير، وهل لواعظ القدرة على إبراز هذا التأثير؟

وأخيراً إختتم الوصية بتوديع الناس، ذلك الوداع الأليم فقال: «وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعِ امْرِي مُرْصِدٍ (٧) لِلتَّلَاقِي! غَدَاً تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوقِ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي».

نعم، فحين رجل مظهر العدل ذلك الزعيم الشفيق والرؤوف، وحين غادر الناس تلك

ص: ٤٥٨

١-١) «مخط»: من ماده «خط» بمعنى محل الخطوط.

٢-٢) «خلاء»: بمعنى خاليه.

٣-٣) «حراك»: وحركه لها معنى واحد.

٤-٤) «هدو»: على وزن غلو بمعنى السكون وعدم القدرة على الحركة.

٥-٥) «خفوت»: بمعنى السكون والتوقف عن الحركة.

٦-٦) «اطراق»: خفض العين لضعف الأجفان.

٧-٧) «مرصد»: من ماده «ارصاد» بمعنى الاستعداد والانتظار.

الكنوز العلميه التي كانت تجرى على لسان الإمام عليه السلام وحل محلّه جباره بنى أميه الذى لا- يجيدون سوى لغه الظلم والجور ولا- يفكرون سوى بأهوائهم وغرائزهم الحيوانيه وأراقوا دماء الأبرياء، آنذاك فهم المسلمون من فقدوا، وأيه خساره تكبدوا.

وبناءً على تقدم فالتعبير بغد لا- يثير حسب ظاهر العبارة إلى لعالم البرزخ ولا القيامة (كما ذهب إلى ذلك بعض شرّاح نهج البلاغه)، بل إشاره إلى الأيام السوداء والمريره التي مرّت على المسلمين بعد شهاده أمير المؤمنين على عليه السلام.

والعبارة «مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِي» ، سواء كانت بمعنى لقاء ملائكه الموت أو الله سبحانه فهي تفيد عدم تعلق روحه المقدسه سلام الله عليه بهذا العالم المادى الزائل، بل كان متعلقاً بالعالم العلوى والملائكه والذات الإلهيه المقدسه، وضربه ابن ملجم كانت المقدمه لذلك الفوز العظيم ولقاء ربّ الكعبه، والشاهد الناصع على ذلك قوله عليه السلام حين ضرب: «فُزْتُ وَرَبُّ الكَعْبَةِ» .

وَمِنْ خُطْبِهِ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام

يومى فيها إلى الملاحم ويصف فئه من أهل الضلال

نظره إلى الخطبه

تألف الخطبه فى الواقع من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن فئه ظلت الطريق القويم وإتجهت نحو الانحراف، ثم تحدث عن إمامه أهل البيت عليهم السلام الذين يرون الفتن بمصاييح الهدايه وينهضون بهدايه الأمه، الإمامه والزعامه التى تذلل الصعاب وتحرر الأمم.

القسم الثانى: تحدث عن ضعاف الإيمان الذين يسبحون فى الفتن والظلال إثر إتباع أهواء النفس، فئه أخرى راسخه الإيمان وهى تجابه الكفر والشرك وقد نالت القرب الإلهى.

القسم الثالث: الذى أشار إلى الأفراد الذين تراجعوا القهقرى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وقطعوا أوامر الإيمان وجانبوا أولياء الله سبحانه والتحقوا بأعدائه وقد اقتلعوا أسس الولاية وحولوها إلى غير موضعها.

ص: ٤٤١

١- ١) سند الخطبه: السند الوحيد الذى ورد فى كتاب مصادر نهج البلاغه هو كتاب المسترشد للطبرى الذى نقل أقساماً من آخر هذه الخطبه باختلاف، ويفهم من روايه الطبرى أنّ هذه الخطبه أطول مما نقل المرحوم السيد الرضى وقد إكتفى السيد الرضى رحمه الله حسب طريقته ببعض مقاطعها (مصادر نهج البلاغه ٢/٣٣٧).

«وَأَخَذُوا يَمِينًا وَشِمَالًا ظَغْنًا فِي مَسَالِكِ الْغَيِّْ، وَتَزَكَّا لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ. فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ. فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنْهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ! يَا قَوْمَ، هَذَا إِبَانٌ وَرُودٌ كُلُّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٌّ مِنْ طَلْعِهِ مَا لَا تَعْرِفُونَ. أَلَا وَإِنْ مَنْ أَدْرَكَهَا مَنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسَرَّاجٍ مُنِيرٍ، وَيَخْذُو فِيهَا عَلَى مَنَالِ الصَّالِحِينَ، لِيُحِلَّ فِيهَا رِبْقًا، وَيُعْتِقَ فِيهَا رِقًا، وَيَصْدَعَ شَعْبًا، وَيَشْعَبَ صَدْعًا، فِي سِتْرِهِ عَنِ النَّاسِ لَا يُبْصِرُ الْقَائِفُ أَثْرَهُ وَلَوْ تَابَعَ نَظْرَهُ. ثُمَّ لَيْسَحَدَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحَدَ الْقَيْنِ النَّصْلَ تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ، وَيُغْبَقُونَ كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصُّبُوحِ!» .

الشرح والتفسير

كما ورد سابقاً فإن هذه الخطبه بالمجموع تتكهن بحوادث المستقبل وتفيد القرائن والعبارات الواردة فيها، أن الإمام عليه السلام قد أشار إلى الحوادث ما قبل ظهور الإمام المهدي عليه السلام ومن ثم قيامه المبارك.

فقد قال الإمام عليه السلام: «وَأَخَذُوا يَمِينًا وَشِمَالًا ظَغْنًا فِي مَسَالِكِ الْغَيِّْ، وَتَزَكَّا لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ. فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ (١)، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ» .

ص: ٤٦٣

١- (١) «مرصد»: من ماده رصد على وزن «صمد» تعنى فى الأصل مراقبه الشيء، ويطلق المرصد على الشيء الذى يراقب وينتظر.

ثم خاض الإمام عليه السلام في ذكر الدليل لترك الاستعجال فقال: «فَكَمْ مِنْ مُسَيِّعٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنْهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرٍ (١) غَدًا»، إشاره إلى الانتصارات الموعوده بعد الفتن (لاسيما ظهور المهدي عليه السلام الذي وردت الوعود الصريحه في عصر النبي بشأن بسط العدل والقسط في كافه أنحاء العالم)، وفي عدم استعجالها وذلك لأن لكل شيء زمان وشرايط، وما لم تحصل الشرايط فهي كالثمار الخام وتقطف من الشجره فلا يؤدي ذلك سوى إلى الندم.

ثم خاطب الناس قائلاً بأنّ الآن أوان تحقق ما وعدتم به (من ظهور الفتن والبلابل وسلطه الظلمه وزيادة الضغط على المظلومين): «يَا قَوْمَ، هَذَا إِبَانٌ (٢) وُورُودٍ كُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٌّ مِنْ طَلَعِهِ مَا لَا تَعْرِفُونَ».

ثم تحدّث بصوره أوضح عن هذا الظهور العظيم فقال: «أَلَا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَيَحْذُو (٣) فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ»، ثم تطرق في مواصلته لحديثه إلى برامج ذلك المصلح الكبير بعبارات قصيره عميقه المعنى، فقال: «لِيُحَلَّ فِيهَا رِبْقًا (٤)، وَيُعْتَقَ فِيهَا رِقًا، وَيَصْدَعُ (٥) شَعْبًا (٦)، وَيَشْعَبُ صَدْعًا، فِي سُتْرِهِ عَنِ النَّاسِ لِأَيْبَصِرُ الْقَائِفُ (٧) أَثْرَهُ وَلَوْ تَابَعَ نَظْرَهُ».

فهذه العبارات تنطبق تماماً على قضيه ظهور المهدي عليه السلام، لأنّه يقطع أغلال الأسر ويطلق المظلومين ويكسر شوكة الظالمين ويفرق جمعهم، فهو يعيش لسنوات في الخفاء بحيث يعجز أعظم الباحثين عن العثور عليه، وقد أورد البعض من شراح نهج البلاغه عدّه تفاسير

ص: ٤٦٤

١-١) «تباشير»: بمعنى البشاره وأوائل كل شيء (والذي يشير في الواقع بوروده) وتباشير الصبح بمعنى أوائله، وذهب البعض إلى أنّ تباشير جمع تبشير، ولكن يستفاد من تعبيرات البعض أنّها مفرد أو جمع لا مفرد له.

٢-٢) «أبان»: بمعنى بدايه ووقت كل شيء.

٣-٣) «يحذو»: من ماده حذو على وزن حذف بمعنى الاتباع.

٤-٤) «ربق»: بكسر فسكون جبل فيه عدّه هرا، كل عروه ربقه تشدّ فيه البهم.

٥-٥) «يصدع»: من ماده «صدع» تعنى فى اللغه مطلق الشق، أو شق الأجسام المحكمه، كما وردت بمعنى الاظهار حيث يظهر باطن الشيء بالشق.

٦-٦) «شعب»: بمعنى جماعه عظيمه من الناس وتستعمل اليوم بمعنى الأمه.

٧-٧) «قائف»: من ماده «قوف» على وزن خوف بمعنى البحث عن آثار الشيء، ويقال القائف لمن يتتبع آثار الأشياء أو الأفراد، وهذا هو معنى معرفه القيافه.

للعبار، وحيث لا يجدر الالتفات إليها فاننا نعزف عن ذكرها.

والجدير بالذكر أن شارح نهج البلاغه ابن أبي الحديد المعروف بتعصبه بالنسبه لأغلب المسائل المرتبطه بالإمامه، صرح فى شرحه للعبار المذكوره: «وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مَنَّا يَشِيرُ فِيهَا بِسَرَاجٍ مُنِيرٍ»، إلى أن المراد بها مهدي آل محمد صلى الله عليه وآله، كما ترى إنطباق سائر الصفات المذكوره عليه، وإن كان اعتقاد العامه بالنسبه للإمام المهدي عليه السلام أنه يولد فى آخر الزمان (١).

ثم أشار فى ختام هذا المقطع من الخطبه إلى أصحاب الإمام المهدي عليه السلام وأوصافهم: «ثُمَّ لِيُشْحَذَنَّ (٢) فِيهَا قَوْمٌ شَحَذَ الْقَيْنِ (٣) النَّضْلَ تُجَلَى بِالنَّزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُزْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ، وَيُعْبَقُونَ (٤) كَأَسِّ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصُّبُوحِ!». .

ويستفاد من العبارات إلى أن أصحاب الإمام المهدي عليه السلام هم من الرجال الشجعان والعلماء الذين أعدوا سلفاً وعملية بنائهم مستمره متواصله، وقلوبهم نابضه بآيات القرآن وتفسير كلمات اسبحانه، وهم دائموا التعلم صباح مساء ويزدادون إستعداداً وتأهباً، ولكن من هذا الذى أعدهم مسبقاً؟ هل حصل ذلك بأنفسهم أو لديهم بعض الأساتذه الذين أمروا باعدادهم؟ أم لإرتباطهم بإمامهم ومعلمهم الغائب؟ القضية ليست واضحه لدينا بالضبط، ولكن على كل حال أنهم أفراد أعدوا للمساعده فى هذه الثوره العظيمة حتى وصفهم ابن أبي الحديد بالعرفاء، فمن جمع فيهم الزهد والحكمه والشجاعه فهم أصحاب ولى الله الذى إصطفاه (٥).

ويفهم مما مرّ معنا فى هذا القسم من الخطبه أن الإمام عليه السلام قد بشر المسلمين بفجر مضيء بعد تلك الظلمات، وهو الفجر الذى يأتي به ولده اليمون المهدي (عج) وبشروق شمس جماله تنجاب الظلمات.

ص: ٤٦٥

١-١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٩/١٢٨. [١]

٢-٢) «لشحن» : من ماده «شحن» تعنى فى الأصل حدّ السكين، إلّا أنها وردت بمعنى حدّ الذكاء والاستعداد.

٣-٣) «القين» : بمعنى الحداد، ولهذه المفرده معنى مصدرى يعنى الحداده والإعداد.

٤-٤) «يعبقون» : من ماده غبوق بمعنى يسقو بالماء فى مقابل صبح بمعنى يشرب وقت الصباح ومصدرها غبق على وزن غبن.

٥-٥) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد ٩/١٢٩.

وردت في هذه الخطبه الشريفه في الفصل السابق - كسائر خطب نهج البلاغه - البشاره بظهور الإمام المهدي عليه السلام، البشاره التي وصلتنا من خلال الروايات المتواتره عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن هنا إتفق علماء الإسلام من الفريقين على هذا الأمر، ولم يشذ سوى النزر اليسير الذين يعانون من انحراف فكري، حتى سطر أبرز علماء العامه كتباً تحت عنوان تواتر روايات المهدي عليه السلام (١).

ويستفاد من هذه الخطبه كأغلب روايات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمه أهل البيت عليهم السلام أمران:

الأول: أنّ هذا الظهور المقدّس بهدف إزاله بساط الظلم ونشر التوحيد والعدل سيكون في زمان يعم فيه الفساد العالم، أي يملّ الناس الظلم والجور وتغلق طرق الصلاح وتثبت جميع المدارس والقوانين البشريه فشلها وهزيمتها، وهذا ما يضاعف من استقبال تلك الحكومه الإلهيه.

الثاني: أنّ أصحاب المهدي عليه السلام وبهدف إجراء هذا المشروع العالمي الإنساني العظيم هم من الأفراد الشجعان والعلماء والحلماء والرهن لامتثال الأوامر.

ونختتم هذا البحث بحديث عن الصحابي المعروف أبي سعيد الخدري في مسند أحمد بن حنبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تقوم الساعة حتى تَمَلَأَ الأَرْضُ ظُلماً وَعُدواناً، قال: ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمَلَأُهَا قِسْطاً وَعَدلاً كَمَا مَلَأْتُ ظُلماً وَعُدواناً» (٢).

كما ورد مثل هذا المعنى باختلاف طفيف في سنن أبي داود (٣).

ص: ٤٤٤

١ - ١) ومن ذلك كتاب للعالم المعروف الشوكاني تحت عنوان التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر (راجع كتاب نفحات

القرآن ١٠/٤٢٣). [١]

٢ - ٢) مسند أحمد ٣/٣٦. [٢]

٣ - ٣) سنن أبي داود ٤/١٥٢.

القسم الثاني: خصائص أنصار النبي صلى الله عليه وآله

منها: «وَطَالَ الْأَمْدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا الْخِزْيَ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغَيْرَ؛ حَتَّى إِذَا اخْلَوْلَقَ الْأَحْيَلُ، وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتْنِ، وَأَسْأَلُوا عَنْ لَفَاحِ حَزْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللَّهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَسْتَعْظُمُوا بِذَلِّ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مِدَّةِ الْبَلَاءِ، حَمَلُوا بِصَائِرِهِمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَعَظِيمٍ» .

الشرح والتفسير

اختلف شراح نهج البلاغه في هذا القسم من خطبه وذلك لأن الضمائر التي وردت في هذا القسم والأوصاف لا تبد منسجمه، ومن هنا قال بعض الشراح بوجود تقدير في العبارات، واعتقدوا بأن عدم الإنسجام هذا يرتبط بإختيار السيد الرضى رضى الله عنه، فلعل عدم الإنسجام هذا يزول لو نقل المرحوم جميع الخطبه، على كل حال ما يبدو مناسباً في تفسير هذا القسم هو أن الإمام عليه السلام نظر إلى ناس العصر الجاهلى ومن ثم عصر الظهور النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، فقسم أهل ذلك الزمان إلى ثلاث طوائف: الضالون، وضعاف الإيمان، والمؤمنون الشجعان الأشداء، فقال بشأن الطائفة الأولى: «وَطَالَ الْأَمْدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا الْخِزْيَ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغَيْرَ (١)» .

نعم، فأحياناً يترك الله الأفراد الذين يصرون على سلوك سبيل العصيان والطغيان ليلبغوا قمه الفضحيه فيستوجبوا العقاب الإلهى.

ص: ٤٤٧

١-١) «غير»: جمع «غيره» بكسر ففتح بمعنى حوادث الدهر والتغيرات التي توجب تغير النعم، وقال البعض غير مفرد ولا جمع.

وقد أشارت الآشارات القرآنيه إلى هذه الطائفه فى عدّه موارد واصطلحت على عقابهم بالاستدراج. ثم تحدّث عن الطائفه الثانيه والثالثه فقال: «حَتَّى إِذَا اٰخْلُوٰقَ (١) الْأَجْلِ، وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتْنِ، وَأَسْأَلُوا (٢) عَنْ لِقَاحِ (٣) حَرْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللَّهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَشِيْعُظْمُوا بِذَلِّ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَقِّ؛ حَتَّى إِذَا وَاٰقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلَاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَشْيَاءِ فِيهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ» .

وهكذا ميّز هذه الطوائف الثلاث التى لا يخلو مجتمع من نظائرها، وكل تسلك طريقها، وقد قسمهم جمع من شراح نهج البلاغه إلى قسمين، والعباره: «وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى الْفِتْنِ . . .»، اعتبروها إشارة إلى الصالحين الذين يتخذون جانب الصمت والتقيه تجاه بعض الفتن فى زمان معين حتى يحين موعد القيام، والعباره: «لَمْ يَمُنُّوا . . .» معطوفه عليها.

وكما أشرنا سابقاً فقد اختلف شراح نهج البلاغه بشأن هؤلاء القوم ومن هم أولئك الأفراد ومتى ينهضون ومن هو زعيمهم وفى أى وقت يظهر.

ذهب البعض إلى أنّ ذلك هو زمان بنى أميه الذين يتسلطون بادية الأمر على كافه البلاد الإسلاميه ويتردون الأخيار الصالحين من الساحة ويختفون أصوات المظلومين، ولكن لا- تمرّ مدّه حتى تقوم طائفه ضدهم وتطيح بسطانهم وتقذف بهم فى مزبله التاريخ.

ويرى البعض الآخر أنّهم أنصار الإمام المهدي عليه السلام الذين ينهضون بالأمر بعد كل ذلك الفساد والظلم والابتعاد عن الله سبحانه بأمر من إمامهم فيملأون الأرض قسطاً وعدلاً بعد أنّ تملأ ظلماً وجوراً، ولكن بالنظر إلى ما سيرد فى المقطع الآخر يبدو أنّها إشارة إلى ناس يعيشون فى الجاهليه وقد سلكوا سبيل الفساد، ثم نهض عليهم ثله من الصالحين التى تهب لنصره النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فتصحى بما لها ونفسها حتى ينتشر الإسلام فى كل مكان.

والعباره: «حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَشْيَاءِ فِيهِمْ . . .»، تعبير غايه فى الروعه تشير إلى أنّ الجهاد الإسلامى لابدّ أن يبتنى على العلم والجهاد الثقافى مقدم على الجهاد العسكرى.

ص: ٤٦٨

١-١) «اخْلُوٰقَ»: من ماده «خلق» أحد معانيها القدم، وتعنى هنا الانتهاء لأنّ لازمه القدم انتهاء العمر الشىء.

٢-٢) «أَسْأَلُوا»: من ماده «سأل» على وزن قول تعنى فى الأصل رفع الشىء كرفع الحيوان لذيله، وتعنى هنا الكف عن القتال.

٣-٣) «لِقَاحِ»: تعنى بدايه الحرب.

«حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمْ السُّبُلُ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَائِحِ، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رِصِّ أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرِهِ. قَدْ مَارُوا فِي الْحَيْرَةِ، وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ عَلَى سُنَنِهِ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُنْقَطِعِ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقِ لِلدُّنْيَا مُبَايِنٍ» .

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام بحثه السابق عن العصر الجاهلي ومن ثم زمان قيام رسول الله صلى الله عليه وآله وإنبثاق الدعوه الإسلاميه، ليتحدث هنا عن العصر الذي يعقب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث رسم صورته واضحه عنه وأزاح الستار ليكشف الحقائق فقال: «حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمْ (١) السُّبُلُ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَائِحِ (٢)، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ» .

المراد من العبارة: «رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ» ، العوده إلى الجاهليه وإحياء سنن ذلك الزمان والذي ظهر للأسف في المجتمع الإسلامى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد استحوذ الطالحون على

ص: ٤٦٩

١- ١) «غالتهم»: من ماده «غول» على وزن قول تعنى فى الأصل الفساد الذى ينفذ فى الشىء بصوره خفيه، ومن هنا يقال غيله للأغتيال والقتل السرى، ووردت هذه المفرده بمعنى الهلكه والتضاد بعوامل خفيه، ولما كانت الضلاله بمعنى الهلكه المعنويه فقد جاءت بهذا المعنى وهو المراد فى العبارة.

٢- ٢) «ولائج»: جمع «وليجه» بمعنى نظير ومثيل وشبه وخاصه الرجل من أهله.

مختلف المناصب وأقصى الصالحون وبرز حبّ الدنيا وأصبح بين المال العائد لجميع المسلمين تحت تصرف طبقه معينه.

والعبارة: «وَعَاثَتْهُمْ السُّبُلُ»، إشاره إلى اختلاف الآراء الذى ظهر بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وقد فسّر العديد من الأفراد محكمات الإسلام على ضوء ميولهم ومنافعهم الشخصية، وهذا ما أدى إلى ضلاله الكثير من الناس، وهى الضلاله التى عبّر عنها الإمام بالهلكه.

والمراد بالعبارة: «وَأَتَكَلَّمُوا عَلَى الْوَلَائِحِ» أنّ جماعه من المسلمين قد إختارت المنافقين بطانه لها.

والعبارة: «وَصَلُّوا غَيْرَ الرَّحِمِ»، إشاره إلى الآيه الشريفه: «قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...» (١).

والعبارة: «وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ»، تأكيد آخر على هذا المعنى فى أنّهم مأمورون بموده أهل البيت عليهم السلام واتباع منهجهم، وإلا أنّهم تركوهم واتبعوا غيرهم.

ثم خاض الإمام عليه السلام بصراحه أبعده بشأن الخلافه وتغيير أساسها فقال: «وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رِصِّ (٢) أَسْيَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ»، رغم أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عين خليفته مراراً صراحه وكنايه فقال، تمسكوا بالقرآن والعترة، لكنهم هدموا هذا البنيان ونقلوه إلى موضع هش آخر.

ثم تطرق الإمام عليه السلام فى ختام الخطبه إلى صفات العامل الأصلي وراء ذلك التغيير فقال: «مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرِهِ (٣). قَدْ مَارُوا (٤) فِي الْحَيْرَةِ، وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ عَلَى سَيْتِهِ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: مِنْ مُتَقَطِّعٍ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ».

فقد بين الإمام عليه السلام هذه الصفات الخمس لهم ليشير إلى انحراف أفكارهم وأعمالهم من

ص: ٤٧٠

١-١ (١) سورة الشورى / ٢٣. [١]

٢-٢ (٢) «رِصٌّ»: بمعنى الصاق شىء بآخر ويطلق المرصوص على كل بناء محكم، ورص العبارة المذكوره بمعنى مرصوص، وعبارة الإمام رص أساسه من قبيل إضافه الصفه على الموصوف يعنى الأساس المحكم للولاية.

٣-٣ (٣) «غمزته»: من ماده غمز على وزن أمر بمعنى إزاله آثار الشىء، ثم اطلق على الماء الوفير الذى يغطى شيئاً ويزيل آثاره، وفى الخطبه إشاره إلى الأفراد الذين غطوا فى الغفله والضلاله.

٤-٤ (٤) «ماروا»: من ماده «مور» على وزن فور بمعنى الحركة السريعه والاضطراب.

الجدور، فهم أفراد فاسدون ومفسدون ومغرورون وغافلون وغارقون في الدنيا ومجانبون لدين الحق، وقد شبَّههم الإمام عليه السلام بآل فرعون، وأحدى صفات آل فرعون أنهم قسموا المجتمع إلى قسمين: الأقباط والأسباط، أو بعبارة أخرى آل فرعون وبنى اسرائيل، وقد تمتع الفريق الأول بكافة الامتيازات في البلاد (مصر) ومرغوا أنوف الفريق الثاني بالتراب، فكانوا يقتلون رجالهم ويسبون نسائهم وملأوا الأرض فساداً: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُمِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (١).

فقد اعتمد خط النفاق الجاهلي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ذات السنه الفرعوني، فقد اقتصرت كافة امتيازات البلاد الإسلاميه على بنى أميه ولم يكن نصيب شيعه على عليه السلام سوى القتل «تحت كل حجر ومدبر» والتشريد والحبس والتعذيب، وقد ملأوا العالم الإسلامى بالفساد.

والعبارة: «مُنْقَطِعٌ إِلَى الدُّنْيَا. . .»؛ إشاره إلى أن طائفه منهم قد أقبلت علانيه على الدنيا، فقد طاولت قصورهم عنان السماء، كما ذكر ترفهم وبذخهم بحياه كسرى والقيصر، ويبدون أن من بين حاشيتهم ممن لا يبدى علاقه ظاهريه بالدنيا لكنه باع دينه بدنيا غيره ووضع له الأحاديث التي تصيرح بفضله ونسبها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ووجه أعماله القبيحه، ومصداق ذلك واضح للجميع.

تأمل: مصير جاحدوا الولاية

تعدّ هذه الخطبه من أقوى الخطب التي تدافع عن ولاية أهل البيت عليهم السلام، وإن مرّ عليها بعض شرّاح نهج البلاغه مرور الكرام، فقد أعلن الإمام عليه السلام صراحه وجود حركه رجعيه بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله، وأساسها إسقاط ولاية أهل البيت عليهم السلام وضرب الوصايا المؤكده للنبي

ص: ٤٧١

الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الخصوص، وأفضل محمل لها يتمثل ب «الاجتهاد مقابل النص» وعدم اعتبارهم وصايا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لمصلحه المسلمين، ولكن على كل حال فإنّ مؤججى نيران تلك المعركة هي العناصر المعروفة في الجاهليه وخصوم الدعوه كأبى سفيان وأعوانه الذين نفذوا تدريجياً إلى الخلافه الإسلاميه وتقدموا إلى الصفوف الأماميه بعد أن كانوا من المؤخرين، فسيطروا على كل شىء وإرتكبوا من المفضائع ما ليس له مثل في التاريخ أو قل مثيله، لكن الخطبه تشير بصوره دقيقه إلى نهجهم ومسارهم وبالتالي عاقبتهم.

والجدير بالذكر أنّ ابن أبى الحديد المعروف بتعصبه فى مسأله خلافه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والخلفاء الأوائل قد اعترض صراحه ليقول بأنّ الإمام عليه السلام قصد بهذه الخطبه مسأله الخلافه والإمامه غير أنّه سعى بتكلف ليراهم مختصه بزمان بنى أميه، ثم يفصل العبارة: «حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» عن «رَجِيعَ قَوْمٍ عَلَى الْأَعْقَابِ»، ويفسرها لما بعد أربعين سنه (1)، وهو الضعف الذى لا يخفى على أحد، وذلك لأنّ صريح كلام الإمام عليه السلام هو أنّ هذه الحركه على الأعقاب قد بدأت مباشره بعد رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، والتاريخ يشهد بأنّ الجنائيات بنى أميه جذور فى عصر الخلفاء والطريف فى الأمر أنّ هذه الإشاره وردت فى «صحيح البخارى» الذى يعتبر من المصادر الروائيه المعتمده لدى العامه فى أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أخبر عن الحوادث الأليمه من بعده، حيث قال: «يَرُدُّ عَلَيَّ الْحَوْضَ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِي فَيَحْلَلُوْا عَنْهُ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيَقُولُ، إِنَّكَ لَا عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ إِنَّهُمْ إِرْتَدُّوا عَلَيَّ أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى» (2). والعبارة إرتدوا جذيره بالتأمل.

والجدير بالذكر أنّه وردت عدّه روايات بهذا الخصوص وفى هذا الباب فى صحيح البخارى والتي تدلّ جميعاً على قلق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعد رحيله من أعمال طائفه من أصحابه، وهذا شاهد بين على ما ورد فى هذه الخطبه بشأن الأحداث الأليمه بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله، والواقع هو أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أراد بهذا البيان تحذير أصحابه فى أن يراقبوا أنفسهم وأنهم

ص: ٤٧٢

-
- ١-١) يمكن الوقوف على شرح كلام ابن أبى الحديد واعترافاته وتوجيهاته الضعيفه فى شرح نهج البلاغه ٩/١٣٤.
٢-٢) صحيح البخارى ٨/٢١٧ ح ١٦٥ (باب ما جاء فى حوض النبي).

مؤاخذون يوم القيامة على أى خلاف يصدر منهم فيسعدوا لأن لا يكونوا من تلك الطائفة.

حسن الختام

انتهى المجلد الخامس من هذا الكتاب بالخطبة المأه والخمسين وهى نهايه رائعه حيث تتحدث عن ولايه أهل البيت عليهم السلام فى أيام الولايه، الولايه بفضلها الصراط المستقيم وسبيل النجاه والمانعه من كل انحراف وزلل.

اللهم ثبتنا على ولايتهم، واحشرنا بولايتهم، واجعلنا من أتباع منهجهم، إنك حميد مجيد، وبالإجابه جدير وعلى كل شىء قدير.

نهايه المجلد الخامس

محرم الحرام ١٤٢٤

ص: ٤٧٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

